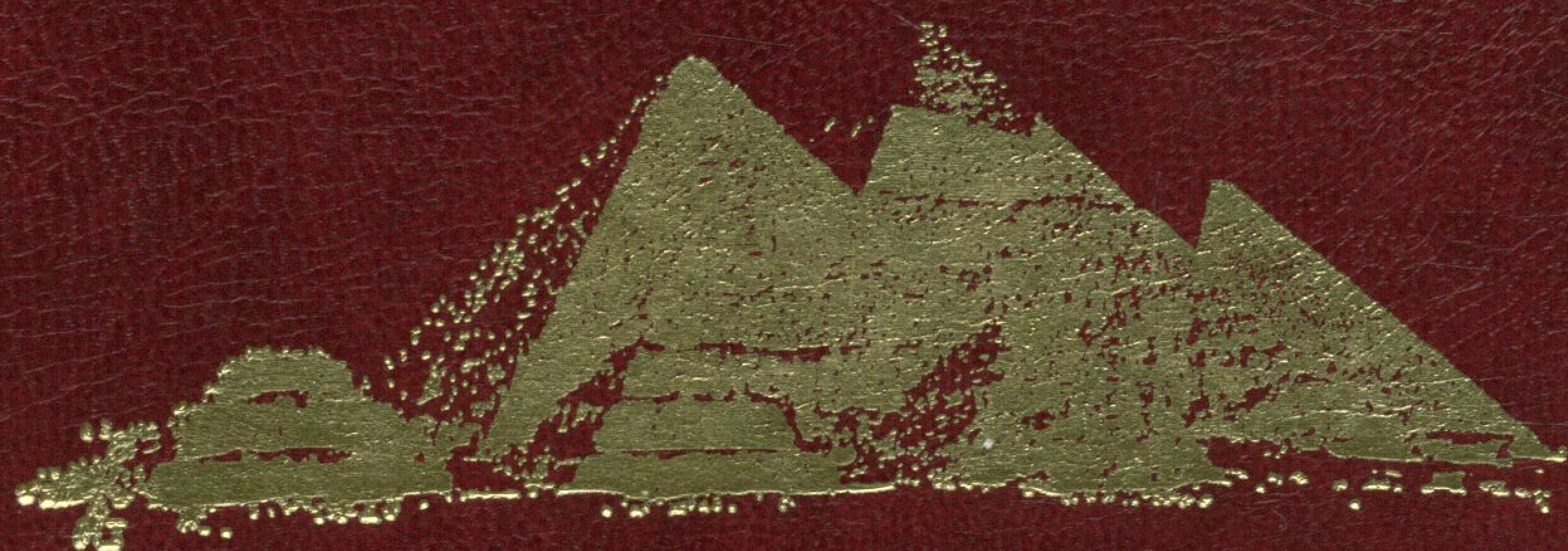
موسوعة

تاريخ مصر





موسوعة

التاريخ المصري

(١٦)

ميخائيل شاروبيم بك

موسوعة

التاريخ المصري

المجلّد السادس عشر

الكافـــــي

في تاريخ مصر القديم والحديث

الجزء الرابع - ٢ -

عن فترة من ١٨٠٠م إلى سنة ١٨٩٠ م

١٢٢٠ هـ إلى سنة ١٣٠٩ هـ

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	موسوعة التاريخ المصري
اسم الكتـــــاب:	الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث الجزء الرابع ـ ٢ ـ
اسم المؤلــف:	ميخائيل شاروبيم بك
قياس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحات:	٢٥٢
عدد صفحات الموسوعة:	٨٨٤٠
مكـان النشـر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبِليس
تلفاكس:	٩٦١ (١) ٥٨ ٣٤ ٧٥
هاتــف:	٩٦١ (١) ٥٨ ١١ ٢١ ـ ٩٦١ (٣) ٥٨ ١١ ٢١
صندوق بريـد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031339

ISBN 978-614-403-133-9

(مطلب)

حضور كيف رسولاً من قبل الإنجليز
للبحث والتنقيب عن الخزينة

واشتدت الأزمة وانقلب أصحاب صحف أخبار الإنجليز من التقريع والتنديد إلى تحريض صاحب سياستهم على التداخل فى الأمر والأخذ بناصر أصحاب الديون والبحث فى الأسباب المترتب عليها إمحال الخزينة ونضب الإيرادات وأطالوا الكلام فى ذلك وبالغوا فلم يمض إلا القليل حتى وردت الأخبار بقيام مبعوث من الإنجليز يريد القاهرة اسمه المستر (كيف) وهو مزوّد بشىء من الأسرار فاهتم الخديوى لحضوره وأمر فأعدّوا قصر النزهة من ضواحى القاهرة لنزوله ورتبوا له أصناف المأكول والمشروب وبعض الخدم والحشم فلما وصل إلى القاهرة لاقاه بعض رجال الديوان الخاص وأنزلوه بذلك القصر فاستراح قليلا ثم زار الخديوى بمقره بعابدين فأحسن الخديوى لقاءه وأولم له فى تلك الليلة ثم لم يلبث أياماً حتى شاع خبره وتناقله الناس وقالوا أن كيف هذا جاء ومعه أوامر بعضها سرية وبعضها علانية فالسرية منها كشف المخبا من أعمال الخديوى والحامل له على السرف وإنفاق الأموال الطائلة التى استدانها باسم الخزينة فى حين أن الخزينة لم تأخذ منها إلا القليل وأما العلانية فهى البحث فى حساب الخزينة وتحقيق جميع أبواب الإيراد والمصرف منذ تولى الولاية والأسباب الحاملة إلى كثرة الاستدانة وأوجه النفع المترتبة عليها إلى غير ذلك من أبواب البحث والتنقيب وقد كنت يومئذ رسول المشير إسمعيل صديق باشا إلى ذلك المبعوث فكنت أؤدى رسالة كل منهما إلى صاحبه وأحمل إلى (كيف) الصكوك والأوراق الديوانية التى كان يطلبها من الخزينة فكنت أرى منه رجلاً عاقلاً رزينا واسع المعرفة وكان إذا طلب شيئاً من الصكوك أو الأوراق نقبه تنقيبا فلا يتركه حتى يأتى على ما فيه من صدق أو كذب وأقام على هذه الحال أياما ثم رحل عن مصر إلى عاصمة الإنجليز فظن الناس أنه عاد صفر اليدين والأمر على غير ذلك فإنه لم ينكف عن البحث والاستقصاء والإتيان على جميع الأمور من أبوابها حتى عرف ما لم يعرفه أقرب الناس من مقام الخديوى وأعرفهم بأحوال البلاد وأهلها وقد سألنى المشير إسمعيل صديق باشا عما استطلعته من أعمال كيف ونواياه مدة مكثى معه فأعلمته بما عرفته وكاشفته بما استكشفته فظن أن فى الخبر إطراء ومبالغة وأن الرجل سارعنا وهو لا يعرف شيئاً من عوراتنا، وما جاء الخبر بوصوله إلى عاصمة بلاده

حتى أرسل كبير سياسة الإنجليز إلى الخديوى يستنهضه إلى استرضاء أصحاب الديون السائرة ويحذره من انقلاب الأحوال بسبب استنجاد أرباب تلك الديون بحكوماتهم فكبر هذا الكلام على الخديوى واشتد على المشير إسماعيل صديق باشا فاشتد الطلب على الفلاحين بقبض الثلث من الخراج معجلا ثم الربع ثم ما بقى من المغارم الأخرى فلم يأت هذا كله بالغرض المطلوب واشتدت الأزمة بأكثر مما كانت عليه وبقى الحال هكذا حينا وشاع الخبر بتكدر خاطر السلطان على الخديوى بسبب ما يلاقيه أهل البلاد من أصحاب الجباية وتكلم أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية فى ذلك وبالغوا وهوّلوا.

(مطلب)

حضور فرمان من السلطان باستحسان عمل الخديوي إسماعيل

فلما كان سابع عشرى ربيع الثانى سير السلطان سريًا وراءه إلى مصر ومعه خط شريف باستحسان مساعى الخديو لدى الذات الشاهانية ومحظوظيتها منها مع إحالة فرضة زيلع وملحقاتها على الخديوية المصرية مقابلة خمسة عشر ألف جنيه عثمانى تضاف إلى الخراج الذى يحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل سنة فبالغ الخديوى فى الاحتفال بقراءة هذا الخط وطير الخبر به إلى الآفاق فاستعظم الإنجليز هذا الأمر وكبر عليهم جداً وتجرد كبارهم إلى المقاومة وخابروا كبار ساسة الفرنسيس فى ذلك وزينوا لهم الاتحاد على ما فيه المصلحة لأصحاب الديون وكان أصحاب السياسة من الفرنسيس ميالين إلى الانتقام فأجابوا كبار سياسة الإنجليز إلى ما طلبوا وكتبوا إلى الخديوى يسألونه التعجيل فى فض هذه الأزمة بالتى هى أحسن ويحذرونه شر العاقبة فمناهم وبقى الحال هكذا أياما كثيرة.

(مطلب)

حضور جوشن الإنجليز وجوبير الفرنسيس لتحقيق ديون البلاد

وعاد أصحاب الديون إلى الوقوف على باب المشير إسماعيل صديق باشا يطالبون بما لهم أو ببعض الشيء منه فلم يفلحوا فعمدوا إلى الاستغاثة بقناصلهم وهؤلاء رفعوا الأمر إلى دولهم فظهرت لوائح الشدة وبانت دلائل الوحشة وجاء

الخبر إلى القاهرة بعزم دولتى الفرنسيس والإنجليز على تسيير رسولين إلى مصر باسم وكيلى الدائنين من رعايا الفرنسيس والإنجليز وتحدث الناس فى هذا الأمر فلما كانت أخريات سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية وصل المبعوثان المذكوران إلى القاهرة ونزلا بالنزل المعروف بنزل شبرد ببركة الأزبكية واعتزلا الناس كافة ولم يقابلا الخديوى إلا فى اليوم الثالث من وصولهما وكلماه فى سبب حضورهما وسألاه أن لا يكون بينهما وبينه وساطة ولا متكلم وأن جميع طلباتهما المتعلقة بمأموريتهما إنما يطلبانها من شخص الخديوى دون غيره وهو يكلم بها من شاء من رجال دولته فشق هذا الأمر على الخديوى وأكبره وتحقق أن فى الجراب ما فيه وكان الإنجليزى منهما اسمه جوشن والفرنسوى اسمه چوبير.

وبالغ جوشن ورفيقه فى البحث والاستقصاء عن موارد الإيراد وأوجه الصرف وأسباب الاستدانة وما أنفق وما لم ينفق حتى حصحص الحق وبان ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى رفعا إلى الخديوى محضرا بما رأياه من أوجه الإصلاح وهى، إقامة اثنين باسم مفتشين أحدهما فرنسوى والآخر إنجليزى وتقسيم أعمال الخزينة إلى قسمين قسم للإيراد ويرأسه الإنجليزى وقسم للمصرف ويرأسه الفرنسوى وسألاه التصديق على ذلك فلم يسعه إلا الإذعان ورسم به فلم يكن بأسرع من أن حضر إلى القاهرة ذلك الذى تولى على الإيراد واسمه المستر رومين وحضر أيضاً الذى تولى على المصرف واسمه البارون دى ملاريه وقبضا على زمام أعمال الخزينة وأمرا ونهيا وتصرفا واشتدا على أصحاب الجباية والمديرين وأخذا ما فى يد المشير إسمعيل صديق باشا من الوظائف فلم يبق له من الرياسة إلا الاسم فقط ثم رفعا إلى الخديوى محضرا آخر بتسليم زمام الجمارك إلى رجل من الإنجليز يديرها على ما فيه المصلحة وبتشكيل هيئة من ثلاثة مأمورين أحدهم فرنسوى وثانيهم إنجليزى وثالثهم مصرى يختصون بإشغال السكك الحديدية غير تابعين إلا إلى جهة واحدة هى نظارة الأشغال العمومية فرأى الخديوى أن مستعظم النار من مستصغر الشرر وأنه إن تساهل مع جوشن ورفيقه اختبط عليه الأمر واختلط الحابل بالنابل وخرجت موارد الإيراد من قبضته فلا يعود فى إمكانه الحصول على شىء مما كان فعمد إلى المراوغة والتطويل وسير إلى جوشن ورفيقه يعلمهما بأن مصلحة البلاد وعادات أهلها لا تجيز تسليم الأمور ليد أجنبية وأنهما يتفاوضان مع المشير إسمعيل صديق باشا فى ذلك فأبيا مكالمته وألح جوشن فى الطلب وطال الأخذ والرد أياما فلما رأى جوشن عناد

الخديوى وإصراره على الإباءة تجرد للعداوة وأظهر ما كان يخفيه من الحقد فكان يدخل على الخديوى بمقره بلا تأدب ولا احتفال ويخاطبه بفحش القول ويتهدده بإفشاء ما علمه من خفى سره، قال بعض الكتاب: وأرسل إليه يوما رقعة يقول فيها: لقد كنت أتمنى أن لا تحدو بى مأموريتى إلى حد توجيه السؤال إلى شخصك الكريم عن أمر يهم دولة الإنجليز معرفته ولكنى أرى نفسى مع زميلى مضطرين إلى سؤالك أين صرفت الأربعة عشر مليون جنيه الباقية من قرض الخزينة والإيراد السنوى من عهد المرحوم محمد سعيد باشا إلى هذا الحين، قال فلما اطلع الخديوى على هذا السؤال اضطرب وكبر عليه الأمر فجعل يرعد ويزيد ويتكلم كمن أصابه هذيان ثم جمع إليه رجال الدولة وأصحاب الحل والعقد من العاملين والمتقاعدين وبينهم ولده الأمير حسين وهو يومئذ فى منصب تفتيش الأقاليم وشاورهم فى الأمر فتكلموا فيه كثيراً ثم استقر رأيهم على تكليف المشير إسمعيل صديق باشا بالجواب على ذلك السؤال ولم يكن المشير بينهم فى تلك الليلة فكتب الخديوى إلى جوشن بذلك واستدعى إليه المشير إسمعيل صديق باشا ورسم له بالجواب على سؤال جوشن فامتنع وقال لا جواب عندى البتة فشدد عليه وقال لابد من الجواب فقال إن كان ولابد فلا جواب عندى سوى قول الحق والتزام جانب الصدق وهذه كتبك ومراسيمك تنبئك بما فعلته بتلك الأموال وما بددته فى الحل والترحال قال فاستعظم الخديوى هذا الكلام واضطرب منه أىّ اضطراب وراجع المشير فقال لا سبيل إلى غير ذلك، وعاد رسول الخديوى ومعه جواب من جوشن يقول لا حاجة لنا البتة إلى السؤال من إسمعيل صديق باشا خلافا لما بيننا من العهد ولا نطلب الجواب إلا من شخصك فجمع الخديوى إليه محمد شريف باشا وولده الأمير حسين وبعض حاشيته ورجال ديوانه الخاص ولم يحضر معهم فى ذلك اليوم أيضاً المشير إسمعيل صديق باشا وتناجوا فى الأمر طويلا ثم انفض اجتماعهم على ما لم تصل إلينا معرفته، فلما كانت الساعة الثالثة من ليلة الخميس حادى عشرى شوال من السنة أى سنة ثلاث وتسعين حضر إلى مقر الخديوى بعابدين أحد أتباع المشير إسمعيل صديق باشا ومعه مكاتبة برسم خيرى باشا المهر دار وسلمه إياها ففضها وإذا هى خطاب إلى شخص الخديوى غاية فى الشدة وفى بيان ما أصاب خزينة البلاد من الإمحال وما حل بالرعية من الضنك وسوء الحال بأسباب أفاعيل الخديوى وأنه هو برىء من كل تبعة مترتبة على كثرة الاستدانة والنفقة بغير حساب وأنه قد خلع نفسه من منصب النظر على الخزينة واعتزل من ذلك اليوم الوظيفة وترك الأمر لمن بيده سبحانه وتعالى

تدبير سائر الأمور فدخل خيـرى باشا على الخديوى وناوله الخطاب فهاج عند رؤيته وماج وصاح عليّ به الساعة فسار إليه خيرى باشـا يستدعيه فامتنع ولم يحضر فجاء إليه طونينو بيك أحـد رجال التشريفات فـامتنع أيضا فأرسل إليه أحـمد نشأت بيك فامتنع وبات ليلته تلك وأصبح يوم الخميس فجاء إليه خيرى باشا واجتمع به وجلس يكلمه ساعة ثم قـاما معا وسارا إلى مقر الخديوى بـعابدين فلما دخل على الخديوى أحسن لقاءه وبش فـى وجهه وعاتبه وتلطف فى عـتابه ثم مازحه وقـضى معه ذلك اليوم ثم انصرف المشـير إسمعيل صـديق باشا من عنده فى نحو الساعة الثـالثة ليلاً وفى ثانى يوم الجمـعة صباحـاً جاءه رسول الخديوى يدعـوه كالعادة فسار مـعه إلى عابدين وصعد إلى مقر الخديوى فلم يلـبث إلا قليلاً حتى جاءت عربة الخديوى أمام سلم الديوان وحولهـا طوائف الحرس على عادتهم ثم انحـدر الخديوى ومعه المشـير إسمـعيل صديق باشا وركـبا معا فـسارت العربة بهـما فى الساعة الرابعـة نهارا من الطريق الموصل إلى قصر النيل فكانت هذه الساعة آخر العهد به رحمه الله تعالى.

وعقـد الخديوى فى تلك الليلة مجلسـا بمقره بعابدين اجتـمع فيه جمـيع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العـالية والعلماء والمشايخ ومفـتى الديار المصرية وتكلموا فى أمر المشير إسمعيل صديق باشا وأسندوا إليه فعل ما لا يحل من العصيان والكيد على الخـديوى وحرروا محـضرا بذلك وحـكموا بتـبعيـده إلى دنقلة إحـدى مدائن السودان ووقعوا جميعاً على ذلك المحضر فلم يعلم الناس إلى هذا اليوم شيئاً مما جاء فيه غيـر ما قلناه وقد قفلت دونه من تلك الساعة أبواب الـوصول، حدثنى صاحب لى، قال: أو ظننت صدق الخبر القائل بتسييـر المشير إسمعيل صديق باشا إلى دنقلة وموته بها مـبطونا، قلت نعم هو الصدق الذى لا مراء فيـه فقال: اعلم أنه لما ركب الخديوى مع المشـير العربة من رحبـة عابدين سارت بهـما والجند تخفرها إلى قـصر النيل وكانَ به الأمـير حسن ونسـاؤه يومئذ فلما وقـفت بهما عند الـسلاملك التفت الخديو إلى المشـير وقـال تبقى هنا قليـلاً حتى أزور ولدى وأرجع إليك فنزل المشـير وجلس برهة لطيفة وإذا بالأمير حسن قد أقبل وهو يتلكأ فى مشيته وسلم فقام المشير إجلالاً له وحيـاه فنظر الأمير إليه وقـال قد رسم الخديو الساعة بالتـرسيم عليك هنا تحت حراسة هؤلاء الجند حتى تأتى الباخرة التى ستـقلك إلى دنقلة مبعدا فقال: وما سبب ذلك يامـولاى وأى ذنب جنيته وأنا أصـدق الناس فى خدمة أبيك وأشفـقهم عليه وأطوعـهم لإشارته فقـال: لست أدرى ويعلم الله هل لك من حاجة تسـألينها

ففاضت عينا المشير بالدمع وقال: لاشئ اسألك، وإنما أسأل الله الرحمة بى ثم نادى بأعلى صوته، ياغياث أغث عبدك وسكت وكانوا قد دبروا أمر تبعيده وأعدوا لذلك باخرة من بواخر النيل وأرسوها تحت القصر وحولها الجند تحرسها وقد أنزلوا إليها بعض المأكول والمشروب والمفروش وجماعة من الخدم والاتباع وطائفة من الجند ومقدمهم إسحق بيك أحد الضباط الشراكسة ثم عاد الأمير حسن وخلفه الأمير حسين ودخلا على المشير فوجداه هادىء اللب ساكن القلب فقال له الأمير حسن: قم فقد تم كل شىء فهم يريد القيام فلم يقدر فأمسك الأمير حسن بيده وخرج به من المكان وسلمه إلى إسحق بيك مقدم العسكر المكلفين بحراسة الباخرة ومصطفى فهمى باشا محافظ المدينة يومئذ.

قال الراوى: لهذه العبارة وسمعت ممن يدعى أنه رأى المشير وهو خارج من المكان بين الأميرين حسن وحسين أن الأمير حسين لما رأى جبنه وخور عزيمته لطمه على وجهه وقال له: لقد خانتك الأيام يالئيم فأذهب، قال: وعندى أنه لم يحصل شىء من ذلك فقد كان لوقوع هذا الأمر الغريب فى ذلك الحين دهشة عند القريب والبعيد ولما أنزلوه إلى الباخرة أحاط بها الجند من كل جانب وأوصدوا جميع ما بها من الشبابيك وأرسوها فى وسط النيل فكان المشير يصيح وينادى كل قليل كأنه فى غرفة نومه ثم كثر هذيانه واشتدت جلبته ومازالت الباخرة فى مرساها والناس يسمعون صياحه حتى غربت الشمس فأقلعت وسارت ببطء قاصدة الإقليم القبلى ولم تسر قيد ربع فرسخ من قصر النيل حتى خفى صوت المشير ولم يعلم ماذا جرى عليه بعد ذلك ثم سارت الباخرة عند شروق الشمس مترفعة إلى الصعيد وقد طيروا الخبر إلى الآفاق بعدم دنو أحد منها ولا خروج أحد منها إلى البر فسارت فى عرض النيل سيرا حثيثا وما زالت والناس فى ريب من صحة الخبر حتى وصلت إلى أسوان فنزل من الباخرة رجل على رأسه شملة من صوف وركب على جمل وساروا به على هذه الحال إلى دنقلة ونزلوا بها أياما قلائل ثم أذاعوا خبر موت المشير مبطونا وعملوا محضرا بذلك بشهادة قاضى دنقلة ومديرها وبعض مأمورى الحكومة فيها وعادوا إلى القاهرة وقد شوهد فى سبابة إسحق بيك اليمنى جراحة عظيمة فشاع خبر تلك الجراحة وتحدث الناس فى أمرها وقالوا بأنها دليل على مقتل ذلك الشهيد رحمه الله تعالى رحمة واسعة، قال: وأصبحوا ليلة القبض عليه وقد وصل خبر ما حل به إلى نسائه فقام الصياح واشتد العويل والبكاء وهرعت جميع النساء العائشات فى نعمته إلى دوره وأقمن الصياح والندب فاشتدت الجلبة وعلت الأصوات فكانت

ساعة تنفطر من هولها الأكباد وجاء رجال ديوان الخديوى الخاص ونفر من قومه الذين اصطفاهم لنفسه ودخلوا على نساء وجوارى المشير وأخذوا جميع ما فى الدور من تحف وأعلاق وأموال وأوراق الديون المعروفة باسم (بونات الخزينة) وكانت كثيرة ونقلوا جميع ما وجدوه من الأمتعة الغالية وأدوات الزينة الفاخرة وأخرجوا جواريه وسراريه وفرقوهن على بعض عامة الناس ومشايخ القرى ونقلوا جميع نسائه وذراريه إلى دار فى خطة التبانة تحت قلعة الجبل وشردّوا مماليكه وغلمانه وخصيانه وأقصوا بعضهم إلى أقاصى السنار والدارفور وضيقوا على خزندارته واثنتين معها ليدللن على خبايا المشير وأمواله ونقلوهن إلى سراى الزعفران بالعباسية فلم يعترفن بشىء وقلن أن جميع ما كان له قد نقله أعوان الخديوى وأتباعه، وجاء أصحاب بيت المال فأحصوا ما بقى من فرش وبسط وغير ذلك وضبطوه وبالغوا فى الضبط والتحرير فقام كل من كان له دين على المشير يطالب بما له وقد استبدل درهمه بدينار واشتد الطلب من كل صوب وحدب فعينوا لعمل حساب تركته عمدة من أصحاب الوظائف فأحصوا ما لأصحاب تلك الديون وسجلوه وادعى الأمير حسين ثانى أولاد الخديوى بأن للخزينة على المشير قدرا من المال له صورة وكان قد تولى نظارة الخزينة بعد خلع المشير فأجابته العمدة إلى ما طلب وجعلوا يبيعون ما أحصوه من فرش وبسط وطنافس وأسرة ومقاعد وكراسى وأوانى فاخرة وغير ذلك فاشتراها بعض صغار الناس وبعض السوقة بأبخس الأثمان وظلوا على هذه الحال أياماً ربح فيها من ربح وخسر من خسر وقليلون ويعلم الله هم الخاسرون وانقضى الأمر وقد جمع ما ترك من متاع وزروع ودور وهى من أحسن الدور وأفخرها وأوسعها وأجملها زينة فأعطى الخديو واحدة منها إلى المشير محمد شريف باشا فانتقل إليها بعياله ورسم بجعل الاثنتين الأخريين مقرا لبعض دواوين الحكومة فأنزلوا فيهما الخارجية والحقانية والخزينة والداخلية وهى باقية فيها إلى يومنا الذى نحن فيه فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

قلت: وقد كان بين المشير إسمعيل صديق باشا وبين أحد رجال دار الندوة الإنجليزية مودة وصحبة كبيرة فكان إذا أتى الرجل إلى القاهرة أيام الشتاء تبديلا للهواء على عادة كبار الإنجليز لازم المشير وبالغ فى التقرب منه فاتفق أنه حضر إلى القاهرة فى غضون الأزمة القائمة بسبب فعال جوشن وجوبير فاجتمع بالمشير إسمعيل صديق باشا وكلمه فى أمر بعثة جوشن ورفيقه وقد كنت يومئذ ترجمانهما وكاشفه

على كثير من المسائل المهمة التى لا محل لها هنا ونصح له أن يلتزم جانب الحزم عند الحاجة وأن يدفع عن نفسه بالتى هى فقال له المشير: إنى عزمت على خلع نفسى وترك منصبى فيوليه الخديو من يشاء من أولاده فإن منهم من يزاحمنى عليه أشد المزاحمة. قال: ومن هو قال: هو الأمير حسين فإذا تخليت عن المنصب واعتزلته وجاءنى الطلب من جوشنكم، يريد جوشن الإنجليز، وسألنى عما أعلمه من أمر المصرف والإيراد وكيفية الاستدانة ولا أظنه إلا فاعل ذلك أطلعته على ما ظهر من الأمر وما خفى وأعلمته بكل ما علمته من أفاعيل الخديوى مذ تولى إلى هذا الحين فيخف عنى ما ألاقيه من اضطراب الحال وبلبلة البال وأكون قد وفيت الذمة حقها والله يتولانى برحمة منه، فقال له: أو تأمن شر الخديوى والله لئن فعلت ذلك ليقتلنك شر قتلة وإنى أراه داهية غادرا خداعا يظهر غير ما يبطن فقال لم يبق فى قدرته فعل شىء من ذلك بعد أن نلت رتبة المشيرية فأنا اليوم رجل السلطان لى ما للخديوى نفسه وعلىّ ما عليه، فقال الرجل: لا يغرنك هذا الأمر فسلطانك فى شاغل عنك بما لديه من المشاغل المهمة والخطوب المدلهمة فلا تعجل فى الأمر واحذر التقرب من جوشن حتى يظهر الحق ويزهق الباطل ثم افترقا على ذلك فلما رفع المشير قصته إلى الخديوى وقد تهدده فيها بتبليغ جوشن جميع ما يعلمه من أمره كما تقدم الكلام سير إلى صاحبه المشار إليه فجاء فقال لى: قل له إنى خلعت نفسى واعتزلت المناصب وأوعدت الخديوى شرا فقد عيل منى الصبر واشتد بى الأمر ولم أر لى خلاصا إلا فيما فعلت فماذا تقول، فبهت الرجل وظهرت عليه علامات الدهشة وسكت برهة ثم قال: قد قضى الأمر وغدر بك صاحبك فقال لى: قل له لا تخش من ذلك فالله غالب على أمره ثم افترقا على ذلك فلما شاع الخبر بتبعيد المشير إلى دنقلة ذهب الرجل فى صباح الليلة التى أنزلوا فيها المشير إلى الباخرة ودخل على الخديوى وتقدم إليه فى أن لايصيب المشير أدنى ضرر فقال له الخديوى أخشى أنه يقتل نفسه بنفسه فإنه ما برح مذ أنزلوه إلى الباخرة وهو يشرب الخمر بالطاس ولا ينكف عنها فربما عجلت بموته فخرج من عنده حزينا، واتفق أنى قابلته فى ثانى يوم فسلمت عليه فوجدته مقطب الوجه كاسف البال فرد علىّ السلام وقال قتل صاحبى ويعلم الله قلت ومن أين أتاك علم ذلك قال: كنت البارحة عند الخديوى أرجوه أن لا يصيب المشير ضرر فقال لى كيت وكيت فتحققت أنه مات لا محالة.

وتقدم الأمير حسين إلى الخديوى فى طلب منصب النظر على الخزينة بدلا من المشير إسمعيل صديق باشا فولاه إياه فلم يستقر به حتى جعل يعزل ويولى ويتصرف فى صغير الأمور وكبيرها ولم يقدر على إرجاع جوشن ورفيقه عن عزمهما من إقامة موظفى الجمارك والسكك الحديدية كما شاآ وقد عاودا الطلب والتزما جانب الشدة فلم ير الخديو بدا من الإذعان ورسم بذلك فى أخريات شوال سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ومع هذا فلم يقف بهما الطلب عند هذا الحد بل طلبا أيضاً إقامة مراقبين من جانب الدولتين الإنجليزية والفرنسوية على جميع أعمال الحكومة فلا يبرم أمرا إلا بمشورتهما ولايعمل عملا إلا برأيهما بحيث يبقى منصبهما دائمالا يتزعزع وإقامة عمدة من جميع الدول يكون من اختصاصها إجراء جميع الأعمال المتعلقة بديون الخزينة ومراقبة تحصيل الأموال الأميرية وصرفها إلى أصحاب الديون فى آجال ضربت لذلك فرسم الخديو بتنفيذ جميع ذلك صاغرا وحضرت العمدة إلى القاهرة فأنشأوا لها مكانا مخصوصا سموه، صندوق الدين، وتسموا هم كذلك باسم أعضاء صندوق الدين وجعلوا يتصرفون فى الأمور فجمعوا إليهم جميع إيراد المديريات والمصالح الضامنة لدين الخزينة وتسيطروا على جميع الأعمال الخاصة بأصول وفروع الديون فلما تم لجوشن ورفيقه ما أراد عادا إلى بلادهما يظنان الخلاص مما مضى والغلبة فيما هو آت وقام أصحاب صحف الأخبار من الإنجليز والفرنسيس يثنون عليهما بكل لسان ويقولون أنهما إنما أقاما بحكمة منهما دون تطاول يد الخديوى إلى أموال الخزينة سدا قوى البنيان فلم يكن فى الأمر شىء من ذلك البتة إذ عاد الخديو إلى العبث بموارد الإيراد وأهمل كل عهد وميثاق وجعل يحمل منها ما شاء من الأموال إلى خزائن زروعاته وبعضها إلى خزينته الخاصة وأعضاء صندوق الدين ثملون بخمرة وظائفهم هذه العالية ومرتباتهم الفادحة التى لم تكن تخطر لأحدهم على خاطر ولم يمض على ذلك الترتيب والنظام الجوشنى الجوبيرى سوى بضعة أشهر حتى ظهر العجز فى الإيراد زهاء ثمانمائة ألف وعشرين ألفا ذهاب وتعذر القيام بمطالب أصحاب الديون السائرة فى آجالها وعادت الأزمة بأشد مما كانت عليه فتزاحم أصحاب تلك الديون على أبواب الخزينة وأكثروا الإلحاح واللجاج وصاح بعضهم فى وجه الأمير حسين وخاطبه ببذئ الكلام وفحش القول وأقاموا الدعاوى على الخزينة أمام المحاكم المختلطة فحكمت وشددت فى التنفيذ وحجرت على الكثير من موارد الحكومة وأملاكها فاشتد الضيق بالخزينة واستحكمت حلقاته وزادت

الأمور خبالا وأشكالاً وأنفـذت دولة الإنجليز إلى المستر فيفيـان قنصلها الجنرال بمصر أن يكلم الخـديوى فى الأمر ويسألـه سرعة القـيام بمطالب أرباب تلك الـديون قبل استفحال الخطب وتفاقم الضـرر فلم يلتفت الخديو إلى ذلك ولم تقصر يده عن أخذ كل ما وصلت إليـه من أموال الخزينة وبقى الحـال هكذا أياماً قد وقف فيـها دولاب التجارة وضاقت على أهل البلاد مسالك الرزق.

(مطلب)

المؤامرة على قتل السلطان عبد العزيز

وبينما كانت الأزمة فى مصر تشتد والحال فى ارتباك وخبال كانت الفتنة فى دار السلطنة قائمة على قدم وساق ورجال الدولة وأصـحاب الحل والعقد فيما وراء باب السلطان يعملون على خلعـه ويحزبون الأحزاب ويهيـئون العصب ويفتحـون للفتنة أوسع الأبواب، قـال بعض الكتـاب: وتحـرير الخـبر، أنه لما أحس الـسلطان بمكايد الإنجليز واتخاذهم رجال الدولة وكبار السلطنة آلة صماء فى أيديهم يهددون بها دولة الروس كلما رأوا منها تدخلاً نحو أملاكهم الهندية أو تعطيلا لرواج تجارتهم الآسيوية فتخسر السلطنة العثمانية بأسباب ذلك من الرجال والأموال والبلدان ما لا يمكن معه بقـاء عين أو أثر لمملكة آل عـثمـان ففطن إلى الأمـر وهمّ بمداركة الخطر ومـال عن معاضـدة الإنجليز وأبغض سياستـهم بغضا شديدا وتقرّب من قـيصر الروس على يد سفيره الأمير أغناتيف ففرح الـقيصر بذلك وتحبب إلى السلطان وترددت بينهما رسل المودّة والتسليم وتكاثرت رسـائل المحبة وتناسيـا ما بين الأمتين من العـداوة القديمة وتعاهدا عـلى كبح جمـاح الإنجليز وإبعـادهم عن أن ينالوا من السلطنة العـثمـانية بسياستهم ما كانوا ينالونه من قبل ودبرا لذلك تدبيرا حسنا للغاية فعلمت عيون سفير الإنجليز بالخبر وأعلمـته به فخافه جدا وسيـر به إلى كبير سياستـهم فجاءته الرسائل بالتيقظ ودقة الالتفات فبث العيون والأرصاد حول الأمير أغناتيف وتجرد إلى المقاومة وجعل يستميل كبار الدولة ويشتريهم بالذهب الرنان ثم كلمهم فى التدبير على خلع السلطان والتخلص منه فـمالوا إليه وباعـوا آخرتهم بأبخس الأثمان وكان ممن وافـقه على ذلك نورى باشا ومحمـد جلال الدين باشا صهرا السلطان عبـد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشـدى باشا الصدر الأعظم وعونى باشا وقيصـرلى أحمد باشا وخيـر الله أفندى شيخ الإسلام ومـدحت باشا رئيس شورى الـدولة وبقى هذا السر

مكتوما بينهم حينا كانوا يحزبون فيه الأحزاب ويهيئون لإيقاد نار هذه الفتنة أعظم الأسباب حتى تم لهم ما أرادوا ثم سلموا الأمر بعد ذلك إلى محمد رشدى باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام وانضم إلى عصابتهم أيضاً السلطانة والدة مراد أفندى بكر أولاد السلطان عبد المجيد وجماعة من المابين وبعض كبار جند الحرس وهم نجيب بيك وعلى بيك وفخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك وغيرهم وجعلوا يتحينون الفرص ويتبينون انتفاعها وسفير الإنجليز يمهد لهم العقبات فلما أحكموا التدبير عمد الصدر الأعظم إلى الادعاء على السلطان بالدعاوى العريضة واتهمه بمحالفة العدوّ والتفريط فى أعظم حقوق الأمة والوطن وتعريض حقوق الخلافة الإسلامية إلى الضياع والتعاقد مع قيصر الروس على إدخال جيش من الروس فى قلب دار السلطنة للفتك بكبار الدولة وأركان الملة وأنه خالف عوائد أسلافه السلاطين وحاكى جماعة الفرنجة فى عاداتهم ومجتمعاتهم وغير ذلك ورفع إلى شيخ الإسلام هذا السؤال وهو: إذا كان زيد الذى هو أمير المؤمنين قد اختل شعوره فصار لا قدرة له على سياسة الأمة وهو مع ذلك ينفق أموال الخزينة فى ملاذه الذاتية ومنافعه الخصوصية إلى حد لا تطيق الأمة الصبر عليه وقد زاغ عن الحقائق الدينية وأخل بالأمور الدنيوية وكاد يقلب هيئة الملك ويهدم أركان السلطنة وكان بقاؤه ضررا فهلا يصح خلع بيعته؟

(الجواب) يصح كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه.

فلما كان يوم الاثنين سادس جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى خامس عشرى مايو سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية هموا بخلع السلطان وأناطوا حسين عونى باشا بتدبير أمر ذلك وكلفوا شيخ الإسلام مع بقية رجال الدولة وزعماء العصابة بمبايعة السلطان مراد بن السلطان عبد المجيد خان فأنفذ الصدر الأعظم إلى أمير سفن الحرب السلطانية بالتأهب والاستعداد فجعل يرتب سفنه على هيئة حصار لمقر السلطان وشاهد السلطان ذلك من بعض نوافذ مقره فاستغربه وسير إلى أمير السفن يستعلم عن سبب تلك الحركة الفجائية فأجاب بأنه ليس فى الأمر ما يستوجب الخوف وإنما هى مناورات لابد منها وعلم الصدر الأعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان عن حركة السفن أمام مقره فخشيا أن يفتضح أمرهم ويتضح ما خفى من سرهم فلما كانت الساعة الثانية من غروب ذلك اليوم اجتمع زعماء العصابة فى باب السر عسكرية وخرج رديف باشا فى ألفين وخمسمائة من

الجند وأحاطوا بسراى السلطان إحاطة السوار بالمعصم وتسلم سليمان باشا حراسة أبوابها بمائة من تلامذة المدرسة الحربية وهم على ظهور الخيل ثم خرج حسين عونى باشا فى عربة وسار إلى مقر السلطان مراد وأنزله وأركبه فى العربة وهو لا يدرى ما الخبر فانزعج واشتد به الخوف حتى كاد يغمى عليه فلما وصلا إلى باب السر العسكرية لاقاهما شيخ الإسلام والشريف عبد المطلب وأخذا بيد السلطان مراد وهو يضطرب وكان رجال الدولة وكبار السلطنة وجميع أصحاب الحل والعقد وكبار الجند وقوفا على الأقدام فاجلسوا السلطان مراد على كرسى وحوله زعماء العصابة وتولى جماعة من العسكر حراسة الأبواب كى لا يخرج ممن حضر أحد وقام شيخ الإسلام فبايع السلطان وبايعه جميع الأمراء والكبراء ورجال السلطنة وكبار الجند وهو مع ذلك لا يتمالك نفسه مما لحقه من الخوف والفزع ووصل الخبر إلى رديف باشا بتمام البيعة إلى السلطان مراد فلم يشعر السلطان عبد العزيز إلا وقد دخل عليه رديف ونفر من كبار ضباط الجند فاضطرب واستكبر الأمر جدا وقال كيف تأتون إلىّ فى هذه الساعة بغير إذن فقال رديف باشا أتينا لنخبرك بأن الأمة خلعت بيعتك فقال كيف يكون ذلك وصاح فى وجوهم فقال له: رديف باشا انظر من الطاق فنظر وإذا بالجند قد أحاطت بمقره ومدافع مراكب البحر موجهة نحوه قيل فبكى وقال: أو أنتم فاعلون بى شيئاً الساعة فقالوا: لا وإنما سنقوم بحراسة أبوابك حتى ينقل بك إلى سراى طوب قبو وفى نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً اطلقت المدافع من البر والبحر ونادى المنادون فى الشوارع والطرقات بخلع السلطان عبد العزيز وولاية السلطان مراد ابن أخيه فهرع الناس من كل صوب وحدب إلى باب السر عسكرية وأصبحوا وقد نقلوا السلطان عبد العزيز من مقره إلى سراى طوب قبو فذهبت معه السلطانة والدته وولده يوسف عز الدين أفندى وباقى أولاده ونساؤه فأقامت والدته فى حجرة بجانب حجرته خوفا عليه من فعال الأعداء وقد وكلوا بحراسة السراى نفرا من الجند ومعهم نجيب بيك وعلى بيك وهما من أصحاب الفتنة، قال أحد كتاب الأخبار، ولما تم نقل السلطان عبد العزيز إلى ذلك المكان وقد نقلوا معه جميع متاعه ومقتنياته اجتمع جلال الدين باشا ومدحت باشا ونورى باشا وبقية أصحاب الفتنة فجعلوا يدبرون أمر قتل السلطان عبد العزيز وأرسلوا إلى نجيب بيك وعلى بيك فى أمر ذلك.

واشتد القلق بالسلطان عبد العزيز من بقائه فى سراى طوب قبو وتطير من ذلك فكتب فى عاشر جمادى الأولى إلى ابن أخيه السلطان مراد يقول، بعد اتكالى على

الله سبحـانه قد وجهت اعتمـادى عليك فأرفع إليك مراسم التهـانى بارتقائك تخت السلطنة وأبين لك ما بى من الأسف على أنى لم أقدر على القيـام بخدمة الأمة كما تبغى ولكنى أؤمل أنك تبلغ هذا الأرب وإنك لا تنسى إنـى بذلت كل ما فى وسعى لصيانة المـملكة والذب عن شرفها وأوصـيك أن تذكر أن من صيرنى إلى مـا أنا فيه الآن إنما هم الجند الذين سلحتـهم أنا بيدى وحيث إنى كنت كثيـر الرفق بالمظلومين ميالا إلى معاملتهم بالمعروف فأرغب إليك أن تأذن بنقلى من هذا المكان الضيق الذى أنا فيه الآن إلى مكان آخر وإنى أهنىء نفسى بـانتقال الخلافة إلى ذرية أخى السلطان عبد المجـيد خان، فرسم السلطان مـراد بنقله إلى سراى أخرى فلم يمكث بهـا غير بياض يومـه ذلك وفى المساء أدخل نجـيب بيك وعلى بيك المتـوليان حـراسة المكان جمـاعة هم مصطفـى البهلوان ومصطفى الجـزايرلى وأربعة من الخـصيان إلى مـقر السلطان وأخفوهم عن الناس فلما كانت الساعـة الثالثة ليلا دخل عليه أولئك القوم ومعهم اثنان أحدهما اسـمه فخرى بيك والثانى اسمه الحاج أحمد أغـا فتقدم فخرى بك وأمسك بكتفى السلطان وقبض مصطفى الجزايرلى والحـاج أحمد أغا على ساقيه وتقدم مصطفى البـهلوان وأمسك بأحد ذراعيه وقطع أوردته بمقـراض ثم فعل كذلك بالثانى وما زالوا به وهو يصـيح ويستغيث حتى خـرج جميع دمه ومات فلفوا جـثته بقمـيص أبيض وحملـوها إلى حجرة قـهوة وجـاق الحرس السلطانى وألقـوها على حصيـرة كانت هناك وقد شاهدت بعض ما حل بالسـلطان جارية من جوارى والدته فصاحت واستـغاثت فصاح لصياحـها سائر الجوارى واشتد الصـياح والعويل وعلت الضوضـاء وكانت والدة السلطان قـد خرجت من حجـرتها لقضـاء حاجة فـجاءت مسرعـة لترى ما حل بولدها وفلذة كبدها فلم يمـكنوها من ذلك وأخذوا فى حمل متاعه ومقتنياته وما كان عنده من تحف وأعلاق ثمينة إلى مقر السلطان مراد وكان مما أخذ من عنده سيف السلطان سليم فاتح مصـر وهو من أشهر السيوف عند سلاطين آل عثمان وباتوا على تلك الحالة وأصبحـوا وقد حضر إلى محل الجثة بعض الوزراء وكبار الدولة وبعض المشايخ والعلماء ووكلاء سـفارات الدول وطبيب سفارة الإنجليز وماركو باشا رئيس المدرسة الطبية السلطانية وغـيرهما من كبار الأطباء وكشفوا على جثة السلطان وبحثوا عـما فيها فاختلفت كلمتـهم وتحاجوا وطال بينهم الجدال وقال طبيب سفـارة الإنجليز إن السلطان هو القاتل لنفسه ووافـقه على ذلك بعض الأطباء وقال رئيس المدرسـة الطبيـة بل قتل عمـدا ووافقه على قـوله بعض الأطباء واشـتد

الجدال بين الفريقين وأبى رئيس المدرسة الطبية أن يوقع على محضر الكشف وأصر على الإباءة وقد شوهد فى جثة السلطان طعنة خنجر فى جانبه الأيسر وبعض خدوش فى فمه وذهاب إحدى أسنانه بضربة شديدة على فمه واشتد اللجاج بين جماعة الأطباء ساعة ثم أشاروا بدفن السلطان فدفنوه فى مشهد حافل للغاية ولم يكن حديث الناس طرا يومئذ إلا أنه مات شهيد التقرب من قيصر الروس وتناقل هذا الحديث أصحاب صحف الأخبار الروسية وقالوا وعادوا وبالغوا فى الشكوى فخاف رجال الدولة وخشوا العاقبة فأشاعوا أن قد أصاب السلطان أمراض عقلية بسبب تنزيله عن عرش السلطنة فاضطربت من ذلك اليوم أحواله وتبلبل بلباله فكان يتخيل له أن السفن راسية فى بوغاز المدينة تراسل رمى القنابل على العدوّ واشتد به هذا التخيل إلى حد أذهب نومه فى الليلة التالية لخلعه وأصبح فذهب إلى الحمام على عادته ثم خرج منه ونزل إلى البستان ثم عاد وأمر بعض الجوارى بفتح سائر الشبابيك والأبواب ففعلن فتركهن وخرج إلى البستان ثم عاد ثم خرج ثالثة ثم عاد ثم أراد الخروج من الباب الموصل إلى البحر وفى يده غدارة فمنعه الموكل بحراسة الباب فتهدده بتلك الغدارة ثم عاد إلى حجرته وقد اشتدت به الأعراض وكثر هذيانه فصار يتخيل أن عدوا هاجم عليه فيصيح على الجند والحراس بأن تطارده وعلى السفن بأن تمنعه قالوا ثم طلب من بعض الجوارى أن تأتيه بمقراض ومرآة ليهندم لحيته فأحضرتهما له من والدته وانصرفت عنه فتأمل فرأى والدته تنظر من وراء الباب فصاح عليها وأمرها بالانصراف ثم حضر عنده بعد ذلك أحد قرنائه وجلس معه برهة فجعل يقص عليه خبر العدوّ الذى كان يتخيله ولزوم مقاتلته وفى أثناء الحديث أخذ المقراض وقطع به عرقا من أوردة ذراعه الأيمن ففهم الرجل يمنعه فلم يقدر فأسرع إلى والدة السلطان ليخبرها بالخبر فقام السلطان فى الحال وأقفل الباب وجميع شبابيك المكان وقطع عرق ذراعه الأيسر أيضاً ونام على فراشه حتى خرج دمه ومات، ويروون عنه غير ذلك أيضا ما لا يسعنا إيراده هنا، وعظمت الفتنة بعد موت السلطان عبد العزيز وكاد يتطاير شررها إلى سائر الإيالات وتظاهر جماعة من أصحاب الكلمة المسموعة والرأى المحمود فى دار السلطنة بالتشيع إليه والرغبة فى الأخذ بثأره فخاف أصحاب الفتنة وبالغوا فى الحيطة وعملوا على تفريق القوم ما استطاعوا وأوعزوا إلى بعض أصحاب صحف الأخبار التركية فحملوا على السلطان عبد العزيز حملة منكرة ورموه بالمروق عن الدين وإذهاب كرامة سائر المسلمين

ووسموه بالخبال وذهاب العقل وأكثروا من الجلبة والضوضاء حتى تخيل للناس أن أصحاب الفتنة فى حل مما فعلوه، ومما سيتلى عليك من تحقيق حادث خلع السلطان عبد العزيز وموته وما جرى فى شأن ذلك فى خلافة السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت تعرف أى القولين أصح وأى الحجتين أقوى وأشد فتحكم إما لأصحاب الفتنة وإما عليهم والله يحكم بينهم وهو أحكم الحاكمين.

مات السلطان فكانت مدة سلطنته زهاء خمس عشرة سنة وله من العمر اثنتان وستون وقيل خمس وستون سنة وكان كبير المعرفة واسع الدراية ميالا إلى خير الرعية وإيراد البلاد موارد التقدم والعمران بعيد العسف غير متحجب ولا مشاغب مبغضا للإنجليز وسياستهم عاملا على التخلص منهم جهد الاستطاعة فلم يبلغ مأربا ومات شهيد جرأته رحمه الله برحمته الواسعة.

ومات فى أيامه ديمتريوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وكان شهما عاقلا محبا للعلوم فاعتنى بترتيب المدارس وبالغ فى وضعها على النحو الذى نحاه كيرولس مؤسسها فأعانه الخديو على ذلك وأقطع المدارس أرضا واسعة فأوقفت على عمارتها وتوسيع نطاق العلوم فكانت لها أعظم عضد ولما مات خلا الكرسى بعده أشهرا ثم أقيم كيرولس وهو الثالث عشر بعد المائة وأصله من بلدة تزمنت بإقليم بنى سويف واسمه يوحنا من رهبان دير البراموس ببرية شهات وهو بطرك المتأصلين الآن وله من الأعمال المبرورة والآثار المشكورة ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

(الفصل الرابع والعشرون)

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد خان)

وقام بالأمر بعد السلطان عبد العزيز السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد بويع بالملك يوم خلع عمه عبد العزيز سابع جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولم يمض على ولايته إلا بضعة أيام حتى ظهرت عليه علامات الضعف ووهن العزيمة قيل وكثر هذيانه فكان يميل إلى العزلة والانفراد ويخاف من كل شىء ويضطرب لأقل شىء يراه أو يسمع به، وكان ليوسف عز الدين أفندى ابن السلطان عبد العزيز ياور لركابه فى

أيام أبيه اسمه حسين بيك بن إسماعيل بيك أحد أمراء الجراكسة الذين هاجروا إلى دار السلطنة وكان حسين بيك هذا طاغية شديد البأس جبارا وحسين عونى باشا السر عسكر يعلم حال حسين بيك ويخشى عاقبة بقائه فى دار السلطنة بعد موت السلطان عبد العزيز فرسم بتسييره إلى بغداد ليتولى رياسة فريق ممن بها من العسكر السلطانى وأرسل إليه الفرمان بذلك فامتنع فأمر بحبسه فحبسوه أياما ثم عاد فأظهر الطاعة والرغبة فى الرحيل إلى بغداد وطلب مهلة يومين فأمهلوه فلما كان صباح يوم الخميس ثالث عشر جمادى الأولى خرج حسين بيك هذا من داره متسلحا بخنجر وأربع غدارات مسدسة وسار يريد منزل حسين عونى باشا وسأل عنه فقيل له أنه فى بيت مدحت باشا فسار إلى بيت مدحت وسأل الخدم عن عونى باشا فقالوا إنه مع بقية الوكلاء فى مجلس مخصوص فأعلمهم بأن معه تلغرافا يتعلق بباب السر عسكرية يريد توصيله إلى عونى باشا فأغضوا عنه فلبث برهة لطيفة ثم صعد إلى حيث مجلس الوكلاء وأراد الدخول فمنعه حارس الباب فسأله حسين بيك ومن أنت قال: سالم أغا خادم الصدر الأعظم فقال: ادع إلىّ خادم عونى باشا فإنى فى حاجة إلى لقاء مولاه الساعة فذهب سالم أغا وترك الباب فدخل حسين بيك فى الحال إلى المكان الذى فيه الوكلاء وقصد حسين عونى باشا فلما دنا منه أطلق عليه غدارته طلقتين فأصابتاه فقام ليدفع عن نفسه فانخرط عليه حسين بيك بالخنجر وطعنه عدة طعنات ثم أطلق عيارا على محمد راشد باشا فأصابه فى عنقه فمات لساعته ومال على قيصرلى أحمد باشا أمير سفن الحرب فقام وأمسكه بيده فأثخنه بالجراح وقد تمكن قيصرلى أحمد باشا وبقية الوكلاء من الهرب إلى بيت النساء وأغلقوا دونهم الأبواب وجاء أحمد أغا خادم الصدر الأعظم مسرعا وهجم على حسين بيك ليقبض عليه فصرعه حسين بيك قتيلاً وقصد كسر الباب الذى حال بينه وبين بقية الوكلاء فلم يفلح فجعل يكسر المصابيح وأخذ شمعة ليوقد بها الأستار كى يحترق جميع المنزل ليتمكن من الفرار فلم يقدر إذ جاءت طائفة من العسكر وكبسوا عليه وأمسكوه وقد قتل أحد العسكر وشكرى بيك ياور ركاب الصدر الأعظم وزجوه ليلته تلك فى السجن وأصبحوا وقد عجلوا بالحكم عليه بالتجريد والقتل شنقا، فلما كان فجر يوم السبت أتوا به بين طائفة من الجند وعلقوه على شجرة فى ميدان بايزيد وبقى معلقا إلى يوم الاثنين، قال بعض الكتاب: وكان عند عمل التحقيق معه ساكن القلب هادىء اللب لم تأخذه أخذة من الخوف وكان يظهر الأسف على من مات من ضباط العسكر والعسكر ويقول وددت لو أنى أذقت قيصرلى أحمد باشا أيضاً كأس المنون

كمـا ذاقهـا عونى وراشـد، وتحدث الناس بما فـعله حسيـن بيك فاختلـفت الأقوال وتباينـت ثم عادوا فاجـتمـعت كلمتهم عـلى أنه إنما فعل ذلك بهم انتـقاما لقـتلهم السلطان عبد العزيز واتـصل خبر هذا الحادث بالسلطان مراد فكبر خوفـه قيل واشتد هذيانه وتغيرت أحـواله واضطربت فكان لا يعرف أحدا ولا يميـز بين الضار والنافع وكان الصدر الأعظم يخفى حقيقة حاله عن الناس وقيل بل كانت أمه تظهر أنه عاقل رزين وتعمل على إخفاء حقيقة أمـره ولا تقرّب منه أحدا فلما طال تحجبه عن الناس لا سيما عـن قناصل الدول وقد اشتدت به علته استـحضروا له طبيبا نمسـاويا اسمه ليدزورف قد اشتهر بمداواة المجانين فلما شاهد أحواله وخبر أموره حكم بعدم نجاحه فاجـتمعت كلمة الوزراء وكـبار الدولة على خلعه وكـتبوا إلى خيـر الله أفندى شيخ الإسلام سؤالا فى معنى ذلك وهو:

إذا جنّ إمام المسلمـين جنونا مطبقا ففـات المقصود من الإمامـة فهل يصح حل الإمامـة من عهدته؟ (الجواب) يصح والله أعلم، كـتبه الفقـير حسن خيـر الله عفى عنه، واجتمع الوزراء فى يوم الأربعاء عاشر شعبان وقـرروا خلع بيعته والبيعة لأخيه السلطان عبد الحمـيد فخلعوه فكانت سلطنته ثلاثة أشـهر وثلاثة أيام لا غير ووردت الأخبار بما وقع له إلى القاهرة فكان الخديو فى شاغل عنها بما هو فيه من نكد الحال وبلبلة البلبال بسبب مطالب أصحاب الديون وقيـام دولة الإنجليز لنصرتهم كما ستراه فى محله إن شاء الله تعالى.

(الفصل الخامس والعشرون)

(فى سلطنة السلطان عبد الحميد
ابن السلطان عبد المجيد)

وقـام بالأمـر بعد خـلع السلطان مراد أخوه السلطان عـبد الحمـيد ابن السلطان عبد المجيد خان بويع بالملك فى يوم الخميس حـادى عشر شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتـين وألف هجرية أى سنة ست وسبـعين وثمانمائة وألف مـيلادية تولى السلطنة والملك فى ارتباك والـفتنة قائمـة والعمالات فى اضطراب فـعمد إلـى سن القوانين والنظامات الدستورية الحـافظة لحقوق جميع الرعية على التسـاوى بلا فرق ولا تمييز

وكان التفريق بينهم يومئذ قد أخذ مأخذه حتى تمزقت جامعتهم وتفرقت كلمتهم وعمل التقاطع فيهم عمله فنالت الدول أصحاب الغايات السياسية من ذلك ما لم تنله بحد السيف وكرات المدافع، ورسم فى خامس شوال سنة ثلاث وتسعين بتأسيس مجلس لنواب البلاد يتألف من هيئتين إحداهما ينتخب أعضاءها أهل البلاد وتسمى بمجلس المبعوثان والثانية تنتخب أعضاءها الحكومة وتسمى بمجلس الأعيان وكان المتولى الصدارة العظمى يومئذ محمد رشيد باشا فخلعه وولاها أحمد مدحت باشا وهو صاحب ذلك الدستور وأنفذ إليه صورة من القانون الأساسى الذى أنشىء لجميع الإصلاحات الواجب العمل بها فى جميع ما وراء الباب. قال بعض الكتاب وكان هذا القانون يشتمل على مائة وتسع عشرة مادة فرسم بنشره والعمل به من يومه فى جميع أنحاء المملكة وأصدر فرمانا بذلك فى سابع ذى الحجة فكان من أحكام ذلك القانون المساواة بين صنوف الرعية وعدم التفريق بين الناس كافة وتحديد اختصاص مجلسى المبعوثان والأعيان وإبطال مصادرة الناس فى أموالهم وترك القسوة والتعذيب فى تحقيق الجرائم ومنع السخرة والعونة وعدم عزل القضاة إلا بحكم شرعى وتعيين مواجب العمال والولاة وجعل التعليم إجباريا وإعطاء الحرية للمطبوعات وغير ذلك مما لا يسعنا إيراده هنا مفصلا، قال بعض الرواة: فلم يستقر بمدحت باشا منصب الصدارة حتى داخله الغرور وجعل يعمل على خلع السلطان عبد الحميد وإرجاع السلطان مراد إلى تخت الملك ويسعى فى فصل الخلافة الإسلامية عن مسند السلطنة العثمانية وجعلها عربية فيمن بقى من قريش من أشراف مكة وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فأشارت إلى ذلك وتكلمت عنه مع التعقيد والإبهام، قلت: وهذه سياسة غلادستون زعيم الأحرار بديار الإنجليز وأمنيته منذ نعومة أظفاره وكثيراً ما كتب وخطب وحض على أخذ شعار الخلافة من ملوك آل عثمان وإعطائه إلى من بقى من قريش أو لمن يصلح للإمامة من غير قريش وكان عربياً فلما أحس السلطان عبد الحميد بذلك رسم فى حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين بخلع أحمد مدحت باشا وتنزيله عن منصب الصدارة وتبعيده عن دار الخلافة وأقام محمد أدهم باشا بدله فكانت صدارة مدحت باشا شهرين لا غير. قال بعض كتاب الأخبار: ولم يبعد مدحت باشا عن دار الخلافة حتى تحركت إمارتا الصرب والجبل الأسود وجعلتا تحشد الجيوش وتعدّ المعدّات وتدرّب العساكر والأجناد على فنون القتال وقدم جماعة من ضباط عسكر الروس فتطوّعوا فى خدمة جيوش

الإمارتين وجعلوا يحصنون الدروب ويوعرون الطرق وعلم السلطان بما وراء ذلك فرسم بحشد جيش ضخم على الحدود فلما تم للإمارتين ما أرادتا سير كل من نقولا وميلان أميرى الإمارتين إلى دار السلطنة يطلبان كثيراً من المطالب الطويلة العريضة فأبى عليهما السلطان جميع ما طلباه وكثر الأخذ والرد بين الطرفين وأصر كل منهم على مزاعمه فاجتازت عند ذلك عساكر الجبل والعساكر الصربية الحدود وزحفت على بلاد السلطنة العثمانية فزحف عليهم العسكر السلطانى من كل صوب وحدب ومقدمهم الغازى عثمان باشا وعبد الكريم باشا السر عسكر وقاتلوهم حتى هزموهم شر هزيمة ثم سارت طائفة من العسكر السلطانى إلى مدينة مينا شيوار ففتحوها عنوة وساروا إلى مدينتى عالكيناس ودلجراد ليقاتلوهما فلم ينالوا منهما لحصانتهما ومنعتهما فرحلوا عنهما وعبروا نهر موراوا فلم يشعر العدو إلا وهم قد صاروا على الشاطىء الأيسر من النهر وساروا يريدون مدينة بلغراد عاصمة الصرب فهال الصربيين هذا الأمر وأزعجهم جداً لخلو المدينة ممن يدافع عنها ويقاتل دونها فعبروا النهر على الفور وساروا خلف العسكر السلطانى فوقفوا للقائهم وأصلوهم نارا حامية حتى انفشلوا وتفرق جمعهم وركن أكثرهم إلى الفرار من غير ضرب ولا طعن فسارت العساكر نحو بلغراد لا يمانعهم فى طريقهم ممانع وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة وكان أمير الصرب قد سير إلى سفراء الدول بدار الخلافة فى طلب الوساطة بينه وبين الباب العالى خوف الهزيمة والعار فكلموا السلطان فى ذلك فمناهم وطاولهم حتى صارت العساكر السلطانية على أبواب بلغراد ووردت الأخبار بذلك إلى السفراء فقاموا وقعدوا وشددوا فى الطلب فسير السلطان إلى مقدم عساكره بالكف عن القتال حتى يأتيه الأمر وفتح سفراء الدول باب المخابرة فى أمر الصلح وكثر الأخذ والرد وترددت السفراء على الباب العالى أياما والقلوب فى اضطراب فأبى الباب العالى إمضاء الصلح إلا على ثلاث خصال، الأولى حضور أمير الصرب إلى دار السلطنة وتقديمه مواجب الخضوع والتذلل لعرش السدة الشاهانية، الثانية أن تحتل الجيوش السلطانية ثانيا جميع القلاع التى كانت الدولة سمحت لإمارة الصرب باحتلالها مؤقتاً فى سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هجرية، الثالثة إبطال الرديف من إيالة الصرب وأن لا تجيش الإيالة من الآن عسكرا إلا عشرة آلاف فقط وبطاريتين من أصحاب المدافع لحفظ الأمن فى الداخل فلم يرض الدول هذا الطلب واتفقوا معا على إكراه الباب العالى على إرجاع حالة

الصرب والجبل الأسود إلى ما كانت عليه قبل الحرب وتأسيس إدارة وطنية مستقلة فى البوسنيه والهرسك لتراقب مأمورى الحكومة وكذلك فى البلغار وأنفذ اللورد دربى صاحب سياسة الإنجليز يومئذ إلى الباب العالى مكاتبة بذلك وأوعز إلى سفيره فى دار السلطنة بأن يلح فى الطلب فبالغ السفير فى ذلك فلم يلتفت السلطان إلى قوله وأوعز إلى مقدم الجيوش المحاربة بإعادة الحرب والقتال حتى يتمكن من تدويخ العدوّ ويرجعه إلى ما كان عليه من الطاعة فزحفت العساكر السلطانية على مدينة جونيس وكان بها الجنرال تشرنايف الروسى ومعظم العسكر الصربى فقاتلوهم قتالاً عنيفاً ثم هجموا على المدينة هجمة رجل واحد فتقهقر الصربيون وتركوا المدينة وأخلوا كذلك مدينة دلجراد فدخلتهما طائفة من العساكر السلطانية وسارت طائفة أخرى تريد مدينة بلغراد عاصمة الصرب لقتال من بها وأخذها عنوة.

وطار الخبر بذلك إلى الآفاق وعلمت به سائر الدول فاهتموا له اهتماما عظيما وأنفذ صاحب سياسة الروس إلى سفيره فى دار السلطنة بطلب إيقاف رحى الحرب ومهادنة الصرب والجبل الأسود مدة شهرين فإن لم يجب الباب العالى إلى ذلك انقطع حبل العلاقات السياسية بين الدولتين وضرب لذلك أجلا ثمانيا وأربعين ساعة فأجاب الباب العالى إلى ذلك كارها وقد أحس بتأهب الروس للقتال وإضرام نار الحرب وبدأت من هذا الحين تظهر دلائل الوحشة بين الفريقين وخافت سائر الدول عاقبة ذلك لا سيما دولة الإنجلير فخابر صاحب سياستها كبار ساسة الدول فى عقد مؤتمر فى دار الخلافة لتقرير قاعدة ثابتة لراحة جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ومنع الحرب التى صارت على قاب قوسين فأجابته الدول إلى ذلك بعد أخذ ورد وسيرت مبعوثيها إلى دار السلطنة وقررت كثيرا من الطلبات التى لا يطيق الباب العالى الصبر عليها ولا الإذعان لها ثم اجتمع جمعهم فى سراى البحرية وحضر بينهم مندوبو الدولة فتكلموا فى الأمر كثيرا وطال اجتماعهم أياما على غير طائل فرسم السلطان حينئذ بعقد مجلس من كبار الدولة وأعيان السلطنة ورؤساء الأديان كافة فلما تم اجتماعهم وكانوا زهاء المائتين عرض عليهم طلبات مبعوثى الدول فاستعظموها وقالوا هى مذلة وصغار وحط من كرامة الدولة ومقام الخلافة العظمى فلا سبيل إلى قبولها وفى المملكة من يذب عن ذمارها فراجعوهم فى الأمر فقالوا جميعا: الحرب والنار ولا هذا الخزى والعار وكثرت جلبتهم وعلت أصواتهم ثم انصرفوا وقد سطروا بذلك محضرا فرفعه صفوت باشا مندوب الدولة يومئذ إلى

أصحـاب المؤتمر فكبـر عليهم ورحلوا عن دار الـسلطنة ولم يقابل منهـم أحد أمـير المؤمنين كمـا جرت العـادة بذلك واختلط الحال على كـبار سـياسة الدول واختبط واستعصى عليـهم حل هذه العقدة وقد رأوا من الباب العالى عنادا وتصمـيما وكانوا لا يتوقعون منه غير الطاعة والإذعان فجعلوا يمنون الروس بالأمانى البعيدة ويهوّنون عليهم الأمر، فبـينما هم على هذه الحال إذ عاقدت الدولة العثمانيـة الإمارة الصربية على الصلح وترك القتال على شروط رضى بها الفريقـان وشاع الخبر بذلك فخشيت دولة الروس العاقبة وفطنت إلى الأمر وتحققت أنها إن لم تبادر إلى إشهار الحرب مع الدولة العثمانية قبل أن تعاقد أمير الجبل الأسود الصلح أيضاً انفشل الروس وسقطوا فى أمرهم فحض القيصر الدول كافة على تدارك الخطب قـبل استفحاله فأجابته إلى ذلك وأرسلت إلى دار السلطنة إنذارا تتـهدد فيه البـاب العالى بأن تتركـه وشأنه مع دولة الروس إن هو أصـر على الإباءة والعناد فرد عليـهم القول ردا جـميـلاً وصمم على مطالبه كلها فتـجرد قيصر الروس عندئذ إلى التأهب والاستعـداد وجعل يحشد الجيوش ويعد المعدات ويكثـر من نقل المؤن والذخرة وأنفذ إلى مندوب الباب العالى فى عـاصمـة الروس بأن يرجع إلى سلطانه وبأنه قـد أعلن بالحـرب والقتـال فسـار المندوب إلى دار السلطنة فما وصل الخبر إلى البـاب العالى وتناقله الناس حتى قاموا وقعدوا واشتـد بينهم الهرج ونودى فى جميع العسكر بالخـروج وأفتى شيخ الإسلام بأنه قد حق على كل مسلـم الغزو والجهاد وبأن يضاف إلى ألقـاب أمير المؤمنين عند الدعاء له على المنابر لقب غـازى عملا بحديث صـاحب الشريعة القائـل «من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا».

وورد الطلب من البـاب العالى إلى الخديوى بإرسـال مدد من العـسكر المصرى ليسير مع العـسكر المنصور لقتال الروس فاهتم بذلك الخديوى وأظـهر العناية وجهز طائفة من المقاتلين ومقدمهم الأمير حسن ثالث أولاده ومعه جماعة من كبار الضُباط الشراكسة فحملتهم بعض الـسفن إلى در السلطنة واشتركوا مع العسكر السلطانى فى عدة مـواقع، قال بعض كتـاب الأخبار: وقد أبلوا بـلاء حسنا ونالوا من الروس فى عدة وقائع واشتد القتال بين الفريقين وحمى الوطيس واجتاز الروس نهر الطونة بغير قتال وقيل: بل كانوا يدفعون بالأمر الخـفيف ثم ألحوا فى القتال فاحتلوا مدينة ترنوه ثم مدينة ينكوبلى وسار الجنرال جوركوا فى عـسكره فاحتل مضايق البلقان التى هى أبواب مضيق شبكا واشتدوا على العساكر السلطانية شدة بالغة وجاء الخبر بذلك إلى

دار السلطنة فكبر خوف الناس وعظم اضطرابهم واشتد قلقهم وهم الكثير منهم بالجلاء عن دار السلطنة فلم يتمكنوا حيث رسم السلطان فى جمادى الأولى من السنة أى سنة أربع وتسعين بجعل دار السلطنة تحت الأحكام العرفية فانكمش الناس وأخذوا حذرهم وكانوا يتوقعون هجوم العدوّ على المدينة فى كل لحظة واشتد الروس فى القتال والنصر ملازم لهم وجاءوا لحصار مدينة بلفنه وكان بها عثمان باشا فى ثلاثين ألفا من المقاتلين فسير إلى دار السلطنة فى طلب المدد قبل أن يتمكن الروس من تشديد الحصار وألح فى الطلب ووردت رسائله تترى على ديوان الحرب مفعمة بالحض والاستنهاض فلم يلتفتوا إلى ندائه والروس تشدد فى حصار المدينة يوما عن يوم فكان عثمان باشا يقاتلهم فى كل يوم من وراء الأسوار كى يشغلهم عن تشديد الحصار فلم يفلح ووالى الروس الهجوم على المدينة لعلهم يفتحونها فلم يتمكنوا حتى تم لهم حصارها فضيقوا وشددوا ومنعوا عنها الوارد من كل جانب ووصلت الأخبار بذلك إلى السلطان فكبر عليه الأمر ورسم بخلع عبد الكريم باشا سردار العساكر السلطانية من منصبه وتنزيل درويش باشا من منصب رياسة ديوان الحرب لظهور خيانته وسوء تدبيره وخلعوا أيضاً جماعة كثيرة من كبار الضباط وصغارهم لخيانتهم لسلطانهم وبلادهم وحكموا عليهم بالنفى والتبعيد وأكثروا من التغيير والتبديل فى مراكز الجند ومواقف القتال استدراكا لما فات وسيروا المدد إلى عثمان باشا فلم يتمكن من الوصول إليه لإحاطة العدو بالمدينة من كل صوب وحدب وسيروا طائفة أخرى لتقاتل الروس على مضيق شبكا وأخرى لدفع جيوش ولى عهد القيصر الزاحفة على بلاد الدولة العثمانية واهتم السلطان لذلك وظن بلوغ الآمال وإرجاع العدو فاقتتلوا قتالاً شديداً وأبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس وجاء الخبر للقيصر بما حل بعسكره فسار من فوره فى قلة إلى ميدان القتال وقيل بل جاء جريدة وسير إلى أمير الجبل الأسود يسأله العون والمدد فجاءه فى نحو مائة ألف مقاتل وكثير من الأسلحة والكراع وقاتلوا العثمانيين قتالا عنيفا للغاية وانتصروا عليهم فى عدة وقائع واشتدوا فى حصار بلفنه شدة بالغة وألحوا فى قتال من بها من العساكر فكانوا لا ينكفون عن الرمى عليها فى الليل والنهار وما زال الرمى من الفريقين متراسلا حتى نفد ما عند العساكر السلطانية من المؤن والذخيرة فنادى عثمان باشا فيمن بقى من العسكر بالخروج من المدينة ومهاجمة العدو فإما أنهم يموتون جميعاً شهداء الدفاع عن ملجأ الخلافة أو أنهم يسلمون فخرجوا جميعاً واندفعوا على خطوط العدو وثابروا على القتال والعدو يصليهم نارا حامية حتى أصابت

عثمان باشا مقدمهم جراحة فى ساقه الأيسر فسقط عن جواده وسقط جواده أيضاً ميتا وشاع خبر موته بين الجند فانفشلوا وسقطوا فى أمرهم وهموا بالرجوع إلى المدينة فلم يتمكنوا من ذلك لدخول العدوّ بها ورميه بالقنابل عليهم تباعا فصاروا بين نارين فلم يروا بدا من التسليم فألقوا عنهم سلاحهم وسلموا بأنفسهم وكانوا قد نقلوا عثمان باشا إلى أحد البيوت القريبة من موقف القتال فقابله أحد كبار ضباط الروس وبالغ فى إجلاله وتعظيمه ونقله فى إحدى العربات إلى مدينة بلفنه وبينما هو فى الطريق قابله الغرندوق نقولا وأمير رومانيا فأوقفاه وسلما عليه وبالغا فى ملاطفته إظهارا لفضله وإكبارا لشهامته.

وتقوّت عزيمة الروس لسقوط بلفنه فى أيديهم فتقدموا نحو دار السلطنة وهم يفتحون كل ما صادفهم فى طريقهم من الحصون والقلاع فخرج عند ذلك أمير الصرب عن الطاعة ونقض ما كان بينه وبين الباب العالى من العهد ونهض إلى معاونة الروس بالرجال والمال فاشتد الأمر على الباب العالى وسدت فى وجه العساكر السلطانية أبواب الفلاح وتولاهم الفشل وكادوا يقنطون من النصر والغلبة فأنفذ السلطان إلى الدول الكبرى فى الوساطة بينه وبين قيصر الروس فطاولوه ولم يهتموا إلى ذلك وبقيت الحرب قائمة بين الفريقين حتى دخل الشتاء وكثرت الثلوج والأمطار وهم مع ذلك لم ينكفوا وسارت جيوش الروس تريد الإغارة على بلاد البلغار والروملى الشرقية وتقدم الجنرال چوركوا بعسكره فاجتاز جبال البلقان ونزل على مدينة صوفية تخت البلقان واحتلها ثم سار إلى مدينة فليبه واحتلها أيضاً وسارت طائفة من عسكر الجنرال سكوبلف إلى مدينة أدرنه فقاتلت من بها واحتلتها عنوة ولبثوا فى هذه المدن أياماً حتى أصلحوا حالهم وساروا فى كثرة يريدون دار السلطنة فلم يجدوا فى طريقهم من يمنعهم أو يناوشهم الحرب لخلو الطريق حتى صاروا على أبوابها، وبينما كان الروس يتقدمون نحو دار السلطنة فى عدة وافرة كانت عساكر الجبل الأسود تقاتل مدينة انتيبارى حتى ملكتها وسارت حتى وصلت إلى ضواحى أشقودره ودخلت أيضاً العساكر الصربية مدينة نيش وأحاط الأعداء بمعظم بلاد الدولة من كل صوب ودرب وقد زاد الأمر ويلا وشدة جلاء المسلمين من أهل البلغار وغيرهم عن أوطانهم ونزولهم على دار السلطنة وهم فى أسوأ حال من العرى والجوع فملئوا شوارع المدينة وحاراتها واهتم الباب العالى بمأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ووقودهم لوقر البرد وتبرع أهل البر والإحسان بالمال للنفقة واهتموا لذلك

اهتماما عظيما ومع هذا فقد فشت بينهم الحميات الخبيثة وكثر فيهم الموات واشتد فكانوا يموتون بجانب الجدران وعلى أبواب بيوت أهل الخير فكان المنظر محزنا والخطب عظيما.

ورسم السلطان بتسيير أربعة من كبار الدولة إلى حيث الغراندوق نقولا ليكلموه فى تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين يكون من ورائها إبطال الحرب وحقن الدماء فساروا إلى قزانلق والتقوا بالغراندوق وكلموه فى الأمر فأجابهم إلى ذلك وسار بهم إلى مدينة أدرنة وقد سير إلى القيصر فى طلب إجارته بعقد شروط الصلح فأجابه فأمضى معهم عهدا فى المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين كان فيه منح الاستقلال الإدارى لإمارة البلغار والاستقلال السياسى لكل من مملكة رومانيا ومملكة الجبل الأسود وأعطاهم بعض أملاك من أملاك السلطنة وتكليف الخزينة السلطانية بنفقة الحرب فإن لم تدفعها عينا أعطت بها قلاعا أو حصونا من قلاع السلطنة ثم قرروا بينهم قاعدة للهدنة ونودى فى العسكرين بالكف عن القتال فبطل الحرب وكفى الله المؤمنين شر القتال وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فقامت الدول الكبرى وقعدت وترامت ظنون كبارها إلى المرمى البعيد لا سيما دولة النمسا فإنها كانت تخشى من قرب الروس من حدودها فأنفذ إمبراطورها إلى الدول فى طلب عقد مؤتمر لينظر فى شروط ذلك الصلح وماهيته وألح على دولة الإنجليز فى ذلك فأجابته إلى ما طلب وأشارت على الدول بذلك وكلمت الروس فى الأمر فطاول القيصر وحاول ولم يبلغ الدول شيئاً مما وقع الاتفاق عليه بينه وبين الباب العالى وقد كان يأبى وساطة الدول وعدم تداخلهم فى أمر الصلح وطال الأخذ والرد بين الدول وبعضهم أياماً فأزعج الدول امتناع القيصر وعدم إجابة طلبهم وكثر القيل والقال واختلط عليهم الحال وكثرت الإشاعة بدخول الروس فى دار السلطنة وعمدت دولة الإنجليز إلى استعمال الشدة والترهيب فسيرت سفن حربها إلى دار السلطنة لمنع الروس من الدنو من القسطنطينية فاجتازت الدردانيل عنوة ورست أمام المدينة فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وكثر لغطهم وتحدثهم فى هذا الأمر ورموا رجال الدولة وكبار السلطنة بالخيانة والتدليس وقام جماعة من رجال مجلس المبعوثان يعيبون على أصحاب الحل والعقد سوء تدبيرهم ويرمونهم بالمروق عن الدين فرسم السلطان بنفيهم وتبعيدهم فأقصوهم عن دار السلطنة وكثر الهرج والمرج وكادت تلتهب نار الفتنة فى جوف القسطنطينية واختلط الحال على السلطان فجعل يكثر من العزل

والتولية فى مناصب الدولة وخلع الصدر الأعظم أدهم باشا وولى مكانه أحمد حمدى باشا فلم يمض على ارتقائه منصب الصدارة سوى أيام حتى خلع أيضاً وأبطل لقب الصدارة بلقب رئيس الوكلاء وعين فى هذا المنصب رفيق باشا فلم يلبث أن عزل فى خامس عشرى ربيع الثانى وولى مكانه الصادق محمد باشا واشتدت الأزمة فاستحكمت الوحشة وكره الناس أصحاب الحل والعقد وبدأت تظهر دلائل الفتنة .

فلما كان سابع عشر جمادى الأولى قام رجل بخارى الأصل اسمه صعاوى من أصحاب الدسائس والفتن وهو أحد أركان العصابة التى كان ألفها الأمير مصطفى فاضل باشا أخى الخديوى إسماعيل وسماها باسم (چون ترك) أى تركية الفتاة وصرف عليها الأموال الطائلة فكان لها فى قلب هيئة السلطنة وخلع السلطان عبد العزيز وقتله وغير ذلك من الفتن والدسائس الداخلية اليد الطولى وكان الأمير مصطفى فاضل باشا هذا يتمنى أنه يرى جميع ذلك بعينه ولكنه مات قبل أن يخلع السلطان بأشهر وعمد صعاوى هذا إلى إيقاد نار الفتنة فى جوف القسطنطينية وخلع السلطان عبد الحميد وإعادة السلطان مراد إلى منصب الخلافة وكان فى دار السلطنة زهاء مائة وخمسين ألفا من المهاجرين وكلهم ناقمون على رجال الدولة كارهون للسلطان فقام بينهم صعاوى خطيبا وكان فصيح اللسان قوى الجنان وجعل يزين لهم خلع السلطان عبد الحميد ومبايعة السلطان مراد ثم سار فى جماعة منهم فى ذلك اليوم إلى سراى جراغان التى هى مقر السلطان مراد واقتحموها من البر والبحر وقتلوا من كان على أبوابها من الحرس واتصل صعاوى بغرفة السلطان مراد وسلمه طبنجة وأخذ بيده يريد الخروج وقد علت الضوضاء وكثر صياح العامة فترامح الناس من كل صوب وحدب واشتد الخوف بهم شدة بالغة وظن السوقة دخول الروس إلى المدينة وإعمالهم السيف فى أهلها فتسابقوا إلى غلق حوانيتهم وهرعوا إلى بيوتهم يدفعون عنها إيذاء العدو وجاءت طائفة من جند الحرس السلطانى إلى سراى جراغان وكبست على أصحاب الفتنة من البر والبحر وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى أتوا على آخرهم إلا من طال عمره ومات. صعاوى وصالح بيك مقدّما هذه الفتنة وجاء الأمر من السلطان بالقبض على أخيه مراد ووالدته ومن عنده من الجوارى والغلمان فقبضوا عليهم ونقلوهم إلى سراى السلطان عبد الحميد محجورا عليهم ولم يمض على هذا الحادث سوى ثلاثة أيام

حتى دس بعض أصحاب الفتنة النار فى دوائر الباب العالى فاشتعلت اشتعالاً عظيما واندلع لسان لهيبها إلى عنان السماء فـأحرقت دوائر شورى الدولة وما يتبعها ودائرة الأحكام العدلية والتشريفات والداخلية وغيرها وأبادت جميع ما فيها من فرش وبسط وأوراق وغير ذلك وكبر غيظ السلطان فـرسم بخلع الصادق محمد باشا من منصب رياسة الوكلاء فخلع فى سابع عشرى جمادى الأولى وولى مكانه محمد رشدى باشا وأعيد إليـه لقب صدر أعظم فلم يكد يستقر به المنصب بضـعة أيام حتى خلع وولى مكانه صفوت باشا.

ولما دخلت سفن حرب الإنجليز ورست أمام القسطـنطينية كما تقدم القول عظم أمرها على الروس وعدّوه إهانة لهم وتحقيراً فأنفذ مقدم عساكرهم النازلة عند أبواب القسطنطينيـة فى طلب دخول طائفة من عـسكره إلى المدينة وشدد فى ذلك فمانـعته دولة الإنجليز وطال الأخذ والرد بين الروس وبقيـة الدول أياماً وجاء الغراندوق نقولا إلى أدرنه قبل انـتهاء الهـدنة فسـير إليه السلطان نـامق باشا ليكلمـه فى منع دخول عساكـره إلى المدينة فلم يقبل إلا بشرط أن تحتل مقـدمة جيوشه خط بيـوك چكمجه وكوچك چكمجه من ضـواحى القسطنطينية وأن تنسحب العساكـر السلطانية إلى ما وراء ذلك مع جـعل مركز المخـابرات فى قرية سـان اسطفانوس الـواقعة علـى بحر مرمرة وكان لـم يعـرف لها اسم ولا خبر قبل هذا الحادث فـقبل السلطان ذلك وسار الغراندوق إلى قرية ســان اسطفانوس فى ألف مقاتل ونزل بهـا وصار يأتى إليه المدد فى كل يوم حتى بـلغت عساكـره بالقرية المذكورة زهـاء عشرين ألفـا وجاءت رسل السلطان بعد ذلك لتقرير قاعدة الصلح فطال الجـدال بين الفريقين أياماً وكان رسول القيصر فى عقد هذا الصلح الأمير اغناتيف وهو من دهاة السياسيين وأقطابهم فجعل يقلب للدولة ظهر المجن فسطر شروطا غاية فى الشدة والتضييق على الدولة العثمانية وسأل رسل السلطان التـوقيع عليـها فطلبوا مـهلة فلم يقبل وضرب لهم أجـلا فإن انقضى ذلك الأجـل سارت العســاكر النازلة فى ســان اسطفانوس إلى القسطنـطينية ودخلتهـا عنوة فراجعه رسل السلطان فـلم يقبل وكان ذلك الأجل الثالث من شـهر مارس الذى هو يوم عيد قيصر الروس فجعل رسل السلطان ينقبون فى تلك الشروط كى لا يحل الأجل المضروب إلا وقد أتوا على آخرها فلمـا كان ثالث الشهر المذكور أى ثامن عشر صـفر سنة خمس وتسعين جـمع الغراندوق نقولا جيوشـه بين مشاة وفرسان وأوقفهم موقف الاستعراض إجلالا لعيد القيصر ولبث ينتظر ما سيكون من

رسل السلطان فلمـا أبطأ عليـه الجواب سـار إلى حيث رسـل السلطان وطلب منهم الجواب فى تلك السـاعة وإلا سارت جميع جـيوشه إلى دار السلطنة بلا مـهل فهال الرسل هذا الأمر وما زال الأمـير اغناتيف يتهددهم حتى يتم توقيـعهم على الشروط ولحق اغناتيف بالغرانـدوق ومعه شروط الصلح وكـان الغراندوق ممتطيا جـواده أمام العساكر وحـوله جماعة من كبار الجند والحـرس فناوله اغناتيف شروط الصلح فلما تناولها صاح من كان حـوله من كبار العسكر فصاح العسكر جمـيعاً بأصوات الفرح وترجل جمـيع ضبـاط الجند عن خيولهم وخـروا على الأرض سجـدا لله عزّ وجلّ الذى أتاح لهم هذا النصر المبين وجـاء أحد القسيسين فـصلى بالعسكر صلاة الشكر وهم جميعاً سجود وطير الغراندوق الخبر إلى القيصر بما جرى ففرح فرحا لا يوصف ووردت على الغـراندوق رسائل التـهانى من كل فج عـميق، وكـان مما أخذ عـهدا وميثـاقا بين الدولتين بعد تلك الحرب الـهائلة واشتهر بمعـاهدة سان اسطفانوس هو الشرط الآتى ترجمته بعد: إن حضرة قيصر الروسيه وحضرة سلطان المملكة العثمانية قد عين كل منهـما مرخصين لأجل تحـرير مقدمات الصلح رغبـة فى تأمين بلادهما ورعاياهما من وقوع مـا يخل بالراحة والأمنية فيما بعد وطلبا لحـصول فوائد المسالمة والراحة العمومـية حالا فالمرخصان اللذان نصـبهما القيصر أحـدهما (الكونت نقولا اغناتيف) وهو حائز رتبـة أمير اللواء ياور القيـصر ومن أعضاء المجلس الخـصوصى وعنده نشـان روسى مرصع وهو نيـشان صان عكسـاندر نويسكى ونيـاشين أجنبـية متعددة والمرخص الآخر (موسيو نيلدوف) من قرناء الدائرة الإمبراطورية ومن أعضاء شورى الدولة وعنده نيـشان صانت آن مـن الطبقة الأولى مع السـيوف المختـصة به وعدة من النيـاشين الروسيـة والأجنبية والمرخـصان اللذان عـينهما حـضرة السلطان أحدهمـا (صفـوت باشا) ناظر الأمور الخـارجيـة الحامل النيشـان العثـمانى المرصع والنيشـان المجيدى وكلاهمـا من الطبقة الأولى والنيـاشين الأجنبية المتنوعـة والثانى (سعد الله بيك) سـفير الدولة العلية فى مركـز إمبراطورية ألمانيا وهو حـامل النيشان المجيدى من الطبقة الأولى والنيشان العثمـانى من الطبقة الثانية فهؤلاء المرخصون من بعد أن اطلعوا على المحـررات الرسمية المتعلقـة بكيفية ترخيصـهم ووجودها مطابقة للأصول والعادات قرروا المواد الآتى ذكرها فيما بينهم.

المـادة الأولـى: أنه بموجب الخريطة المربوطة بـهذه المعاهدة وبمقتـضى الشروط والوجوه الآتى ذكرها تقرر تصحـيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الأسود وذلك

لأجل إنهاء المنازعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل دوبروزيجه على الوجه الذى عينه المؤتمر الذى كان عقد فى الآستانة إلى (غوريتووبيلكه) والحد الجديد يستطيل إلى (غاجقه) وعلى هذا (توتركيا غاجفو) تبقى فى تصرف الجبل الأسود وتمتد الحدود أيضاً من مجمع أنهر (بيوه وتاره) وتمر من نهر (درين) إلى جهة الشمال وتنتهى إلى مجمع هذا النهر مع النهر المسمى (ثيم) وأما حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتديء من نهر (ثيم) إلى (بريرة بولره) ومن (روستراق إلى سوق بلانيا) وبيهور وروستراق تبقيان داخل الجبل فعلى ذلك يكون تخطيط الحدود هكذا أعنى من الجبال المتسلسلة الجامة لروغوه بلاوا وكورنره إلى پاقلنى ومن رؤوس جبال قوبر يسونيق وباباور وبور وحذاء حدود بلاد الأرناؤط إلى أعلى ذروة جبل (بروقلنى) ومن هذه النقطة إلى (كنيب بيسقاشيق) وينتهى الحد على الخط المستقيم إلى عين الماء فى چيستى هوتى ويفصل فيما بين چيستى هوتى وچيستى فاسترانى ويتجاوز ماء أشقوره إلى أن ينتهى لنهر بويانه وهكذا مع النهر إلى مصبه فى البحر وبموجب ذلك تبقى نكسيك وغاجقة وأشبوزى ويورغوربچه وزابلياق وباز ضمن الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود الجبل قطعيا بمعرفة لجنة مركبة من بعض مأمورى دول أوروبا بشرط أن تكون وكلاء الباب العالى والجبل الأسود معهم أيضاً فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وأمنية البلاد الكائنة فى الجهتين ثم تشير فى الخريطة إلى التعديلات التى ترى لها لزوما وتعلم أنها هى الحق وتوضح فى ذلك ما رأته من صالح الجهتين ثم لا يخفى أن أمر سير السفن فى نهر بويانه لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالى والجبل الأسود فلأجل قطع هذا النزاع سيصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة.

المادة الثانية: أن الباب العالى يثبت استقلال إمارة الجبل الأسود على الوجه القطعى ثم فيما يأتى تتقرر فيما بين دولة الروسيه والدولة العلية والإمارة المذكورة كيفية المناسبات التى ستكون بين الباب العالى والجبل وقضية تعيين وكلاء من طرف الإمارة فى الآستانة والبلاد العثمانية المقتضية ويتقرر أيضاً أمر إعادة أرباب الجنايات الذين يفرون من بلاد الدولة العلية إلى الجبل الأسود ومن الجبل إلى بلاد الدولة وأمر إطاعة أهل الجبل المقيمين أو المارين فى بلاد الدولة العلية وانقيادهم إلى نظامات ومأمورى الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التى كانت تجرى بحقهم فى بلاد الدولة وستنعقد أيضاً مقاولة فيما بين الباب العالى

والجبل الأسود لأجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالإنشاءات العسكرية فى قرب الحدودو وأحوال ومناسبات الأهالى المتجاورة هناك وإذا اختلف الباب العالى مع الجبل الأسود فى بعض مسائل ولم يمكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا الروسيه وأوستريا ومن بعد هذه المعاهدة إذا وقعت مباحثة أو مصادمة فيما بين الباب العالى والجبل الأسود ما عدا المطالب الملكية الجديدة ينبغى أن يفوضا أمرهما إلى دولتى الروسيه وأوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر أنه من بعد إمضاء مقدمات الصلح إلى عشرة أيام يجب على عساكر الجبل الأسود أن تخرج من البلاد الغير داخلة ضمن الحدود المذكورة أعلاه.

المادة الثالثة: أن إمارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهردرين وتبقى كوچك أزورنيق وسقار فى إدارة الصرب ويمتد هذا الحد إلى منبع نهر رازده الكائن بجوار استايلاق على حسب الحدود القديمة وتبتدىء الحدود الجديدة من هنا أعنى مع مجرى نهر رزوه إلى نهر راسقه ومنه إلى يكى بزار ومن يكى بزار يصعد الخط الفاصل ويمر من جوار قريتى مهنتره وارغويج إلى أعلى النهر المذكور حتى ينتهى إلى منبعه ويمتد إلى بوسور بلاتينا الكائنة فى وادى إيبار وينزل مع الماء الجارى الذى يصب فى النهر المذكور ومنه يسير مع أنهر إيبار وسيديج ولاب إلى منبع نهر ياتنسه الكائن فى جبل عزايا شينجه بلاتينا وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهرى قربوه وترينجة ومن أقصر الطرق الموجودة على مصب نهر ميوواجقه حتى ينتهى أيضاً إلى نهر ديرنجه ويسير مع هذا النهر ويقطع ميوواجقه وبلاتينا ويصل إلى جهة مواروه فى قرب قرية قاليمانس ومن هنا يسير إلى قرب قرية استابقوجى ويجتمع هناك مع نهر بلوسينه وهكذا مع النهر إلى موراوه ويمتد من النهر إلى جهة فوق حتى يصل إلى قوتقاويجه ويقطع سوق بلاتينا ويجتمع بنهر نيساوة ويتصل بقرية قرونراج ومنها يمر من أقصر الطرق ويمتد على حدود الصرب القديمة إلى جنوب شرق قره ول بور وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونة وتقرر إخلاء اطه قلعة وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والصرب لأجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعى فى برهة ثلاثة أشهر ويكون ذلك بمعاونة مأمورين من طرف دولة الروسيه وهذه اللجنة تفصل أيضاً المسائل المتعلقة بجزاير نهر درين وتقطعها وحينما تبتدىء هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والصقالبة ينبغى أن يكون وكيل واحد من طرف الصقالبة يشترك معهم فى هذا الأمر.

المادة الرابعة: أن المسلمين الذين لهم أملاك فى البلاد التى صار إلحاقها بالصرب إذا لم يريدوا الإقامة هناك فلهم الخيار إن أحبوا أجروا أملاكهم وإن أحبوا أقاموا وكلاء من طرفهم لأجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة بأموالهم غير المنقولة تفصلها لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والصرب بإعانة مأمورين من طرف دولة الروسيه فى ظرف سنتين وهذه اللجنة تفصل أيضاً فى برهة ثلاث سنين أمر فراغ الأملاك الميرية والموقوفة والمسائل المتعلقة ببعض الأشخاص الذين لهم علاقة ونفع فى الأملاك المذكورة وذلك يكون عقيب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العلية والصرب والأناس المقيمون أو الذين يجولون فى بلاد الدولة من تبعة الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكلية بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول وقد تقرر أنه من بعد إمضاء مقدمات الصلح إلى خمسة عشر يوما يجب على عساكر الصرب أن تخرج من البلاد التى ليست داخلة ضمن الحدود المذكورة أعلاه.

المادة الخامسة: أن الباب العالى قد أثبت استقلال رومانيا أعنى المملكتين ولها أن تطلب من الدولة العلية تضمينات الحرب وتجرى المذاكرة فى هذا الشأن فيما بينهما وعند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العلية ورومانيا رأسا تنال تبعة رومانيا الأمن والامتياز طبق تبعة دول أوربا.

المادة السادسة: تقرر أن تكون البلغارستان أعنى بلاد الصقالبة إمارة مختارة فى إدارتها تدفع مبلغا معلوما إلى الدولة العلية ويكون مأمورو الحكومة والعساكر الملية من المسيحيين ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعى بمعرفة لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والروسية وذلك قبل خروج عساكر الروسيه من الروم إيلى وهذه اللجنة تبين هناك فى الخريطة التعديلات التى ينبغى إجراؤها وتلاحظ ملية أكثر الأهالى وتوضح المنافع المحلية تطبيقا لفن تخصيص الأراضى وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة بخريطة وجعلها أساسا فى قطع الحدود، وخط الحدود يبتدىء من حدود الصرب الجديدة ومن غرب ورا نثره إلى سلسلة الجبل الأسود ومن جهة الغرب يمر من نهر دبو جيجه إلى درنية غرب قومانوه وقوچانى وقلقان ولن إلى جبل قوارب ومن هناك يمر من نهر بوجيجه إلى درينة ويلتفت إلى جهة الجنوب إلى حدود غرب قضاء (أخرى) حتى ينتهى إلى جبل ليناس ومنه يمر من غربى كوريجة واستادره ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماء فاستريا ويلتصق بنهر موغلينجه ويسير مع النهر إلى يكجه ويمر عن نهر واردا يكجه ومن مصب نهر واراد وقرية غاليقو وإلى قراء يارغه وصارى كوى وهناك يمر من وسط عين الماء المعبر عنه.

بشيك كل إلى مصب نهرى أستروما وقره صو ومن السواحل إلى بوروكل ويمتد إلى الشمال الغربى ويمر على سلسلة جبل رودوب إلى جبلى جالتپه وأوشوه ويمرّ من جبال أشك قولاج وچيبلون وقره قولاس وجيقلر إلى نهر أرده ويلتفت إلى جهة الجنوب ويمر من قرامسو كوتلى وقره حمزة وارتاد كوى وأقارجى وأپنجه إلى تكه دره سى فى قرب أدرنه ومن تكه دره سى وجورلى دره سى إلى لوله برغوثى ومن هنا وعن نهر جوجق دره إلى قرية سوركن ومنها إلى التلال ويقطع حكيم طابيه سى حتى يتصل بساحل البحر الأسود ويبتدىء أيضاً من صقالبة السواحل ويمر من شمال حدود لواء طوجلى ومن فرق راسوه إلى نهر الطونة.

المادة السابعة: أن أمير الصقالبة يصير انتخابه من طرف الأهالى بالحرية التامة والباب العالى يثبته بانضمام آراء الدول ولا يجوز انتخاب أحد من أقارب دول أوربا الجالسين على سرير الملك للإمارة المذكورة وحينما تنحل الإمارة كذلك يكون انتخاب الأمير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط وقد تقرر أنه ينبغى من قبل انتخاب الأمير أن يجتمع مجلس مشيرى الصقالبة إما فى قلبه وإما فى طرنوه تحت نظارة مأمورين من طرف الروسيه وفى حضور مأمورين من طرف الدولة العلية وتؤسس نظامات هذه الإدارة المستقلة توفيقا لأمثالها أعنى لنظامات المملكتين التى تنظمت فى سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية بعد انعقاد مصالحة أدرنه وعند تأسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق ومنافع الأهالى من المسلمين والروم والأولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع الصقالبة وتقرر أيضاً إحالة تأسيس هذه الإدارة الجديدة فى البلغارستان مع ما يلزم من النظر فى صور إجرائها لعهدة مأمورين موظفين من طرف دولة الروسيه من هنا إلى سنتين وفى انقضاء السنة الأولى من تأسيس الإدارة الجديدة إذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسيه والباب العالى ودول أوربا يكون للدول المشار إليهم حق أن يوظفوا مأمورين برفق مأمورين الروسيه.

المادة الثامنة: ليس لعساكر الدولة العثمانية حق بعد هذا للإقامة فى البلغارستان وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بمعرفة الحكومة المحلية وأن الباب العالى له حق أن يتصرف فى الأدوات الحربية الموجودة فى قلاع الطونة التى صار إخلاؤها من العساكر بموجب سند المتاركة الذى تحرر فى حادى ثلاثين كانون الثانى والآلات الحربية الكائنة فى مدينتى شمنى وورانه وجميع الأملاك المتعلقة بالحكومة العثمانية

كيفما شاء وتبقى عساكر الروسية فى البلغارستان مقيمة إلى أن ينتهى ترتيب العساكر الملية المحليـة الكافية لحفظ الراحـة وتوطيد الأمنية وإذا اقتـضت الحال يقومـون فعلا بإعانة المأمورين وسـيصير تعيين عدد العـساكر الملية بالاتفاق فيـما بين الدولة العلية ودولة الروسية وأن مدة إقامة عساكر الروسـية فى البلغارستان تكون سنتين والعساكر التى تبقى هناك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العلية تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميـعها خمسون ألفا ومصروف هؤلاء العساكر يكون على بلاد الصقالبة ويكون لها طرق مـراسلات فى المملكتين فى شطوط البحر الأسود من جهـة وارنه وبرغوس وفى مدة إقامتـها هناك يكون لها المخازن المقتـضية على الشطوط المذكورة.

المادة التاسعة: أن المرتب السنوى الذى يلزم على البلغارستان إيفاؤه للدولة العلية يتـسلم إلى البنك الذى يعينه الـباب العـالى وهذا البنك يصيـر تعيـينه بمعرفـة دولة الروسية والدولة العـلية وسائر الدول وذلك فى انتهاء السـنة الأولى من ابتداء إجراء أصول الإدارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لإيراد البلاد والأراضى التى تكون فى إدارة الإمارة على الحساب المتوسط والبلغارستان تتعهد بالقيام بالتعهد الذى على الدولة العليـة إلى شركة سكـة الحديد فى طريق وارنة وروسجـق غب المذاكرة المذكورة ومع البـاب العالى وإدارة الشـركة المذكورة ومـسئلة السكة الحـديد الأخرى الموجودة ضمن الإمـارة يصير فصلها بمعـرفة الدولة العلية وحكومة الصـقالبة وإدارة الشركة.

المادة العاشرة: أن الباب العالى له حق أن ينقل ويجلب عساكر ومهمات وذخرة من الطريق المعينة فى داخل البلغارستان إلى الإيالات العثمانية التى وراء البلغارستان ولأجل عدم وقوع مشـاكل فى هذا الخصوص وتأمين الإيجابات العسكرية العـثمانية سيوضع نظام بالاتفـاق مع الباب العالى والإمارة من ابتـداء تعاطى هذه المعاهدة إلى ثلاثة أشهر فى ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظامية فقط دون الباشـبوزق والجـراكسـة والعسـاكر المعاونـة وللباب العـالى كذلك أن يتـعاطى البوسطة من طريق الإمـارة ويستعمل مسـالك التلغراف فى مخابراته فـهذان الأمران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما فى المدة والشروط المحررة أعلاه.

المادة الحادية عشرة: أن المسلمين وغيرهم من أصحاب الأملاك إذا أرادوا الإقامة فى خارج الإمارة لهم أن يحفظوا أملاكهم ويؤجروها أو يفوّضوا أمر إدارتها إلى من

يريدونه ثم إن مأمـور الدولة العلية ومـأمور الصقـالبة يجتـمعان تحت نظارة مـأمور الروسية ويفعلون المسائل المتعلقة بتصرف الأملاك وفى منافع مسلمى الصقالبة وذلك يكون فى ظرف سنتين والأمـلاك الميرية والموقوفة يصيـر تعيين أمرها إمـا بالبيع وإما باستعمالهـا على الوجه الذى يكون فيه النفع الزائد لجهة الباب العـالى ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجـان مخصوصـة محدودة فى السنتين المذكـورتين والأراضى التى تبقى بدون صاحب عند انتقاض السنتين يصير طرحها فى المزاد وتباع ويؤخذ ثمنها ويدفع إلى أيتام وأرامل المصابين فى الأحوال الأخيرة من المسلمين والمسيحيين.

المادة الثـانية عـشرة: أن القلاع الكائنة علي نهر الطونة يصير هدمـها جميعاً ولا يبقى من بعد هذا على سـواحل الطونة قلعة مّا مطلقا ولا يجوز وجـود سفن حربية فى مياه رومـانيا والصرب والصقـالبة سوى السفن الصـغيرة والفلوكات المخـتصة والمستعـملة فى أمور الضبط فقط وحـقوق ووظائف وامتيـازات لجنة الطونه المختلطة تبقى بتمامها على أصلها.

المادة الثـالثـة عـشـرة: أن الباب العـالى يتعهـد بتنظيف البحر فى مـضيق سنه وإرجاعه إلى حاله الـسابق ليصلح لمرورالسفن منه ويتعهـد أن يضمن العطل والضرر الذى حصل للتـجار بسبب منع مـرور السفن من نهر الطونه مـدة الحرب وسيصـير خصم خمـسمائة ألف فرنك من أصل دين لجنة الطونة إلى الـباب العالى لأجل هذا الأمر.

المادة الرابعة عـشرة: أن الإصلاحات التى تبلغت إلى مرخص الباب العالى فى أول جلسة مؤتمر الآستانة ينبغى حـالا وضعها فى موقع الإجراء فى بوسنه وهرسك مع التعديلات التى ستقرر فيما بين دولتى الروسيه وأوستريا ويجب أن لا يطلب من هاتين الإيالتين بقايا الأموال الميـريه وأن لا يؤخذ شيء من الواردات إلى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلهـا فى الاحتياجات المحلية ويسـدّ بها عوز الأهالى والعيال الذين أصيبوا فى الأحوال الأخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبلغ الذى يلزم على الأهالى دفـعه فى كل سنة إلى الحكومة المركـزية بالاتفاق فيـما بين الدولة العلية ودولتى الروسيه وأوستريا.

المادة الخامسـة عشرة: يتعهد البـاب العالى بإجراء أحكام النظام الأساسى الذى وضع فى سنة ثمـان وستـين وستـمائة وألف المخـتص بجزيرة كـريد طبق مطلوب الأهالى الذى بينوه مقدما ويلزم إجراء الإصلاحات المماثلة لنظامات كريد فى ترحاله

ويانيه وفى سائر جهات الروم إيلى التى ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الأهالى المحلية فى كل إيالة لأجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها إلى الباب العالى وهو يتذاكر مع دولة الروسية فى ذلك.

المادة السادسة عشرة: أن خروج عساكر الروسيه من الأرمنستان وإرجاع تلك البلاد إلى الدولة العلية يمكن أن يفضى إلى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهذا يتعهد الباب العالى حالا بإجراء الإصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية فى الولايات التى سكانها أرمن وتأمين المسيحيين من تعدى الأكراد والجراكسة.

المادة السابعة عشرة: أن الباب العالى سيعلن العفو العمومى عن المتهمين فى الأحوال الأخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك.

المادة الثامنة عشرة: أن الباب العالى يتعهد بالتبصر بعين الدقة إلى ما بينه وكلاء الدول المتوسطة فى خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الإيرانية على الوجه القطعى.

المادة التاسعة عشرة: أن مبالغ التضمينات الحربية التى طلبها حضرة قيصر الروسيه هى فى مقابلة الأضرار والخسائر التى تكبدتها دولته بسبب هذه الحرب والباب العالى قد تعهد بدفعها فمن هاته المبالغ أوّلا ـ تسعمائة مليون روبل فى مقابلة مصروف العساكر والأدوات الحربية والأشياء التالفة. وثانيا: ـ أربعمائة مليون روبل لأجل الأضرار الحاصلة فى سواحل بلاد الروسية الجنوبية وفى إخراجات البضائع التجارية وفى طرق الحديد. وثالثاً: مائة مليون روبل فى مقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس. ورابعا ـ عشرة ملايين روبل لأجل الخسائر التى حصلت لتبعة الروسية المقيمين فى الممالك العثمانية ولتأسيساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن مليار واحد وأربعمائة مليون وعشرة ملايين روبل يعنى مائتين وخمسة وأربعين مليونا ومائتين وسبعة عشر ألفا وثلثمائة وأحدا وتسعين ليرة عثمانية وريال مجيدى أبيض ونصف، هذا وأن القيصر المشار إليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتأمل فى مقاصدها التى نوهت عنها فى هذا الشأن فلذلك قد قبل أن تترك الدولة العلية الأراضى المحررة أسماؤها أدناه عوضا عن القسم الأكثر من المبالغ المذكورة. أولا ـ لواء طوالجى يعنى قضاء كيليا وسنه ومحموديه وإيساقجى وياجين وبابا طاغى وخرسوه ولوستنجه ومجيدية والجزائر الكائنة فى نهر طونة قد تركتها الدولة العلية جميعا إلا أن الدولة الروسية

ليس لها فكر بإلحاق هاته البلاد إلى ملكها بل إنها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التى أخذت منها بموجب معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف فحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من أراضى كيليا ومصب نهر الطونة والجهات التى يصطادون بها السمك فى النهر يصير تفريقها بمعرفة مأمورين من طرف الروسيه ومن حكومة المملكتين فى برهة سنة واحدة اعتبارا من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة.

ثانياً ـ أردهان وقبرص وباطوم وبايزيد مع الأراضى المحاذية لها إلى جبل جوغانلى سيصير تسليمها إلى دولة روسيه وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا أعنى يبتدىء الخط الفاصل من الجبال التى فيما بين المياه الجارية والمنصبة فى نهر هويا وجوروق ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة فى جنوب قضاء وارتوين ومن جوار قريتئ والات وبشاكت ومن فوق درونيسك وكفى وهوجسه زاد ويحقين صاغ ومن الجبال الفاصلة للمياه التى تختلط بنهرى تورقم وجورف ومن فوق قراء يالى وهين ولم كليسا إلى أن ينتهى لنهر تورتم ومن هناك يمر من سيورى طاغ ومن مضيق سيورى طاغ ويتصل بقرية نريمان ويلتفت إلى وجهة الجنوب حتى يصل إلى زوين ومن زوين يمر من غربى طريق أردوست خراسان إلى جنوب جبل جوغانلى ويتصل بقرية كيلجمان ومنها يمر من جبل تريا ومن قرية خمير ومن أون رست مسافة ومن تلال طاندور ومن جنوب وادى بايزيد وينتهى فى الجهة الجنوبية من قازلى كول وهذا المحل هو الحد الفاصل قديما فيما بين حدود أرض الدولة العلية وأراضى دولة إيران وإن الأراضى التى صار إلحاقها بممالك الروسية ومذكورة فى الخريطة المربوطة لهذه المعاهدات يصير تعيين حدودها قطعيا بمعرفة مأمور من طرف الروسية ومأمور من طرف الدولة العلية وهما يلاحظان قواعد تخطيط الأراضى وأسباب تأمين حسن الإدارة.

ثالثاً: إن الأراضى التى صار تركها للدولة الروسية كما هو محرر أعلاه قد اعتبرت بمبلغ مليار ومائة وعشرة ملايين روبل وأما الباقى من التضمينات وهو ثلثمائة مليون روبل ما عدا العشرة ملايين روبل التى هى فى مقابلة خسائر تبعة الروسية وتأسيساتها فستتفق دولة الروسية مع الدولة العلية على قضية دفعها وتأمين وفائها.

رابعاً: إن العشرة ملايين روبل التى تخص التبعة الروسية ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا. أعنى أن سفارة الروسية فى الاستانة تجرى التدقيقات اللازمة بهذا الشأن على طلبات أرباب الشأن وتعرض الكيفية على الباب العالى وهو يجرى التسوية على مقتضى تبليغات السفارة.

المادة العشـرون: أن الباب العالى يتعهد بأن يستـعمل التدابير المؤثرة سريعاً فى حسم الدعاوى المتنازع فـيها منذ سنين عديدة المتعلقـة بتبعة الروسيـة وأنه إذا اقتضى الأمر يدفع تضمينات وينفذ أحكام الإعلامات.

المادة الحـادية والعشـرون. أن أهالى البلاد التى سلمت إلى الروسـية إن أرادوا الهجرة منها لم أن يبيعوا أملاكهم وأراضيهم ويهاجروا وقد أعطى لهم مهلة فى ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطى هذه المعـاهدة فالذين لا يبيعـون أملاكهم فى هذه المدة ولا يهاجرون يدخلون فى حكـم الروسية عند انقضاء تلك المدة. والأمـلاك الأميرية والموقوفة يصير بيعها على حسب الأصـول التى يعينها مأمور الروسية ومأمور الدولة العلية فى بحر السنين المذكورة وهما يتممان إيفاء كيفية نقل الأدوات الحربية الموجودة فى المحـلات التى هى الآن فى يد الروس سـواء كـانت من البـلاد التى سلمت إلى دولة الروسية أو غيرها.

المادة الثـانية والعشرون: أن القسيسـين والزوار الذين يسكنون أو يسيحون فى الممالك الـعثمـانية فى الروم إيلى والأناضـول من تبعـة الروسيـة سينالون الحـقوق والامتيازات التى ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سوية وسفارة الروسية الكائنة فى الاستانة وقناصلها يحمون حقوق أولئك الأشخاص وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودون فى الأماكن المقدسة وبالخصوص فى اينورز فهم حائزون حقوقهـم التى كانوا حائزين عليها فى السابق ويحـفظون الديارات الثلاثة الكائنة فى اينورز مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديارات والمؤسسات، المذهبية الكائنة لغيرهم هناك سوية.

المادة الثالثـة والعشرون: أن المعاهدات والمقاولات التى كانت مـوجودة فيما بين الدولة العلية والروسـية المتعلقة بالتجـارة المحاكمة وبتبـعة الروسية المقـيمين فى بلاد الدولة العلية وتعطلت أحكامها بسبب هذه الحرب ينـبغى أن تجرى أحكامها كما فى السابق وأن دولتى الروسية والعثمانية قد أعاداتا العلاقات إلى سابق مجراها قبل هذه الحرب فى الأمـور التجـارية وغيـرها فيـقتضى إحـكام عرى المعاهـدات والمقاولات المذكورة ما عدا الموادّ التى نسختها هاته المعاهدة.

المادة الرابعـة والعشـرون: أن خليج الاستانة وخليج جناق قلعـة سواء كان فى زمن الحرب أو زمن الصلح يكون مـفتوحا للسفن التـجارية التى تريد المرور منه إلى بلاد الروسية مـن الدول التى تكون على الحيادة والباب العـالى ليس له من بعد هذا

أن يستبدّ بمراقبة الشطوط الواقعة فيما بين البحر الأسود وبحر الأزاق المخالف لمضمون معاهدة باريز التى صار إمضاؤها فى رابع أبريل سنة ١٨٥٦ ست وخمسين وثمانمائة وألف.

المادة الخامسة والعشرون: أن عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العلية الكائنة فى أوربا بالروم إيلى ما عدا البلغارستان وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعى إلى ثلاثة أشهر هذا وأن العساكر المذكورة لهم أن يأتوا إلى الأساكل الموجودة فى البحر الأسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب فى السفائن التى تحضرها أو تستأجرها دولة الروسية حتى لا يكونوا مجبورين على تحديد مدة الإقامة فى الممالك العثمانية وفى رومانيا وأما خروج عساكر الروسية من الأناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعى بستة أشهر ولهم أن يأتوا إلى طرابزون لأجل الركوب فى السفن ومن هناك يسافرون إلى القريم أو القوقاى.

المادة السادسة والعشرون: أن قواعد الإدارة والأوامر التى وضعتها دولة الروسية فى البلاد التى دخلتها عساكرها والتى ينبغى تسليمها إلى الدولة العلية بموجب هذه المعاهدة تكون باقية وجارية إلى حين قيام العساكر منها وليس للباب العالى المشاركة فى الأحكام ولا للعساكر العثمانية الدخول إليها قبل ذلك بناء على هذا فإن أمير عساكر الروسية يخبر الضابط الذى يعينه الباب العالى عن سفر عساكر الروسية وليس للباب العالى أن يجرى الأحكام من قبل أن تسلم له القلاع والإيالات.

المادة السابعة والعشرون: أن الباب العالى لا يجازى أحدا بسوء من تبعته الذين لهم علاقة مع دولة الروسية فى زمن الحرب وليس لمأمورى الدولة العلية أن يمنعوا أو يوقفوا أحدا من الأهالى الذين يرغبون أن يسافروا مع العساكر الروسية.

المادة الثامنة والعشرون: أن أسرى الحرب يصير إرجاعهم تحت ملاحظة مأمورين مرتبين من طرف الدولتين وذلك عقب تعاطى مقدمات الصلح وهؤلاء المأمورون يسافرون إلى أودسة وسيواستابول وأما مصروف أسراء العساكر العثمانية فتدفعه الدولة العلية فى ظرف ست سنوات على ثمانية عشر قسطا بموجب الدفتر الذى يحرره المأمورون المذكورون وأما قضية مبادلة الأسرى فيما بين حكومتى دونيا والصرب وإمارة الجبل الأسود فيصير إجراؤها على هذا الأساس إلا أنه يصير تنزيل العدد الذى تستلمه الدولة العلية من العدد الذى تستلمه من الأسرى.

المادة التاسعة والعشرون: أن حضرة إمبراطور الروسية والحضرة السلطانية

سيثبتون هذه المعاهدة ووثائق الاتفاق تكون معاطاتها فى سان بطرسبورج فى ظرف خمسة عشر يوما أو بوجه أسرع من ذلك إن أمكن وكذلك يجرى التصديق رسميا على الشروط المذكورة فى هذه المعاهدة على حسب الأصول الجارية فى المعاهدات الصلحية وأن الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطى المعاهدة تعدّان أنفسهما رسميا بأنهما متعهدتان بأن مرخصى الطرفين قد أمضوا هذه المعاهدة كما يأتى تصديقا لمضمونها (انتهت كما رقمها صاحب الجوائب) ثم جاء بعد ذلك ما نصه: إن معاهدة مقدمة الصلح التى صار إمضاؤها فى هذا اليوم أعنى فى تاسع عشر شعبان وثالث إدار سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية قد حصل سهو بها فى الجملة الأخيرة من المادة الحادية عشرة فلذلك زيدت العبارة الآتية واعتبرت جزءاً متمما للمعاهدة المذكورة وهى:

أنَّ الذين يقيمون أو يسيحون فى الممالك العثمانية من أهالى البلغارستان يكونون تابعين للقوانين العثمانية انتهى.

قال بعض كتاب الأخبار: فلم تكن لترضى هذه المعاهدة سكان البلاد المنسلخة عن السلطنة العثمانية ولا بقية الدول وعلى الخصوص منها دولة الإنجليز فإنها أصبحت وكأن الطير على رؤوس كبار سياستها فقد هاجوا وماجوا وأوعزوا إلى دولة النمسا فقام أصحاب الكلمة فيها يطالبون بحل عقد هذا التحالف ويرمون دولة الروس بالخديعة والمكر ويقولون لا سبيل إلى ترك بوسنة وهرسك مضغة لينة لغيرنا ولابد من أخذ مينا سلانيك لتغنينا عن تريستا التى أكثرت إيطاليا تهديدنا ووعيدنا بسببها وكتب كبير سياسة الإنجليز إلى دولة الروس يقول إن كل عمل تأتيه الروسية مع الدولة العلية مخالفا لنصوص معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف المبرمة فى عاصمة الفرنسيس لا يعمل به إلا برضا جميع الدول الضامنة لتلك المعاهدة وسألت دولة النمسا بقية الدول فى عقد مؤتمر فى مدينة برلين عاصمة الألمان للنظر فى مدعياتها فأجابتها إلى ذلك واشترطت دولة الإنجليز أن يكون لأعضاء هذا المؤتمر حق النظر فى جميع مواد معاهدة سان اسطفانوس والإتيان عليها من سائر أبوابها فمانعت دولة الروس فى ذلك وشددت فى المنع وعظم الخلاف بين الروس والإنجليز واستفحل الخطب وجعل كل فريق يتأهب لقتال الآخر وكثر إهتمام الإنجليز بحشد الجنود وإعداد معدات القتال وجعل سفن حربهم على قدم الاستعداد أمام جزيرة مالطة واستقدموا عدة طوائف من عساكرهم الهندية إلى الجزيرة المذكورة كى يكونوا على مقربة من دار السلطنة عند الحاجة إليهم وبالغت دولة الروس كذلك فى حشد

الجنود وتسليح الكثير من سفن التجارة بالمدافع الضخمة لتسحق بها سفن تجارة الإنجليز عند انتشاب الحرب بين الفريقين واشتد الخوف وعم الاضطراب وقامت الفتنة فى البلغارستان وخرج من بها من المسلمين على الروس وقاتلوهم وتحصنوا فى الجبال فعز على الروس إرجاعهم إلى الطاعة وعمت الفتنة جميع البلغارستان وضواحى صوفيا إلى حدود الصرب واشتدت وبقى الحال هكذا أياما ومراكب حرب الإنجليز راسية أمام دار السلطنة وعساكر الروس حولها من كل صوب ودخل الصيف وزال الشتاء فتفشت الأمراض فى عسكر الروس ووقع فى الجند الموات فكبر الأمر على القيصر وسير إلى خاله إمبراطور الألمان فى الوساطة بينه وبين الإنجليز وأنفذ إلى سفيره بعاصمة الإنجليز فى ذلك أيضاً فانفتح باب المخابرة فى الصلح والوقوف عند حدّ يكون فيه المصلحة للفريقين ثم اتفق الروس والإنجليز على عقد المؤتمر فى برلين عاصمة الألمان كطلب دولة النمسا وكتبوا إلى البرنس بسمارك كبير سياسة الألمان فى أمر ذلك فأنفذ إلى بقية الدول بأن تبعث سفراء من قبلهم فجاءت سفراؤهم إلى برلين بعد أخذ وردّ وانعقد المؤتمر وتكلموا فى معاهدة سان اصطفانوس وفيما يجب تغييره من أحكامها. قال بعض الكتاب: وقال اللورد بيكنشفيلد كبير سياسة الإنجليز يومئذ: ولماذا لا تنسحب العساكر الروسية عن ضواحى دار السلطنة العثمانية فأجابه البرنس غورتشاكوف كبير سياسة الروس حتى تنسحب السفن الإنجليزية من مياه القسطنطينية فعارضه بيكنشفيلد فى ذلك وردّ عليه غورتشاكوف وعلت أصواتهما واشتد بينهما اللدد وكاد ينحل عقد المؤتمر لولا وساطة بسمارك وحسن سياسته، وما زال المؤتمر يوالى جلساته حتى تم الاتفاق على ما أرادوه وكتبوا به عهدا فى عاشر رجب سنة خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أى ثالث عشر يوليو سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وهو المعروف بمعاهدة برلين وهى تحتوى على أربع وستين مادة قد أضربنا عن إيرادها هنا وكان من أحكامها انفصال ولاية البلغار انفصالا تاما عن ممالك الدولة العثمانية وتسليم البوسنة والهرسك إلى دولة النمسا والمجر تسليما لا رد بعده وإعطاء اليونانية جزءاً من أراضى الدولة العلية توسيعا لحدودها وكذلك اتسعت حدود الصرب وحدود الجبل الأسود وإعطاء أمير الجبل المذكور مينا انتبغارى المهمة الواقعة على بحر الأدرياتيك وقد نالت كذلك دولة فارس جزءاً من الأملاك العثمانية أسوة بغيرها أما دولة الإنجليز فإنها لم تكتف من الغنيمة بالإياب بل أخذت جزيرة قبرص على شروط

وعهود قد أضربنا عن إيرادها هنا وانقضت تلك الحرب المشئومة وقد خسرت فيها السلطنة العثمانية من المال والرجال والأراضى ما كاد أن يخلخل أركانها بل يقوض بنيانها ويمحى ما بقى من آثار مجدها القديم والأمر يومئذ لله الواحد القهار.

لماعادت الأمور إلى سابق مجراها أظهر السلطان ميله إلى موالاة الروس ومحبة قيصرهم وكرهه لسياسة الإنجليز ثم عمد إلى قطع شأفة المفسدين وأصحاب السعاية والفتن والمتحيزين للإنجليز من كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية ورسم بتحقيق مقتل عمه السلطان عبد العزيز وقد بث العيون والجواسيس حول جميع من كان لهم يد فى تلك الفتنة وشدد فى الأمر وقيد بذلك جماعة من كبار المحاكم فقبضوا على كل من ظهرت تهمته فى ارتكاب هذه الجناية، قال أحد الكتاب: فكانوا خمسة عشر شخصاً منهم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك ونورى باشا ومحمد جلال الدين باشا أصهار السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام والسلطانة والدة السلطان مراد وأربعة آخرون وقد أثبتوا عليهم ارتكاب هذه الجناية الشنعاء.

فلما كان رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية انعقدت محكمة القضاء لمحاكمتهم فأتى بهم أمام دائرة الجنايات وكانت هذه الدائرة مشكلة من رئيس اسمه تيمستوفل خرستو فوتيادى يونانى الجنس عثمانى التبعة وثلاثة قضاة آخرين أحدهم أرمنى واسمه إسكندر أفندى والاثنان مسلمان وتعين لرئاسة الجلسات التى عهد إليها النظر فى هذه الدعوى سرورى أفندى رئيس دائرة محكمة الاستئناف وهو الذى تولى التحقيقات الابتدائية وقد حضر فى قاعة الجلسة السفراء والوكلاء وقناصل سائر الدول وموظفو الحكومة وأرباب المناصب العالية وكتاب صحف الأخبار فلما استقر بمن حضروا المقام نودى على المتهمين وقد كانت نصبت لهم خيمة كبيرة بجانب حرس مالطة على بعد من سراية يلدز فحضر أوّلا مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك وفخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك ثم استحضروا نورى باشا ومحمد جلال الدين باشا، وكان المدعى العمومى اسمه لطيف بيك، فافتتح الرئيس الجلسة وأخذ فى تعريف المتهمين وقد محض النصيحة للمحامين الذين انتدبوا للدفاع عنهم، ثم أشار بتلاوة المثبت فى صحيفة التحقيق وأوراقه فجعل يتلوها عز الله أفندى باشكاتب الدائرة واستمر فى تلاوة هذه الأوراق نحو ثلاث ساعات فكان حاصل ما فيها:

أنه بعد خلع السلطان مراد وجلوس السلطان عبد الحميد على سرير الملك رسم بترتيب مصروفات السراى السلطانية. وبحث فى أمر المرتبات فوجد أن ثلاثة أشخاص من صغار المأمورين عين لهم مائة ليرة عثمانية معاشا شهريا فبحث عن سبب ترتيب هذا المعاش لهم، فعلم أنه ترتب لهم مكافأة على قتل المرحوم السلطان عبد العزيز وهؤلاء المأمورون هم: مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا، فلما سئلوا عن ذلك اعترفوا بالحقيقة وقالوا: إن محمد جلال الدين باشا ونورى باشا أصهار الحضرة السلطانية هما اللذان أغرياهم على فعل القتل، وأن محمود باشا زودّهم بما يلزم فعله وزادهم علما به نورى باشا وشدد عليهم بكتمان الأمر بأيمان القسامة، وقد وافق على إجراء هذا الفعل العظيم هيئة تألفت من: محمد رشدى باشا الصدر الأعظم، ومدحت باشا، وحسين عونى باشا، وخير الله أفندى شيخ الإسلام فإنهم كانوا استصدروا من السلطان مراد قبل خلعه فرمانا بأن لا يقع فى داخلية السلطنة وخارجها شيء إلا بأمر هذه الهيئة، فظهر من التحقيق أن قتل السلطان عبد العزيز كان بموافقة رأى هذه الهيئة وثبت أن المتآمرين كان من قصدهم أيضاً اغتيال جميع العائلة السلطانية حيث دعوهم جميعاً إلى مأدبة أعدها جلال الدين باشا فى قسطية فى أعالى بك أوغلى فأحسوا بالمكيدة وامتنعوا عن الذهاب إلى تلك الناحية، وبناء على ما ظهر فى هذه القضية حكمت النظارة (لعلها دائرة التحقيق عندهم) على المتهمين الذين هم: محمد جلال الدين باشا، ونورى باشا، ومدحت باشا، ومحمد رشدى باشا، وخير الله أفندى شيخ الإسلام، والسلطانة والدة السلطان مراد بالأشغال الشاقة إلى أمد طبقاً للمادة الحادية والتسعين من قانون العقوبات، وعلى السلطان مراد بهذا الجزاء أيضاً، وبأن يعافى من ذلك لاختلال عقله، وحكمت بالقتل على فخرى بك، ومصطفى الجزايرلى، ومصطفى البهلوان، والحاج أحمد أغا، ونجيب بك، وعلى بك وسعيد بك، ورضا بك طبقا للمادة المائة وسبعين من قانون العقوبات، وبعد تلاوة الأوراق لخص سرورى أفندى الرئيس الدعاوى وأخذ فى استنطاق المتهمين فسأل مصطفى البهلوان أولا: فقال:

قد استدعانى محمد جلال الدين باشا يوما وقال لى: إنه رتب لى مائة ليرة عثمانية فى كل شهر، ولرفيقى مصطفى الجزايرلى أيضاً على أن نقوم بمهمة قتل السلطان عبد العزيز بواسطة فتح عروقه بمقرض أعده لنا، ثم استدعانى نورى باشا أنا ورفيقى وأوصانا بما ذكر وبالغ فى الوصية وشدد علينا فى الأمر، وقال: لم يبق

لنا حيلة سوى الخلاص من أسر هذا السلطان واسترقاقه لنا. واستحلفنا على كتمان السر فحلفنا فناول كلا منا ثلاثين ليرة عثمانية. فلما كان عصر اليوم أدخلنى نجيب بيك وعلى بيك الضابطان اللذان كانا يحرسان السراى بأورطة كوى أنا ورفاقى وأربعة من الخصيان إلى مقر السلطان عبد العزيز فقتلناه بحضرة فخرى بك وهو الذى قبض على السلطان من كتفيه ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا قبضا على ساقيه بعنف وشدة كى لا يستطيع التخلص فقبضت أنا على ذراعه وقطعت أوردته ثم على الثانى وفعلت به كذلك وهو يصيح ويستغيث، وكان نجيب بك وعلى بك فى هذا الحين يحرسان باب الدائرة فلما قضى السلطان نحبه حملوا جثته وهى ملفوفة ببعض الثياب ووضعت فى حجرة قهوة وجاق الحرس على حصير من القش كانت هناك.

فسأله الرئيس ـ أصحيح ما قيل أن السلطان كان به رمق من الحياة حين نقل به إلى الحرس. فقال البلهوان: لا علم لى بذلك غير أنى أظن أنه كان قد مات وشبع موتا.

فالتفت الرئيس إلى الحاج أحمد أغا وسأله فاعترف ولم ينكر من فعله شيئاً، ثم سأل مصطفى الجزايرلى فتلعثم وتلون واختلفت أقواله عما اعترف به فى التحقيق الابتدائى، ثم قال: إن ما قلته من أن نورى باشا قد حلفنا اليمين بأن نقتل السلطان ونكتم سر ذلك خطأ منى، فإن نورى باشا لم يأمرنا بشىء من ذلك بل أوصانا بأن نخدم السلطان أحسن خدمة وأن نقترب من مقامه إن شاء أن نكون بحضرته وأن نعتنى بحراسة مقره غاية الاعتناء فعملنا بما أوصانا به إلى أن قتل السلطان نفسه ـ فقال الرئيس ـ أو لم تشترك مع رفاقك فى قتل السلطان؟ فقال: حاشا فقد كنت وقت قتله فى أسفل الدائرة فلما سمعت الغوغاء صعدت مع من صعد من الناس لأعرف الخبر فوجدت أن السلطان قد قتل، فقال الرئيس: قد خالفت ما اعترفت به فى التحقيق الأول، فقال: أخطأت مرادى أن أقول سمعت الغوغاء فتوهمت حريقا فى السراى فهرولت إليها فقالوا لى إن السلطان قتل نفسه.

فنظر الرئيس إلى فخرى بك وسأله فقص ما وقع من السلطان عبد العزيز وانتقاله إلى طوب قبو وإقامته بها بعد أن كتب ورقة إلى السلطان مراد وهو فى سراى شراغان ثم قال: إن السلطان عبد العزيز ما دخل هذا المكان حتى بدأت تظهر عليه علامات الجنون والهذيان، فقد رأى حزمة فى أرض الجنينة لتذويب الكلس

فاضطرب منها. وقال إنها من عـلامات السوء ودلائل النحس، ثم سمع طلق مدفع فقال: إن أهل البـلاد انقسموا إلى حزبين وها هم يتضـاربون من أجله ـ قال: وكان السلطان يقول: إنه لابد من أن يقتل كما قتل السلطان سليم، واتفق أن رأى نفرا من الجند يدخنون السيجار تحت شـبابيك السراى فجعل يشتمـهم ويعزرهم على كفرهم بالإحسان ـ ورأى مركبا حربية آتية لترسو تجاه قصره فصاح مناديا بأنهم لا يلبثون أن يطلقوا القنابل على مقره ـ قال: وفى تلك المدة دعيت إلى حرس أورطة كوى حيث كان نجيب بك وعلى بك فأخبـرانى بأن عندهم ثلاثة أشخاص لابد من إدخالهم إلى مقـر السلطان تنفيذا للإرادة الشـاهانية، وأن هؤلاء الأشخـاص مأذونون بنقل بعض المتاع من السراى فـعارضتهـما ولكن اضطررت بعيد ذلك إلى الإذعـان فدخلوا وقد رجعت إلى مقر السلطان فكنت أرى علامـات الجنون تزداد عليه حتى كان يتوهم أن سقف السراى يلتهب نارا وأن الأعداء أوقدوا فيه النار عمدا، وقد طلب مرآة ومقصا لكى يهندم لحيتـه وكنت أمرت أن لا يعطى شيئـاً ولكن بالرغم عنى أعطوه ما طلب فانزوى فى مـخدعه وقـفل بابه فحضـرت إحدى جوارى والدته وجـعلت تنظر من الطاق لتعرف ما الذى يفعله فلما لم تتمكن من ذلك صاحت وعلا صوتها فأسرعت إلى الدائرة فوجـدته مطروحا غريقا فى دمـه ـ فقال الرئيس: قـد كان عند السلطان سيف السلطان سليم فـهل أخذت ذلك السيف؟ فقـال: نعم ولكن وضعته مـع بقية الأشياء التى أخذت بأمـر الذات السلطانية ـ فقال الرئيس: لمن سلمتـه ـ فقال أدخلته من الطاق وأعطيته لأحد الحراس ـ الرئيس: من هو هذا الحارس ـ لا أعرف اسمه.

الرئيس: قد نظروك مساء وأنت تتكلم فى مـوضع الحرس مع جلال الدين باشا وحسين عونى باشا ونورى باشا.

نعم: قد كانوا استدعونى ليتحدثوا معى بشأن خدام السراى.

الرئيس: لمن سلمت السـيف ؟ لا أعرف ـ لا يخطر لعـاقل على بال أنك تكون سلمته لمن لا تعرفه.

ثم سئل نجيب بك الذى كان متوليا رئـاسة حراسة الباب المشرف على الرصيف فى أمر مقتل السلطان فـأنكره، وأكد أنه قتل نفسه ـ قال: وقـد كنت مكلفا بحراسة متاع السلطان المأخوذ من السراى فـفى ليلة هذه الحادثة ذهبت إلى سراى دولمه بغجه حيث تقابلت مع جلال الدين باشا وأخـذت منه سلسلة من ذهب وساعة ثم رجعت إلى مقر السلطان عبد العزيز ومعى ثلاثة من الخدام وأربعة من الخصيان مرسلين بأمر

السلطان مراد فقضيت ليلتى تلك بغاية الطمأنينة، وبينما أنا راقد فى الليل إذ سمعت غوغاء فانتبهت ورأيت ما جرى وعلمت أن السلطان قتل نفسه.

الرئيس - إن بعض المتهمين قالوا إنك كنت قائما بالباب عندما كانوا يباشرون فعل القتل - فقال - ليس ذلك بصحيح - فالتفت الرئيس إلى محمود باشا، وقال: قد ظهر أنه بعد جلوس السلطان مراد على التخت الملوكانى كانت تشكلت هيئة فى السراى بإرادة سلطانية، فصار من المحتم أن كل شىء يقع فى البلد لا يكون إلا بإشارة هذه الهيئة فهلا كنت عضوا عاملا فيها؟ - فقال محمود باشا: لا علم لى بوجود هذه الهيئة ولم أكن من أعضائها، نعم إنه فى ثانى يوم جلوس السلطان مراد توجهت إلى السراى فكلفونى بقبول منصب إحدى الوزارات، وفى اليوم التالى بقيت فى السراى ولا أعلم ألبتة بهذه الهيئة - فقال الرئيس - لقد صرح أدهم أفندى ونورى باشا بما يخالف ذلك - فقال محمود باشا: كذبا فيما قالا.

الرئيس - علمنا أنه لما نقل السلطان عبد العزيز إلى سراى طوب قبو طلب منك أن تنقل إليه جميع أمتعته وعهد إليك أيضاً المحافظة عليه حين نقله بعيد ذلك إلى سراى قرية، فأنت حينئذ الذى حافظت على مقر السلطان مع نجيب بك وعلى بك من كبار العسكر، فقال: حاشا حاشا وكلا لم يعهد إلى بأن أخفر السلطان فى مقره - فقال الرئيس - وأين كنت ياترى ليلة مقتل السلطان - فقال: كنت فى دارى بالفندقلى إلى أن توجهت إلى محمد رشدى باشا - فقال الرئيس - محمد رشدى باشا يكذبك فإنهم قد نظروك ليلة قتل السلطان وقبل حصول القتل بساعة فى الحرس تتكلم مع فخرى بك ونجيب بك وعلى بك - فقال: لم يحصل شىء من ذلك ألبتة - فقال الرئيس - الشهود عليك كثيرون وذكر له أسماء الشهود - فقال محمود باشا كلهم يكذبون فيما يدعون - فقال الرئيس - قد نظرك القبطان راسم يوم نقل أمتعة السلطان تكسر صندوقا مدهونا بدهن أخضر - فقال محمود باشا: قد حصل وقت النقل ضرر ولم يمكن منع وقوعه - فقال الرئيس - هل توجهت إلى محل الحادثة عندما علمت بها؟ فقال: لالا - قال الرئيس - ومن أين إذًا علمت بهذه التفاصيل - فقال: علمت بها من صحف الأخبار التى تكلمت عنها.

فالتفت الرئيس إلى نورى باشا وقال: من الذى دعاك ماريشال السراى أى أمير أمراء جند الحرس السلطانى - فقال: السلطان مراد هو الذى دعانى بهذا الاسم - فقال الرئيس - قد شكلت بعد جلوس السلطان على تخت السلطنة هيئة فى السراى

فممن ياترى كانت هذه الهيئة مؤلفة؟ ـ فقال نورى باشا: كانت مؤلفة من محمد رشدى باشا ومحمد جلال الدين باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام وكنت أنا من أعضائها أيضا ـ فقال الرئيس ـ إذا ما هى الأعمال التى نيطت بتلك الهيئة؟ ـ فقال: هى جميع الأشغال وقد كان لابد من عرضها عليها بحيث لا يقع فى الدولة شيء بدون آرائها حسبما أمر به مولانا السلطان ـ الرئيس ـ ومن الذى بعث بالثلاثة رجال إلى مقر السلطان عبد العزيز؟ ـ فقال: أرسلهم المباينجى سعيد باشا حيث أتى بهم إلىّ بأمر سلطانى، وبما أنى مارشال السراى كان لابد من مخابرتى فى جميع الأمور فأرسلتهم بصفة كونهم خدمة إلى مقر السلطان عبد العزيز وأوصيتهم بأن يحسنوا الخدمة ما استطاعوا ـ الرئيس ـ هل أعطيتهم تعليمات سرية؟ حاشا فإنى أدخلتهم فى مخدعى بحضور كثير من الناس وكلمتهم عما لزم جهارا، ثم ذكر أسماء الذين كانوا حاضرين وقتئذ ـ الرئيس ـ كيف هذا مع أن مصطفى الجزايرلى قد قرر خلاف ما ذكرت وقال: إنك طلبت منهم كتمان السر وإنك حلفتهم يمين القسامة؟ ليس ذلك بصحيح ألبتة ـ الرئيس ـ هل توجهت إلى محل القتل؟ ـ نعم عندما علمت أن السلطان عبد العزيز جرح نفسه توجهت واستدعيت ماركو باشا طبيب المرحوم السلطان فأتى ومعه أطباء آخرون وجعلوا يفحصون أسباب الموت فحصا طبيا وكتبوا تقريرا بما رأوه غير أن ماركو باشا أبى أن يوقع على التقرير وتشاجر مع بقية الأطباء.

فتقدم محمود باشا وأنكر أقوال نورى باشا وكرر القول بأنه لا يعلم ألبتة بتشكيل تلك الهيئة ـ فقال الرئيس ـ كيف وقد قلت واعترفت بأنك أنت الذى أوصيت نورى باشا بمصطفى البهلوان ـ فقال: إنى لم أر البهلوان سوى مرة واحدة من نحو الخمسن عشرة سنة فى ناحية جاملجة وأوصيت نورى باشا به ولم يكن فى خدمتى أو يتردد علىّ قط قبل الآن.

ثم دخل مدحت باشا وبيده مفكرات ودفاتر فأوقف موقف المتهمين وعلامات السكون تنطق من وجهه فمدت إليه الأعناق وأحدقت به الأبصار وقد وضع ذراعه على رأس كرسى كان أمامه ـ فقال له الرئيس ـ يتلو عليك الكاتب الآن ما يتعلق بك مما ورد فى أوراق الدعوى ـ فأجاب مدحت قائلا: قبل أن أسمع هذه التلاوة أقول ويحق لى أن أقول إنى أعد نفسى سعيدا إذ دعيت لأبرىء نفسى من تبعة جناية أمام هيئة علانية ويجب على فى هذا المقام أن أمتدح غيرة ومساعى المأمورين بالقضاء

إذ رغبوا فى أن يقوموا حق القيام بمأموريتـهم فتصرفوا بنوع من العجلة وحكموا قبل أن يقضوا وينبغى على هذا تقديم واجب الاحتـرام لشعائر العدل المتصف بها جلالة مولانا السلطان حيث تنازل وأمر بكشف خفايا هذه المسئلة فى محاكـمة علنية وهى خطوة عظيمـة نحو الحـرية فما تم مـقاله حتى جـعل الكاتب يتلو مرسـوم الإحالة وأوراق الدعوى، وقـبل أن تتم تلاوة جمـيع الأوراق عاد مـدحت باشا إلى سـياق مقالته الأولى فقاطعه الرئيس وقال: يجب عليك السكوت فإن إدارة المحكمة هى من خصائص الرئيس لا المتـهم، ثم قال له: قل ما تعلمه من أمر الهيـئة التى كانت فى السراى. فقال: لا علم لى بوجود الهيئة المذكورة بل الذى أعلمه أن مجلس الوزراء هو الذى كان وحده يدبر جميع أمـور الدولة، وإنى كنت أحد أعضائه ولم نؤمر قط بقـتل السلطان عبـد العزيز، فـقال الرئيـس: من الذى أمر بأن يؤخـذ من السلطان المخلوع سيف السلطـان سليم ؟ فقال مدحـت باشا: أتعنى بذلك بعد الخلع؟ فـقال الرئيس: نعم، قال: قـد أمر بعد نقله إلى سـراى طوقبو أن يبـعد عنه كل نوع من الأسلحة ولم يكـن لذلك من سبب سوى الخـوف على حياته ـ الـرئيس ـ متى تمت وفاة السلطان؟ فـقال مدحت باشا: يوم الأحـد توجهت إلى الباب العالـى لأحضر الجلسة التى كان مـزمعا عقدها فوصلت إليـه ولم أجد أحدا فسألت عن الخبـر فقيل لى: أنّ المستشار سعـيد باشا أفندى هو وحده موجود هنا، فسألـته عن سبب غياب الوزراء فأخـبرنى بالحادثة فراعنى الخـبر بل كدّرنى جـدا خصوصا وقـد خطر ببالى وقتئـذ ما يترتب على ذلك من مـؤاخذة الكثير من خلق الله فى هذه الحـادثة بمجرد الشبهة ـ الرئيس ـ لكن سعيد باشا أفندى المذكور يكذب قولك، فقال مدحت: ليس لتكذيبه عندى أهمـية فبعد أن سـمعت هذا الخبر بارحت البـاب العالى وسرت إلى دولمه بفنجـه قاصدا حـرس أورطة كوى حيث كـان هناك جمـاعة الوزراء وجم من العلماء وغيرهم من أهل المراتب وتسعة عشر طبيبا فكلهم قالوا لى مع فخرى بك إن السلطان قـتل نفسه فلم يسـعنى إلا التصـديق كسائر من سـمع الخبـر من الحراس ـ الرئيس ـ قالوا إنهم وجدوا عدا الجروح التى كانت فى ذراعـيه جرحا آخر فوق ثديه الشمـال وآثارا أخرى شـديدة تدل على أنه قتل مـقهورا وحـيث إنك كنت فى ذاك الحين وزيرا فكان من واجـباتك أن تأمر بالفـحص فى أمر قتله، فقـال مدحت: إذا اعتبرتمونى لأجل ذلك مسئولا وجب إذا جعل جميع الوزراء الآخرين مسئولين مثلى ولكنى لست أراهم قائمين بجانبى فى هذا الموقف حتى أقـتسم بينى وبينهم مسئولية

عدم أمرهم بإجـراء الفحص ـ الرئيس ـ هل كان فى السلطان رمق من الحـياة عندما نقلت جثته إلى وجاق قهوة الحرس؟ فقال مدحت: لا علم لى ألبتة بذلك ـ الرئيس ـ كيف ومحمـد رشدى باشا لا يقول ما قتله أنت الآن؟ فـقال مدحت: ذلك ممكن وقد قرر محمد رشدى باشا أمورا أخرى كثيرة من هذا القبيل ـ الرئيس ـ إن المجلس يرغب أن يسألك أيضـاً عن الأسباب التى حـملتك على الالتجاء إلى دار قـونصلية فرانسا، فقـال مدحت باشا: هذه الحادثة تحتاج للتفـصيل ولكنى مع ذلك أقول: إنه قـد كانت وردت لى مكاتبـات من الآسـتانة تعلمنى بـكل ما كـان يقال فى حـقى وكشفت لى عن التهمة التى رميت بها فى ظروف لا يطمئن معها قلبى، ثم لم ألبث أن رأيت فى صـباح ذات يوم مـعاون الحـضرة السلطانيـة وصل إلى أزميـر ثم أتى القوناق وجعل فى الحال يراسل السراى السلطانية برسائل الأرقام، وقد أبلغنى بذلك رجال البـوليس السرى الذى كنت أنشـأته هناك، فعلمت أن ذلك الأمـر يختص بى ذاتيا ثم بعـيد وصول هذا المعاون بأيام قـلائل علمت أيضاً بوصول مأمـور عسكرى وهو على بيك رجل على شاكلة وفطرة شركسلى حسن وادعى أنه إنما جاء لأجل أن يرتقى إلى رتبة ميرالاى وأن لباسه الرسمى لم يكمل لغاية حضوره إلى أزمير ولذلك أتى بغير لبـاس عسكرى ثم جعل بعد أيام مـن وصوله يتكلم بما لا يليق ونسب لى أمورا قبيحة فقصدت القبض عليه ولكن لم يقع ذلك حتى بلغنى أنهم عازمون على القـبض علىّ وفى تلك الليلة نفـسـها رأيت أنـه قد أحـاط بمنزلى ثلاثمـائة جندى فداخلنى من الخوف ما ألجأنى إلى عدم التأخر عن المسير حتى لا تنالنى هذه الحراب المشرعـة ولا أقع فى أيدى رجال على بك المذكـور ولهذا السبـب خرجت من باب الجنينة وركـبت أول عربة وجـدتها وسـرت إلى المحلة الأورباوية فأوّل باب وجـدته مفتوحا كان باب دار قونصليـة دول الفرنسيس فدخلتها وإنى لأكـذب كـل التكذيب ما قيل من أنى فـتحت بابا فى الجنينة عمدا لهـذا الغرض قبل بخمسـة أيام كما أنى برىء من اتهامى بأنى هيأت العربة فى تلك الليلة قبل الأمر.

فلما أتم مدحت باشا كلامه أشار الرئيس بقفل الجلسة وأنه لدى افتتاحها تسمع شهـادة كثير من الشـهود ولما كان اليـوم الثانى افتـتحت الجلسة بعـد الظهر وجلس القضـاة وأخذ فى تلاوة طلب المدعى العمـومى وقرار المجلس المشـتمل على الحكم على مصطفى البهلوان وحاجى محمد ومصطفى الجزايرلى وفخرى بك بأن لهم اليد فى قتل السلطان وعلى محمود باشا ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك وعزت بيك

بأنهم شركاء فدافع عنهم المحـامون، وقال بعضهم أمام هيئـة المحكمة: إنهم يرفعون دعواهم أمام محكمة التميز، وقال البعض الآخر: إنهم يسلمون أمرهم لحلم ورحمة الذات السلطانية وكذلك طلب المحامى عن محمود باشا تخفيف الحكم عليه، ثم قام الأعضاء واختلوا برهة ثم عـادوا وقـرروا الحـكم على سبعة من المتهمين بالقتل طبقا للمادة المائة وخمس عـشرة من القانون العثمانى، وهم: مـصطفى البهلوان وحاجى محـمد ومصـطفى الجزايرلى وفخـرى بيك ومحـمود باشا ونورى باشـا وعلى بيك ونجيب بيك، وحكموا على سعيد بيك وعـزت بيك بعشر سنين فى الأشغال الشاقة وكان هذا الحكم بموافقة جميع الآراء خلا الحكـم على محمود باشا ونورى باشا فإنه كان بالأغلبيـة، ثم أخرجوا جميع المتهـمين من قاعة الجلسة وعاد القـضاة بعد ذلك فحكموا على مدحت باشـا ولم يحضر بين القضاة سرورى أفندى فـإنه قد رد نفسه عن الحكم لخلاف وقع بينه وبين مدحت عند مدافعته عن نفسه وبعد أن تقرر الحكم على مدحت استدعى أمام الهيئة فلما حضر تلى عليه طلب المدعى العمومى القاضى بقتله لاشتراكه فى مقـتل السلطان عبد العزيز، ثم سأله الرئيس هل عندك شىء من الملحوظات تقوله لهيـئة المحكمة؟ فقال: إن عندى كلاما طويلا فى طريقـة المحاكمة والسيـر الذى سارت به، فـأجابه الرئيس بأن هذا ليس له فى هذه الهـيئـة من محل وأمره بالسكوت فـقام شـهرى أفندى المحامى عن مـدحت باشا وقـال: إن موكلى مدحت باشا يطلـب استئناف الدعوى فقـام القضاة واختلوا مليـا ثم عادوا وحكموا باتحاد الآراء بالقتل لاشتراكه فى قـتل السلطان عبد العزيز، وبعد أن تلى عليه الحكم قال له الرئيس: إنه لابد من تقديم تقرير الاستئناف فى ظرف ثمانية أيام، فلما شاع الحكم على مدحت باشا بالقـتل اندفع أصحاب صحف الأخبـار الإنجليزية يهوّلون ويهددون ويرمون رجال السلطنة العثمانيـة بالعسف والجور وقام أحد خطباء الإنجليز يطلب من حكومته باسم الإنسانية وبشرف الأمـة الإنجليزية التداخل فى أمر استبدال الحكم على مدحت بحكم آخر لا يضر بحياته التى هى ثمينة عندهم وجعل يبالغ فى الإطراء ويعدد مناقب مـدحت وماله من الأيادى البيضاء على الـدولة الإنجليزية فرد عليه أحد رجـال السياسة وقال مـتهكما: خفف عنك ياصاح ولا تجـزع، فإن رجال حكومـتنا عافـاهم الله لم ينجلوا بأن أنفـذوا إلى دوفـرين سفـيـرنا فى دار السلطنة العثمـانية بالوساطة فى اسـتصدار فرمان من السلـطان بالعفو عن مدحت ومـحمود جلال الدين ونورى باشا فإنهم قد دافعوا كثيراً عن السياسة الإنجليزية وعززوا جانبها بل أخلصوا لها الخدمة يوم كانوا قابضين على زمام الحكومة لا سيما مدحت، قال:

ولا إخالك تنكر على القول بأن قومك الإنجليز أصلح الله حالهم يحبون مدحت حبهم لأنفسهم ولم يتركوه يوم أنزله السلطان من مسند الصدارة بل أعمل سفيركم هناك الجهد حتى ولاه على الشام، وكم شدد يومها وهدد وأرعد وأزبد ونادى بالويل والثبور ولو لم يقدر الله بسقوط الحزب المحافظ الذى كان قابضا على زمام الحكم على بلادك يومئذ لأرانا من دسائسه فى تلك الأصقاع عجائب غرائب بل المبكى والمضحك فتأمل عافاك الله واحكم إن كنت من المنصفين . اهـ.

ورفع مدحت باشا إلى أمير المؤمنين بعد الحكم عليه بالقتل قصة يقول فيها: إنى وإن كنت قد عملت على خلع بيعة السلطان عبد العزيز عندما ظهرت منه الرغبة فى عزل الوزراء وتسليم البلاد والأمة وإدخال جيش روسى فى دار الخلافة الإسلامية ولكنى لم أعمل على موته ولم أشترك فى ذنب سفك دمه ولم أوافق قومه إلا على خلع بيعته وتنزيله والله ورسوله على ما أقول شهيدان، فلم يلتفت السلطان إلى كلامه ولم يسمح بتخفيف العقوبة عليه قال بعض كتاب الأخبار: وقد نسب أصحاب صحف أخبار الإنجليز ما وقع لقاتلى السلطان عبد العزيز من الشدة ثم الحكم عليهم بهاته العقوبات إلى دسائس الروس واتساع كلمتهم فى دار السلطنة العثمانية فتحرّك لذلك خواطر العامة والخاصة من الإنجليز وقاموا وقعدوا وطلبوا منع تنفيذ الأحكام على مدحت ورفقائه كأنهم إنجليز أولاد إنجليز، ثم قام خطباؤهم فى دار ندوتهم ينادون واتمدّناه وإنسانيتاه وامرحمتاه فوقعت عند ذلك بينهم ضجة حمل فيها أهل اليمين على أهل اليسار وعلت الضوضاء وارتفعت الأصوات وطال الجدال واشتد اللجاج واحتدم النكال فلم يخرجوا وقبعاتهم على رؤوسهم إلا وهم على بينة مما سيكون ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى شاع الخبر بصدور فرمان السلطان باستبدال حكم القتل على مدحت ورفقائه بالنفى والتبعيد إلى الأقطار الحجازية، فلما كان تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين عبرت من ترعة السويس سفينة عثمانية حربية اسمها (عز الدين) تحمل مدحت ورفقاءه قاصدة جدة ولم ترس بالمينا بل دخلت من البوغاز وسارت إلى السويس مسرعة فأغضب قيصر الروس هذا الأمر وعلم أنه من أفاعيل دولة الإنجليز فأضمر لها السوء وعمد إلى معاكساتها فى أواسط آسيا وتنكيس أعلامها فى جوف الهند وعلى حدود الصين فسير عسكره المنصور إلى قلب التركمان تلك وحدود الأفغان التى هى حصن الإنجليز الأكبر الحائل بين غارات الروس وبين هندهم، ففعل ذلك الجيش فعاله وتغلغل فى جوف البلاد وأرهب

وهدد وأخضع الخصوم وذلل الصعاب فكادت قلوب الإنجليز تطير خوفا وقد أعيت كبارهم الحيل وضاقت عليهم المذاهب فكادوا يسقطون فى أمرهم، وبينما كان القيصر ينظر إلى ظفر جنوده فى تلك الأصقاع نظرة الساهر على الأخذ بالثأر إذ تحركت طوائف الناهليست وهم طائفة العديميين، وقيل: حركتهم أيدى الإنجليز وتآمروا على قتله فدبروا له المكايد وتبعوه أينما سار بالآلات الجهنمية قصد إذهاب روحه فتحفظ وبث العيون والأرصاد وأكثر من الحراس والرقباء وبالغ فى تعقب هذه العصابة الوحشية واشتد عليها شدة بالغة حتى خيل له أنه فى مأمن من شرها، واتفق أنه ذهب بعد ظهر الحادى عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين إلى مشاهدة معرض الجنود على عادته فبينما هو عائد إلى مقره ألقى عليه نفر من هذه العصابة قنبلة محشوّة بالمواد الالتهابية فسقطت القنبلة تحت عجلات عربته وانفجرت انفجارا هائلا فقتلت وجرحت بعضا ممن كان معه فأسرع هو ونزل من العربة فرارًا ولكن لم تصل أقدامه إلى الأرض حتى سقطت بين رجليه قنبلة أخرى فخلعتهما معا فسقط وأغمى عليه لا يبدى ولا يعيد فأسرع الجند فى نقله إلى السراى وهو لا ينطق بكلمة ولبث ثلاث ساعات ونصفا فى نزع شديد حتى فارق الحياة وقد مات أيضاً بعض من كانوا معه وبذل أصحاب الشرطة جهد المجتهد فى القبض على مرتكبى هذه الجناية العظيمة فكانوا أربعة ثلاثة رجال وامرأة وهم دوساكوف وسكبالابوف ومكاوف وصوفيا برسوكا وألقتهم فى السجن مكبلين بالحديد ونادوا بولى العهد قيصرا على الروس وبايعوه البيعة العامة ثم دفنوا القيصر فى مشهد وأخذوا فى محاكمة أولئك القاتلين فحكم عليهم جميعاً بالقتل، ولم يكن موت هؤلاء الطغاة يغنى عن موت السلطان عبد العزيز والقيصر إسكندر الثانى اللذين ذهبا شهيدى التحالف والاتفاق على الضرب على يد أصحاب السياسة الإنجليزية رحمهما الله تعالى فهو الغفور التواب.

(مطلب)

رجوع دولة الإنجليز إلى تهديد الخديوى إسماعيل

وعادت دولة الإنجليز وكأنها قد تفرغت إلى تهديد الخديوى إسماعيل وإرغامه على وفاء سائر الديون الصغيرة التى حكمت بها المحاكم المختلطة كما تقدم القول وأنفذت إلى قونصلها المستر فيفيان أن يشدد فى طلب ذلك والخديوى يحاول ويطاول، واتفق فى هذه الأثناء أن تغيرت هيئة حكومة الفرنسيس بهيئة أخرى كان

فيها المسيو وادنجتون وزيرا للأمور الخارجية فنظر هذا المسيو إلى ما هو واقع من الخديوى بعين القلا والرجل من دم إنجليزى أقام سفيرا للفرنسيس بدار الإنجليز أعواماً كثيرة فيصح أن يقال عنه أنه إنكليزى بحت فكتب فى صفر سنة خمس وتسعين إلى وزير الإنجليز يعلمه بما آلت إليه الحالة بمصر ويستفزه إلى الأخذ بالأحوط وتدارك الخطر قبل استفحاله وما زالت المخابرة بين الفريقين متتابعة حتى تقررت القاعدة بينهما على تشكيل هيئة باسم مجلس التفتيش يكون من اختصاصها تنقيب جميع الطرق التى اتخذت للنظر فى حالة خزينة البلاد وأرباب الديون وكلموا الخديوى فى ذلك وما زالوا به حتى رسم فى سادس عشرى ربيع الأول سنة خمس وتسعين أى فى غاية مارس سنة ثمان وسبعين ميلادية بتشكيل ذلك المجلس برياسة المسيو فرديننددلبس فاتح خليج السويس ووكالة أحد رجال الإنجليز المسمى ريفرس ويلصون فلم يتسن للرئيس الحضور فى جلسات المجلس لأسباب سياسية لم نصل إلى معرفة الصحيح منها فأخذ المجلس فى العمل تحت رياسة ويلصون الإنجليزى وجعل يبالغ فى البحث والتنقيب وكان من حدوده بمقتضى ما رسم به الخديوى أن يطلب من شاء من موظفى الحكومة وكبار رجال الدولة ويسألهم فيما يرى لزوم سؤالهم فيه.

(مطلب)

امتناع الوزير شريف باشا من الحضور أمام هيئة التحقيق وخلعه لنفسه من المنصب

وكان الوزير محمد شريف باشا فى هذا الحين فى منصب وزارتى الخارجية والحقانية فسير إليه ويلصون يستدعيه يوما لسؤاله أمام المجلس عن شيء يريده فاستعظم الوزير هذا الأمر وأكبره وامتنع من الذهاب فكبر ذلك على ويلصون وكان مصطفى رياض باشا قد أقامه الخديو وكيلا ثانياً لهيئة ذلك المجلس وكان بينه وبين الوزير شريف باشا بغض ونفور مستحكم فلما امتنع الوزير من الحضور أمام هيئة المجلس، قيل إن مصطفى رياض باشا جعل يزين إلى ويلصون الإصرار على طلب الوزير وأن يحاسبه على الذرة والبرة فشدد ويلصون فى الطلب ومال على الوزير شريف باشا، وقال: لابد من حضوره فصمم الوزير على الامتناع، وقال: لا سبيل إلى ذلك، وطال بين الفريقين الأخذ والرد وتداخل فى الأمر قناصل الدول واشتدت

الأزمة واتسع الخرق فلم يسع الوزير إلا التخلى عن منصبه فاعتزله ولم يرض بالذل والصغار، فرسم الخديو بإقامة مصطفى رياض باشا بدلا منه بإيعاز من ويلصون فتعطلت أعمال المجلس أياماً وأحست دولة الإنجليز بما وراء ذلك من الخيبة والفشل فرسمت بإقامة ويلصون رئيسا فأجابها الخديو إلى ذلك وأناب عن هيئة الحكومة فى ذلك المجلس بطرس بيك غالى وهو يومئذ كاتم أسرار وزارة الحقانية فبالغ ويلصون فى البحث والتنقيب حتى أتى على جميع الأمور من أبوابها وكتبوا بما علموه من حالة البلاد والخزينة والديون محضرا ذكروا فيه أمورا كثيرة كان أهم ما فيها أن جميع ما اتخذ من التحوّطات قبلا وما تقرر يومئذ من القواعد الكافلة بحسن سير الخزينة وراحة أهل البلاد وطمأنينة أصحاب الديون لا حقيقة لها ألبتة وماهى إلا من قبيل النقش على الماء وأن لا سبيل إلا إلى تصفية جميع حسابات الخزينة وتقرير قاعدة لها ثابتة الأركان لا يعتورها شىء من الزور والبهتان وكلموا الخديوى فى ذلك فأظهر غاية الميل ومزيد الرغبة وسهل لهم الأمر ما استطاع وعمل بما أشاروا به جهد الاستطاعة.

(مطلب)

تشكيل الوزارة المختلطة وخلع الوزراء المصريين

فلما كان شهر شعبان سنة ١٢٩٥ خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أى شهر أغسطس سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية أنفذت دولة الإنجليز إلى الخديو بخلع الوزراء وتنزيلهم كافة عن مناصبهم فخلعهم طائعاً فرسمت له بتأليف وزارة أخرى من ويلصون رجلها ودى بلينار الفرنساوى الذى كان ممن جاءوا للنظر فى أمر ديون الخزينة وآخرين من أهل البلاد وأن يكون رئيس هاته الوزارة الوزير نوبار باشا فأجابها إلى ذلك، وتم تشكيل الوزارة على ما أرادت فكان ويلصون الإنجليزى لوزارة المالية ودى بلينار الفرنسيسى للأشغال العمومية ومصطفى رياض باشا للداخلية وأخذت على الخديو العهود بأن لا يأتى عملا إلا بمشورة وزرائه ولا يبدى رأيا إلا بعد رأيهم أسوة الممالك الدستورية، وصادق أصحاب سياسة الفرنسيس والإنجليز على هذه العهود وأنزلوها منزلة عالية وفرح الناس بها وظنوا سكون الحال وزوال الشدة وانحلال عقدة ذلك الضيق، وأعقب ذلك أن استدانت الخزينة قرضا جديدا قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب من أحد كبار أغنياء الإنجليز المسمى روشيلد وجعلت جميع إقطاعات الخديو وإقطاعات عائلته على اختلافها رهنا

لوفاء هذا القرض وعقـدوا بذلك عقدا كان من شروطه أن أنشئوا ديوانا مـخصوصا فتولى رجاله إدارة عـمل تلك الإقطاعات وجمع أموالها وتدبير شـئونها وكانوا ثلاثة إنجليزى وفرنساوى ومصرى، واشتـرطت دولتا الإنجليز والفرنسيس عدم جواز تنزيل أحدهم من منصبه إلا بعد رضاهما بذلك وخصتهم ببعض الحقوق والامتيازات التى تجعلهم فى مـأمن من كل حادث ولم تقفا عند هذا الحـد بل طلبتا أيضاً إقـامة اثنين مراقبين يكون من اختصاصهما المراقبة عـلى جميع أعمال الهيئة الحاكمة ومنع وقوع ما لا يـلائم منها مـصلحة أصـحاب الديون وخـزينة البلاد،وراسلت دولة الإنجلـيز الخديو فى ذلك على يد المسـتر فيفيـان قنصلها الجنرال بمصر وأظهرت لـلخديو غاية التجـمل والملاطفة فأبى الخـديو عليها ذلك فألح علـيه القونصل وأكثـر من الإلحاح والترداد على مقر الخـديو فأكبر الخديو هذا الأمر وأحزنه، وقـال للقونصل يوما: ما هذا الإلحاح وقد كنا والإنجليـز يشيرون علينا إشارة الصاحب الودود فـأصبحنا وهم يتهددوننا تهديد العدوّ الكنود فجعل القونصل يطاوله وهو يراوغه ويحاوله.

وسار الوزراء فى أعـمالهم سيرا حـثيثـا وأظهر ويلصون همة ورغـبة زائدة فى تخـفيف المصـارفات عن عـاتق أهل البلاد والتـزام جانب الاقـتصـاد والحزم جـهد الاستطاعـة، قيل: وكلم الخديوى فى ذلك فـاستحـسنه وحبب إليه العـمل به وقد كانت الخـزينة إلى هذا الحين فارغة والجـماكى معطلة لا سـيما مرتبـات سائر الجند والعسكر وعلوفات كبارهم، وقد مضى علـيهم زهاء عشرين شهرا لا يحصلون على فضة ولا نحاس فعمد ويلصون عند ذلك إلى الإتيان على أوجه الاقتصاد من أبوابها فحـسب ودقق وصرف من الجند والعسكر زهاء الألفـين إلى أوطانهم تخفيـفاً على الخزينة وجعل ينظر فى جميع مصروفاتهم من أوجهها الحقيقية فساء ذلك أمراء الجند وكبـارهم واستـعظموه وشكوا منه إلى مـقدمـهم، وتزاحموا على أبـواب ويلصون والوزير نوبار باشا يطلبون صرف جماكيهم الموقوفة ومرتباتهم المتأخرة وهما يعدانهم ويهوّنان عليهم فكانوا لا يزدادون إلا إلحاحا وتشديدا فى الطلب.

(مطلب)

تحزب طوائف الضباط وإهانتهم للوزير نوبار باشا ومن معه

فلما كان خامس عشرى صفر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى ثامن عشـر فبراير سنة تسع وسبـعين وثمانمائة وألف مـيلادية اجتمع نيف وأربعـمائة من صغار الضباط، وساروا وهم مزججون بالسلاح ومروا برحبة عابدين حتى أتوا شارع

الدواوين فى نحو الظهر وتفرقوا فى أنحائه يرقبون مرور ويلصون والوزير نوبار باشا فلما مرت بهم عربة الوزير وهو بها وعلى يمينه كمال بك كاتب سر المجلس انقض عليها جماعة منهم وأمسكوا بلجم الخيل وتقدم جماعة آخرون وأمسكوا بأطواق الوزير وصاحوا فى وجهه لا يحل لك ياظالم أن تعيش رغدا متمتعا ونحن نموت جوعا أعطنا جماكينا الساعة، فجعل يلاطفهم ويكلمهم بأحسن الكلام وقد حث سائق العربة الخيل بضرب السوط يريد الفرار بمولاه فترامح خلفه جميع الضباط حتى أوقفوه وأخذوا بلجم الخيل وعادوا به إلى مقر الدواوين واتفق خروج ويلصون ولم يشعر به أحد من المتآمرين فلما علموا بخروجه أكثروا من الصياح والجلبة وعلت بينهم الضوضاء وترامح الناس فأغلق أصحاب البيوت القريبة أبوابهم وغص مقر الدواوين بالضباط والجند وأصحاب الوظائف وأصعدوا الوزير نوبار باشا إلى الديوان ووقفوا على الأبواب يحرسونها، ووصل الخبر بما جرى إلى مقر الخديو فجاء وحوله طوائف الحرس وجميع بطانته ورجال ديوانه الخاص وعبد القادر باشا محافظ المدينة يومئذ وشق من وسط الزحام حتى دخل حوش الديوان واقتحم الدرج وهو ساكن القلب هادىء اللب كأن لا خوف عليه فلما رآه الضباط والجند صاحوا بأصوات الدعاء والتهليل فغاب برهة جمع فيها هيئة مجلس الوزراء وكلمهم فى الأمر ثم أشرف على الجمع من الشباك وخاطبهم بالحسنى وأكثر من ملاطفتهم ووعدهم بصرف جميع جماكيهم وسائر مرتباتهم المتأخرة إن هم عادوا إلى منازلهم، فصاحوا لا سبيل إلى ذلك فالموت بالنار خير لنا من الموت جوعا فزاد فى ملاطفتهم فزادوهم لجاجا وحجاجا فغاب عنهم برهة ثم عاد وكلمهم فلم ينصرفوا، فنزل وحوله بطانته وحاشيته وحرسه وأمر فتقدم إلى جماعة الضباط نفر من الحجاب والحراس ليفرقوهم فمانعوا وأطلقوا عدة طلقات نارية فكثر عند ذلك الضجيج وعلا الصياح والتحم الجمع واشتدت الضوضاء وتماسك البعض بالبعض واشتد اللكم والضرب فأسرع الخديوى وركب عربته وخلفه أصحابه وأتباعه وسار إلى مقره وجمع إليه هيئة الوزراء ثانية وبينهم بعض قناصل الدول وكلمهم فى الأمر طويلا وبالغ فى الشكوى إلى أن قال للقناصل: قد صرت عاجزا عن درء كل ما يحدث فى داخلية البلاد وأخشى من انتشار الفتنة واتساع نطاق الثورة إن لم تعد إلىّ السلطة التى سلبتها منى هيئة الوزارة الجديدة وإنى لا أرى من المناسب قط بعد وقوع ما وقع اليوم بقاء الوزير نوبار باشا

قابضـا على زمام الحكومة وقـد رأيتم ظهور الفتنة وتحـزب طوائف الجند على ما لم يسبق له مـثال قبل فاسـتعظم القناصل هذا الأمـر ولم يبق عند أحدهم شك فى أن الخديو هو الذى هيـأ هذه الفتنة وأضرم نارها لغـاية فى نفسه واشتـد الخوف بالناس وكثر تطيرهم والخديو يشدد فى طلب تنزيل الوزراء عن مناصبهم ويطعن فى شخص ويلصون الإنجليزى ويرميه ببغض البلاد وأهلها وأنه عامل على تخريبها وكثر اجتماع العلماء وكبار المشايخ بالجامع الأزهر وهم يتكلمون فيما فعله ويلصون والوزير نوبار باشا من الإضرار بالبلاد ويشكون من تغلب النصرانيـة على حدود الشريعة المحمدية المطهرة وتقدم الشـيخ البكرى بالأصالة عن نفسه وبالوكالة عن زهاء سبـعين ألفا من الدراويش هم أرباب الأشـاير والطرق ومـشايخ السـجاجيـد وأصحـاب العكاكيـز والمتعـممين يشكون مما أصـاب البلاد وأهلهـا من سوء فعال ويـلصون والوزير نوبار باشا، وتكلم مع الخديوى فى ذلك وأكثرمن التـرداد على مقره. قال بعض الكتاب: فكان إذا اجتـمع عند الخديو قناصل الدول أو بعض كبار الأجـانب أرسل فى الحال إلى الشيخ البكرى فيـدخل على الخديو فيقوم له الخديو إجـلالا ويعظمه ويدنيه من مجلسه ويخاطبه بغاية التجلة والتكريم مع الرهبة والوقار، فإذا خرج نظر الخديو إلى الحاضرين، وقـال: هذا هو كبير الإسـلام وشيخ مشايخ الدراويش وإن فى خـدمته وتحت أمره وإشارته سبعين ألف من الدراويش وهـو اليوم يطالبنى بحقوق الأمة فلا أدرى ما ستكون عـاقبة الأمر مـعه، ونادى بعض العلماء على منابر الجوامع بـتكفير مصطفى رياض باشا ومروقه عن جادة الحق وتعضـيده للنصرانية وأهلها، ثم اجتمع نواب البلاد وجعلوا يطعنون فيما بدا من ويـلصون وينكرون عليه ما قاله من ضعف حال البلاد وإمحال موارد الإيراد وذهاب ما فى خزينتها من الأموال وأرسل صاحب شرطة القاهرة إلى مصطفى رياض باشا يقـول: دبر للخلاص أمرا فإن البغض إليك فى ازدياد ولذلك فإنى غيـر مسئول عمـا سيحيق بك إذا لم تغـادر البلاد فإنى أرى الخطب شديد والخلاص بعـيد فهال مصطفى رياض باشا هذا الكـلام وأزعجه جدا، ورأى الوزير نوبار بعد ذلك استحالة بقائه فـى منصب الوزارة فخلع نفسه وتبعه فى ذلك مصطفى رياض باشا وبقى ويلصون الإنجليزى ودى`بلينار الفرنسيس فى القاهرة ينتظران الأمر من دولتـيهما، وفـر مصطفى رياض باشا من وجـه الخديو إلى الديار الأورباوية خوفا من البطش به.

(مطلب)

رجوع وزارة الوزير شريف باشا بعد وزارة الأمير محمد توفيق وما كان من وراء ذلك

ولما تم تنزيل الوزير نوبار باشا ورفاقه وتخليهم عن المناصب عمد الخديو إلى تشكيل وزارة يرأسها أكبر أولاده الأمير محمد توفيق وسير الخبر بذلك إلى دولتى الفرنسيس والإنجليز فوافقتاه على كره واشترطتا أنه إن حدث أىّ حادث بعد وقوع ما وقع فلا لوم إلا على شخص الخديو فقبل الخديو ذلك ولكن لم تطل أيام رياسة الأمير محمد توفيق وزالت لاشتداد الأزمة واستحكام حلقات الضيق بإمحال الخزينة فخلع رابع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع أبريل سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وأقيم بدله الوزير محمد شريف باشا قال بعض الكتاب: وقد كان لم يصل لأحد من الوزراء علم بهذا التغيير فلم يشعر الواحد منهم إلا وقد دخل عليه من خلفه وقبض على زمام الأعمال فتنحوا عن المراكز وهم صاغرون وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق، فلما علمت دولتا الإنجليز والفرنسيس بما جرى خلافاً للعهد هالهما الأمر وحرك منهما ساكنا فأوعزتا إلى وكيليهما بالقاهرة أن يكلما الخديو ويحذراه سوء العاقبة فلم يلتفت لقولهما وأطلق للنفس عنان هواها وأمر فزيد فى عدد العساكر والأجناد إلى ستين ألفا وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وبالغ فى التأهب والاستعداد، قيل وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار فنقلوا خبر ذلك محشوا بالغلو والمبالغة وصاحوا يالثارات الدائنين يالثارات حاملى السندات، ولم يقف عند هذا الحد بل رسم أيضاً فى تاسع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين بإبطال جميع النظامات والتعديلات التى كانت تقررت للخزينة سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وعدم اعتبارها لعدم ملاءمتها لحالة البلاد وعادات أهلها فتجرد عندئذ أصحاب سياستى الفرنسيس والإنجليز للذب والدفاع وعمدوا إلى الاستعانة بالسلطان وأوعزوا إلى سفيريهم بدار السلطنة أن يبلغا السلطان حديث ما جرى ويستطلعا أفكاره وكلموا فى ذلك أيضاً بسمارك داهية السياسة وكبير وزراء الألمان فسير بسمارك إلى دار السلطنة فى طلب خلع الخديو تلافيا للخطر قبل استفحاله فاشتدت عزائم الإنجليز حينئذ وتقدموا إلى السلطان فى تولية الأمير محمد توفيق مسند الخديوية وظنوا أنهم إن فازوا بذلك كانوا أقوى جميع الدول حجة على الأمير وأبيضهن يدا فلا يصح له بعد ذلك أن

ينقض لهم كلمة أو يخالف لهم إشارة، وأحس الخديو إسماعيل بذلك فبث العيون فى دار السلطنة وأكثر من البذل والعطاء وهادى رجال الدولة وكبار المابين فأتت إليه الأخبار بعضها يناقض بعضا وطال الأخذ والردّ بين سفراء الإنجليز والفرنسيس وصدر الدولة واشتدت الأزمة فى سائر البلاد واستحكمت حلقات الضيق على أهلها وسيرت دولة الفرنسيس إلى مصر وكيلا لها اسمه تريكو وأوعزت إليه أن يعمل على خلع الخديو بكل ما وصلت إليه حيلته فزاد هذا الرجل الأمر تعقيدا وخبالا وكان يدخل على الخديو تارة يظهر التحقير والاستخفاف وطورا بالإرهاب والتهويل ويطلب منه التخلى عن منصب الخديوية وكان قونصل الإنجليز فى ذلك الحين أروغ من ثعلب يظهر الرفق آونة وآونة يظهر الوعيد والخديو يجدّ فى استمالة رجال السلطنة العثمانية وكبار الدولة ويتقرب منهم كى لا تتمكن الدول الثلاث من خلعه، وبينما هو على هذه الحال إذ ورد عليه الخبر من إبراهام باشا كابوكخياه بدار السعادة بأن السلطان أبى على الدول خلعه ففرح بذلك فرحا لا يوصف وطير الخبر إلى الآفاق ولكن لم يمض بياض يومه حتى وردت الأخبار فى سواد ليله تنبىء بأنه إن لم يتنازل عن عرشه لولده الأمير محمد توفيق طائعا سلبه إياه الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا كرها فاضطرب أىّ اضطراب وكاد يسقط فى يده وجاء الخبر من سفير الفرنسيس بدار السلطنة العثمانية إلى تريكوا بأن يلح على الخديو بالتعجيل فى خلع نفسه والتنازل لولده إذ صارت تولية الأمير عبد الحليم أمرا مقضيا وشاع الخبر بذلك فى تلك الليلة فاشتد الخوف بالناس وكثر تحدثهم فيه وجمع إليه الخديو كبار قومه ورجال أبيه إبراهيم باشا وطوائف المشايخ والعلماء والأعيان ونواب الأمة وتناجوا فى الأمر طويلا فلم يستقروا على أمر من الأمور واشتد قلق الخديو وفارقته تلك الحمية وذلك الثبات فلما كانت ليلة الخامس من رجب أى ليلة خامس عشر جونيو سار قونصلا الفرنسيس والإنجليز إلى دار الوزير محمد شريف باشا وأعلماه بخبر ما تقرر فى دار السلطنة من خلع الخديو وتولية ولده الأمير محمد توفيق وحدثاه بعزم السلطان على إعادة حقوق الوراثة إلى ذرية محمد على باشا وتولية الأمير عبد الحليم إن أصر الخديو على الإباءة والعناد، ثم قاموا جميعاً وقد مضى من الليل أكثره وساروا إلى مقر الخديو بعابدين وطلبوا الاجتماع به فمانع فى ذلك كبير الخصيان، وقال: كيف أفتح لكم الأبواب وقد مضى من الليل أكثره فراجعه الوزير فلم يقبل فصاح به، وقال: ويحك أنا رئيس الوزراء وهؤلاء وكلاء الدول الكبرى وقد أتينا لأمر لا تدرك أنت أهميته.

(مطلب)

مجئ الأمر السلطانى بخلع الخديوى إسماعيل وتولية ولده الأمير محمد توفيق وما كان بعد ذلك

فبينما هم على هذه الحال مع كبير الخصيان إذ نادى مناد من وراء الحجاب افتح لهم عاجلا ياغلام الأبواب فصعد الوزير ومن معه ولاقاهم الخديو بلباس النوم فكلموه طويلاً فى أمر تخليه عن المنصب طوعا قبل تنزيله كرها وألح الوزير عليه فى ذلك فأعلمهم الخديو بالخبر الذى جاءه من كابوتخداه بدار السلطنة وطال بينهم وبينه الجدال واشتد اللجاج فقال الخديو: لا أتنازل حتى يأتينى أمر السلطان بذلك وقد كان يظن طول الأجل وبلوغ نهاية الأمل فخرجوا من عنده وقد كتب تريكو إلى سفير الفرنسيس بدار السلطنة يخبره بما قاله الخديو فلم تمض الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة حتى ورد إلى خيرى باشا المهردار مرسومُ السلطان على جناح البرق خطابا إلى الخديو بخلعه من منصب الخديوية فاضطرب خيرى باشا ولم يجسر على إخبار الخديو بخبره وظل باهتا حائرا فدخل عليه الوزير محمد شريف باشا فأعلمه خيرى باشا بالخبر، فقال: ولماذا لم ترفعه لمولاك؟ فقال: لا أجسر على الدخول عليه الآن، فقال: قم وادخل معى فقام ودخلا معا وفى يد خيرى باشا ورقة الخبر فلما رآها الخديو قال: ما هذا الذى أتيتمانى به الساعة، فقال الوزير: هو خبر ورد من دار السلطنة فمدّ الخديو يده وأخذه ونظر إلى ما فيه فاضطرب وعلا وجهه الاصفرار ولبث برهة لا ينطق ببنت شفة ثم نظر إلى الوزير وقال: علىّ بولدى توفيق الساعة، وكان لما كثر اللغط بين الناس وتحدثوا فى أمر خلع الخديو وفيما هو جار بين الدول ودار السلطنة العثمانية فى شأن ذلك وكان الأمير محمد توفيق يومئذ نازلا بسراى الإسماعيلية الكائنة عند قصر الدبارة كثر ذهاب بعض رجال الدولة وكبار الأمة والمشايخ إليه ورسم بنقل الأمير محمد توفيق من سراى الإسماعيلية إلى سراى القبة بعين شمس فنقلوه مع نسائه وأولاده وأحاطت بمقره طوائف الجند فامتنع الناس عنه وبقى محجورا عليه حتى سير الخديو فى طلبه فى تلك الليلة فأتوا به إلى سراى الإسماعيلية وأوقفوا الحراس على بابه يمنعون من أراد الدخول عليه فسار إليه الوزير محمد شريف باشا وهنأه بالولاية وأركبه معه وحضر به إلى عابدين فلما مثل بين يدى أبيه قام له إجلالا، وهى أول مرة قام له، فتقدم الأمير وقبل يده فأذن له بالجلوس فجلس وهو ينظر إليه نظرة البائس الحزين، وقال له: يابنى لقد اقتضت

إرادة الله سبحانه وتعالى وإرادة مولانا وسلطاننا أن تكون أنت خديو البلاد فأوصيك يابنى بإخوتك وسائر الآل برا واعلم أنى سائر عنك آسف لعجزى عن إزالة جميع ما ستلقاه فى أعمالك من المصاعب والمتاعب على أنى واثق بحزمك فاتبع يابنى رأى ذوى شوراك وعش سعيداً لا كما عاش أبوك. فبكى الأمير توفيق عند سماعه هذا الكلام وبكى سائر الحاضرين وشاع الخبر فى القاهرة ومصر القديمة بخلع الخديو وولاية ولده الأمير محمد توفيق وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وأخذ الوزير بيد الأمير وعاد به إلى مقره بالإسماعيلية ثم تركه وعاد إلى عابدين فوجد بها قناصل جميع الدول وبينهم تريكو الفرنسيسى فدخل الوزير على إسماعيل باشا وأعلمه بحضورهم فدعاهم إليه وكلمهم فى أمر تخليه عن المنصب لولده الأمير توفيق وفى ميله إلى العزلة ما بقى من أيامه وكان إلى هذه الساعة لم يخطر على باله قط أنهم سيبعدونه عن البلاد ويخرجونه من أرض الفراعنة قهرا فتقدم إليه عند ذلك تريكو وأعلمه بما وقع الاتفاق عليه من تبعيده عن أرض مصر وطلب منه الإسراع فى جمع ما يشاء من متاعه لينقلو إلى البلد التى يختارها، قيل: فاصفر لونه وتلجلج لسانه وعض على إصبعه ندما على ما بدا منه من التخلى عن المنصب قبل أن يستوثق لنفسه ونظر إلى تريكو وقال: يعلم الله أن هذا التبعيد ما كان لى فى خلد، ثم جعل يمانع وأغلظ على تريكو فى القول وتجافى فى الرد فجعل الحاضرون يلاطفونه ويهوّنون عليه ويحذرونه عاقبة العناد وما زالوا به حتى عاد وطلب كثيراً من المطالب فأجابوه إلى جميعها.

ثم قال: أطلب مائة ألف ذهبا للنفقة وباخرة لخدمتى وأن آخذ معى جميع مقتنياتى ومن يريد الخروج معى من نسائى والجوارى والحاشية والأتباع وجميع الأمتعة وأن أقيم فى جزيرة أزمير إحدى جزر البحر المتوسط فوافقوه على كل طلب وتساهلوا معه جهد الاستطاعة، وقامت بشأن ذلك المخابرات ما بين قناصل الدول بمصر والسفراء بدار السلطنة والناس فى القاهرة فى خوف عظيم يحسبون للعاقبة ألف حساب.

(مطلب)

رحيل الخديو إسماعيل عن وطنه ومسقط رأسه وسكنه

وأخذ أتباعه فى نقل المتاع والصناديق من عابدين والجيزة والجزيرة إلى بولاق الدكرور وطاف جماعة الخصيان على بيوت الأمراء يخبرونهم بالخبر وهم فى بكاء

ونحيب فخرج النساء فى ذلك اليوم وتزاحمن على أبواب عابدين وهن باكيات مولولات رافعات أصوات النحيب، وخرج أيضاً نساء إسماعيل باشا وطفن ببعض البيوت الكبيرة مودّعات فكان يوماً شره قمطريرا، وفى اليوم الثانى الذى هو سادس رجب وسادس عشرى يونيو قبل شروق الشمس غصت رحبة عابدين بجماهير الناس والجند وأرباب الوظائف العالية والمأمورين والعلماء والمشايخ والأعيان وقاضى القضاة والمفتى وجميع أتباع إسماعيل باشا والعائشين فى نعمته، وقد علا الضجيج وكثرت الغوغاء وظلوا على هذه الحال إلى الساعة الثالثة عربى، فحضر الأمير توفيق ومعه سائر الوزراء وصعدوا إلى مقر إسماعيل باشا فلاقاهم والدمع ينحدر على خدّيه وحادثهم ساعة ثم حضر تريكو الفرنسيس يستحثه على الخروج فقام من فوره وهو لا يتكلم واقتحم الدرج وهو يتوكأ على كتف ولده الأمير توفيق وخلفه ولداه حسن وحسين والوزراء وقناصل الدول ورجال الديوان الخاص وكبار الجند وأصحاب الرتب العالية وغيرهم من طوائف الخدم والحشم، فلما انتهى إلى باب السراى وقف على آخر الدرج لحظة لطيفة كأنه يودّع الدار ومن فيها فتقدم إليه قاضى القضاة وقبل طرف أثوابه وهو ينتحب بالبكاء فانحنى إليه وقبل رأسه وارتفع صوته بالبكاء وتقدم إليه الوزير محمد شريف باشا وصافحه فتبعه فى ذلك بقية الوزراء وبكوا لبكائه، ثم نزل وركب عربة وركب معه ولده الأمير توفيق وركب فى عربة ثانية الأميران حسن وحسين فلما سارت به العربة وخلفه الجم الغفير صاح النساء من شبابيك السراى واشتد الصراخ من كل صوب وارتفعت أصوات الرجال أيضاً بالبكاء واشتد الهرج والمرج وترامح جماعة الخصيان والجاويشية حول عربته وهم يبكون ويلولون «على من تركتنا ياسيدنا» «من أوصيته بنا ياسيدنا» وكان إذا مرت عربته ببيت من بيوت جواريه فتحن الشبابيك وصحن صارخات بأعلى أصواتهن وكدن يلقين بأنفسهن وما زال سائرا والصراخ أمامه وخلفه متواصل حتى وصل إلى محطة السكة الحديد وكانوا قد أعدوا للقائه فريقا من الجند، فنزل الأمير توفيق وأمسك بيد أبيه وأنزله ومر من بين صفوف الجند فحيوه بالسلام وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى فدخل إلى المحطة وقد أعدوا له قطارا مخصوصا فلما دنا منه التفت إلى ولده الأمير توفيق يريد أن يخاطبه فخنقه البكاء فضمه إلى صدره وقبله وبكى بكاء مرا فقبل الأمير يده ووقف بجانبه طارق العين والتفت إسماعيل باشا إلى الحاضرين ورفع صوته يريد أن يودّعهم فلم يقدر فصعد إلى عربة القطار فسار به إلى الإسكندرية وأنزله بالقبارى

حيث كان ينتظره زورق خصوصى فركب وسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع من جميع القلاع والحصون وركب الباخرة المسماة المحروسة وقد كانت أعدت لركوبه وركب معه ولداه حسن وحسين وجميع نسائه وجواريه وأتباعه وغلمانه ومن رافقه من كبار الموظفين والباشاوات وقد سلم محافظ المدينة إلى ربان الباخرة مرسوما وأمره أن لا يفض ختامه حتى يبعد عن الإسكندرية فراسخ قيل: وهو يتضمن منع تنزيل إسماعيل باشا ومن معه بأى جهة من أملاك السلطنة العثمانية والمسير به إلى أى جهة شاءها من الممالك الأجنبية فلما أعلمه الربان بذلك قال: نسير إلى مدينة نابولى إحدى أعمال دولة إيطاليا فوصلها بعد أربعة أيام وألقت الباخرة مرساها وكان ملك إيطاليا قد رسم لحاكم المدينة بلقائه فلاقاه وبالغ فى إكرامه والاحتفال به فكانت ولايته سبع عشرة سنة وعشرين يوماً، ومن عجيب الاتفاق أنه تولاها فى شهر رجب واعتزلها فى شهر رجب فسبحان من لا زوال لملكه ولا إذلال لجبروته سبحانه فهو المعز المذل لا يهدى من عاداه ولا يضل من استهداه إنه التواب العظيم.

(مطلب)

ولاية الخديو محمد توفيق باشا

ولما كان يوم الخميس سابع رجب الفرد من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية ورد من خير الدين باشا صدر الدولة يومئذ مرسوم على جناح البرق خطابا إلى الأمير محمد توفيق باشا يقول:

بناء على أن الخطة المصرية هى من الأجزاء المتممة لجسم أملاك السلطنة العثمانية وأن غاية صاحب الشوكة والاقتدار إنما هى تأمين أسباب الترقى وحفظ الأمن والعمارة فى الممالك ـ وبناء على أن الامتيازات والشرائط المخصوصة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية ـ وبناء على تزايد أهمية ما حصل فى القطر المصرى الناشئة عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالى إسماعيل باشا ـ ثم إنه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية الأصافانيه من الرشد وحسن الروية وعلى ما ثبت لدى ملجا الخلافة العظمى من أن جنابكم الداورى ستوفقون إلى استحصال أسباب الأمنية والرفاهة لصنوف الأهالى وإدارة أمور المملكة على وفق إرادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الإرادة العالية بتوجيه الخديوية الجليلة إلى عهدة استئهال صفانيتكم ـ وبناء على الفرمان العلى الشأن الذى سيصدر حسب العادة على مقتضى

الإرادة السنية السلطانية التى صار شرح حـدودها ـ وبناء على ما كتب بالتلغراف إلى حضرة المشار إليه إسماعيل باشـا من تخليه عن النظر فى أمور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله قد تحرر هذا التلغراف لكى يعلن حال وصوله للعلماء والأمراء والأعيان وأهل المملكة جمـيعاً وتباشر من بعده أمور الحكومة وهذا من الـتوجيهات الوجيهـة إلى أثر استحقـاق اصفانيتكم لتـجرى التنظيمات والتـرقيات مبـدأ وتقدمة ويصير تكرار الدعاء بتـوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطـانية ولذلك صارت المبادرة إلى إبداء لوازم التهنئة لحضرتكم أيها الخديوى المعظم والأمر والفرمان على كل حال لمن له الأمر. انتهى.

فلما كانت الساعة الثالثة صباحا من يوم الخميس صعد الخديوى إلى قلعة الجبل فى أبهة وكبكبة زائدة واحـتفل بقراءة هذا المرسوم احتفالا عظيـما ودخل عليه رجال الدولة وكبـار الحكومة والعلماء والمشايخ والرؤسـاء الروحانيون ووكلاء الـدول كافة وطوائف ضبـاط الجند فهنؤه وتزاحـمت ذوات البيوتات على بـاب والدته وأتت إليه رسائل التهـانى تباعا من كل صوب وفرح النـاس جميعا بولايتـه ودقت البشائر فى ذلك اليوم وأولمت والدته وأطعمت وكست بعض الفـقراء وتصدقت وكتب الخديوى إلى الصدر الأعظم يقول:

وصل ليد التبجيل تلغرافكم السامى الآمر أن فراغ محسوبكم والدى المحترم عن الحكومة المصرية وتوجيـه مقام الخديوية من محض جليل عواطف الحـضرة الملوكانية لعهـدة رقيقكم همـا من مقتـضى عالى إرادته السنية السلطانيـة وبالحقيـقة أن تكرم حضرة صاحب الخلافـة الأقدسى الذات بتوجيه مقام الخديوية لعـهدة هذا العبد كان دليلا على جليل المبانى وركنا بالفخـر لا يعادله ثانى على وجود عـبدكم مشـمولا بفـيض النظر الملوكـانى وبما أننى مـهمـا بذلت من الوسع والمـقدرة لإيفـاء ذرة من التـشكرات المفروضــة على هذه العنايات والآلاء أرى ذاتى عـاجزا بالكليـة عن حق الإيفاء والأداء فلذا رفعت إلى مقر إجابة الرب القدير أكف الأدعية الخيرية ببقاء عمر وعافية وارتقـاء شأن وشوكة الحضرة السلطانيـة مشفوعة بتكرار الدعوات المـستجابة بدوام موفقية فخامتكم وبمقتضى منيف إرادة الجناب السلطانى السنية قد صعدت إلى قلعة مصر فى السـاعة العاشرة من يوم الخميس وهناك قد أعلنت الكيفـية لجميع من حضـر من العلماء والأشـراف والوجوه والأعـيان والرؤسـاء الروحانيـين والمأمورين الأجانب ولكافـة الأهالى وأطلقت المدافع، ثم أخذت بزمـام الحكومة وبدأت بظليل ظل الحضرة السنيـة الملوكانية فى مباشـرة أمور الخديوية عالم علم اليقـين أن سلامة

الخديوية المصرية وسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم العبودية والتابعية للسلطنة السنية، وأن بقاءها لا يقوم إلا بالصداقة والإخلاص للذات السنية الملوكانية فأستمر على هذا الطريق وأصرف الوسع والقدرة بالاهتمام لاستحصال راحة ورفاهية أهالى مصر وسكانها والملتمس عرض ذلك لعالى أعتاب الحضرة السنية السلطانية متخذا ذلك وسيلة لاستبقاء توجيهات فخامتكم العلية وفى جميع الأحوال الإرادة والفرمان لحضرة من له الأمر. انتهى.

ولما استقر بالخديوى المنصب رسم إلى الوزير محمد شريف باشا بترتيب هيئة الوزارة فرتبها على ما شاء، ثم رسم بصرف عشرة آلاف من الجند إلى أوطانهم فصرفوا ولم يبق من الجند العامل سوى اثنى عشر ألفا فبدأت دلائل الإصلاح وظهرت إشارات الفلاح ففرح الناس فرحاً عظيمًا ورفع الكثير من الأجانب المستوطنين بالإسكندرية والقاهرة على اختلاف أجناسهم العرائض إلى وكلاء حكوماتهم بالإطراء والمدح للهيئة الحاكمة ويشكرون لها أخذها بأطراف الهمة وسيرها على سنن الإصلاح ويرجونهم فى منع تعرض أبناء جلدتهم إلى عمل الحكومة وترك تدبير أمور البلاد إلى أهلها قالوا: لأنهم أعلم الناس بها وأعرفهم بحاجاتها فاشتدت عند ذلك عزائم المصريين وعمد الوزير إلى الإتيان على جميع أوجه الإصلاح من أبوابها وبالغ فى ترتيب سائر الأمور وإحكام نظامها، وكان إلى هذا الحين لم يرد فرمان السلطان بالولاية وقد جاء الخبر بأنّ رجال السلطنة العثمانية وأهل المابين الهمايونى على طرفى نقيض فإن بعضهم يعمل على تقليل امتيازات مصر الممنوحة لها من أيام محمد على باشا الكبير وأن السلطان ميال إلى ذلك فخشى الوزير محمد شريف باشا العاقبة، وكلم وكيلى الفرنسيس والإنجليز فى الأمر فكتبا إلى كبيرى السياسة الإفرنسيسية والإنجليزية فى ذلك فكلما الباب العالى وشدّدا فى الطلب وطال الأخذ والردّ بين الفريقين وأظهر رجال السلطنة العثمانية حزما وثباتا فطاولوا وحاولوا واشتدت عزيمة أنصار الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا وبذلوا النفيس فى استمالة رجال المابين فخاف سفيرا الفرنسيس والإنجليز بدار السلطنة شر عاقبة هذه الحال وأعملا الفكرة وأكثرا الترداد على الباب العالى وما زالا حتى تقررت القاعدة بينهما وبين الصدر الأعظم على تسيير سفير مخصوص ومعه فرمان الولاية فطيروا الخبر بذلك إلى القاهرة فزال عن الوزير محمد شريف باشا ما كان يخشاه.

(مطلب)

ورود فرمان الولاية على يدى فؤاد بك كاتب أول المابين

فلما كان ثالث عشرى شعبان سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وصلت إلى مدينة الإسكندرية الباخرة عز الدين السلطانية وعليها الأمير على فؤاد بيك كاتب أول المابين يحمل الفرمان المشار إليه فأنزل فى سراى رأس التين فى تلك الليلة وقدم إلى القاهرة فى رابع عشريه فأنزل مع حاشيته بقصر النزهة بشبرا من ضواحى القاهرة فزاره جميع الوزراء ورجال الحكومة وبالغوا فى إجلاله وتعظيمه وطيروا الخبر بقدومه وفى صبح الخميس خامس عشريه هرع الناس إلى قلعة الجبل وتقاطر إليها رجال الدولة وكبار المأمورين وهم بلباس الزينة والتشريف، وصعد كذلك وكلاء الدول والعلماء والرؤساء والأعيان واصطفت الجند تباعا من صليبة ابن طولون وطريق محمد على إلى ديوان السلطان الغورى بقلعة الجبل، وفى نحو الساعة الثانية صباحاً صعد الخديوى راكبا فى عربة التشريف وعلى يساره الوزير محمد شريف باشا وأمامه على فؤاد بيك رسول السلطان وبجانبه طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى ومر من وسط الجند بين ضجيج الدعاء وأصوات البوق والنفير ودوىّ المدافع حتى صعد إلى الديوان فلما استقر به المقام تقدم مبعوث الخليفة بالفرمان وناوله إياه فأخذه وقبله ورفعه إلى رأسه ثم ناوله إلى طلعت باشا الكاتب فقبله هو أيضاً وارتقى مكانا مرتفعا أعدّ له وقرأ ما فيه بالرومية فكان بالعربية هكذا:

الدستور الأكرم والمعظم الخديوى الأفخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الأمم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الأنام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والإقبال مشيد أركان السعادة والإجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى خديوى مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا الحامل لنيشاننا الهمايونى العثمانى المرصع ونيشاننا المرصع المجيدى وزيرى سمير المعالى «توفيق باشا» أدام الله إجلاله وضاعف اقتداره وإقباله إنه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم أنه بناء على انفصال إسماعيل باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وحسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من أن لكم وقوفا ومعلومات بمصر منذ مدة وإصلاحها وجهنا إلى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة

المعلومة مع الأراضى المنضمة إليها المعطاة إلى إدارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالى الصادر فى الثانى عشر من المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية المتضمن توجيه الخديوية المصرية إلى أكبر الأولاد ـ وحيث إنكم أكبر أولاد الباشا المشار إليه قد وجهت إلى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر أن بعض أحكام الفرمان العلى الشأن المبنى على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيها الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديما نشأت عنها الأحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد المقتضى تبديلها وتعديلها وإصلاحها فما تقرر إجراؤه الآن هو المواد الآتية:

إن كافة إيرادات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث إن أهالى مصر أيضاً من تبعة دولتنا العلية وأن الخديوية المصرية ملزومة بإدارة أمور المملكة والمالية والعدلية بشرط أن لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعدّ فى وقت من الأوقات فخديوى مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة ـ وأيضا خديوى مصر مأذون بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الأجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولأجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والأجانب بشرط عدم خلل معاهدات دولتنا العلية المؤسسة وفى حقوق متبوعية مصر إليها وإنما قبل إعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الأجانب بهذه الصورة يصير تقديمها إلى بابنا العالى ـ وأيضاً يكون حائزا للتصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وإنما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصاً بها ـ وحيث إن الامتيازات التى أعطيت إلى مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لأى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الأراضى المصرية إلى الغير مطلقا ـ ويلزم تأدية مبلغ سبعمائة وخمسين ألف ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه ـ وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية

عشر ألفا لأن هذا القدر كاف لأمنية إيالة مصر الداخلية فى وقت الصلح وإنما حيث إن قوّة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا يجوز أن يزاد مقدار العساكر بالصورة التى تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات ونياشين عسكرنا الشاهانى ويباح لخديوى مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية إلى غاية رتبة أميرآلاى والملكية إلى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديوى مصر أن ينشىء سفنا مدرّعة إلا بعد الإذن والحصول على رخصة صريحة قطعية إليه من دولتنا العلية ـ ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها ـ وحيث صدرت إرادتنا السنية بإجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمرنا هذا الجليل القدر والموشح أعلاه بخطنا الهمايونى وهو مرسل صحبة افتخار الأعالى والأعاظم وفخار الأكابر والأفاخم فؤاد بيك باشكاتب المابين الهمايونى ومن أعاظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف انتهى.

فلما أتم طلعت باشا قراءته نزل فارتقى مكانه الشيخ سليم عمر خطيب جامع قلعة الجبل ودعا ببعض الأدعية للخليفة ورجال دولته وللخديوى ورجاله ثم أطلقت المدافع تباعا وهتف الجند بأصوات الدعاء والتعظيم ودقوا طبولهم ونزل الخديوى بموكبه إلى مقر عابدين فانصرف الجميع وتزاحم الكبراء والأمراء ورجال الدولة فى ذلك اليوم على بابه وزار والدته نساء الأمراء والكبراء وزينت مصر والقاهرة ثلاث ليال وأطلقت المدافع من قلعة الجبل فى الأوقات الخمس وفرح الناس بذلك كثيراً.

(مطلب)

تخلى الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرياسة وما اشتهر به بين الناس

وسار الخديوى فى الرعية سيرا حسنا وسلك بهم مسالك الدعة والرفق وفرّق الصدقات على المساكين والمنقطعين وبالغ فى الإحسان فلم يردّ سائلا ولم يمنع مستعطيا وتقدم إليه الوزير محمد شريف باشا فى رفع الخراج عن جميع الأراضى المأخوذة للمنافع العمومية فرسم برفعه وكان شيئاً كثيراً وتقدم إليه أيضاً فى طلب كثير من الأمور النافعة للبلاد وأهلها فأجابه إليها فتعلقت الآمال بالوزير واجتمعت على محبته القلوب وظل الحال على أحسن ما يكون من الهدوّ والطمأنينة ورواج

الأعمال أياما والناس فى فرح واستبشار حتى خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من منصب الرئاسة وتخلى عنه طائعا فى الثلاثين من شعبان فتطير الناس من ذلك وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد واختلفت الأقوال فى الأسباب فمن قائل أنه تخلى لخلاف بينه وبين قونصلى الإنجليز والفرنسيس ومن قائل بل لخلاف مع قونصل الفرنسيس لأمور نقمها عليه ومن قائل: بل بإيعاز من دولة الإنجليز إذ كانت ترى منه قرما عنيدا شديد البأس عزيز النفس أبيها صبورا على الشدائد فعملت على تنزيله فأحس بذلك فبادر هو بخلع نفسه، ومن قائل غير ذلك وعندى أن القول الأخير أرجح بل أصح فحزن الناس عليه وأسفوا أسفا شديدا وقد عرفوا منه رجلا كيسا حازما صائب الرأى شريف النفس واسع المعرفة بأساليب السياسة شديد الميل إلى نصرة المظلوم يعفو عند المقدرة ويغض عن الهفوات ويعرض عن بطانة السوء ويكره المطرين وأصحاب الوشاية ميالا إلى بث روح الحرية والمساواة بين صنوف الرعية، وهو أول من نادى بالشورى على عهد الخديو إسماعيل وبذل جهد المجتهد فى بثها فى جوف البلاد ثم أنشأ قانونها ورفعه إلى الخديوى إسماعيل وطالبه يومئذ بتحرير البلاد وفك قيود الرعية فتململ ولم يقبل فألح عليه وهدده بتنزيل نفسه وتخليه عن منصب الرياسة يومئذ إن هو أصر على الإباءة ثم حدث فى ذلك الحين من الكوائن ما كان سببا لترك ذلك القانون فى زوايا الإهمال، فلما تولى الخديوية الأمير محمد توفيق باشا ووجه مسند الرياسة إليه أحسن الظن بمخدومه وأخلص له النية. قال بعض كتاب الأخبار: فأبان له عما فى الشورى من الخير والبركة وجعل يحبب إليه العمل بها فمال إلى رأيه ودعاه إلى سنّ قانون لا يمس حقوقه الذاتية ولا يذهب شيئاً من سلطته الوراثية فرفع إليه القانون الذى كان أنشأه على عهد أبيه إسماعيل. قال: فاستشار رجال ديوانه فى جواز العمل به فقبحوا له ذلك وموّهوا عليه الحقائق وهوّلوا فى العاقبة فأعرض عنه فراجعه الوزير فلم يرض فأنزل نفسه عن منصب الرياسة فى الثلاثين من شعبان كما تقدم القول **(قلت)**: وهذا قول آخر فى أسباب تخليه عن منصبه وعندى أنه قول لا صحة له والأول أصح، وكان مصطفى رياض باشا إلى هذا الحين نزيل الديار الأورباوية وكان قد فرّ هاربا من وجه إسماعيل باشا خوفا من البطش به كما تقدم القول فأرسل إليه الخديوى يستقدمه ويستحثه على الحضور ليوليه مسند الرياسة وأقام هيئة وزراء مؤقتة برياسته كان فيها الوزير منصور باشا يكن وعلى حيدر باشا وذو الفقار باشا ومصطفى فهمى باشا ومحمد مرعشلى

باشا وعثمان رفقى باشا وعلى إبراهيم باشا فتحدث الناس فى أمر طلب مصطفى رياض باشا وتطيروا من توليته مسند الرياسة وخشوا عاقبته لما يعلمونه من عدم موفقيته ونكد طالعه على البلاد وكثر لغطهم في ذلك، فلما كان سابع عشرى رمضان قدم رياض باشا إلى القاهرة فبالغ الخديوى فى إكرامه ولبث أياما يغدو ويروح إلى مقر الخديوى والناس فى تخوّف كأنّ على رؤوسهم الطير ثم شاع أن استقدامه بعد ذلك التبعيد إنما كان بإيعاز من دولة الإنجليز وإلحاح من قونصلها بمصر. قال بعض كتاب الأخبار: وتحرير الخبر أنه لما سار إلى لندن عاصمة الإنجليز بعيد فراره من القاهرة اجتمع به ويلصون الذى كان متوليا نظارة المالية المصرية على عهد إسماعيل باشا وشكى إليه حاله وما لاقاه من مضض التضييق وذل التبعيد عن الآل والوطن فقربه ويلصون من كبار ساسة الإنجليز واستمالهم إليه وأعلمهم بحاله وما لاقاه من إسماعيل باشا. قال الراوى: فسأله بعضهم قائلاً: ماذا تفعل إذا أرجعناك إلى ديار مصر وولّيناك منصب الرياسة؟ قال: أكفل لكم تعضيد سيادتكم وإعلاء كلمتكم والعمل فى سائر الأحوال بحسب إشارتكم فوعدوه بذلك إن هو حافظ على العهد ولم يرجع عنه وجعلوا من ذلك الحين يعملون مع الخديوى على إرجاعه وتوليته فأحس الوزير محمد شريف باشا بذلك فخلع نفسه وأفرغ لهم المسند فاستقدمه الخديوى كما أشار قونصل الإنجليز وقد زاد الناس اعتقادا فى صدق هذا النبأ ما تبينوه يومئذ من استحسان أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية أمر توليته منصب الرياسة وامتداحهم لكفاءته وحسن سياسته وقدرته على تدبير الأمور على أحسن ما يكون، وقد تطرف بهم الإطراء إلى القول بأنه على عزم أن يرفع إلى مقام الخديوى قبل تولية المنصب ثلاثة مطالب لابد منها ولا مندوحة عنها الأول: جعل هيئة الحكومة دستورية أو مشوروية بأن تؤلف من وزراء مسئولين ولا يكون أمير البلاد مسئولا عن أىّ خلل يحدث فى الخزينة أو فى إدارة البلاد. الثانى: عدم جواز خلع أحد من موظفى الحكومة إلا بحكم يصدر عليه. الثالث: أن لا يترأس الخديوى قط على هيئة مجلس الوزراء ليكون لكل منهم حرية إبداء فكره فلم يعتبر الناس يومئذ بأن هاته المطالب من عنديات مصطفى رياض باشا لأنهم يعرفونه عدوّاً للشورى. **قلت**: وقد سبق لأصحاب هذه الصحف طلب تقرير هاته الأمور على عهد إسماعيل باشا فحضوا جوشن وجوبير يوم كانا بديار مصر على تقريرها وإكراه إسماعيل باشا على العمل بها ثم حال دون ذلك من المحن والكوائن ما كان سببا فى خلع إسماعيل باشا وتبعيده.

(مطلب)

تولية رياض باشا الرياسة للمرة الأولى

فلما كان رابع شوّال من السنة (أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية) رسم الخديوى إلى مصطفى رياض باشا بتشكيل هيئة الوزارة فشكلها على نحو ما أراد ووافقه الخديوى على تشكيلها فتزاحمت على بابه أقدام أصحاب الوظائف والمناصب العالية ومأمورى الحكومة وذوى الغايات والمطامع فأمر ونهى وتقدم إلى الخديوى فى إقامة المراقبين الماليين الإنجليزى والفرنسوى اللذين أشار بهما رجال لجنة التصفية كما تقدم الكلام على ذلك فى محله فأجابه إلى ما طلب ورسم به فجاء من قبل دولة الإنجليز أحد رجالها واسمه الماجور بارنج وجاء من قبل دولة الفرنسيس آخر اسمه المسيو دى بلينار وهو الذى كان متوليا نظارة الأشغال العمومية على عهد إسماعيل باشا فسلم لهما الرئيس مصطفى رياض باشا زمام الأعمال فبحثا ونقبا وأتيا على جميع أمور الخزينة من أبوابها وأخذا فى إصلاح ما فسد من أحوالها ورتبا لأصحاب الديون نظاما كافلا بحفظ حقوقهم وعينا لجباية الأموال آجالا يجبون فيها الخراج وقد كانت إلى ذلك الحين هملا مهملا وأبطلا كثيرا من المغارم والمكوس الظالمة والبدع المستحدثة وقررا قاعدة لميزانية خزينة البلاد وإيرادها ومصرفها ونظرا فى جميع أوجه الإصلاح من أبوابها وقيدا الأعمال باللوائح والنظامات المرتبة على نسق ما فى بلاد الأمم المتمدنة ونظرا إلى فلاحى البلاد وأصحاب الزراعات نظرة الأب الشفيق فهوّنا عليهم كل أمر شاق، وبينما كان المراقبان يعملان على ما فيه المصلحة للبلاد وأهلها كان الرئيس مصطفى رياض باشا يعمل أيضاً على تعزيز مقامه وإعلاء كلمته وبسط يده على جميع الأمور وإحاطته علما بالصغير منها والكبير فتطرّق به حب هذه الأثرة إلى التعدى على حقوق الخديوى وجعل أعماله ونفوذه الذاتى لا يتعدى إشارته وكان الخديوى منذ تولى المنصب قد جعل يعطى مأمورى الحكومة وبعض أعيان البلاد ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار تلطفا منه وإحسانا فلم يرق عمله هذا فى عين الرئيس بل أنكره وندد به ونهاه عن التمادى عليه فلم يلتفت الخديوى إلى قوله فأكبر الرئيس هذا الأمر من الخديوى وكتب فى رابع عشرى ذى القعدة من السنة إلى جميع دواوين الحكومة يقول: إنه لا عبرة قط لهذه الرتب فى أمر الجماكى والمرتبات فى جميع الخدامات الملكية فساء الخديوى ذلك واستعظمه وكبر عليه الرجوع عما فى نفسه فزاد فى الإحسان وأكثر من العطاء فامتعض الرئيس وعقد لذلك مجلس الوزراء فقرّ قرارهم على أن لا يعطى شىء من ألقاب الشرف والناشين

إلى مأمورى الحكومة وموظفيهـا أيا كانت درجته إلا بعد الطلب من مجلس الوزراء ورفع هذا القرار إلى الخديوى ليصادق عليه.

(مطلب)

فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوى والرئيس مصطفى رياض باشا

فكبر الأمر عليه وأزعجه فطاول وحاول أياما وراجع الرئيس ثم أدرك ما سيكون من وراء ذلك من الفشل واستفحال الخطب إن هو أصر على الامتناع فوقع على القرار كارها فكان هذا الحادث فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوى والرئيس مصطفى رياض ومن معه ورأى الخديوى بعد ذلك من الرئيس غلظة وجفاء فتأهب للتجوّل فى أنحاء القطر والترفع إلى الأقاليم القبلية ترويحا للنفس من شر هذا الحال، فلما كان صبح الخميس تاسع عشرى صفر من السنة أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف هجرية تحرك ركابه وسار قاصدا الأقاليم القبلية ومعه آل بيته وحاشيته وأتباعه وغلمانه ورجال ديوانه الخاص فاستعدّ أهل البلاد للقائه وفرحوا بحضوره إليهم فرحا لا يوصف وأظهروا من الإخلاص والتلطف للقائه ما لا يكاد يصدقه العقل فزينوا البلاد بالأنوار والرايات والرياحين والأزهار وقابلوه بالطبول والزمور وإطلاق البنادق بين ضجيج الفرح وأصوات الدعاء والابتهال إلى الله، فكان إذا نزل ببلد هرع أهلها رجالا ونساء وأطفالاً وقابلوه بالدعاء وبالغوا فى تعظيمه فكان يقابلهم بالبشاشة والترحاب ويمد لهم الموائد ويعطى الفقراء والمساكين منهم ولا يردّ لهم سائلاً وما زال على هذه الحال حتى مدينة أسيوط، فلما استقر بها ركبه كتب إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول:

أنا الآن بأسيوط وليس فى الإمكان والاستطاعة وصف جميع ما أظهره الأهالى من الجيزة إلى هذا المكان من عظم الفرح والمسرة وحسن الترحب بنا ولا شك أن مثل هذه الأفراح والمسرات لا تصدر إلا عن الثقة العمومية ولا توجد الثقة إلا بوجود العدالة والاستقامة، ويرى أن الرعية الآن آملة فينا واثقة بنا، تلك نعمة آلهية عظيمة المقدار وتوجب علينا الاستمرار على نهج منهج العدالة والأمانة لتزداد الرعية حبا لنا وثقة بنا جمل الله القدير اجتهادنا بالفلاح، ثم رجع إلى القاهرة فى كبكبته وزينته بين خدمه وحاشيته وأتباعه ورجال ديوانه وسار منها إلى الأقاليم البحرية فلاقاه أهل البلاد بالفرح وأولموا لقدومه الولائم والأفراح وبالغوا فى ذلك بما لا يكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل راجعا إلى القاهرة وقد بلغه من أخبار الرئيس

مصطفى رياض باشا واستهتاره بالأمور وتحامله على منصب الخديوية وشخص الخديوى ما أنساه تلك الولائم والأفراح فجعل عند ذلك يراقب الأحوال والرئيس لا يلوى عنان النفس عن هواها وقد بسط يده على جميع مصالح الحكومة فتزاحم على بابه أصحاب السعاية وتقرب من مجلسه أهل النميمة والوشاية واشتد على كل من آنس منه جأشا فهابه الحكام وخافه أصحاب الوظائف وكثرت عيونه وأرصاده وأوجس أتباع إسماعيل باشا منه شرا إذ مال على بعضهم يريد الانتقام واشتد عليهم شدة بالغة فهالهم أمره وأزعجهم تهديده وخشوا عاقبة فعله فانضم بعضهم إلى بعض وتألبوا مع الفريق شاهين باشا كنج الذى كان رئيس ديوان الجند على عهد إسماعيل باشا وجعلوا يدبرون على الخلاص منه فلما أحس بما هم عليه سير إلى شاهين باشا يتهدده ويقول: إن لم تقلع عما أنت عليه ساءت حالك وكذب فألك ثم بث حول داره العيون ومنع من دخول الناس إليه فكبر الأمر على شاهين باشا وأرسل إلى إسماعيل باشا يعلمه بما آلت إليه حالة أتباعه وحاشيته وكل من نالته منه نعمة ويشكو من مقال الرئيس مصطفى رياض باشا فحبب إليه إسماعيل باشا ترك تابعية السلطنة العثمانية والألتجاء إلى دولة إيطاليا فمال شاهين إلى ذلك فرارا من إيذاء الرئيس وعلم الرئيس بالخبر فمانع قال بعض الكتاب: وحرض بعض مشايخ البلاد التى بها زروعات شاهين باشا فأقاموا عليه الدعاوى الطويلة وضيقوا على خدمه وأتباعه وأخذوا ما قدروا عليه من أرزاقه فكبر عند ذلك خوف شاهين باشا وألح على إسماعيل باشا فى التعجيل فوردت إليه أوراق التابعية فقام من فوره وحصر أرزاقه وضبطها ووكل بها من يبعث إليه برزقها فى حينه وتأهب للرحيل إلى مدينة نابولى حيث يقيم إسماعيل باشا فكبر الأمر على الرئيس مصطفى رياض باشا وجعل يدبر على فساد حيلة شاهين وسير إلى قونصل دولة إيطاليا فى ذلك فلم يفلح.

(مطلب)

الحكم بتبعيد جاهين باشا وتجريده من رتبه وألقابه

فلما كان خامس رجب قام شاهين من القاهرة إلى الإسكندرية يريد الذهاب إلى نابولى فجمع الرئيس فى صباح سادسه هيئة مجلس الوزراء على خلاف العادة وهيأ قرارا بتجريد شاهين باشا من جميع رتبه وألقابه وصفاته الرسمية مع محو اسمه من سجل ضباط الجيش المصرى ومنعه من العود إلى ديار مصر منعا مؤبدا، ثم رفع

هذا القرار إلى الخديوى فامتنع من التوقيع عليه فشدد الرئيس فى الطلب فوقع عليه كارها فسير به الرئيس مع رسول إلى شاهين باشا فأعطاه إياه وهو على ظهر السفينة التى كانت قائمة ذلك اليوم إلى مدينة نابولى، حدثنى صاحب لى قال: كنت فى ذلك اليوم على ظهر السفينة التى كان بها شاهين باشا وكنت مودّعا خليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى حيث كان قاصدا مدينة نابولى إحدى أعمال إيطاليا فرارا من وجه الرئيس مصطفى رياض باشا فبينما نحن مهتمون بإصلاح متاع السفر إذ صعد على ظهر السفينة أحد مأمورى الحكومة وعلامات الاضطراب بادية على وجهه فتقدم إلى شاهين باشا وناوله ورقة مختومة ففضها وقرأ ما فيها وهو هادىء اللب ساكن القلب ثم التفت إلى ذلك المأمور وقال: قل للرئيس أصلح الله حاله إنى فاعل ما أراده حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا والتفت إلينا وقال وهو يتبسم: تالله لو بغى جبل على جبل لدك الباغى. قال: صاحبى فقلت جعلت فداك هل هى وصية يجب العمل بها؟ فقال : بل هى فرية يجب أن تخلد فى بطون التواريخ ليعلم صاغر عن كابر كم تقاسى مصر وأهلها من الجور والاستعباد. قال صاحبى: فخفت أن أطيل الكلام بحضرة المأمور وتشاغلت عن حديثه بحديثى مع كبير الخصيان حتى تركنا المأمور وانصرف فنظرت إلى شاهين باشا لعله يعيد علينا حديث ما فى تلك الورقة فلم يفعل وكان لم يكن به شيء وودعته مع كبير الخصيان وانصرفت وأنا فى خوف ظانا أن قد وصل خبرى إلى الرئيس فرجعت إلى القاهرة ولازمت دارى أياما حتى سكن جأشى واطمأن قلبى ولم يقدّر الله علىّ بمكروه . اهـ.

قلت: وقد عدّ فرار شاهين باشا وخليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى وإلحاقهما بإسماعيل باشا ذنبا لا يغفر إذ عقد الرئيس مصطفى رياض باشا فى ثامن رجب هيئة مجلس الوزراء وتناجوا فى ذلك طويلاً وبعد أخذ وردّ تقررت القاعدة بينهم على نزع سراى عابدين مع ما يتبعها من الأبنية وغيرها من جميع الملحقات وسراى الإسماعيلية وملحقاتها وما يتبعها من الأبنية وسراى القصر العالى وملحقاتها وما يتبعها والمكان الكائن بمصر القاهرة بخط الإسماعيلية وملحقاته المعروف بمخزن الموبليات ومطبعة بولاق وملحقاتها مع ما يتبعها من الآلات والمهمات والأبنية وأصطبلات بولاق وسراى الجزيرة مع ما يتبعها من الأبنية والجنينة البالغ مقدار ذلك اثنين وستين فدانا والأراضى التى تتبعها وقدرها ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون فدانا وجميع الملحقات الكائنة بالجيزة وسراى الجيزة وما يتبعها من الأبنية

والجنينة والأراضى من جميع الملحقات التى قدرها خمسمائة فدان وسبعة عشر فدانا والنزل والكشك والحمامات الكائنة بمدينة حلوان وجنينة النزهة القديمة المعروفة بجنينة باستريه بالإسكندرية على ترعة المحمودية وسراى الرمل بالإسكندرية وجميع ما يتبعها من الأبنية والثكنات والإصطبلات وغيرها من الملحقات الكائنة بالرمل وسراى دفينة وما يتبعها بمديرية البحيرة وسراى المنصورة وما يتبعها وسراى الروضة وسراى المنيا (أى منية ابن خصيب) من ملكية إسماعيل باشا وجعلها من أملاك الحكومة قالوا: لأنه قد تبين لهم أن بناء البعض وشراء البعض الآخر كان من مال الخزينة ولأنها لازمة جميعها للمنافع العمومية أو لإقامة خديوى مصر ولأنها كانت لغاية الآن مخصصة لذلك، فلما شاع خبر ذلك استعظمه الناس وتحدثوا به وقد كانوا لا يظنون وقوعه من الرئيس، ثم أعقب ذلك أيضاً أن سير الرئيس إلى ربان السفينة المسماة المحروسة التى كان إسماعيل باشا اتخذها مسكنا لنسائه أمام مدينة نابولى بأن يسرع الكرة إلى الإسكندرية بالسفينة وإلا عدّ تأخيره عن الحضور عصيانا وخروجا وكتب بذلك أيضاً إلى إسماعيل باشا فكبر الأمر على إسماعيل باشا وأحزنه جدا ولم يسعه إلا إعادة السفينة ومن شاء الرجوع إلى القاهرة من خدمه وأتباعه وحاشيته واشترى له دارا بنابولى وأسكن بها من بقى من جواريه ونسائه وأرسل إلى الخديوى توفيق فى ذلك وعاتبه وبالغ فى الشكوى من فعال الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة وأشار عليه باليقظة والالتفات.

(مطلب)

الاحتفال برفع قانون التصفية إلى مقام الخديوى

وكانت لجنة التصفية إلى هذا الحين قد أتمت أعمالها على وجه ما تقدم بيانه وعملت بها دستورا سمته (قانون التصفية) وتأهبت لنشره والعمل به، فلما كان يوم السبت تاسع شعبان من السنة سار رجال هذه اللجنة من القاهرة إلى الإسكندرية وصعدوا إلى مقر الخديوى بسراى رأس التين فتقدم إليه ويلصون رئيس اللجنة وبقية رجالها فصافحهم جميعا ثم خاطبه ويلصون بعبارات التهانى وقص عليه مجمل ما عملته اللجنة فأجابه الخديوى بعبارات التلطف وناوله بيده النيشان المجيدى من الدرجة الأولى وكذلك ناول كلا من بطرس بك غالى والمستر كولفن والمسيو براوللى والمسيو دى بوغاز والمسيو تريكو والمسيو يتجره والمسيو ليرون دى رول النيشان العثمانى من الرتبة الثالثة وأعطى كذلك النيشان المجيدى من الرتبة الرابعة لبقية رجال

تلك اللجنة وبعد انصرافهم أحسن الخديوى على الرئيس مصطفى رياض باشا بالنيشان العثمانى من الدرجة الأولى وعلى المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى أيضاً وأحسن كذلك بعدة رتب ونياشين إلى بعض الوزراء وعند غروب اليوم استدعى الخديوى للطعام جميع الوزراء ورجال لجنة التصفية بمقره برأس التين، وكان المكان غاية فى البهجة والزينة داخلاً وخارجا فأتت إلى ديوان الخديوى فى ذلك اليوم وتلك الليلة رسائل التهانى من الآفاق وحضر فى نحو الساعة الثالثة من تلك الليلة إلى رحبة السراى طوائف الجند ما بين مشاة وركبان بالطبول رافعين بأيديهم فوانيس الزجاج الملون موقدة بالشموع وساروا إلى أن وصلوا إلى واجهة السراى المشرفة على تلك الرحبة حيث كان الخديوى وسائر الوزراء ورجال اللجنة ينتظرونهم فاصطفوا هناك وبعد برهة لطيفة نادوا بأصوات التهليل ثم ساروا وعبروا شوارع المدينة حتى انتهوا إلى ميدان المنشية فوقفوا هناك برهة فهرع الناس لرؤيتهم وفى أواخر الساعة الثالثة اجتمع أرباب الأشاير والطرق تتقدمهم المشاعل والأنوار والطبول والزمور والبيارق والرايات وساروا على نظام معلوم عندهم إلى أن دخلوا رحبة السراى فى عدد كثير وكان كل فريق منهم على شكل مخصوص وهم يضجون ويعجون ثم ورد من بعدهم أبناء المدارس وفى أيديهم مصابيح الشمع وفى ذلك الوقت كان ساحل البحر مزدانا بالأنوار وكذلك جميع السفن الراسية فى المينا وقد سار عدد من قوارب البحر يحمل الجماهير من الناس وكانت مزدانة بالأنوار والقناديل وفى بعضها الطبول والمغنون والمغنيات فانتهوا إلى مقر الخديوى وهم يعزفون ويضربون الطبول إلى أن كانت الساعة السادسة من تلك الليلة فأطلقت شنكات البارود والحراريق والألعاب النارية أمام السراى من باخرة الخديوى الخصوصية وباخرتى محمد على ومصر واستمرت كذلك إلى الساعة السابعة من الليل وقد تسابق الناس على اختلافهم لرؤية هذا المنظر البهيج والمشهد الحافل وكانت ليلة لم يسبق لها مثال وأكثر الشعراء فيها من المدح والغزل وعملوا فى لجنة التصفية القصائد والمدائح وأوعز الرئيس مصطفى رياض باشا إلى مديرى الأقاليم فوردت رسائل التهانى ركاما من سائر البلاد.

وكان أول شيء بدىء به من نفقات التصفية زيادة مائة وخمسين ألف جنيه ذهبا على ضريبة الأطيان العشورية وتوزيعها على التساوى بلا فرق ولا تمييز بين الأراضى وبعضها قالوا: وستبقى هذه الضريبة معمولا بها حتى ينجز ترتيب أمور الخزينة فلم

يتم توزيعها حتى انبث أصحاب الجباية يعيثون فى البلاد لجمعها فشق هذا الأمر على أصحاب تلك الأطيان وشكوا منه وتزاحموا على باب الرئيس فمناهم ووعدهم خيرا فسكتوا فلما كان خامس عشر رمضان من السنة قرر الرئيس اعتبار هذه الضريبة أصلا مقررا فى ضرائب الأطيان العشورية وأن لا يكون بينها وبين الضرائب الأصلية فرق وأن جميع الأطيان المعطاة قبل الآن بشرط أن تكون عشورية يربط عليها العشور المناسبة لها على هذا الأساس بعد فرزها وتقدير درجاتها وما كان معطى بدون شرط جعلها عشورية وكذلك جميع الأطيان الميرية التى تنقل من الآن فصاعدا من حيازة الميرى لحيازة أخرى تعتبر أطيان خراجية ويربط عليها الخراج بحسب الدرجة المناسبة لها فأتت الزيادة بعد ذلك القرار أمرا مقضيا فاشتد انقباض الناس من فعال الرئيس وتطيروا منها وابتعدت قلوبهم عنه أو كادت وكثرت الإشاعة بقرب خلعه وتنزيله عن منصب الرياسة.

(مطلب)

أول شكوى لضباط الجند مما يلاقونه من عثمان رفقى باشا

وأعقب ذلك أيضاً أن ظهر فريق من ضباط الجند يشكون مما يلاقون من عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند وصرفه الكثير منهم عن الخدمة العسكرية واستعاضتهم بآخرين من جماعة الشراكسة بغير سبب، قالوا: سوى الميل إلى الجنسية ورغبته فى تبعيد أبناء البلاد ووالوا الشكوى وعظموا البلوى ورفعوا إلى الرئيس مصطفى رياض باشا ظلامتهم ووقفوا ببابه أياماً فلم يروا منه التفاتا وقد اشتد بهم الضيق وكثرت عليهم حاجة العيال فكانوا يجتمعون فى كل ليلة فى دار محمد أفندى فنى رئيس المترجمين بديوان الخزينة يتناجون فى أمرهم وما هم فيه من الشدة والفاقة ويرددون حديث ما تعانيه أهل البلاد من جفاء الرئيس مصطفى رياض باشا واستصغاره بأمور الرعية فاتصل به خبر اجتماعهم فبث حولهم العيون والأرصاد وهم لا يشعرون، فلما كانوا فى إحدى الليالى يتناجون فى حوادث يومهم ذلك إذ كبس عليهم نفر من الجند وأصحاب الشرطة ومأمور من مأمورى الضابطة وقبضوا عليهم جميعاً وساقوهم إلى الحبوس فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا فنقلوهم إلى سجن قلعة الجبل ورسم الرئيس فهيئوا لمحاكمتهم مجلسا حربيا وشددوا عليهم وضيقوا فكثر تحدث الناس فى ذلك وتطاولت ألسنتهم إلى التقريع والسباب، فلما كان ثالث ذى الحجة سنة سبع وتسعين حكموا على محمد أفندى فنى صاحب البيت بالطرد من خدامات

الحكومة والسجن بقلعة الجبل سنتين وحكموا على من كانوا يجتمعون معه بالسجن والعزل من الوظائف العسكرية، واشتدوا من هذا الحين على جميع الضباط المصريين وبالغوا فى التضييق عليهم وخلعوا الكثير منهم بغير موجب ولا سبب واستودعوهم بربع الجماكى فكانوا نيفا وألف ضابط وقد حاق بهم الذل والحيف وأعمل الجوع فى أطفالهم عمله فتألبوا وتحزبوا وارتبط بعضهم ببعض بالأيمان والعهود وانضم إلى جمعهم كل ذى نائبة من أبناء البلاد وكانوا كثيرين لا سيما من ثقلت عليهم يد الرئيس، حدثنى صاحب لى قال: لما ظهرت علامات الفتنة وكادت تبدو إشارات الخروج وأحس الخديوى بذلك كلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة فلم يلتفت وكان إذا شدد عليه الخديوى وحذره وألقى عليه التبعة ذهب إلى قونصل الإنجليز وشكى إليه واستعان به على الخديوى فبلغ من نفوذ القونصل المذكور يومئذ أن صار يعزل ويولى من يشاء من مأمورى الحكومة وأرباب الوظائف وأتى بجماعة من قومه فأدخلهم فى خدمة الحكومة وسدّ بهم أبواب الرزق فى وجوه أهل البلاد وجاراه فى ذلك قونصل الفرنسيس فبات الرئيس وهو لا يقدر أن يخالف لهما كلمة ولا ينبذ لهما طاعة وظل على هذه الحال والخديوى لا يرى للخلاص سبيلا.

(مطلب)

ظهور الوحشة بين المراقب الفرنسوى وقونصل جنراله وظهور عصابة الجند

ورأى المسيو دى بلينار مراقب الفرنسيس من نفوذ قونصل جنرال دولته واتساع كلمته وتطاول يده إلى أعمال الحكومة والعبث بمنصب المراقبة ما أزعجه وبلبل أفكاره فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك وحذره من سوء العاقبة ثم جعل يمانع فى تداخل القونصل ويعمل على إيقافه عند حده فاستكبر القونصل ذلك ونقمه عليه وناواه الخصام فقامت بين الاثنين قائمة الشحناء واشتدت البغضاء وأعرض الرئيس عن المراقب ومال إلى جانب القونصل فكبر بغض المراقب له أيضاً واستفحل بينهما الخلاف واستعصى الوئام، وبينما كان الرئيس والمراقب والقونصل يتنازعون النفوذ والحرب بينهم سجال كان عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند يكثر من عزل الضباط المصريين ويقصيهم عن مناصبهم ويولى بدلهم جماعة الشراكسة وكان ممن عزلهم من مناصبهم كبير من ضباط الفرسان اسمه أحمد بيك عبد الغفار وكان له منزلة وحرمة بين قومه فما شاع خبر عزله حتى انضم إليه جماعة الضباط المعزولين وجعلوا

يجتمعون فى كل ليلة فى داره ثم اتفقوا على أن يختاروا لهم رئيسا يرجعون إليه فى أمورهم وتدبير شئونهم فوقع اختيارهم على أحد أمراء الجند المدعو أحمد بيك عرابى أمير جند الألاى الرابع فلبى دعوتهم وتجرد لنجدتهم وعمل على توحيد كلمتهم وأحكم التدبير على ما يناسب مصلحتهم، **قلت**: وأحمد عرابى بيك هذا رجل ولد من أبوين فقيرين وكان مولده فى ليلة السبت ثالث عشرى جمادى الثانية من عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية، وقيل: ولد فى صفر عام سبع وخمسين فى قرية من قرى الشرقية تسمى هرية رزنه على بعد بعض فراسخ من الزقازيق أنشأها محمد على باشا الكبير وأسكن بها جماعة من العربان الذين يقال إن أجداد أحمد عرابى هذا منهم وأقطعهم بعض الأراضى لزرعها واستغلالها رزقة بلا مال إلى أجل فكان ما أصاب أبو أحمد المدعو عرابى من تلك الأرض ستة أفدنة سوادا فكانت مادة حياتهم ومنبع تعيشهم، فلما بلغ أحمد عرابى أشدّه سلمه أبوه إلى قبطى اسمه المعلم مخاييل غطاس وكان صراف الناحية ليعلمه القراءة والكتابة فلازمه زهاء خمس سنوات أحسن فيها معرفة القراءة والكتابة وبعض القواعد الحسابية ثم أدخله أبوه فى مصاف طلبة العلم بالجامع الأزهر فرارا من العسكرية وذلك سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية فلبث به زهاء الأربع سنوات يتلقى بعض أصول النحو واللغة والفقه وحفظ القرآن ثم عاد إلى قريته وأقام مع والديه إلى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية ثم أخذ إلى العسكرية قهرا على عهد سعيد باشا وكان من أهل قريته بالمعسكر جاويش بروجى لسعيد باشا اسمه حسن حلمى له كلمة مسموعة فتقرب منه أحمد عرابى ولازمه واحتسب عليه فأحبه وعمل على مساعدته فرقى بواسطته إلى رتبة بلوك أمين للبلوك السابع من الأرطة الرابعة من ألاى المشاة الأول وكان يعرف بين الجند يومئذ بالشيخ أحمد عرابى فلما كانت سنة ثلاث سبعين رقى إلى رتبة ملازم ثم إلى رتبة يوزباشى فى سنة أربع وسبعين ثم إلى رتبة الصاغقول أغاسى والبيكباشى إلى سنة ست وسبعين وكان فى غضون هذه المدة قد بلغ حسن حلمى البروجى رتبة القائمقام ومات فبكاه أحمد عرابى بكاء مرا وجزع عليه جزعا شديدا وبلغ ذلك طيب الذكر سعيد باشا فتعجب ومنحه رتبة حسن حلمى المتوفى وذلك سنة سبع وسبعين فصار من هذا الحين معدودا من كبار ضباط الجند ولبث على هذا الحال حينا ثم اعتزل الخدمة حينا أيضاً ثم عاد إليها فى أوائل ولاية إسماعيل باشا فى سنة تسع وسبعين هجرية ولبث بها إلى أن وقعت بينه

وبين خسرو باشا أحد كبار الضباط الشراكسة خصومة فهيئوا لمحاكمة أحمد عرابى مجلسا حربيا فحكم عليه بالحبس بضعة أيام فلم يقبل الحكم ورمى هيئة المحكمة بالمروق عن جادة العدل والأخذ بالوجوه فرفعوا أمره إلى إسماعيل باشا فأمر بإبعاده عن الخدمة العسكرية فأبعدوه وبالغوا فى تذليله فكبر عليه الأمر وعظم بغضه لطائفة الشراكسة ولبث مبعدا زهاء السنة ثم توسط بعض أهل الخير فى شأنه فأدخلوه فى خدمة الدائرة الحلمية وهى دائرة الأمير إلهامى باشا ولد عباس باشا الأول فأحسن الخدمة واستمال إليه كبار الدائرة فزوّجوه بابنة مرضعة الأمير إلهامى وهى أخت حرم الخديوى محمد توفيق باشا بالرضاع، ولما كانت سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية تشفعوا له عند الخديوى إسماعيل بسبب زوجته فأعاده إلى خدمة الجندية فلم يستقر به المنصب حتى جعل يبث بين الضباط من المصريين روح الألفة والاتحاد ويقرب بعضهم إلى بعض حتى صاروا على قلب رجل واحد فلما تولى الخديوية الأمير محمد توفيق باشا وأحسن على الكثير من رجال العسكرية والملكية بنياشين الشرف ورتب الاعتبار ساعد الحظ يومئذ أحمد عرابى فنال رتبة الميرالاى وكان ذلك فى رجب سنة ست وتسعين .

(مطلب)

تحالف الضباط المصريين على السيف والمصحف وانتداب أحمد عرابى للزعامة ورفعة عريضة بالطعن فى عثمان باشا رفقى

واتفق فى هذا الحين أن شرع عثمان رفقى باشا كبير ديوان الجند فى سن قانون للقرعة العسكرية دل مبدؤه على عدم جواز ترقى أحد من الجند إلى الرتب العالية حيث قضى على العسكرى أن يبقى فى الخدمة مدة أربع سنوات ثم يذهب إلى بلده إمداديا ويبقى هكذا مدة خمس سنوات أخرى ويأتى إلى مركز المديرية شهرين فى كل سنة لمباشرة التمرينات العسكرية وبعد مضى الخمس سنوات يقيم فى بلده بغير عمل ويسمى احتياطيا تحت الطلب مدة ست سنوات ثم يمحى اسمه من دفاتر الجندية فلما ذاع خبر هذا القانون بين ضباط الجند فرح لسماعه جماعة الضباط الترك والشراكسة وانقبض له الضباط المصريون وعلموا بأنه إنما سن هذا القانون على هذا المبدأ لحرمانهم من الرتب وجعلهم جندا تحت تسلط جماعة الترك والشراكسة واختصاص هؤلاء بالرتب والمناصب العالية فجعلوا يقبحون العمل به وشكوا من

فعـال عثمـان رفقى باشا وكـان بين الباشا المذكـور وبين على فهـمى المعروف بعلى الديب أمير ألاى جند الحـرس الخديوى وعبد العال حلمى المعروف بعـبد العال أبى حشيش تفور ووحشـة لأمور لم نصل إلى معرفتها فاجتمع على فـهمى وعبد العال وأحمد عـبد الغفار بأحمد عـرابى فى بيته وتناجوا فى أمر ذلك القـانون وفى فعال عثمان رفقى باشا ثم تحالفوا وتعاهدوا وارتبطوا بالمواثيق على أن يكونوا كرجل واحد ثم أصبحوا وقد جمع كل من عنده من الضباط والصف ضباط وخطب فيهم خطب الحث والتـهييج ضـد جمـاعة الشـراكسة وقـبح لهم فعـال عثـمان رفقى بـاشا ثم استحلفهـم على السيف والمصحف بأن يكونوا يدا واحدة وقلبا واحدا عـلى مساعدة أمراء الألايات الثلاثة فى عملهم والمحافظة على أرواحـهم إذا قصدوا بسوء وبعد أن تم ذلك كتب كل من ضبـاط الأيالات عريضة يطلبون فيـها بعض المطالب الذى هم فى حاجة إليـها فأخذ أحمـد عرابى العرائض الثلاثة وأبقاهـا عنده ورفع هو عريضة أخرى إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول:

مقـدم هذا لإعتاب دولتكم بغـاية كل خضوع ضبـاط الجهادية ومـا نعرض عنه أفندم أنه لما أشرقت بحـمد الله أنوار شمس الحـضرة التوفـيقيـة وأينعت بالعدل فى أرجاء ديارنا المصرية نشر العدل ألويته على دوائر أطلالنا وتحررت رقاب المصريين من رق العبودية كما تخلصت نفوسهم من ضيق الاستبداد الذى طالما استولى على بلادنا عدة أجيال يعـاملنا بأنواع المظالم الغدرية فحمدناه تعالى عـلى ذلك وسألناه التوفيق لتشييد دعـائم أركان العدل والإنصاف محفوفـة برياض الحرية المبنية على المساواة فى الحقوق بين الرعيـة لكن لما أحيل على سعادة عثمان رفـقى باشا نظارة الجهادية رأينا سعادتـه يعامل ضابطان الجهـادية بالذل والاحتقار ويسـعى فيما يوجب لنـا الحرمان والإضرار كـاننا الأعداء الألداء وكأن الله سبـحانه وتعالى يطلـب منه ظلم المصريين والإجحاف بحقوقهم مقتفيا فى ذلك أثر راتب باشا فى آخر العهد السابق من تهييج الأفكار وإثارة الفتن التى تكون سـببا فى توقيـف حركة الإصلاح الإدارى قـصد أن يتمكن مما ساقته إليه نفس سعادته وما زلنا صابرين على مضض البلايا حتى آل الأمر لحرمـان أغلبنا من خدمة وطننا مـع استعدادنا وتـأهلنا وعدم تأخرنا عـمن ترقوا فى الخدمة بوجه امـتياز على ما بهم من العلل ولا موجب لترقيـهم سوى كونهم أقارب ومحاسيب من لهم فى العسكرية النفوذ المطلق وبرهاننا على ذلك أنه موجود بديوان الجهـادية فوق الألف ضابط بقلم المسـتودعين لم يكن فيـهم أحد من غيـر الوطنيين

وهذا مضاد للمساواة ومجحف بالحقوق هذا ومن بعد أن تبين لسعادته تسكين الخواطر واستقامة الأحوال كبر ذلك عليه وقصد تهييج الأفكار بإصدار أمره المبنى على الاستبداد والاستعباد برفت أحد قايمقامى السوارى المسمى أحمد عبد الغفار بيك بصورة تهكم بغير محاكمة قانونية وعلى ضد كل قانون عادل فبذلك هيج بلبالنا وأورثنا عدم الأمن والاطمئنان وصرنا متوقعين الإيقاع بنا واحدا بعد واحد ما دام سعادة المشار إليه فى مسند نظارة الجهادية الذى لا تسمح القوانين الحرة بتوجيه هذا المسند لمثل سعادته ومما يؤيد تلك القوانين مسألتا كنج چاهين وحافظ باشا وبعد ذلك ينظر فى أفضلية من امتازهم عنا بالخدمة مع عدم مساواتهم معنا فى العلوم والآداب العسكرية وغيرها ومآثر دولتكم فى تسكين حركة الخواطر وبث روح العدل والمساواة اتباعا لمبدأ الحضرة الخديوية يوجب علينا القيام بواجبات الشكر الحقيقى والأمر لمن له الأمر انتهى.

(مطلب)

تشكيل المجلس العسكرى للحكم على عرابى بك ومن معه من كبار العسكر

فلما علم الرئيس مصطفى رياض باشا بما فى هذه العريضة كبر عليه الأمر ونقمه على أحمد بيك عرابى وجمع إليه فى الحال هيئة مجلس الوزراء وعقد مجلسهم وبينهم عثمان رفقى باشا كبير ديوان الجند وتكلموا فى الأمر طويلاً فطال بينهم الأخذ والرد ساعة ثم انفض مجلسهم على غير طائل وعلم الخديوى بالخبر فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره سوء العاقبة وأشار بالتأنى وترك العجلة ورسم بالمجاملة والتلطف وترك القسوة والعنف فلم يعجب الرئيس منه ذلك وتجرد إلى المقاومة وعمد إلى التهديد فبث العيون وشدد فى النكير والضباط لا ينكفون عن التحزب والتألب وضم كل بعيد عنهم ممن مسه الضر بفعل الرئيس، فلما كان صبح الثلاثاء ثالث ربيع الأول من السنة أى سنة ثمان وتسعين اجتمع الرئيس مصطفى رياض باشا ببقية الوزراء فى جلسة خصوصية وكلمهم فى أمر أحمد عرابى بيك ومن معه من جماعة الضباط فاتفقوا بعد جدال على تشكيل مجلس عسكرى من كبار الشراكسة لمحاكمة كل من له يد فى تأسيس عصابتهم وتشكيل محكمة أخرى من بعض الموظفين الملكيين لمحاكمة من انضم إليهم من الأهليين وقد أخذ عثمان رفقى باشا على عهدته تنفيذ ما يتعلق بزعماء العصابة وقام من ساعته وذهب إلى

مقر ديوانه بقصر النيل وجمع إليه رجال مجلسه الحربى وكلهم من الشراكسة فتكلموا فى الأمر برهة قصيرة ثم برز من مجلسهم الحكم بتجريد كبار العصابة من رتبهم ووظائفهم العسكرية وتبعيدهم عن الديار المصرية وتسليم مناصبهم لجماعة من الضباط الشراكسة وكتبوا فى الحال ثلاثة أوامر إلى الثلاثة أمراء وهم على بيك فهمى المعروف بعلى الديب أمير جند الحرس الخديوى وأحمد عرابى بيك أمير جند الألاى الرابع وعبد العال حلمى بيك المعروف بأبى حشيش أمير الجند السودانى يستدعونهم إلى قصر النيل بحجة أن عثمان باشا كبير الديوان يريد مشاورتهم فيما يجب فعله من ترتيب زفاف الأميرة جميلة هانم أخت الخديوى فلم تخف عليهم الحقيقة وقد علموا بكل ما وقع الاتفاق عليه ومع ذلك فإنهم لم يتأخروا وقاموا من فورهم وساروا إلى قصر النيل ومعهم من يأتى بالخبر إلى أصحابهم إذا حل بهم ما يكرهون فلما دنوا من مقر عثمان رفقى باشا أحاطت بهم طوائف الحرس ومشى خلفهم كثير من الضباط الشراكسة وأدخلوهم إلى حيث المجلس العسكرى فلما وقفوا بين أيدى رجال المجلس التفت إليهم خسرو باشا أحد الأعضاء وقال: قد حكم عليكم اليوم مجلسنا العسكرى بالتجريد من الوظائف وجميع الرتب العسكرية ومحو أسمائكم من سجل العسكرية فاخلعوا عنكم سيوفكم الآن وسلموها. فقال أحمد عرابى بيك: قد سمعنا ما تقول ونطلب أن تطلعنا على ورقة هذا الحكم لنكون على علم بما جنينا ونعرف ما إذا كان حكمكم هذا ينطبق على ما جاءت به أحكام القوانين العسكرية أو... فقاطعه أحد رجال المجلس بأن قال: ومن أين أثبتم لأنفسكم حق هذا النظر وكيف تطلبون الاطلاع على ورقة الحكم وأنتم اليوم مجرمون مجردون من كل رتبة وشرف، ثم صاح ببعض الحراس خذوا عنهم سيوفهم الساعة واذهبوا بهم إلى حيث أمرناكم فخلع الأمراء عنهم سيوفهم وسلموها وهم صاغرون فأخذوهم ومضوا بهم إلى أسفل الديوان ووضعوا كل أمير منهم فى سجن منفردا تخفره الجند وبعض كبار الجراكسة وكان ذلك فى نحو الساعة العاشرة نهارا فلما بلغ خبر سجنهم عسكر الحرس الخديوى برحبة عابدين وكان محمد أفندى عبيد أحد كبار ضباط هذا الحرس يراقب الحوادث وقد علم بما وراء حبس الأمراء نادى فى جنده بالخروج فخرجوا جميعاً بأسلحتهم وعدّتهم فاعترضه خورشيد بيك يسمى قائمقام الحرس وسأله عن سبب خروج العسكر على هذه الصورة فلم يلتفت إلى قوله وأمر بعض الجند فقبضوا عليه وأودعوه فى إحدى الحجرات ووقفوا على بابه يخفرونه وسار محمد عبيد بجميع الجند إلى قصر النيل وهم فى ضجة وجلبة وبلغ الخديوى الخبر

فأشرف على الجند من شرافة السلاملك ورسم إلـى الفريق راشد حسنى باشا بمنعهم من الذهاب إلى قصر النـيل فلم يتمكن فأمر بروجى قرا قـول السراى بأن ينفخ فى البوق مناديا لجماعة الضباط أن احـضروا أمام الخديوى فلم يلتفت أحد لندائه وظلوا سائرين وهم فى ضـجة وجلبة حتى دخلوا أبـواب قصر النيل فمـانعهم بعض الجند النازلين هناك فلم يلتفتوا إليـهم وقصدوا مقر الفريق عثمان رفقى باشـا وكان عثمان باشا قد علم بخـبر مجىء الجند فأمر بالأبواب فـأغلقت فلما رأى الجند أن الأبواب مقفلة صـاحوا ودمدموا وكسـروها واقتحموها عنوة وهم يكثـرون من الشتم واللعن وبادروا كل من لاقوه بالضرب واللكم والسب وفتشوا على عثمان رفقى باشا يريدون البطش به فلم يعثروا له على أثر وكان قد خـرج من ديوانه مسرعا حتى دخل ورشة تشغيل مـلابس العسكر فقام إليه ناظرها ألماس بيك وأخذ بيـده وأدخله أحد المخازن وستره عن الأعـين ببعض الأكياس الـفارغة فتوارى هنـاك فلما لم يجدوه اقتـحموا سجون الأمراء الثلاثة وأخرجوهم وسـاروا بهم إلى مقر الحرس الخديوى حملا على الأيدى وهم حاسرون الرؤوس والناس خلفهم فى ضجة وجلبة عظيمتين.

ووصل الخبـر إلى الخديوى بما جـرى فاضطرب وأىّ اضطراب وسـير فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وسائر الوزراء فحـضروا فرسم بذهابهم إلى قصر النيل ليتداركوا الأمر قبل استفحاله فساروا ولم يتجاوزوا رحبة عابدين حتى رأوا الجند آتين ومعهم الأمراء الثلاثة وهم ينفخون فى البوق وخلفهم العامّة فى ضجة عظيمة فعادوا مسرعين إلى مـقر الخديوى وأعلموه بالخبر ولم يكد يقـرّبهم المقام حتى أحاط الجند بالسـراى إحاطة السـوار بالمعصم وقـد طار الخبـر فى هذه الأثناء إلى معـسكر طرا والعباسية فحضر منهما على الفور فرقتان بالبنادق والحراب وانضمتا إلى جند الحرس ورفعوا أصـواتهم على الأثر ونادوا بالويل والثبور على عثـمان رفقى باشا وأشـياعه وطلبوا خلعه من منصـبه وأكثروا من الضجـيج والصياح فسير إليـهم الخديوى يقول هوّنوا عليكم فسنرى فيـما تطلبون الساعة فضجـوا عند ذلك بالدعاء للخديوى ثلاثاً وقد هرع الناس عند سـماعهم الضجـيج وأتوا إلى رحبة عابدين من كل فج عـميق وتزاحمـوا خلف صفوف الجند وعلت بينهم الضوضـاء وصاح الصبيـان (الله ينصر السلطان) واجـتمعت الغـوغاء وكثـر الهرج والمرج وحـضر قناصل الدول إلى مـقر الخديوى وهم فى دهشة واضطراب وكان أحمد عرابى بك قد أرسل إليهم فى الحال يعلمهم بالحـادثة ويطمنّ خواطرهم من نحـو رعاياهم وأتباعـهم ويقول لهم: إنه لا علاقة لهذه الحركة قط بالأمور السياسية.

(مطلب)

تولية محمود باشا البارودى رئاسة ديوان الجند وما كان

ورأى الخديوى من استفحال الخطب ما أزعجه فأمر بمجلس الوزراء فانتظم وحضره جميع من حضر من قناصل الدول وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم استدعوا أحمد عرابى بك وسألوه ماذا يطلب فتكلم كثيراً وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال: إنا لا نطلب الآن سوى خلع عثمان رفقى باشا وتنزيله من منصبه فتناجوا فى الأمر طويلاً ثم قرروا خلع عثمان باشا من منصبه والعفو عن الأمراء الثلاثة وأن تعاد لهم وظائفهم فنزل أحمد عرابى بك وأعلم جميع الضباط بماجرى ووقع الاتفاق عليه ونادى فى العسكر بالمسير فهتفوا جميعاً بأصوات الدعاء ثلاثاً وانسحبوا إلى معسكر عابدين والموزيقى تصدح أمام صفوفهم فباتوا ليلتهم وهم بين راقص ومطرب ومدخن بقصبة دخانه وضاحك مع رفيقه حتى مطلع الفجر فسارت الجنود السودانية مع مقدمهم عبد العال بك إلى طرا وسار أحمد عرابى بك بعسكره إلى العباسية وأصبحوا وقد تولى محمود باشا البارودى رياسة ديوان الجند بدلاً من عثمان رفقى باشا المعزول فانحاز جميع الأمراء ومقدمى الجند إليه وتقربوا منه ليكون لهم عونا فأعجبه ذلك منهم ومال إليهم وتقدم إلى الخديوى فى طلب العفو عنهم جميعاً وما زال به حتى أجابه إلى ذلك.

فلما كان يوم السبت عشرى ربيع الأول رسم الخديوى بحضورهم جميعاً إلى مقره بعابدين فحضروا فى الساعة الخامسة وفى مقدمتهم محمود باشا البارودى فلما تمثلوا بين يديه قام فيهم خطيباً يقول:

إنكم تعلمون حق العلم ما عندى من الميل والمحبة للعساكر والالتفات إلى شئونهم من يوم استلامى زمام الحكومة وذلك لما هو محقق لدىّ من أنهم متحدون معى على مقاصدى الحسنة التى هى دوام حفظ الأمنية واستقامة الأحوال الإدارية فى هذا القطر لذلك لا أخفى عليكم ما حصل لى من الأسف بأسباب الحركة التى حدثت وانقضت ومع ذلك فإنى قد عفوت ولم يبق فى قلبى من آثارها شىء بالكلية فيلزمكم من الآن فصاعدا أن لا تشتغلوا بشىء خارج عن حدود وظائفكم واجتهدوا فى أداء واجباتكم العسكرية ومن المعلوم أن سعيى واجتهادى متجه إلى إصلاح الأحوال وتحسين الأمور وهيئة النظار الحاضرة متحدة معى فى هذه المقاصد الخيرية ومجتهدة فى تتميم ما يجب من الإصلاحات اللازمة وليس بخاف عليكم ما تم بهذا

القطر من الإصلاحات المالية والإدارية فى ظرف سنة واحدة وذلك مما يوجب على كل محب لهذا القطر إبداء الشكر وإظهار المسرة وحاصل ما أقول لكم إن العساكر ليس لهم وظيفة سوى التمسك بالقوانين العسكرية والسعى فى أداء واجباتهم والامتثال لولى أمرهم وإنى لعلى يقين من أنكم تعتقدون بأن أكمل الصفات العسكرية هى الاستقامة والامتثال فى جميع الأمور والأحوال فمن الواجب عليكم أن تحافظوا على ذلك وتجعلوا أعمالكم كلها دائرة على هذا المحور . اهـ.

فلما أتم خطابه هتفوا جميعاً بالدعاء وانصرفوا ثم توجه الأمراء الثلاثة إلى قونصلى الفرنسيس والإنجليز وتكلموا معهما فيما هم عليه من السكينة والتمسك بالحدود والقوانين العسكرية وأن ليس هناك قط ما يدعو إلى القلق أو الاضطراب ولله درّ من قال:

فلا يمنعنك الطير شيئاً أردته فقد خط بالأقلام ما كنت لاقيا

ولم يكن يرضى الرئيس رياض باشا عما بدا من الخديوى من والعفو السماح ولا عما وقع من خلع عثمان رفقى باشا من منصبه ولا عن تولية محمود باشا البارودى مسند نظارة الجهادية فجعل يرقب الفرص ليوقع بالأمراء الثلاثة وصار يكيد لهم كيدا والبارودى يعمل على ما فيه المصلحة لهم والذب عنهم وما زال حتى أعيت الرئيس الحيل وكاد يخيب منه الرجاء والأمل وتحقق أن لا نجاح له ولا فلاح إلا بالخلاص من البارودى فعمد إلى معاكسته فى السر والنجوى ورماه بتهمة الخيانة وإفشاء أسرار الحكومة وأعمال مجلس الوزراء قبل تقريرها وتبليغ قونصل جنرال الفرنسيس بحوادث البلاد قبل إذاعتها، قيل: وقد كان البارودى تقرب من قونصل الفرنسيس وتحبب إليه فأحبه ومال إليه انتقاما من الرئيس لما بينهما من سابق العداوة التى تقدم الكلام عنها واشتد الخلاف بين الرئيس والبارودى شدة بالغة وشكا الرئيس للخديوى وقبح مصاحبة البارودى للقونصل وكتب إلى رئيس جمهور الفرنسيس يشكو من فعال القونصل ويعيب تداخله فى أعمال الحكومة وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار المحلية فقاموا وقعدوا ووقعوا بالقونصل سبا وتعييبا وأكثروا من اللوم والتقريع بدولة الفرنسيس لتركها قونصلها يعمل على إثارة الخواطر وبلبلة الأفكار وأعانهم المراقب الفرنسوى على ذلك أيضاً لما بينه وبين القونصل من البغض والمزاحمة على النفوذ.

(مطلب)

اشتداد الخلاف ما بين قونصل الفرنسيس والرئيس مصطفى رياض باشا وما كان من وراء ذلك

ولما اشتد الخلاف بين القونصل والرئيس وكبرت الوحشة بينهما قام جماعة من الفرنسيس نزلاء القاهرة والإسكندرية واجتمعوا بالنزل المعروف بنزل أبات بالإسكندرية يريدون تعضيد القونصل ورد كيد الرئيس والمراقب عنه فخطب فيهم الخطباء وتكلم بينهم الفصحاء في ذلك اليوم وهم يقبحون أفعال الرئيس والمراقب وكتبوا بذلك محضرا وبعثوا به إلى مجلس نواب بلادهم وسألوهم أن لا يعيروا شكوى الرئيس ووشاية المراقب جانب الالتفات وأن يستبقوا القونصل فى منصبه كى لا يهدموا بأيديهم ما بناه القونصل بديار مصر من العز ونفوذ الكلمة فلم يكد يصل خطابهم إلى عاصمة الفرنسيس حتى جاء الطلب إلى القونصل مع البريد فهاج أصحابه وماجوا ورفعوا عريضة ثانية إلى كبير جمهورهم فلم ينالوا وطرا وسار القونصل عن القاهرة فى غاية ربيع الأول من السنة فشيعه العدد العديد من الفرنسيس وبالغوا فى الاحتفال بوداعه وألقوا المقالات المهيجة وهم على ظهر الباخرة التى نزل بها راجعا إلى بلاده وفرح أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية بخلع القونصل وتبعيده عن ديار مصر واتهموه بالاشتراك فى مؤامرة الجند وخروج الأمراء الثلاثة وقالوا إنه هو الذى حضهم على شق عصا الطاعة نكاية بالرئيس وأصحابه فرد عليهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيس وأغلظوا فى الرد وتجافوا فى القول وقامت بينهم حرب الأقلام على قدم وساق واشتد الغيظ بأصحاب القونصل وقام زعيمهم المدعو الموسيوجاكن وألف لجنة أو عصابة سماها العصابة الوقتية المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيس بأرض الفراعنة وكتب إلى كبير جمهور الفرنسيس يقول: إنى بصفتى رئيس اللجنة المؤقتة المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيس فى ديار مصر أطلب بإلحاح أن تنظروا بعين الالتفات إلى العريضة التى بعثنا بها لمقامكم على جناح البريد ثم نشر الزعيم المذكور فى رابع ربيع الثانى إعلانا يطلب فيه اجتماع كافة الفرنسيس نزلاء مصر والإسكندرية وسائر التابعين للراية ذات الألوان الثلاثة يعنى الراية الإفرنسية بالنزل المعروف بنزل أبات بالإسكندرية لإقامة لجنة دائمة تكلف بالدفاع عن مصالح الفرنسيس عوضا عن تلك اللجنة المؤقتة فلبى القوم دعوته وتزاحموا حتى غص بهم المكان فقام فيهم الخطباء والنصحاء ورموا الرئيس بالخيانة

لوطنه والمروق عن جادة الحق وبالغوا فى السب والتعييب بين أصوات التهليل وضجيج الاستحسان ثم بعثوا بعد ذلك برسالة ثالثة إلى كبير جمهورهم فلما علم الرئيس بما جرى خشى العاقبة وقد أحس بوشك رجوع القونصل إلى منصبه فتقدم إلى الخديوى فى التحرير إلى كبير جمهور الفرنسيس بمنع رجوع القونصل إلى ديار مصر كى لا يتكدر صفاء المودّة بين البلدين فأجابه الخديوى إلى ذلك وكتب .

(مطلب)

القبض على أحد الضباط الشراكسة وهو يستكتب ضبلط الجند السودانى بالشكوى من عبد العال بيك حشيش

ولم يكد يطمئن قلب الرئيس باستحالة رجوع القونصل إلى منصبه حتى قام زعماء عصابة الجند وقعدوا وهاجوا وماجوا وكثر اجتماعهم فى دار البارودى وطاف أعوانهم يرجفون ذلك لأن عبدالعال بيك حشيش أمير الجند السودانى قبض على أحد الشراكسة من الضباط الذين معه وهو يطوف على جميع الضباط والعسكر السودانى يحضهم للتوقيع منهم على محضر قالوا إنه مرقوم عن لسان جميع الضباط والجند بأنهم ليسوا راضين عن أميرهم عبد العال وأنهم يطلبون العفو من الخديوى عما سلف من طاعتهم لأميرهم وإخراجهم إياه من قصر النيل قالوا: وقد ثبت أن يوسف باشا كامل كبير ديوان بيت الخديوى يومئذ هو الذى استقدم إليه الضابط المذكور وسلمه ذلك المحضر وتسعمائة جنيه ذهبا عينا وأوصاه أن يبذل جهد المجتهد فى التوقيع عليه من جميع ضباط وأفراد جند عبد العال ولكل ضابط فى نظير ذلك ثلاثة جنيهات وللجندى جنيه وله هو فى مقابلة ذلك الرفعة وعلو الكلمة فذهب الضابط وسعى وسط الجند فاستمال بعضهم وخدع بعضهم وكان ممن تكلم معه فى ذلك أونباشى أى كبير عشرة من الجنود فوافقه الأونباشى ووعده ثم تركه وذهب إلى القائمقام وأعلمه بالخبر فقام من فوره ودخل على ذلك الضابط وقبض عليه وفتشه فوجد المحضر وعليه نيف وثلاثون توقيعا فكبله بالحديد وألقاه فى الحال بالسجن وضيق عليه وسأله فاعترف بما ذكر وبأنه رسول يوسف باشا كامل فسير القائمقام فى الحال إلى عبدالعال بيك فحضر وأخذ تلك الورقة وعاد بها إلى رفاقه وأعلمهم بخبر الضابط واجتمعوا بمعسكر رحبة عابدين وأرسلوا إلى البارودى باشا فجاء على الأثر وعقدوا مجلسهم وتناجوا فى الأمر ثم قام البارودى ودخل على الرئيس وأعلمه بما

جرى فلم يهتم به ولم يلتفت إليه فساء البارودى ذلك وذهب إلى الخديوى وحدثه بما جرى فغضب ورسم بخلع يوسف باشا وتبعيده عن القاهرة فسار إلى أرض له بالإقليم البحرى وخمدت بتبعيده نار الفتنة وسكت خواطر زعماء العصابة وأخذوا من ذلك اليوم بأطراف الجد والحزامة فتقدموا إلى البارودى فى ترتيب سائر أمور الجندية على ما يقتضيه نظامها وتقييدها بالقوانين واللوائح والنظر فى حالة الترقى والجماكى والمرتبات وسنّ قانون يكون إليه المرجع فى تقدم كل عسكرى وواجباته وعدم تقييد حياته بالخدمة العسكرية وغير ذلك من أوجه الإصلاح فأجابهم البارودى إلى ذلك وكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى الأمر فحاول وطاول البارودى يلح فى الطلب فلما أعيته الحيلة سأل الخديوى فى ذلك فكلم الخديوى الرئيس فلم يلتفت وأصر على الإباءة فرسم الخديوى بتشكيل مجلس من جاكى باشا واستون باشا وبلتش باشا وإسماعيل كامل باشا وأحمد عرابى بيك وبرناردى بيك والمستر جولد اسمث مفتش الدار السنية وغيرهم من الضباط لينظروا فى طلبات زعماء الجند ويقدروها قدرها فاجتمعوا ووالوا الاجتماع أياما ثم رفعوا إلى الرئيس مصطفى رياض باشا محضرا بينوا فيه لزوم تقليل العسكر العامل وجعلوا حداً للترقى فى الدرجات العسكرية تخلصا من تزايد عدد المستودعين وقالوا: إنه يوجد من هؤلاء أى من المستودعين بعد الذين أدخلوا فى الخدمات الملكية والدواوين العمومية ما يبلغ ألفا وزيادة وطلبوا من الرئيس الإقرار على هاته القاعدة فأجابهم إلى ذلك كارها ورفعها إلى الخديوى فرسم بتنفيذها والعمل بها فبات الجند وأصبحوا وقد زادت جماكيهم وزادت أيضا المرتبات والعلوفات فظهرت عند ذلك كلمة محمود باشا البارودى وعلت منزلته واتسعت شهرة أحمد عرابى بيك وأحبه الضباط والجند كافة ومالوا إلى طاعته والاجتماع عند إشارته إلا نفرا من الضباط فسعى فى عزلهم وتولية أنصاره مكانهم.

ورأى البارودى بعيد هذا كله ضرورة الجمع ما بين زعماء العصابة والرئيس مصطفى رياض باشا وصرف ما فى النفوس لعل الأزمة تنفرج، فلماكان حادى عشرى جمادى الأولى من السنة أولم وليمة عظيمة بقصر النيل ودعا إليها جميع الوزراء والمراقبين الإنجليزى والفرنسوى وضباط الجند فلما جلسوا على الطعام قام البارودى وخطب فيهم فكان ما قاله، هذه ليلة أنس دعتنا إلى الاجتماع فيها دواعى المحبة والائتلاف تذكارا لمآثر الحكومة الخديوية الجليلة التى وجهت وجه عزيمتها إلى

إصلاح أحوال الأهالى جميعا وإقامة العدل فيهم وإيصال كل لما يستحقه فقد رأينا فى هذا الزمن القليل من عهد خديونا المعظم زمام الحكومة تغييرا مهما إذ تبدل فيه العسر باليسر والظلم بالعدل وما ذاك إلا من حسن مقاصد هذا الجناب وطهارة سجاياه ـ إلى أن قال ـ ولاريب فى هذه النعم يجب علينا استبقاؤها والاستزادة منها ولن يكون ذلك إلا إذا قرناها بالشكر فقد قالوا الشكر سياج النعم وحقيقته أن يكون جميعنا مخلصا للحكومة فى خدمته قائما بواجباتها معضدا لجميع مقاصدها خاضعا لأوامر الحضرة الخديوية التى هى السبب فى هذا الخير العظيم وعلى ذلك لابد أن ننادى جميعا فليحى الجناب الخديوى أطال الله بقاءه، فقام بعده الرئيس مصطفى رياض باشا وتكلم مخاطبا طوائف الضباط ـ إلى أن قال ـ إن محسنات العدل ووجوه الإصلاح التى امتازت بها أيام حكم الجناب الخديوى فى هذه الأوطان أمر معلوم يعدّ تعداده من قبيل تحصيل الحاصل وأنتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم فلا حاجة إلى بسط الكلام فيه وإن ضباط العسكرية وهم من أشرف أعضاء الحكومة ممن شملتهم هذه المحسنات وعمتهم فوائد الإصلاح. ـ إلى أن قال ـ وقد رأيتم من أنفسكم أن حقوقكم وصلت إليكم وأنتم قوة الحاكم وآلته المنفذة فإذا بادأكم الحاكم بحسن الالتفات ونظر إليكم بعين الرأفة والرحمة فعليكم وجوبا كما أخذتم مالكم أن تؤدّوا ما عليكم وهو طاعة ولى الأمر الذى هو السبب الأعظم فى جميع هذه الخيرات ـ إلى أن قال ـ وعلينا جميعا أن نبتهل إلى الله تعالى ببقاء الخديوى وتأييد عزة وأن ننادى بلسان الحال فليعش الجناب الخديوى فأجابه الحاضرون على ذلك .

(مطلب)

فى عمد أحمد عرابى بيك إلى استمالة أهل البلاد

قلت: ولم تكن هذه المآدب والخطابات والتمدح بطاعة الجند لتذهب ما فى نفوس زعماء العصابة من البغض للرئيس مصطفى رياض باشا ولا لتقلل من همتهم فى العمل على خلعه والتخلص منه فإنه لما تمكن أحمد عرابى بيك من طاعة جميع الجند ومحبة سائر الضباط عمد إلى استماله أهل البلاد وعمدها ومشايخها ومشايخ قبائل العربان والتقرب من جماعة العلماء والمشايخ والوجهاء ثم جعل يبعث البعوث فكانوا يجوبون البلاد ويهيجون العامة ويضرمون فى صدورهم نار البغض للرئيس وأعوانه وتخطى به الخروج إلى أن كتب إلى عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية على

أيدى رسله يقول: إن الوزارة الرياضية يعنى الهيئة التى يرأسها مصطفى رياض باشا قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم وليس لها من نية سوى العمل على مافيه اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع الأراضى الكثيرة للأجانب وتسليم أغلب مصالح الحكومة لهم وإعطائهم الرواتب الفادحة المثقلة على أكتافكم فضلا عن أنها رسمت برفع الأحجار الطبيعية الموجودة ببوغاز إسكندرية لتتمكن سفن الأجانب من الدخول إلى جوف البلاد بلا ممانع وإن سكوتنا وإضرابنا عن هذا كله يعدّ من الجبن والعجز والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم القائمين بالخدمة العسكرية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل إجحاف بحقوقكم والذود عنها جهد الاستطاعة ولا يخفاكم أن هذا لا يتم إلا بتنزيل وزارة رياض باشا وخلعه من منصب الرئاسة وتشكيل مجلس نواب للبلاد لينال وطننا الحرية المطلوبة والمقصود هو أنكم توقعون على الكتابة المرسلة إليكم على يد حاملها والغاية منها جعلى نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد، فأجابه إلى ذلك كثير من عمد البلاد وأعيانها وغيرهم من المزارعين وأصحاب الأراضى واتفق فى غضون ذلك أن قام الخديوى وحاشيته ورجال ديوانه إلى مدينة الإسكندرية لقضاء فصل الصيف فيها على عادته فى كل عام وتبعه الرئيس وهيئة مجلس الوزارة فخلا الجو لزعماء العصابة فأكثر رسلهم من التطواف على بيوت الأعيان والدخول فى مجالس أصحاب الكلمة المسموعة وهم يرجفون ويقبحون فعال الرئيس ويحضونهم على تعضيد العصابة والأخذ بيد زعمائها، وظهر فى هذا الحين نجم من ذوات الذنب فكان يرى فى كل ليلة بشكل جلى حتى لضعاف البصر فهال الناس ظهوره وخافوه وأخذتهم الطيرة وجعلوا يتأوّلون ظهوره إلى رموز وإشارات شتى ويقولون: إن هذه السنة أى سنة ثمان وتسعين لا تتم دون وقوع أمور مهمة وحوادث مدلهمة بل حروب وكروب وخطوب وقطوب وقد نسبوا إليه جميع الوقائع والحوادث التى وقعت فى غير ديار مصر، وتكلم أصحاب صحف الأخبار عن هذا النجم فقالوا: إنه النجم ذو الذنب الذى سبق فتكلم عنه المعلم مبل الفلكى الشهير فقال: إنه ظهر فى سنة ست وسبعمائة وألف ميلادية وشاهده فى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية واستدل على أنه سيعود بعد أربع وسبعين سنة من هذا التاريخ، ونقل بعض أصحاب تلك الصحف أيضا أن أحد المنجمين الأقدمين تنبأ بأن العالم بأسره سينقرض نهارا فى رابع عشرى نوفمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة

وألف ميلادية يعنى فى ثانى المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية قال: وتستمر الأحوال من هذا التاريخ إلى ثامن ديسمبر يعنى سابع عشر المحرم أى مدة خمسة عشر يوما يأتى كل يوم منها بداهية دهياء وأن النوع البشرى ينقرض فى اليوم السادس من ديسمبر المذكور الذى هو يوم عيد القديس نيقولاس العجائبى بعد أن يشاهد الكثير من هذه النوازل الطامة التى منها تلاشى أسماك جميع البحار وأن يوم البعث والنشور يكون فى ثامن ديسمبر بحيث لا يستغرق إلا يوما واحدا قال المتنبئ: ثم يعود بعد ذلك كل إلى وظائفه العادية أ. هـ.

«قلت»: فكان أهل القاهرة عند ظهور ذلك النجم يحيون الليالى وهم على أسطحة البيوت مولولين وكانت لا تمضى لحظة إلا ويسمع فيها من يقول قد دنت الساعة وبعد أيام كذا تقوم القيامة ومنهم من ترك أشغاله وتأهب للرحيل إلى دار الخلود ومنهم من اقتصر على الصلاة فى المساجد ومنهم من باع حلى امرأته واشترى له قبرا وكانوا يقضون اليوم فى بيوتهم وهم يضربون بالعصى على بعض أوانى النحاس ويضجون ويعجون ويقولون: يا لطيف يالطيف فإذا سألهم سائل عن ذلك قالوا: الناس تتحدث به وهذا نجم الذنب ظاهر للعيان، وقد اعتقد الناس أنه دليل صحيح على حدوث أمر خطير فى هيئة الحكومة أو كرسى الخلافة والولاة وغير ذلك، وكان مما زاد أهل البلاد خوفا وتطيرا إرجاف الضباط الذين كانوا يجوبون البلاد ويلقون بين أهاليها الأراجيف الباطلة والإشاعات الكاذبة ويستفزونهم إلى الخروج عن طاعة ولاة الأمور ويحضونهم على عدم دفع الضرائب والمكوس لأصحاب الجباية ويوسوسون لهم بأن ما كان فى البلاد من الضنك والخراب وإمحال الأرض إنما هو من فعال الرئيس وبغضه للأهالى ورغبته فى تسليم البلاد للإنجليز حتى صدّقوا ذلك وأحلوه محل الاعتبار وعمت هذه الأراجيف البلاد شرقا وغربا فنجم عنها أن كره أهلها سائر الأجانب المستوطنين فى البلاد وطمعت نفوسهم فى أموالهم وأرزاقهم فكان إذا استدان أحد دينا من أحد هؤلاء التجاروحل أجله ماطل وحاول وطلب المهلة فإذا شدد عليه الطلب أنكر الدين وهدد صاحبه وتوعده فخاف جميع التجار وانكمشوا وقلت ومعاملتهم لأهل البلاد ونزح الكثير منهم إلى المدن الكبيرة وقد تبدل ورقهم ورقا حتى تعطل البيع والشراء وبارت الأرزاق ومحاصيل البلاد لتخوف المشترين من الأجانب وتعذرت الجباية وقلت حيلة أصحابها وذهب الأمن من جميع الجهات وعاث أهل الفساد وكثرت اللصوص فشدد الرئيس على

المديرين ومأمورى الحكومة بمراقبة الأحـوال ومنع هذه القلاقل وإيقاف تيار الفتنة فلم يفلحوا لفـساد أخلاق العامـة وميل أهل البلاد إلى الأباطيل والأخذ بأقـوال الأولياء والمشايخ والمكاشفين من رجال الوقت وأصحـاب الزايرجات التى كان يذيعها ضباط الجند بين أهل البلاد.

(مطلب)

قيام جند الإسكندرية
بسبب موت أحدهم بصدمة من عربة أجنبى

وبينما كانت أفكار العامة فى اضطراب وقلـوبهم تتقد غيظا من النزلاء ويتمنون لو أنهم يبطشون بهم جميعا إذ حدث بمدينة الإسكندرية أن جنديا من مرابطى القلاع كان سائرا بميدان المنشية فصدمته عـربة لأحد النزلاء فسقط ميتا فى الحال فرآه بعض رفاقه فأسرعوا إليه وطلبوا سائق العربة فلم يجدوه وكان كمن قمس فى الماء أو عرج به إلى عنان السماء فحـملوا جثة رفيقهم وساروا بهـا إلى سراى رأس التين وخلفهم الخلق الكثير من السوقـة والغوغاء وهم فى صياح وجلبة فـإذا مروا بأجنبى أوسعوه شتما وسبا وتهديدا وكثر صياح الغوغاء وتخطفهم الأشياء من حوانيت الناس فخاف الناس العاقبة وأغلقـوا حوانيتهم وشاع الخبر فتلاحق بهـؤلاء الجند نفر من أصحاب الشرطة يريدون أخـذ الجثـة منهم فمانعـوا وأبوا إلا الصعود بـها إلى مقـر الخديوى ومازالوا سـائرين بين صـياح العامـة وولولة النساء حـتى دخلوا حوش رأس الـتين ووضعوا جـثة رفيقهم تجاه شـباك مجلس الخديوى وصاحـوا نصرك الله يا أفندينا ما يحل للنصـارى قتلنا فـى أيامك ائت لنا بصاحب العـربة يا أفندينا نصـرك الله على أعداء الديـن فأشرف الخـديو فى الحال من الطاق ولاطفـهم وهوّن عليهـم ووعدهم ورسم بحمل الجثة إلى دار صاحب الشرطة فصاحوا ما يحل ذلك يا أفندينا النصارى النصارى تقتلهم جميعا فأرسل إليهم بعض ضباط حرسه يطمنونُ خواطرهم ويهوّنون عليهم فلم ينكفوا عن النداء والصياح وحـضر فى هذه الأثناء صاحب الشرطة ومعه نفر من أعوانه فحملوا الجثة قهرا وسـاروا بها وخلفهم الغوغاء وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة فبالغ الناس فيه وخلطوا وخـبطوا حتى قالوا: إنه قد قامت الحرب بين الجند والطوائف الافرنجـية بشـوارع الإسكندرية والأمر يومـئذ على غيـر ذلك فقـد قبض صاحب الشرطة على رفاق ذلك الجندى وألقاهم فـى السجن أياما ثم حكموا عليهم بالعقـاب الشديد فلما شاع خـبر الحكم عليهم تحرك جند الإسكندرية وأظـهروا غاية

السخط وعدم الرضا عما أصاب رفاقهم ثم كثر تطوافهم فى ذلك اليوم فى الأزقة والحارات التى تسكنها الطوائف الإفرنجية فعم الخوف جميع سكان الإسكندرية وجاء الخبر إلى البارودى فأبلغه للرئيس مصطفى رياض باشا فلم يعره جانب التصديق وظنه فرية أو هو من أراجيف زعماء العصابة التى ما برحوا يذيعونها للتهويل والإرهاب.

(مطلب)

تطواف عبد الله النديم على أهل البلاد يستنصرهم لرجال عصابة الجند

وأوعز فى هذا الحين أحمد عرابى بيك إلى رجل من أهل البلاد اسمه عبدالله نديم صاحب صحيفة من صحف الأخبار اسمها (التنكيت والتبكيت) أن يجوب الأقاليم القبلية والبحرية ويدعوالناس إلى نصرة زعماء العصابة ويستفزهم إلى طلب تشكيل مجلس نواب للبلاد كما كان على عهد إسماعيل باشا لينالوا بواسطته مالم يقدروا على نواله الآن من الرئيس مصطفى رياض باشا وكان عبدالله هذا قوى الحجة فصيح اللسان قوّالا سهل العبارات عذب المنطق مفلقا مهيجا بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه قد عرف عادات البلاد وأميال أهلها فطفق يجوب المدن والبنادر والقرى ويخطب فى الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم وما ألم بهم من الجور والعسف وماحل بالبلاد على أيامهم من الويل والخراب وكان يصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع فافتتن الناس ومال إليه خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وحدب فلما آنس منهم ذلك كتب محضرا وذكر فى عرض عباراته أن أهل البلاد كافة يدعون ولاة الأمور ومن بيدهم زمام الأحكام إلى تشكيل مجلس تكون أعضاؤه من أهل البلاد البحرية والقبلية للذب عن حقوقهم واستخلاصهم من ربق الاستعباد الذى أثقلهم فوقعوا عليه جميعا وسموه المحضر الوطنى وعاد عبدالله بذلك المحضر إلى القاهرة وسلمه إلى أحمد بيك عرابى ففرح به وتقوت عزائم زعماء العصابة فنهضوا إلى طلب الشىء الكثير من المطالب وسألوا زيادة عدد العسكر العامل إلى ثلاثين ألفا، وجعل زمام الجيش وإدارة جميع أموره بيد أمراء الآلايات دون غيرهم - وزيادة جماكى العسكر - وتعديل قوانين العسكرية وغير ذلك مما لم يكن للرئيس مصطفى رياض باشا فى حساب وكتبوا بجميع ذلك محضرا ورفعوه إلى الرئيس على يدى البارودى فحرك ذلك ساكنا من قلب الرئيس

ولكنه جعل يطاول ويحاول ويمنى الباروى، والبارودى لاينكف عن الطلب ولم تفتر له عزيمة وبلغت منه الشدة يومئذ مبلغها قيل: فكاشف الخديوى على ماخفى من فعال الرئيس وحقق له أن الرئيس إنما يعمل منذ اليوم الذى عفا عنه الخديوى عن الجند وزعماء العصابة على سلب امتيازات الخديوى وإذهاب حقوقه الذاتية وأطلعه على كثير من الأمور الخفية التى لم تكن تخطر له على بال، قال الراوى: فاندهش الخديو من ذلك وتزايد قلقه وكاد يظهر للرئيس ما يخفيه من بغضه إليه وحقده عليه ولكنه اعتصم بحبل التأنى.ورسم بأن لا تعقد هيئة مجلس الوزراء إلا برئاسته وأن لا يقع شيء إلا بعد مشورته وأن لا يأتى الرئيس عملا إلا بعد التصديق عليه منه فأجابه الرئيس بالسمع الطاعة ولكنه لم يطق الصبر عليه فكان إذا أطلع الخديوى على شئ أخفى عنه أشياء وإذا أخبره بأمر ستر عنه أمورا والخديوى يتغافل ويظهر الصبر والتجلد وبقى الحال على هذا المنوال أياما.

(مطلب)

تقرب البارودى من المراقب الفرنسوى وقونصل جنرال الفرنسيس وما كان من وراء ذلك

وتقرب البارودى من المراقب الفرنسوى واستماله فمال إليه وقربه من المسيو سنكوفيتش قونصل جنرال الفرنسيس الذى جاء خلفا للمسيو دى رنج المعزول الذى تقدم لنا الكلام على أعماله وحوادثه مع الرئيس رياض باشا. قال بعض الكتاب: وتحابوا توادّوا فرأوا من الخديوى عينا راضية وأذنا صاغية فلم يبق عند الناس من هذا الحين شك فى أن للخديوى يدا فى جميع هذه الحوادث وأنه راض عن فعال زعماء العصابة انتقاما من الرئيس للأسباب التى تقدم بيانها واشتدت عزيمة البارودى وتقوت أنصار أحمد عرابى بيك وتقدم البارودى إلى الرئيس فى طلب تنفيذ مطالب أمراء الجند التى تقدم بيانها وشدد فى ذلك وألح وهدد الرئيس فكبر الأمر على الرئيس وشكا إلى قونصل جنرال الإنجليز ما يلاقيه من المراقب وقونصل الفرنسيس والبارودى وزعماء العصابة، قيل: فهون عليه القونصل وشدد عزيمته وحسن له الإصرار على الإبادة. قال بعض العارفين بأساليب تلك السياسة: إن القونصل إنما أراد بذلك اشتداد الفتنة واستفحال الخلاف فعمل الرئيس بمشورته وأخذ بقوله ومانع البارودى وأغلظ له فى القول فقابله البارودى بما هو أشد وأنكى وأوعز إلى زعماء العصابة فقاموا وقعدوا وأكثروا من عقد المحافل وإلقاء خطب التهديد على لسان

عبدالله صاحب (التنكيت والتبكيت) وكثر الأخذ والرد بين الرئيس والبارودى وكلم قناصل الدول الخديوى فى ذلك فأرسل الخديوى فى سادس عشر رمضان يستقدم الرئيس وجميع الوزراء إلى الإسكندرية فساروا إليه وانعقد مجلسهم فى ساعة وصولهم فكلمهم الخديوى فى أمر ذلك الخلاف وحذرهم من الفتنة وحركة الجند وعرض بذكر أعمال الرئيس وتجافيه وحطه من مقام الخديوى وقال: لابد من تنزيل الوزراء وخلعهم جميعا وأن يتقلد هو رئاسة المجلس ويتولى النيابة الوزير محمد شريف باشا كى تخمد نار هذه الفتنة وترجع الأمور إلى سابق مجراها وشدد فى ذلك وعنف الرئيس. قال الراوى لهذا الخبر: فتغيرت عند ذلك أحوال الرئيس واصفر لونه وقال: لست بمتخل عن منصبى ولا أنا بمنزل نفسى وفىّ بقية من الرمق بل لن أعترف بمايطلبه الخديوى من تقليده نفسه رئاسة مجلس الوزراء فأجابه على ذلك البارودى وجعل يؤنبه ويعدد معايبه ويذكر للخديو ما ينويه الرئيس من السوء للبلاد وأهلها فكثر بينهم الأخذ والردّ واشتد اللد فتلجلج الرئيس وضعفت حجته وفاز البارودى أو كاد فكبر الأمر على قونصل جنرال الإنجليز وقد كان حضر مجلسهم وهم يتحاجون فانتصر للرئيس وبالغ فى الدفاع عنه فكثرت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وأظهر البارودى ثباتا وحزما وتقدم إلى الخديوى فى قبول تنازله عن منصبه وألح على الخديوى وترامى على أقدامه، وقال: والله لن يجمع بينى وبين رياض باشا مجلس فأجابه الخديوى إلى ذلك ورسم فى الحال بتقليد الأمير داود باشا ابن الأمير أحمد باشا يكن منصبه ثم انفض مجلسهم على ذلك فى نحو الساعة السابعة عربى من تلك الليلة وفى النفوس مافيها، وفرح الرئيس مصطفى رياض باشا بخلع البارودى وظن انفشال أصحاب الحركة وانصرام حزمتهم فقرب إليه الأمير داود واستحثه على عدم التهاون حتى بصغائر الأمور فشدد الأمير على صغار الضباط ومنعهم من الاجتماع ليلا فى بيوت بعضهم وحرر بذلك منشوراً وأوعد كل من يخالف بالتبعيد إلى أقاصى السودان فلم يرتدوا وظلوا على ماهم عليه من الخروج ليلا وتطواف بعضهم على بعض فأنفذ إلى الدراملى صاحب شحنة القاهرة بالقبض على كل من يراه منهم ليلا فطاف الدراملى ليلا ونهارا فلم يفلح إذ كانوا يتهددونه ويتوعدونه بالقتل وكان إذا هم بعمل شىء علموا به قبل الشروع فيه وسدّوا عليه جميع أبوابه فلما أعيته الحيل تمارض وطلب التخلى عن منصبه فأنزلوه وولوا مكانه عبدالقادر باشا أحد أمراء الجند على عهد إسماعيل باشا فتدبر وجعل يكثر من التطواف والتشديد ولكنه لم يفلح أيضا إذ عصاه أصحاب الشرطة ونبذوا

كلمته وعكسوا عليه عمله وأفسدوا تدبيره واتهمه ضباط الجند بأنه إنما يطوف حول دار أحمد عرابى ليفتك به وأذاعوا ذلك بين العامة فتحدثوا به وخلطوا وخبطوا فخاف عبدالقادر باشا شر العاقبة ولازم بيته أياما بحجة أنه مبطون وكلم الأمير داود الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك فاستعظم الأمر ولم يطق الصبر على حر هذا الجمر ورسم بالتشديد وعدم الكف عن التهديد حتى يرجعوا صاغرين.

وبينما الناس فى شاغل بالحوادث المترادفة والبلايا المتراسلة إذ ظهر أيضا نجم جديد من ذوات الذنب ولم يكن غاب النجم الأول غير أنه صار ضعيف الضوء لايكاد ينظر إلا بالجهد وكان هذا النجم الجديد صغيراً لا يتجاوز الست درجات ولا يظهر جدا لشدة ارتفاعه فى الشمال الغربى بأسفل الدب الأكبر ومع ذلك فقد كان ينظر فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا إلى بعد نصف الليل بساعة فلما رآه الناس عادوا إلى التخوف والتطير وجعلوا يحيون الليالى على الأسطحة ورؤوس الجدران يرصدونه وهم فى ضجة وولولة وابتهال إلى الله أن يرفع عن البلاد وأهلها ما يستقبلها من الخطوب وكان ظهور هذا النجم فى خامس عشرى رمضان من السنة أى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف هجرية .

(مطلب)

ورود الخبر من عمال السودان بظهور كذاب يدعى المهدوية

فلما كان سابع عشريه وردت الأخبار من عامل السودان بظهور رجل كذاب يدعى أنه المهدى المنتظر على رأس القرن الثانى عشر من الهجرة المحمدية واسمه محمد أحمد وكان سبب ظهوره أنه لما سار جماعة من العسكر السودانى بمديرية آيا الكائنة بالنيل الأبيض وهى مستقر المهدى المذكور ليأتوا به إلى مقر الوالى وقد تنبه على مقدّمهم بأن لا يسير إليه إلا ومعه قاضى بلدة الكوة فلم يأخذ معه القاضى وسار بعسكره فى الساعة الثالثة ليلا فلما قربوا من مقر المهدى وجدوا عنده زهاء المائتين من الدراويش مزججين بالرماح والبنادق فأوعز مقدم العسكر إلى العسكر بأن يطلقوا النيران على أولئك الدراويش ليمزقوا جمعهم فامتنع العسكر من ذلك وقالوا: لا نضرب قوما فقراء ولا نقاومهم، لأنهم من الدراويش فأحس الدراويش بهم فركبوا عليهم وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فقتلوا نيفا ومائة عسكرى وستة من الضباط وفرّ من بقى والتجئوا إلى النيل، ولما رجع أصحاب المهدى إليه ظافرين اشتد ظهره وتقوت عزيمته وبث الدعاة فى البلاد فلبى دعوته كثير من البقارة وأهالى

الجبال وكثـرت لمومه فعبر بهم إلى الجانب الغربى وظـهر من هذا الحين أمره وعلت كلمته ثم دخل بلدة حـبال نقلى إحدى بلدان مديرية كردفان بأراضى الـبقارة وجعل بها مقره وطير الخبر إلى الآفاق يدعـو الناس إلى طاعته ويستحثهم على الخروج عن طاعة الكفرة الملحدين فـجمع الوالى عند ذلك لقتاله جماعة من البـاشيبوزق والجند وسيرهم إلى فاشوده ليسيروا منها غربا والوالى يومئذ رؤوف باشا وأرسل إلى القاهرة فى طلب المدد من الرجال ومعدات الحرب فـسر الرئيس مصطفى رياض باشا بذلك وظن بلوغ المأمول ورسم إلى الأمير داود بأن يسير إليه طائفة من مرابطى قلعة الجبل وأخرى من جند أحمد عـرابى بك النازلين بالعباسية فأحس زعـماء العصابة بما وراء ذلك فبثوا أعوانهم يشيعون تكذيب خبر الفتنة بالسودان ويقولون: إنها مناوشات بين البقارة وسكان الجبال لابد منها عند خروج أصحاب الجباية لجمع الخراج فشدد الأمير داود فى طلب خروج العـسكر والمعدات فامتـنع كبارهم وبالغوا فى الامـتناع وتجرد عبدالله صـاحب (التنكيت والتبكيت) للذب والدفاع وكثر بين الفـريقين الأخذ والرد فكلم الرئيس مـصطفى رياض باشا المسـتر مـاليت قونصل جنرال الإنجليـز فى ذلك واستـعان به فأعانه وتقـدم إلى الخديوى فى طلب صرف جـميع الجند إلى أوطانهم علها تسقط كلمة أحـمد عرابى ويذهب نفوذ زعماء العـصابة فرسم الخديوى بذلك إلى الأميـر داود فجمع الأميـر داود كبار الجند من جمـاعة الشراكسـة وكلمهم فى الأمر فأجابوه بالسمع والطاعة ولكنهم لم يفلحـوا حيث رأوا من صغار الضباط غاية الممانعـة والرفض فعمـلوا على استرضـائهم فلم يتمكنوا وكـان الأمر على غيـر ما يريدون، فلمـا أعيتـهم الحيل وكـاد يخيب منهم الرجـاء والأمل كتب الأمـير داود مرسـوما فى ثالث عشـر شوّال إلى جمـيع طوائف الضبـاط ينهاهم عن الاجتـماع ويحذرهم من شـر العاقبة وطاف فى ليلـة تحريره ذلك المرسوم على بيوت الضـباط ليرى ما سـيكون من أمرهـم فرآها غاصـة بجماهيرهم وهم فى هرج وجلبـة فأصبح وقد كتب إليـه عبد العال بيك أميـر الجند السودانى يطعن فى مرسومـه ويعيب قوله ويرمى الهيئة الحاكمة بالجور والعنف ويقول إن هذا النهى مما لا يصح الامتثال إليه إذ هو مخالف للقوانين العسكرية وإرادة أمير البلاد ومقتضيات الملة الحنيفية وأن تعاضد الجند واتحاد الـعسكر فى أمورهم وتقـوية عزائمـهم بالتزاور وتألفـهم وتجمـعهم فى أعمـالهم كل ذلك عنصره القوة والنظـام العسكرى فى كل أمة وملة ولا سـبيل إلى النهى عنه فاستعظـم الأمير داود هذا الجواب وأكبر مافيـه من الغلظة والتعنيف وقام من ساعـته وسـار إلى قصـر النيل وجمع ضـباط الفـرسان المرابطين هنـاك وجعل

يستميلهم ويمنيهم بالأماني العظيمة ومازال بهم حتى استمالهم واستمال كذلك ضباط فرسان قلعة الجبل وكان قبل هذا الحين قد استحلف ضباط الألاى الخامس النازلين بمدينة الإسكندرية وضباط الحرس الخديوى وظن إخلاصهم والاعتماد عليهم عند الحاجة فلما تم له ذلك رسم إلى أحمد عرابى بالقيام بجميع عسكره إلى مدينة رشيد وإلى جند قلعة الجبل بالقيام إلى دمياط وأنفذ إلى مقدم جند دمياط أن يأتى بعسكره إلى مدينة الإسكندرية وإلى مقدم جند الإسكندرية بالحضور إلى القاهرة عند انحدار جند أحمد عرابي وجند قلعة الجبل إلى رشيد ودمياط، فلما وصل مرسوم الأمير داود إلى مقدم جند القلعة بالانحدار إلى رشيد وكان ممن لا يميلون إلى أحمد عرابى وأصحابه جمع الضباط الذين معه وتلا عليهم المرسوم واستحثهم على التأهب للخروج مع العسكر إلى رشيد فقالوا لا نخرج فراجعهم فعنفوه وانحدر جماعة منهم وأعلموا زعماء العصابة بما جرى فخافوا العاقبة وجمعوا فى الحال جميع ضباط الجند الذين بالقاهرة وطرا والعباسية فى معسكر الحرس الخديوى وقام فيهم أحمد عرابى خطيبا فشكى من فعال الأمير داود وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى وأطال الكلام عن الاتحاد والتعاضد وما فيهما من الخير والأمن على الأرواح ثم استحلفهم جميعا على السيف والكتاب بأن تكون أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الأعداء والاحتراس على موارد إيراده من أيدى الطمع وبأن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد ثم أعلمهم بأنه قد اجتمعت الكلمة على تسليمه زمام الزعامة وأن يكون المرجع فى كل الأمور إليه.

(مطلب)

كيف كان اجتماع العسكر بميدان عابدين وما كان من وراء ذلك

وانقضى مجلسهم فكتب أحمد عرابى بيك إلى الأمير داود يقول: قد تحقق لنا ولعموم ضابطان الجهادية وأفراد العسكر صدور أمركم إلى الألاى السادس بالتوجه إلى الإسكندرية بدون باعث ولا سبب يقتضى ذلك ولكن علمنا أن المراد تفريق القوة العسكرية ليسهل الانتقام منا والتمكن من الغدر بمن هم محافظون على الطاعة والإخلاص ولا ذنب لهم سوى طلب الإصلاح فليكن معلوما لدى سعادتكم أننا لا نسلم أنفسنا إلى الموت وأن كافة الألايات ستجتمع يوم تاريخه فى الساعة التاسعة نهارا بميدان عابدين للنظر فى حل تلك المسائل بحيث إن هذه الألايات لا تتحرك من

موضعهـا إلا إذا حصل التأمين الكافى لسنّ قانون عـادل يوقف كل إنسان عند حده وسنشعر وكلاء الدول الأجنبية بما يلزم ا. هـ بنصه.

وكتب إلـى قناصل الدول أيضا يقـول: أتشرف بأن أحـيط علم جنابكم أنه من أول شهر فـبراير سنة إحدى وثمانين أى من وقت ابتـداء الفتنة التى أحدثها عـثمان رفقى باشا إلى الآن قد مضى فوق السبـعة أشهر وفى كل هذه المدة تقاسى العسكرية أتعابا وتتحمل مصائب ونوازل وتهديدات وتتوقع الفتك والإعدام غدرا وخديعة ومن هذه المصـائب حادثة يوسف بـاشا كـامل وكيل الحـضـرة الخديوية ونازلة فـرج بك السودانى وواقعة التسعة عشر ضابطا الذين كانوا يدسون الدسائس. **قلـت**: وهاتان الحادثتان لم أذكـرهما لعدم أهميتـهما يومئذ، ونحن مع كل ذلك نسـعى فى تحسين الحال وقطع المفاسد بالحكمة والتدبير رغبـة فى الحصول على الراحة العمومية وحقن الدماء والمحافظة على كافة تبعة الدول المتـحابة ومن وقت أن تشرفت مصر بالحضرة الخديوية أخذت الفتن والدسائس تزداد إلى أن شرع فى تجزئة الجيش المصرى وتفريقه تسهيلا للغدر والانتقام فلهـذا التزمنا بالمحافظة والمدافعة عن أنفسنا وأعراضنا إلى أن يأتينا أمر دولتنا العلية الذى يترتب عليه حـفظ بلادنا ومن فيها وقد دعت الحالة إلى تحرير هذا لجنابكم لتـعلموا بأننا متـمسكون بالمحافظة علـى حقوق التبـعة الأورباوية واقبلوا مزيد الاحترام. أ. هـ.

فلمـا وقف الأمير داود على مـا فى خطاب أحمـد عرابى بيك تكـدر وقام من فوره ودخل على الخديوى بعابدين وكـان الخديوى قد عاد من الإسكندرية منذ أيام وحدثه بخبر تحزب جـميع الضباط وما فى خطاب أحمد عرابى بـيك فسير الخديوى فى الحال فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وجميع الوزراء وبينهم المستر كولفن المراقب الإنجليزى لغياب ماليت قونصلهم الجنرال فحـضروا فعقد مجلسا وتناجوا فى الأمر طويلا وكثر بـينهم الأخذ والرد فأوقعوا اللوم على الرئيس وعابوا علـيه جميع أفعاله وبينمـا هم على هذا الحال إذ حضر من يعلم الخديوى بأن حـرس سراى القبة التى هى مقر نساء الخديوى قد انضموا إلى عسكر العباسية وتركوا مراكزهم فظهرت عند ذلك على وجوه جـميع الحاضرين عـلامات الدهشة والخوف واشـتد بهم القلق وانفض مجلسهم على مـالم تصل إلينا معرفته إلى الآن، وفى نحو السـاعة السادسة نهارا عـاد الرئيس مصطفى رياض باشا ومـعه سائر الوزراء فعـقدوا مجلسـهم ثانية وتكلموا فى الأمـر وبينهم كولفن المراقب الإنجليزى فـتقدم كـولفن إلى الخديوى فى إبلاغ المسيو سنكوفـيش قونصل جنرال الفرنسيس يخبـر هذا الحادث إذ كان فى هذا

اليوم بمدينة طنطا فرسم له بذلك فغاب كولفن ساعة ثم عاد فأعلمه الخديوى بأن جند الحرس وجند الألاى الثانى على قدم الاستعداد لإرغام جند أحمد عرابى وإرجاعهم إلى الطاعة وأنه على عزم الذهاب ومعه جميع الحاضرين إلى معسكر الحرس لتحقيق صدقهم وإخلاصهم جميعا بكلمة الإخلاص وهتفوا بالدعاء له فسار هو ومن معه إلى قلعة الجبل ودعا إليه رضا باشا مقدم العسكر النازلين بها ورسم إليه بأن يسير إلى أحمد عرابى بك من يخبره بأن لا يتحرك بجنده ولايأتى إلى ميدان عابدين بشىء من المدافع وفى هذه الأثناء حضر المستر كوكسن كاتب المستر ماليت قونصل جنرال الإنجليز فقص عليه كولفن تفاصيل الحادثة فنزل من فوره من القلعة وبعث بها إلى عاصمة الإنجليز على جناح البرق ولما صار الخديوى ومن معه فى جوف القلعة اجتمع حوله جميع الضباط وأظهروا له كمال الطاعة وحسن الولاء والإخلاص ودعوا له ثلاثا ثم نادوا بالويل والثبور على الرئيس مصطفى رياض باشا ورفاقه وطلبوا خلعه من منصب الرياسة عاجلا فقال الخديوى: ما السبب فى نبذكم للأوامر فقالوا حاشا أن نخالف لأميرنا أمرا ونحن عبيده المخلصون فى طاعته فالتفت إلى إبراهيم بيك حيدر مقدمهم التفات الاستغراب فقال إبراهيم بيك: لم يكن من سبب لنبذ الأوامر سوى إغراء فوده حسن هذا البيكباشى وأشار إليه فتقدم نحوه الرئيس مصطفى رياض باشا وأمسك بأطواقه وجذبه إليه وقال له: أمثلك من يعصى أمير البلاد ويمانع فى إجراء ما أشارت به الهيئة الحاكمة فلما فعل به ذلك نفخ أحد أصحاب البوق على الجند ونادى ضعوا الحراب ضعوا الحراب فأسرعوا جميعا ووضعوا حرابهم على أفواه البنادق وأحاطوا بالخديوى ومن معه إحاطة السوار بالمعصم وكثر ضجيجهم واشتدت جلبتهم ونادوا أطلق ضابطنا أطلقه فخلى عنه الرئيس وقد ظن أنه مأخوذ على رؤوس الحراب فالتفت الخديوى إلى الجند وقال: ألستِ خديويكم وولى أمركم قالوا: بلى قال: هل تأخر لأحد منكم راتب أو تعيين أو كسوة حتى جهرتم بهذا العصيان وفعلتم ماأنتم فاعلوه قالوا والله إنا مطيعون لك لانخالف لك أمرا وأنت أميرنا وولى نعمتنا ولانريد سوى خلع الرئيس وتبعيده عن خدمة البلاد فتركهم عند ذلك الخديوى وانحدر وانحدر من كان معه على عجل، قيل: وبينما هم منحدرون أشار الرئيس والمستر كولفن على الخديوى بأن ينحدر إلى عابدين قبل أن يصل إلى ميدانها أحمد عرابى ومن معه من الجند فامتنع وأصر على الذهاب إلى العباسية على غير الطريق المسلوك حتى انقطع عنه بعض فرسان حرسه

وقد غطى الغبار وجهه ولحيته وابتلت جميع ملابسه بالعرق فوصل العباسية فى أقل من ساعة ودخل محلة الجند فلم ير فيها ديارا ولا نفاخ نار قيل فطرق كفا على كف وكر راجعا إلى عابدين، وأما أحمد عرابى بك فإنه لما صار الساعة الثامنة عربى نهارا نادى فنفخوا فى البوق واصطف الجند وحملوا بنادقهم وساروا من العباسية فتبعهم أصحاب المدافع يجرون اثنين وعشرين مدفعا من الطراز الكبير وكان قيامه بهذه العساكر والأجناد من العباسية فى نفس الساعة التى دخل فيها الخديوى قلعة الجبل فقد أرسل إليه ضباط القلعة يعلمونه بوصول ركب الخديوى إليهم وكذلك أرسلوا إلى عبدالعال بك مقدم الجند السودانى بمعسكره بطرا فتحرك فى الحال عبد العال بجنوده وركبوا قطار سكة حديد حلوان ونزلوا بميدان محمد على ثم صعدوا إلى قلعة الجبل ليقبضوا على جميع الوزراء ويلقوهم فى سجن القلعة، وفى رواية ليقبضوا على الخديوى وعندى أن الأول أصح، فقد أكد بعض العارفين أن الخديوى كان على اتفاق مع زعماء العصابة إلى هذا الحين فلم يكن من موجد إذن للقبض عليه ولما لم يجدوا أحدًا بالقلعة كروا راجعين إلى رحبة عابدين فالتقوا هناك بجند العباسية والفرسان وأصحاب المدافع فتقدم عبد العال بك إلى حيث أحمد عرابى وبقية الضباط وتعانقوا ثم تصافحوا وتساروا لحظة ثم وقف كل فى مقدمة عسكره وسيفه بيده مسلول وقد اجتمع حولهم العامة ما لا يحصر عدده من النساء والرجال والصبيان وما وصل جند عبدالعال بيك حتى نفخ البوق نفخات متتابعة فعلت الضوضاء عند ذلك وكثر صياح العامة وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة وترامحوا وترامى بعضهم فوق بعض ظنا منهم أن البوق إنما يدعو الجند إلى إطلاق قنابل المدافع على المدينة وقد كان صوت البوق ينادى جند الحرس الخديوى للخروج من معسكرهم فخرجوا فى الحال يحملون البنادق والحراب ومروا بين الصفوف ودخلوا السراى وأمامهم مقدمهم على بيك الديب وأحاطوا بالسراى من كل صوب ودرب يمنعون الناس من الدنو منها وهم فى غاية الهدوّ والسكينة، أما الخديوى فإنه لما وصل إلى رأس الطريق الموصل إلى ميدان عابدين ورأى الميدان غاصا بالجند والخيل والمدافع والخلق الكثير من العامة وهم فى ولولة وخوف عرّج إلى طريق أخرى ودخل السراى من باب صغير أمام الجناح الذى بالجانب القبلى من السراى وكان معه فى مركبته كولفن المراقب الإنجليزى وخلفه الجنرال أستون باشا وثلاثة من الضباط فنزل وسار نحو الباب الغربى الموصل إلى الميدان حيث الجند والخيل فتقدم إليه فى

الحال رضا باشا وأعلمه بأن جند قلعة الجبل قد انضموا أيضاً إلى المتظاهرين ولم يسمعوا لمقدمهم كلمة فالتفت كولفن إلى الخديوى عندئذ وقال: إذا تقدم نحوك أحمد عرابى فأمره أن يرد سيفه إلى غمده ويتبعك فإذا فعل تقدم أنت إلى رأس كل فريق من الجند ومره بالانصراف فقدم الخديوى بقلب ثابت وشهامة كبرى وسار نحو أحمد عرابى وعبد العال وأشار لهما بالسلام فسلما بالاحترام والتجلة والوقار فقال لهم: مالكم قد نبذتم عن طاعتى وعصيتم أمرى؟ فقالوا: حاشا نحن عبيدك المخلصون فقال: انصرفوا وسأبذل جهد الاستطاعة فى تحسين أحوال العسكرية وتنظيم قوانينها على قواعد ثابتة فأجاب أحمد عرابى إنى وإخوانى وجميع ضباط الجيش وأفراد العسكر خاضعون لك يامولاى وكلنا لا نبرح من هذا الموقف حتى تنجز لنا ما طلبناه فقال له الخديوى ردّ سيفك إلى غمده فأجاب سمعا وطاعة وناول الخديوى ورقة وقال: هذه يا مولاى ملحقة بمقترحات الوطن وبنيه فأخذها الخديوى وقفل راجعا إلى السراى ولم يأمر أحمد عرابى أن يتبعه ليقبض عليه ويطرحه فى السجن كما أشار بذلك المراقب الإنجليزى فلم يقتحم الخديوى الدرج حتى جاءه من يقول إن جند الحرس انضموا أيضاً إلى المتظاهرين فقطب وجهه وصعد إلى مقره فلما استوى به المقام أمر فعقدوا هيئة مجلس الوزارة وتليت عليهم مقترحات ضباط الجند فكانت ـ أولا: عزل جميع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى يرأسها الوزير محمد شريف ـ ثانيا: جعل عدد العساكر العاملة ثمانية عشر ألفا طبقا للفرمان الصادر فى شأن ذلك ـ ثالثاً: تشكيل مجلس نواب البلاد على ما كان عليه فلما طرق أذن الرئيس مصطفى رياض باشا طبل هذا الكلام كاد يتميز غيظا وقال: كيف يحل لهم طلب خلع الوزراء كافة والوزراء خدموا البلاد وأخلصوا فى خدمة أبنائها لا سيما وهم اليوم مؤيدون بتصديق دولتى الإنجليز والفرنسيس فلا يصح التعرض لهم بشىء ألتة إلا بعد استشارة الدولتين فقال الخديوى: وأنا أرى أيضاً أن الوزير محمد شريف باشا لا يريد أن تكون له الرياسة على هيئة تكون كالآلة الصماء فى أيدى الجند، أما من جهة مجلس شورى النواب فلا اختصاص لعصابة الجند بطلب تشكيله وكذلك جعل عدد العسكر العامل ثمانية عشر ألفا مما يثقل حمله على عاتق الخزينة وليس فى الأمر الآن ما يستلزم هذه الزيادة، فكثر عند ذلك الأخذ والرد بين الوزراء والخديوى وعلت بينهم الضوضاء وتنوعت الأغراض وتفرقت الأهواء وعلا صوت الرئيس مصطفى رياض باشا وأقسم أنه لا يخلع نفسه وفيه بقية من الحياة فعنونه

بعض رجال ديوان الخديوى وقالوا له: إنك أنت محدث هذه الثورة وموقد نار هاته الفتنة وكأنك تعمل على خلع شخص الخديوى لغاية فى نفسك فأغلظ عليهم فى الرد وشدد فى الامتناع فراجعه الخديوى فامتنع أيضاً، فقام عند ذلك المستر كوكسن نائب قونصل جنرال الإنجليز ليسأل أحمد عرابى بيك عن رغائبه، وكان أحمد عرابى واقفا وحوله كتيبة من الجند تحرسه على شكل قلعة فدنا منه المستر كوكسن وقال: قد تقرر خلع الوزراء الآن ولكن لا يتقرر تعيين بدلهم حتى تصرف جميع الجند وتفض هاته الجموع المجتمعة حولهم فصاح عند ذلك جميع الضباط ونادوا نطلب الوزير محمد شريف باشا، الوزير محمد شريف باشا، فقال كوكسن: ويحكم إنى أرى أن الأجمل صرف الجند الساعة وإلا كنتم سبب ضياع وطنكم وعيالكم فإن الخليفة أمير المؤمنين ودولتى الإنجليز والفرنسيس لا يرضون عن جعل حكم هذه البلاد فى قبضة جنودها انصرفوا، فصاح الضباط ثلاثا نطلب الوزير محمد شريف باشا فرجع كوكسن إلى مقر الخديوى وغاب برهة لطيفة ثم عاد، وقال: إن الخديوى رسم بإحالة نظر هذه المشكلة على دار السلطنة فلا يعمل فيها عملا حتى يأتيه الإذن من أمير المؤمنين فأصرفوا الجند وفضوا هذا التظاهر، فقال أحمد عرابى بيك: أما إحالة نظر هذه المشكلة على دار الخلافة الإسلامية فلا بأس به وأما صرف الجند فلا سبيل إليه قبل أن يعطى لنا الخديوى أمرا قاضيا بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحابه وإقامة الوزير محمد شريف باشا بدله، فقال كوكسن: إن كنت تخشى شيئاً من انصراف الجند فأنا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعيالكم وأموالكم وجميع ما لكم من الرتب وألقاب الشرف فضحك أحمد عرابى وقال: بورك فيك، كيف تكفل لنا حفظ أرواحنا وأموالنا وعيالنا وأنت غريب نازل ببلادنا التى هى فى حفظ وحراسة هؤلاء الجنود الساهرين على حفظ أرواح سائر الأجانب وصيانة أموالهم وأعراضهم وكيف يكون لك ذلك وأنت فرد من الإنجليز ولا أظنك تجهل أن دولتى الإنجليز والفرنسيس مع تكفلهما معا بحفظ حياة الوزير إسماعيل صديق باشا لم يدفعا عنه مرارة تلك الكاس التى شربها قهرا فعند ذلك سكت كوكسن وعاد إلى المجلس ولم يعد ثالثة إلا ومعه كولفن المراقب وخيرى باشا المهردار وبيد خيرى باشا مرسوم الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا بتوليته منصب الرياسة وتشكيل هيئة الوزراء على ما يشاء، فلما دنوا من موقف أحمد عرابى أخذ القونصل المرسوم ودفعه إلى أحمد عرابى وقال: ها هو ما تطلبه فأعطه

بيدك إلى الوزير محمد شريف باشا ومر الجند بالانصراف وقد خرج من مجلس الخديوى من يستدعى أحمد عرابى للمثول بين يدى الخديوى فدخل أحمد عرابى إلى المجلس وغاب برهة ثم عاد فأمر صاحب البوق فنفخ فيه تباعا فصاح الجند جميعا بصوت واحد (أفند مز جوق يشأ) ثلاثاً فظن الناس عند ذلك أن قد قامت الحرب على ساقها ولم يبق إلا طلق المدافع فترامحوا وارتفعت أصواتهم بالصياح وتساقط بعضهم فوق بعض وكثر بكاؤهم فنفخ البوق ثانية وثالثة فسار أوّلاً جند عبد العال بيك إلى ناحية طرا ثم جند قصر النيل، ثم جند العباسية وكان فى مقدمة جند العباسية كوكبة من الفرسان ثم أخرى من المشاة على شكل قلعة وفى وسطها أحمد عرابى بك وخلفه جماعة من الضباط يحملون السيوف ثم بقية المشاة ثم أصحاب المدافع وخلفهم نساء العامة والسوقة وهن يزغرتن ويغنين الأغانى الريفية ويصحن فى كل لحظة ويقلن الله ينصرك ياعرابى ياسند الولايا الله ينصرك.

وسير الخديوى فى الحال بعد انفضاض الجمع خبر هذا الحادث إلى دار السلطنة فأتاه الجواب من صدر الدولة يستحثه على استدراك الخطب قبل استفحاله، وأرسل فى نحو الساعة الخامسة ليلا إلى الإسكندرية يستقدم الوزير محمد شريف باشا وقد كان بها منذ أيام فقام من محطة الحضرة فى قطار مخصوص هو وآل بيته وخدمه وحشمه وأتباعه فوصل القاهرة فى فجر السبت سادس عشرى شوّال ودخل على الخديوى ولبث بحضرته طويلا ولم يحدث فى تلك الليلة شىء مما كان يتوقع الناس حدوثه من العامة وزغانف الفرنجة، فقد كان أصحاب الشرطة ساهرين يقظين والعسس يكثر التطواف فى الأزقة والحارات، وأصحاب الدركات ينادون بعضهم على بعض تباعا ورتب أحمد عرابى بك جماعة من الجند يطوفون ويمنعون العامة من التجمع فى الطرق والقهاوى على عاداتهم، وألبس كثيرا من صغار الضباط ملابس العامة فكانوا يمرون بين الناس لاستراق السمع واستطلاع الحوادث وأصبحوا والناس فى فرح ما عليه من مزيد وقد سر أصحاب الوظائف ورجال الدولة بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وذهب الوزير محمد شريف باشا إلى مقر الخديوى بعابدين وعقد مجلسا حضره جميع قناصل الدول الكبرى وبعض قناصل الدول الصغرى وكان بعضهم فى هذا اليوم فى الإسكندرية وبعضهم فى طنطا وحضر فى هذا المجلس أيضاً مقدمو العسكر فتكلم الوزير محمد شريف باشا فى طلبات زعماء الجند وتباحثوا كثيراً فعلق الوزير قبوله منصب الرياسة على خلع أمراء الأيالات

الثلاثة من مناصبهم وأنه يكفل لهم الذب عن جميع حقوقهم الذاتية ولسائر الجند بنوال العفو عما فرط ولزوم انسحاب جند العباسية وطرا إلى رأس الوادى ودمياط فلم يرض مقدمو العسكر بذلك، وقالوا: إنما نحن نطلب أن يتولى رياسة ديوان الجند رجل من أهل البلاد لا شركسى ولا من العائلة الخديوية وأن لابد من إبلاغ عدد الجنود العاملة إلى ثمانية عشر ألفا، وأن يشكل مجلس شورى البلاد كما كان على أيام الخديوى إسماعيل باشا فطال بينهم الأخذ والرد وكثرت الضوضاء ثم انفض مجلسهم على غير طائل، وشاع الخبر بما كان فتطير الناس وخافوا وكثرت الأراجيف وتنوّعت الإشاعات فمن قائل إن مراكب حرب الإنجليز والفرنسيس آتية للإسكندرية لإخضاع زعماء الجند وإرجاعهم إلى الطاعة، ومن قائل لا بل إن عسكر السلطان صارت على مقربة من العريش وهى آتية لمعاونة زعماء الجند وتقرير جميع مطالبهم واشتد اللغط وكثر تساؤل الناس بعضهم لبعض وأصبحوا فأرسل الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا يلح عليه بقبول منصب الرياسة وتوسط فى ذلك أيضاً قناصل الدول فامتنع، وقال: لا سبيل إلى ذلك حتى تنسحب جميع العساكر إلى رأس الوادى ودمياط وينزل أمراء الجند الثلاثة عن منصبهم فانقسم الناس فى أمره يومئذ إلى فريقين فريق كان يصوّب آراءه ويستحسنها غاية الاستحسان مشيرا بذلك إلى عزة نفسه ونزاهتها عن الأغراض الذاتية التى تصحب عادة تلك المناصب العالية مع حبه الزائد للوطن، وفريق كان يرى أن حب الوطن مفضل على كل شىء فكان عليه أن يلبى الداعى ويأخذ بأطراف الحزم مع أجمل المساعى فيفض المشكلة بحكمته المشهورة وينقذ البلاد وأهلها من البلايا التى وقعت فيها، وكان لكل من الفريقين دليل وبرهان وعندى: أن القول الثانى أفضل وقد ظن بعض الناس أن تردده فى قبول منصب الرياسة مبنى على رغبته فى إماتة الوقت والمطاولة حتى تصل إلى الإسكندرية مراكب الحرب السلطانية، وظن آخرون أنه لا يقبل هذا المنصب حتى تنحل عقدة المراقبة وينزل المراقبان الإنجليزى والفرنساوى عن مناصبهما لما بين الوزير والمراقب الفرنساوى من الوحشة والنفور، **قلت**: ولم يكن الوزير على هذا الجانب من الإفراط والتفريط فإنه معروف بين جميع أهل البلاد بالتنزه عن الأغراض الذاتية مشهور بلين العريكة وسلامة النية فلا تميله الأغراض ولا تغير المناصب من أخلاقه شيئاً ولا يسير إلا على ما يعتقد أن فيه الخير والمصلحة للبلاد وأهلها، وفوق ذلك فهو ليس بذى طمع مع إحدى الدول الطامعة فى البلاد كغيره ممن تولوا الرياسة،

ولذلك كان الناس كافة يعتبرونه أبا الأمة وأخا الإصلاح ومحيى روح المساواة بين صنوف الرعية، ولما طال امتناعه أوعز الخديوى إلى قناصل الدول والعلماء والرؤساء الروحانيين وعمد البلاد ووجهاء التجار أن يستميلوه إلى قبول المنصب ففعلوا وزادوا فى استعطافه ورفع إليه العلماء وعمد البلاد ووجهاؤها وأئمة المذاهب ومشايخ الطرق سجلا بأختامهم وأسمائهم وهم زهاء الستة آلاف ذكروا فيه: أنهم كافلون وضامنون طاعة أمراء العسكر وجميع صغار الضباط وعدم عودهم إلى تكدير صفو الراحة وامتثالهم لإشارة الوزير وغير ذلك من أقوال اللين والتلطف فلم يسعه بعد ذلك إلا القبول وقام من ساعته ودخل على الخديوى بمقره بالإسماعيلية ولبث بحضرته لحظة ثم كر راجعا إلى داره فلقيه وفد من مقدمى العسكر ومعهم التماس وقع عليه جميع أفراد الضباط على اختلاف درجاتهم فدفعوه إليه فقبله ولاطفهم وأظهر لهم غاية البشر والإيناس وقرأه وإذا هم يقولون فيه:

نحن ضباط الجيش المصرى نعتقد الاعتقاد التام فى حسن صداقة وغيرة دولتكم وخلوص طويتكم وسلامة نيتكم فى خدمة الوطن العزيز والمحافظة على حقوقه والسعى فى رفاهية أهله ولهذا ولكوننا جميعا نحب تقدّم وطننا العزيز فنلتمس من دولتكم قبول مسند رياسة مجلس النظار ونسترحم من دولتكم انتخاب نظار الدواوين ممن يكونون موصوفين بالصفات الحسنة والعرض عنهم للحضرة الفخيمة الخديوية للقيام بأعباء خدمة الوطن العزيز وإعلانا لصداقتنا وانقيادنا لأوامر الحكومة التى تصدر فى صالحنا العمومى قد أمضينا هذه العريضة ونحن على يقين أن تقع لدى دولتكم موقع القبول . اهـ.

(مطلب)

قبول الوزير شريف باشا تشكيل الوزارة بعد امتناع

فما فرغ من قراءة العريضة حتى هان عليه الخطب وخف عنه ما كان يلاقيه ورسم بتشكيل هيئة الوزراء فعين مصطفى فهمى باشا لوزارة الخارجية وحيدر باشا للمالية وإسماعيل أيوب باشا للأشغال ومحمود باشا البارودى للجهادية والبحرية وقدرى بك للحقانية وأضاف إلى مسند الرياسة وزارة الداخلية وكان الفراغ من تشكيل الوزارة على هذا النسق بعد ظهر يوم الثلاثاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وتسعين وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا فرحا لا يوصف واطمأنت قلوبهم بعد

الخوف وذهبت عنهم تلك الطيرة ووردت رسائل التهـانى على الوزير محمد شريف باشا من كل صوب وحدب وأحس مـصطفى رياض باشا بما وراء تنزيله عن منصب الرياسة لا سيما وقـد كثر اللغط وعمت الإشاعة بأن زعماء الجند يطلبون مـحاكمته على ما ارتكبه من الجـور والعسف وتخريب البيـوت العامرة وتبعيـد الكثير من أبناء البلاد إلى أقاصى السودان والدارفور بلا مـوجب، فخاف وتقدم إلى الخديوى فى أن يسرحه بالخروج إلى الديار الأجنبية كمـا فعل عند خلعه على أيام الخديوى إسماعيل فسـرحه بشفـاعة قونصل الإنجليـز والمستر كـولفن المراقب فرحل عن القاهرة مـساء الثلاثاء تاسع عشر شوال إلى الإسـكندرية ثم سار عنها فى ثانى يوم إلى مدينة نيس إحدى مدن بلاد الفـرنسيس فكان بين خلعه وارتحاله ثلاثة أيام وإحدى عـشرة ساعة بالقاهرة وزهاء سبع عشـرة ساعة بالإسكندرية وطير الخديوى الخبر بجـميع ما جرى إلى دار السلطنة، فجاءه الجواب فى ثالث عشرى شوال يهنئه بما حصل ويسأله تحقيق الآمال بجعل الوزير محـمد شريف باشا يتصرف فى الأمور بعزمـه وحزمه المعلومين وينظر إلى مصالح الخلق من أبوابها الحقة، وجاء إلى القاهرة العدد العديد من وجهاء البلاد وأعيانها وكبار الأهلين ومعهم عريضتان موقع على كل منهما من زهاء الألف والخمـسمائة من عـمد البـلاد وكبارها إحـداهما برسم الوزير مـحمد شـريف باشا ومضمونها: أن جـميع من وقعوا عليها كافلون بأنه لا يقع فى المسـتقبل من الجيوش المصرية شىء تأباه الهيئـة الحاكمة وإنهم فرحون فرحا مـا عليه من مزيد حيث تنازل وقبل مـسند الرياسة لأنهم يعتقـدون أن قبوله هذا هو الوسـيلة العظمى فى اطمئنان الخواطر وسكـون النفوس، وثانيتـهمـا: برسم الخديوى ومـضمونهـا طلب تشكيل مـجلس النواب حيث إنه هـو الواسطة الكبرى للإصـلاح الذى توجـهت إليه آمـال جميع الأهلين وكان بين هذه الجموع التى حضـرت محمد سلطان باشا أحد وجهاء منية ابن خصيب فـوقف وقال مخاطبا الوزير محمـد شريف باشا: إنى أعرض على مسامع دولتكم أن هؤلاء الوجـهاء والنبلاء قد تمثلوا بين أيدى مراحـمكم ليظهروا ما عندهم من الفرح والسرور حيث تفضلتم بقبـول مسند الرياسة الجليل فأنهم يعرفون ما لدولتكم من الميل الحقـيقى لإجراء الإصلاح الذى كثيرا مـا أمّلوه وليعرضوا أنهم متكلفون بالجـيوش المصرية الذين هم فى الحقـيقة أبناؤهم وإخوانهم وليلتـمسوا من مكارمكم ما يعلمونه فى سمـوّ أفكاركم من بث روح الحرية فى البلاد والمساواة بين أصناف الرعية، وحيث إن دولتكم على هذه الأفكار السامـية فهذا الجمع يلتمس من

كرمكم بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن إخوانهم الموقعين على هاتين العريضتين أن تمدوا إليهم ساعد المساعدة القوى وتسعفوهم بما علموه فى همتكم من الإقدام وقوة العزيمة وأن مساعدتهم على نوال ما طلبوه لا تتحقق إلا بأن تكون دولتكم الواسطة العظمى فى رفع هذه العريضة المتضمنة طلب تشكيل مجلس النواب إلى الجناب الخديوى المعظم أعزه الله، وليست هذه بأول ما رآه الناس من حبكم لبث روح الحرية فى البلاد فأن أفكاركم السامية لم تزل ولا تزال موجهة نحو كل ما فيه الخير والمنفعة لهذه الأوطان . اهـ.

فأجابه الوزير بما شف عن إخلاصه فى مساعدتهم وأنه عازم كل العزم على أن يسعى جهده فيما تتقدم به البلاد لا سيما فى تشكيل مجلس شورى النواب فانصرفوا وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق، فوردت على الوزير فى هذا اليوم رسائل التهانى من جميع قناصل الدول وكبار الأجانب والأهلين وأرسل إليه صاحب جريدة التقدم وهو يومئذ بالشام فارا من وجه مصطفى رياض باشا تاريخاً على جناح البرق يؤرخ به عوده إلى منصب الرياسة وهو:

فهذه النعمة تاريخها نصر من الله بفتح قريب

سنة ١٢٩٨ هجرية

وتواردت عليه قصائد التهانى وأبيات المديح من جميع الجهات تترى ووقف بعض الشعراء على بابه، وسمعت شطر بيت لأحد أدباء القاهرة يؤرخ به رياسة المشار إليه وكأنه كان يعرّض بأعمال مصطفى رياض باشا أيام رياسته ولكنى لم أقف على الشطر الأول وهو

* **الدهر حر والوزير شريف** * سنة ١٢٩٨

ولم يستقر به المنصب حتى جعل ينظر فى طلبات الجند من أبوابها فقرر منها قانون الإجازات العسكرية البرية والبحرية، وقانون تسوية حالة الضباط المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية، وقانون القواعد الأساسية الذى يليه قانون الترقى، وقانون الضمائم والامتيازات والإعانات العسكرية فلما أتمها على الوجه المطلوب رفعها إلى الخديوى فصادق عليها ورسم بتنفيذها والعمل بها اعتبارا من ثامن عشرى شوّال ففرح الجند بذلك فرحا لا يوصف وسر كبارهم واطمأنت قلوبهم واعترفوا للوزير بالفضل والمنة، وكانت هذه القوانين غاية فى السهولة والاعتدال لا شيء فيها خارج عن رغائب الحكومة وما تقتضيه حالة البلاد ولم يعلم إلى هذا

الحين ما الذى حمل مصطفى رياض باشا أيام رياسته على تعييبها والامتناع من العمل بها بعد أن رسم بتقريرها فكانت على نحو ما أراد ولو لم يقع منه فى أيام رياسته شيء من الجفاء والشدة مع مقدمى الجند سوى إصراره على عدم تنفيذ هذه القوانين لكفى فإن أعمال زعماء العصابة كانت لغاية اليوم الذى تقررت فيه هذه القوانين غاية فى الخطل والخلل بل هى كأعمال صبيان المكاتب ليس فيها ما يوجب الخوف ولا ما يورث القلق وكانت مجردة عن كل حكمة مشوبة بالأغراض التى لابد وأن تفضى بصاحبها يوما إلى الوقوع فى الهلكة وكان عقلاء القوم يعرفون ذلك جيدا فلما رسم مصطفى رياض باشا بتقرير تلك القوانين ثم عاد فامتنع من العمل بها كان مثله فى ذلك كمثل رجل سلم لآخر سيفا باترا على حين لا يملك عصا واستحلفه أن لا يتقلده إلا متى بلغت منه الشدة مبلغها ثم كان منه بعد أيام أن ضيق عليه وبالغ في إذلاله وسامه الخسف فلم يشعر إلا وذاك السيف يكاد يعمل فى عنقه فالتفت مذعورا وقال لصاحبه: أو أنت فاعل قال: كيف لا وقد استحلفتنى وهذا السيف سيفك الذى سلمتنيه فندم ولكن لم ينفع الندم.

(مطلب)

رفع ظلامات أهل الحبوس إلى الوزير

وسار الوزير محمد شريف باشا فى النظر فى أمور البلاد واحتياجاتها سيرا حثيثا فكثر توارد القصص والظلامات على ديوانه من أهل الحبوس التى ملأها مصطفى رياض باشا بالكثير من أهل البلاد لأقل ذنب وأصغر شبهة فكان إذا خرج الوزير من بيته يريد الديوان تعلق نساء أهل تلك الحبوس وأطفالهم بأثوابه واستغاثوا وضجوا وبكوا وتساقطت الظلامات بين يديه فتناقل هذا أصحاب صحف الأخبار المحلية وشاع حتى نقله أصحاب صحف أخبار الإنجليز وقاموا له وقعدوا وتبعهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيس واستعظموا البلوى ونادوا ياللعدالة ياللإنسانية فكبر الأمر على الوزير محمد شريف باشا واستعظمه ورسم بتشكيل لجنة عهد إليها تفتيش جميع الحبوس وتحقيق ظلامة كل مسجون، وسيرت دولة الإنجليز أحد مقدمى جنودها إلى القاهرة ليشارك اللجنة فى أعمالها، وكلم القونصل الوزير محمد شريف باشا عنه فلم يمانع فى حضوره فبحثت اللجنة ونقبت فظهر لها كثير من المظالم والفظائع قالوا: ولم تكن هذه المظالم قاصرة على مستخدمى بعض المصالح

والدواوين كالطرد والحرمان من الخدامات والتبعيد والسجن وغير ذلك بل قد عمت أيضاً جميع أهل البلاد وأنشبت بالجليل منهم والحقير والغنى والفقير حتى غصت بهم الحبوس وضاقت على اتساعها وأبعد الكثير منهم إلى أقاصى السودان وغيرها بلا قضاء شرعى ولا حكم قانونى وأحصوهم فكانوا زهاء الأربعة آلاف من سائر المديريات القبلية والبحرية فأطلقوا من بقى منهم فعادوا إلى أوطانهم على نفقة الخزينة، وبينما الناس فى شاغل بحوادث أصحاب الظلامات ومن أهلكتهم الحبوس إذ جاء الخبر من دار السلطنة فى ثلمن ذى القعدة إلى ديوان الخديوى الخاص بقيام إحدى سفن حرب الدولة إلى الإسكندرية وعليها أربعة من مأمورى الدولة وهم: على نظامى باشا المعتمد الأول الموكول إليه البحث فى أمر تظاهر أحمد عرابى بيك وأصحابه، وعلى فؤاد بيك المعتمد الثانى الموكول إليه النظر فى الأمور السياسية وله حق الاشتراك فى المخابرات التى تقع بين مصر والدول الكبرى، وراتب باشا، وصفسر أفندى وهما من ياوران الخليفة أمير المؤمنين ويتضمن الخبر أيضاً التهانى للخديوى على ما أظهره من الحزم وحسن السياسة فى حل تظاهر الجند وتسكين قلوب الرعية، ويقول إنى: أرسلت إليك فى مركب حربية من مراكبنا السلطانية بعض المأمورين من ياوراننا الخاص سيكونون لك عونا على حل هذا الإشكال وفض الخلاف بالتى هى أحسن ومنع حدوث مثل هذه القلاقل مرة ثانية فلما شاع الخبر بما ذكر استعظمه الناس وخافوا عاقبته واهتم له الوزير محمد شريف باشا فرسم فى الحال بانحدار عبد العال بيك بعسكره السود إلى مدينة دمياط فانحدر فى نفس اليوم الذى جاء فيه الخبر بقيام وفد السلطان وقد شيعه على المحطة العدد العديد من ضباط الجند والوجهاء والأعيان والتجار على اختلاف درجاتهم وأحمد عرابى بيك والبارودى، فقيل أن يسير بهم القطار وقف عبد العال بين الضباط وقال مخاطبا للجمع أيها الإخوان: إنا نودعكم والقلوب معكم وكلمة الوطنية تجمعنا فاجعلوا حبل المواصلة بيننا ممدودا وثقوا بعزمكم ولا تطيعوا الوشاة فيما يفترونه علينا كما أننا لا نسمع من واش كلاما واعلموا أننا فى تيار أفكار إن لم تحفظ أنفسنا فيه بالاتحاد وإلا هلكنا وكلنا يعلم حسن طوية مولانا الخديوى وطهارة رجاله الفخام فنحن نخدم أفكارهم بأرواحنا ونقضى العمر فى طاعتهم والله الحفيظ على وعليكم وهو على كل شيء قدير.

فبرز عند ذلك عبد الله صاحب جريدتى الطائف والتنكيب والتبكيت وقال مخاطبا للجند: حماة البلاد وفرسانها من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من

الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم إليها سابق ولا يلحقكم فى إدراكها لاحق ألا وهى حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الأستبداد عنهما فلكم الذكر الجميل والمجدد المخلد يباهى بكم الحاضر من أهلنا ويفاخر باثركم الآتى من أبنائنا فقد حيى الوطن حياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقى فإن الأمة جسد والجند روح ولا حياة للجسم بلا روح وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول:

إليكم يردّ الأمر وهو عظيم فإني بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللورى فمن أين يأتي للديار نعيم
وأن الفتى إن لم ينازل زمانه تأخر عنه صاحب وحميم
فردّوا عنان الخيل نحو متيم تقلبه بين البيوت نسيم
وشدّوا له الأطراف من كل وجهة فمشدود أطراف الجهات قويم
إذا لم تكن سيفا فكن أرض وطأة فليس لمغلول اليدين حريم
وإن لم تكن للعائذين حماية فأنت ومخضوب البنان قسيم

ولقد ذكرتم باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان من رسول الله ﷺ عند تغيب سيدنا عثمان فى أهل مكة من مبايعة أهل الشجرة على استخلاص صاحبهم فصاروا يعنونون بالعشرة المبشرين بالجنة وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الأوطان وبقاء سلطة مولانا الخديوى وتأييد ملكه وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم من كل ما يذهب بالثروة أو يضعف القوة أو يخدش الشرف ﴿فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ ثم التفت إلى عبد العال بيك وقال: هذا أخوكم الحرّ يودعكم ويسير بإخوانكم إلى دمياط فاجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم الأنفس فى إحكامهِ فقد:

زالت موانعنا التى كانت تجرّ إلى الفساد
والأنس دار رحيقه بين الجيوش أولى الرشاد
لا تعمر الدنيا إذا لم تترك الخلق العناد
الأرض تنبت زرعها لحياتنا بالاتحاد

ومن محاسنكم التى تفتخرون بها ويعرف لكم بها الفضل طاعتكم لأوامر الحكومة وامتثالكم لإشارتها وربط قلوبكم بمحبة مولانا الخديوى ورجاله الكرام

خصوصـا هذا الرئيس البر الرءوف القائم بخدمة الأمـة وبلادها وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادى عند النوازل أن يقال مات شهيد الأوطان . اهـ.

فما ختم خطابه حتى نادى الجمع بصوت واحد رضينا بالموت فى حفظ الأوطان ووقاية أميرنا من كل مـا يمس سلطته، ثم سار القطار قاصدا دميـاط فقابلهم أهلها بالبشر والترحاب فنزل الجند فى المحلة التى أعـدت لهم، وزار عبد العال بيك جميع وجهـاء البلد وأعيانها وعـملوا له الولائم والختمـات وتوددوا إليه وتقرّبوا منه جـهد الاستطاعـة فلما جاء الخبـر إلى القاهرة بأن قد استـقرّ بعبد العـال بيك وجنده المقام رسم الوزير محمد شريف باشـا إلى أحمد عرابى بأن ينحدر بجنده إلى رأس الوادى فنادى فيـهم بالخروج فخرجـوا يوم الخميس ثالث عشـر ذى القعدة وأمامـهم أحمد عرابى بك على فرس وحوله كوكبة من الضـباط على ظهور الخيل والسيوف بأيديهم مسلولة وسـاروا من وسط المدينة إلى المقام الحـسينى فلما اقـتربوا منه ترجل أحـمد عرابى بيك وتـرجل معه جـماعة مـن الضباط ودخل إلى المقـام ومعـه بيرق الألاى وطاف حول الضريح مرارا كثيرة وهو يقرأ بعض الأحزاب ثم خرج وركـب هو ومن معه وساروا قـاصدين محطة السكة الحَديد وكان جند الحرس الخـديوى مصطفا على جانبى الـطريق وبأيدى ضبـاطه باقات الورد والزهور وكـذلك بعض العامـة وكانت الطرق غاصة بجماهير الناس من الرجال والنساء والصـبيان فلما اقترب أحمد عرابى بيك من المحطة هتف الناس هتـافا عظيما وعـزفت الموسيقى وترامت عليه ضـمات الزهور من كل جانب وكـان فى انتظاره كبـار الضباط وبعض أعـيان القاهرة وعـمد بعض البلاد وقـد فرشوا له الأرض بالزهور والرياحـين وأوراق الشجر فـترجل عن جواده ووقف برهة لطيفـة وحوله جماعة من مـقدمى الجند وهم: على بيك الديب مقـدم الحرس الخديوى، وعلى بيك يوسف مـقدم جند قلعـة الجبل الذى تولى بدل إبراهيم بيك حـيدر، وطلبـة بيك عصـمت مقـدم جند قصـر النيل الذى تولى بدل شوقى بيك وقـبل أن يتحرك به وبعـسكره القطار التفت إلى من كانوا حـوله وجعل يحضهـم على الاتحاد والتعاون وعدم تفـريق الكلمة مع صفاء القلوب وإخلاص النية عند كل عمل، ثم تقـدم عبد الله صاحب الـطائف وخطب فحض وحث وبالغ فى التنكيت والتبكيت حتى أخذ بالعقـول وكاد يبكى الناس ثم رحل بهم القطار قاصدا رأس الوادى فلما وصل مدينة الزقـازيق التى هى كرسى القرية التى ولد فيهـا أحمد عرابى بيك هرع إلـيه الكثيـر من مشايخ البلدان والعـمد والأعـيان يحمل بعـضهم أغصان الشـجر وبعضهم سـعف النخل وبعضهم الزهور والرياحيـن وهم فى ضجة

وجلبة عظيمة فـأشرف عليهم من نافذة العربة فصـاحوا ودعوا له فنزل ووقف بينهم وأشار إلى صاحب الطائف فتكلم وبالغ فى الحث ثم تكلـم هو كذلك فترامت عليه الزهور والرياحين من كل جـانب وعلت الأصوات بالدعاء ثم انحدر القطار مـسرعا إلى رأس الوداى.

(مـطـلـب)

رجـال الـوفـد بالخـديوى فـى مـقـره وذهـابـه إلـيـهـم

واتفق أنه وصل فى هذا اليوم رجال الوفد القـادمون من دار السلطنة إلى مدينة الإسكندرية ودخلت مركـبهم المينا فسلمت فرد علـيها بعض الحصـون السلام وكان الخديوى قـد رسم إلى ذى الفقـار باشا فانحـدر إلى الإسكندرية للقاء رجـال الوفد فأنزلوهم فى سراى رأس التين فأكلوا وشربوا وركبوا إلى محطة السكة الحديد حيث كان ينتظرهم قطار الخديوى الخاص وكان فى ركـابهم فريق من العسكر وجماعة من أصحاب الشرطة ومـحافظ المدينة وصاحب شرطتها فسـار بهم القطار قاصدا القاهرة فوصلوا فى الساعة الثانية ليلا وساروا إلى قصر النزهة حيث أعدّ لهم وكانت عدتهم ستة، وهم: على نظامى باشا وراتب باشا وعلى فؤاد بيك وصفر أفندى وسيف الله أفندى والشيخ أحـمد أسعـد أفندى متولى الفـراشة بالحرمـين الشريفين عـدا الخدم والحشم والأتباع فإنهم كثيرون وكان جميع ضباط الباخرة التى جاءت بهم من ضباط القصر الشاهلنى وقد بقى معهم اثنا عـشر شخصا لم ينزلوا إلى البر وهم من الحرس السلطانى المكلفين بمراقبة رجال الوفد، ولما كان صبـاح الجمعة رابع عشر ذى القعدة ركب رجال الوفد لزيارة الخديوى بمقره بالإسماعيليـة فتلقاهم بغاية البشر والترحاب وبالغ فى تكريمهم وجلسوا معه برهة يتحدثون فيما لم تصل إلينا معرفته أو كما قال بعض أصـحاب صـحف الأخـبار المحليـة أنهم أبلغـوا الخديـوى تسليمـات الذات السلطانية وأعربوا عما لها من تمام المسـرة والرضا عن همة الخديوى فى حفظ الأمنية وأن المقصود من حـضورهم إنما هو إظهار ما للذات الملوكانية من الوثـوق والاعتماد على الجناب الخديوى وتأييد نفـوذه وتعزيز موقعه وتثبيت مـركزه، قالوا: فعند ذلك نطق الخـديوى بآيات الخضـوع وأدى واجبـات الشكر للذات الشـاهانية على حـسن عنايتهـا ثم دعا لها بتخليـد ملكها وتمكين قوّتهـا وبعد ذلك انصرفوا، فلمـا جاءت الساعة الخامسة ركب الخديوى فى كبكبته وزار رجال الوفد بقصر النزهة ولبث معهم برهة ثم كر راجعـا إلى الإسماعيليـة فبات حضور رجـال هذا الوفد مع طلب الأمة

إنشاء مجلس شورى نواب البلاد شغل جميع الناس الشاغل لهم عن كل شيء وكان الوزير محمد شريف باشا يعرف ذلك منهم فتقدم إلى الخديوى فى خامس عشر ذى القعدة فى طلب التصديق على إنشاء المجلس على قاعدة قد قررها فصادق الخديوى عليها راضيا ورسم بافتتاحه فى غرة صفر الخير سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية باحتفال عظيم وشاع الخبر بذلك ففرح الناس كثيراً وطاف جماعة الضباط على بيوت الوجهاء والأعيان بالقاهرة ومصر يبشرونهم وتكلم أصحاب صحف الأخبار المحلية عن الفوائد العظيمة التى تنجم عن إنشاء هذا المجلس وأطالوا الكلام وبالغوا فى الإطراء، وقالوا: إنه لهو من المحسنات بل من المعجزات التى لا يقدر غير الوزير محمد شريف باشا على الإتيان بها لا سيما فى إبان هذه الظروف المهمة والخطوب المدلهمة.

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر ذى القعدة زار رجال الوفد سائر دواوين الحكومة ونظاراتها ثم ساروا إلى ديوان الجند بقصر النيل فاصطفت لقدومهم جميع العساكر وكان محمود باشا البارودى واقفا على باب الديوان متهيئا لاستقبال رجال الوفد فلما دخل على نظامى باشا أخذ البارودى بيده ومر معه على صفوف العسكر ثم استدعى إليه طلبة بيك وجميع القائمقامات والبيكباشية فألقى عليهم خطابا بالتركية فترجمه البارودى بالعربية فكان هكذا، إن للجناب الخديوى الأكرم منزلة رفيعة من الحب وحسن الرعاية عند مولانا السلطان الأعظم أيده الله ونصره فهو لذلك يحافظ على تعزيز جانبه وتأييد مركزه ويعضد نفوذه وسلطته وليس بخاف على حضراتكم أن الجناب الخديوى هو الوكيل المفوض عن مولانا السلطان الأعظم وأن الوكيل كالأصيل فمن أطاع الجناب الخديوى وامتثل أوامره وانقاد لأحكامه فقد أطاع حضرة مولانا السلطان وكان من العاملين بما جاء فى محكم القرآن من قوله تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**﴾ ومن خالف الجناب الخديوى فقد خالف مولانا السلطان وعصى أمر الرحمن - نعوذ بالله من ذلك، فنحن معشر العساكر يلزمنا فى كل حال أن نطيع ونذعن لولى الأمر وأن لا نتردد أو نتهاون فى القيام بما يكلف به من الأوامر وأن لا نبحث عن موجبها ولا نسأل عن أسباب ما تكلف به من الأوامر وإنما علينا أن نمتثل كل ما أمرنا به ونجرى على مقتضاه وقد أمضيت فى خدمة العسكرية ثلاثة وأربعين عاما واشتركت معكم أيام الحروب الماضية فى المخاطرة بدمائنا وأرواحنا امتثالا لأوامر مولانا وسلطاننا وإعلاء لكلمة ديننا

ودفاعـا عن عمـوم أوطاننا فأوصيكـم أن تتمسكوا بالطـاعة وتقيـموا على الانقـياد وتلزموا حدودكم المعروفة فلا يعرف الصغير إلا من هو أكبر درجة منه ولا الكبير إلا الأعلى منه رتبة وهكذا لا يعرف إلا كـبيره درجة بعد درجة إلى الانتـهاء، وبعد أن ختم مقالته هذه ودّعهم وانصرف مع من حضروا معه فلما كان بعد ظهر اليوم ركب ومعه فؤاد بيـك وزار بعض المدارس العليا والوزير محمد شريف باشـا قيل وأعلماه بأنه لم يكن فى عزمهما التداخل فى شىء من أمـور البلاد وبأن غاية حضورهما مع من حضر من رجـال الوفد إنما هى تقديم مراسيم التهـانى للجناب الخديوى على ما أظهره من الحزم وأصالة الرأى فحادثهما الوزير عن عادات البلاد وسلامة نوايا أهلها ودوام خلودهم إلى الهدوّ والسـكينة وعدم الاندفاع إلى مـا يكدّر صفو راحـتهم ثم انصرفوا وأمـر الخديوى فزارهم كثيـر من الوجهاء والأعيـان وشيخ الإسلام وبعض العلماء ومشايخ الطرق وبالغوا فى إجلال رجال الوفد وتعظيمهم.

وحسب قونصل جنرال الإنجليز بمصر ما وراء حسن وفادة على نظامى باشا ومن معـه وتقرّب أهل البلاد منهم فـجعل يراقب الحـوادث ويستطلع الأخبـار ويكثر من الذهاب تارة إلى مقر الخديوى وأخرى إلى مقر الوزير محمد شريف باشا وطورا إلى مقر البارودى وبث العيون والأرصاد حول مقام الوفد وطاف رجال ديوانه على بيوت بعض رجال الدولة يسـتنشقون نسـمات تلك الأخبار وكـأنه آنس منهم بعض الشىء فكتب به إلى اللورد جرانفـل كبير السـياسة الإنجليزيـة يومئذ فسـير هذا اللورد إلى الباب العالى يطلب سرعة استرجاع رجال الوفد وجلائهم عن الكنانة واستنجد بكبير سياسة الفرنسـيس وهو يومئذ المسيو بارتملى سنتهلار فأنجـده. وجعلا يشدّدان الطلب وضربا لجـلاء الوفد أجلا وأوعـزا إلى أصحاب صـحف أخبارهم فـهاجوا ومـاجوا ونادوا بالحرب والقتال وخبطوا وخلطوا فى القول وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد، فمن قائل: أن الوفد إنما دخل أرض الكنانة يتابعـه من السر ما لا يعلمه إلا المقرّبون من أبواب السلطان، ومن قائل: بل هم يتأبطون جميع الفرامين والخطوط الهمايونية الصادرة من عهد محـمد على باشا الكبير إلى أيام الخديوى توفيق لغـاية خفية وسر مكتوم وتناهى بـبعضهـم الخلط إلى القول بأن رئيس الوفد قـام من دار السلطنة إلى مصـر ومعه فرمـان مخصـوص لا يليق التكلم عنه حتى ينجلى الصـبح لذى عينين (قلت): يريدون فرمانا بعزل الخديوى توفيق وتولية الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا وجعلوا يقولون غـير ذلك من الأراجيف فقام أصحاب صحف الأخـبار التركية

يفندون تلك المزاعم ويرمون أصحاب صحف الإنجليز والفرنسيس بسوء النية وخبث الطوية ويقولون إنما مصر بلد إسلامية وهى كالقلب من جسم السلطنة العثمانية فأى جناح على المتبوع إذا سير إلى تابعه يسأل عن حاله ويخفف عنه ما اشتدّ من أحواله وطال الأخذ والردّ على غير جدوى والسلطان لا يلتفت إلى أقوال صاحبى سياسة الإنجليز والفرنسيس فعمد عند ذلك صاحب سياسة الفرنسيس إلى التهديد وسير إحدى مراكب حربهم إلى مدينة الإسكندرية وكانت من أضخم سفنهم واسمها آلما فوصلت ليلة تاسع عشر ذى القعدة وباتت ليلتها خارج البوغاز وأصبحت فدخلت إلى المرسى وسلمت على الطوابى بإطلاق مدافعها فردّت عليها طوابى رأس التين السلام وكانت تحمل زهاء ثلثمائة وخمسين من الفرق الحربية وعشرة مدافع من العيار الكبير والطراز الجديد، وشاع خبر قدومها ووصل إلى القاهرة فخاف الناس وكثر تحدثهم به وخشوا سوء العاقبة وكأن السلطان قد بما وراء ذلك فجاء الخبر إلى رجال الوفد بالجلاء عن مصر فتأهبوا للرحيل، ولما كان ثالث عشرى ذى القعدة تمثل على نظامى باشا وفؤاد بيك ورجال الوفد بين يدى الخديوى وأبلغاه أنّ أمير المؤمنين قد أحسن عليه بنيشان الامتياز وأنّ من شأن توجيه هذا النيشان أن الخليفة يضعه بيده على صدر من تشرف به وهو ممثل بين يديه بملابس التشريف، قيل: فأظهر الخديوى الخضوع والطاعة، وقال: سأتشرف إن شاء الله بالمثول لدى سيدى ومولاى أمير المؤمنين عند تمام استتباب الأمن وسكون خواطر أهل البلاد، ثم تقدم إليه فخرى بيك ربان باخرة الوفد وأبلغه بأن قد ورد إليه مرسوم السلطان بالعود إلى دار السلطنة حالا وانصرفوا وفى الساعة الثالثة من صباح ثانى يوم الثلاثاء رابع عشرى الشهر خف على نظامى باشا وفؤاد بيك إلى مقر الخديوى بالإسماعيلية لوداعه فأحسن لقاءهما ورحب بهما ورسم فهيؤا قطاره المخصوص فركبوا إلى محطة السكة الحديد، وكان الوزير محمد شريف باشا وسائر الوزراء والكبراء وموظفى الحكومة فى انتظارهم فركبوا القطار وسار بهم إلى الإسكندرية ونزلوا بسراى رأس التين فوفد عليهم جميع ضباط جند الإسكندرية للسلام فوقف بينهم المشير على نظامى باشا وخطب خطابا وجيزا معناه، أنه عند وصوله إلى مقر الخلافة العظمى لابد أن يبشر إخوانهم العسكر المنصور هناك بأن لهم فى مصر إخوانا لا يرون غير الطاعة لأوامر مولانا أمير المؤمنين والانقياد للخديوى ثم نزلوا إلى السفينة ورحلوا إلى دار السلطنة وقد تخلف عنهم بالقاهرة عظيم اسمه كامل باشا وحجته فى ذلك عزمه على السفر

إلى الأقطار الحجازية، فأقام أياما يتراوح بين القاهرة والإسكندرية لا يعلم أحد من أمره شيئاً ثم رحل إلى السويس ومر بمدينة الزقازيق قصبة الشرقية فلاقاه فى محطتها أحمد عرابى بيك وكأنه كان في انتظاره فركب معه فى عربة القطار ولبثا معا إلى أن بلغ القطار محطة التل الكبير ثم ودّعه ونزل فسار القطار الهوينا وكان على يسار طريق القطار جميع جند أحمد عرابى ومعهم الموسيقى، فلما اقترب منهم القطار عزفت الموسيقى بنشيد السلام السلطانى وضج الجند بأصوات التهليل والتكبير فبرز كامل باشا من شباك العربة وحياهم بإشارات السلام فصاحوا بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين وكان أحمد عرابى على رأس صفوف أولئك العسكر وخلفه جماعة من كبار الضباط وهو يهلل بالدعاء فأعجب هذا كله كامل باشا وسر به سرورا عظيما، وكان لقاء كامل باشا وأحمد عرابى على موعد بينهما رغما عن ممانعة رجال الحكومة وبذلهم الجهد فى التبعيد بينهما، وبعد أن خرجت الباخرة العثمانية بمن عليها من رجال الوفد من مينا الإسكندرية بقليل دخلت باخرة حربية إنجليزية اسمها انشيل قادمة من مالطه وهى من المدرعات الضخمة فيها أربعة عشر مدفعا كبيرا فأقامت بالإسكندرية يومين ثم خرجت في سادس عشرى ذى القعدة وخرجت معها المركب الفرنساوية، وتشوّف الناس يومئذ إلى معرفة ما سيكون بعد وصول رجال الوفد إلى دار السلطنة وتزايد تساؤلهم عما فى صحف الأخبار وأكثروا من شرائها واضطر من لا يعرف القراءة من العامة إلى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم فى شوارع القاهرة ومصر القديمة جماعات وبينهم الرجل أو الصبى من صبيان المكاتب وهو يقرأ عليهم ترجمة عبارة لصاحب جريدة التيمس الإنجليزية أو لصاحب الديبا الأفرنسية أو لغيرها من صحف الأخبار الأجنبية وهم فى ضجة وحوقلة وعم هذا الحال السوقة وأصحاب الحرف الدنيئة كالصباغين والزياتين والحلاقين، وقد رأيت يوما صبيا فى حانوت لرجل يبيع البقل وبيده صحيفة من صحف الأخبار العربية وأمام الحانوت خلق من السوقة وهم محدقون بالصبى وهو يقرأ عليهم ما نصه، قد طلب الباب العالى من سفيرى الفرنسيس والإنجليز أن يعلماه مفصلا بالسبب الحامل للدولتين على إرسال المركبين الحربيتين إلى مدينة الإسكندرية، فأجاباه بأن ليس المقصود من إرسالهما إرغام رجال الوفد العثمانى على سرعة الخروج من مصر كما أشاعه المرجفون وإنما المقصود هو وقاية رعايا الدولتين فقط فإذا سافر المبعوثان سافر المركبان أيضاً انتهى، فقهقه الجمع عند سماعهم هذا الكلام وهمس كل فى أذن

الآخر وصاح أحـدهم قائلاً وهلا ترى فى هذه الورقة أيضاً أن الإنجليـز والفرنسيس يتخوّفون من تخلف كـامل باشا السمين بالقاهرة بعد قيـام الذين جاءوا معه من دار السلطنة وقد نادى أصحاب صـحف أخبار الفرنسيس على قومـهم بالحذر والألتفات إلى ما عسـاه أن يحصل من بقاء الباشا المذكـور فقلب الصبى الصحيـفة يمنة ويسرة وتأملّ فيهـا، وقال: صدقت ياعماه ومن الـذى أعلمك بهذا الخبر، فقـال: سمعت فلانا الحلاق الساعة يقول أنه سمـعه من أحد موظفى الحكومة، فقلت فى نفسى أن الله بالعاقبة عليم.

(مطلب)

مجلس نواب البلاد وهو أحد مطالب جماعة الضباط

ووصل رجـال الوفد إلى دار السلطنـة فاندهش كـبار سياسـة الدول من دهاء السلطان وعدم جعله تلازمـا أو تعلقا بين وجود مبعـوثيه فى بلاد هى تابعة له وبين إرسال دولتى الإنجليـز والفرنسيس مركـبيهمـا الحربيتيـن إلى مدينة الإسكندرية فكاد سفير الإنجليـز فى دار السلطنة يتميز غيظا من عجزه عن إدراك جمـيع هاته المعميات التى لـم تكن تخطر له على بـال، وقد أشار إلى ذلك صـاحب جريدة الدالـى نيوز الإنجليزية فى كثير من عباراته عن سياسة الخليفة السلطان «عبد الحميد» وما فعله عند إرسـال وفـده إلى مـصـر مما لم يعـرفـه أحـد إلى يوم رجـوع رجـال الوفـد إلى القسطنطينية، وانصرفت أفكار الناس عن البحث فيما أتى من أجله رجال الوفد بعد رحيلهم إلى الـقسطنطينية إلى استـطلاع ما سـيكون من أمر تشكيل مـجلس شورى نواب البلاد وقـد رسم الوزير محمد شـريف باشا إلى مديرى الجـهات ومحافظيـها باستدعاء أهالى البلاد إلى الانتخاب على القاعدة التى تقررت لذلك وأرسل يستحث الناس على التـدبر وأن لا ينتخبـوا إلا من عهد بالصـدق وعرف فـيما بين العـموم بالفطانة والذكاء واشتـهر بالمعرفة وحب المنافع للبـلاد والأهتداء إلى طرقها الحقيـقية وتحققت منه العفة والاستقامة قديما وحديثا ـ قال ـ فمن وجد بهذه الصفات انتخبوه غير مراعين إلى الشهرة والظهور ومن وجدتموه على ما يناقض هذه الأخلاق فابتعدوا عنه وانبذوه وإن كـان أثرى المثرين، فـما طار الخبـر بذلك إلى الآفاق حـتى غصت دواوين الحكومة بـالوجهاء والأعـيان والمثريـن من أهل القرى واختلفـت كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وتبـاينت أغراضهم حتى كادوا يفـتتنون وتعذر على المديرين

والمحافظين عمل الانتخاب والوزير يستحثهم ويحضهم على الأخذ بأطراف الحزم وأن لا يراعوا إلا المصلحة العامة ولا ينظروا إلا إلى الأوسع معرفة من قومهم والأقوى إدراكا والأنفذ بصيرة والأكثر اطلاعا والأعرف بأحوال بلاده وحكوماتها فى الماضى والحاضر فاطمأنت عند ذلك القلوب وتم الانتخاب أو كاد.

(مطلب)

ما كان من سياسة قونصل جنرال الإنجليز فى أمر تشكيل مجلس شورى النواب

قال بعض الكتاب: فكبر هذا الأمر على المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز واستعظمه لا لأنه من الأهمية عنده فى شىء ولكن لاعتباره إياه أنه هو المحور الذى ستدور عليه رحا أعماله فعمد إلى ملازمة الخديوى وأكثر من مجالسته فكان إذا رأى منه تسرعا فى تحديد أجل تشكيل مجلس النواب على النحو الذى أشار به الوزير محمد شريف باشا بالغ فى النصيحة وهوّل فى العاقبة وأظهر من جانب القسوة حنوّا وإشفاقاً وإذا رأى منه بعد ذلك تباطؤا فى العمل وإغضاء ذهب إلى البارودى وشكا إليه من تغاضى الخديوى وإبطائه وحض البارودى على الثبات والحزم وعدم التخلى عن زعماء العصابة حتى يدركوا منشودهم فلم يخرج من عند البارودى وأصحابه إلا وهم فى ضجة وجلبة وهياج فإذا كثرت جلبتهم وعظم ضجيجهم ورموا الخديوى بسوء النية وبالغوا فى تعنيفه وتعييبه حتى ينقبض ويغضب ذهب إليه مالت ولاطفه وهوّن عليه الأمر ومناه بالأمانى الطويلة العريضة فإذا آنس منه سكون الخاطر والخلود إلى المساهلة عرج به إلى الوقيعة وشذ فى القول وعظم البلوى وحذر من العاقبة حتى يتخيل للخديوى أن قد سدت أبواب النجاح وانطمست معالم الفلاح فيرجع إلى ما كان عليه من الوحشة والانقباض ويرجع كذلك البارودى وأصحابه إلى الاستغاثة بقونصلى الفرنسيس والإنجليز - قال - وهكذا كان حال الخديوى وزعماء العصابة من اليوم الذى بعث فيه الوزير محمد شريف باشا يستحث المديرين والمحافظين على سرعة الانتخاب، وكان من وراء ذلك أن تطاولت أيدى رجال العصابة العسكرية إلى العبث بعمل الانتخاب فجعل عبد الله صاحب الطائف يجوب البلاد ويستميل الناس إلى انتخاب المحزبين لرجال العصابة فاستمال الكثير من أهل الشرقية والبحيرة والدقهلية والقليوبية وغيرهم من أهالى المدن القبلية، فلما كان

عاشر ذى الحجة من السنة أى سنة ثمان وتسعين قدم أحمد عرابى إلى القاهرة وقدم كذلك من مدينة دمياط عبد العال بيك حشيش وشاع خبر حضورهما فتحدث الناس به وترامت ظنونهم، وقالوا: إنهما إنما قد حضرا لإكراه الهيئة الحاكمة على سرعة تشكيل مجلس نواب البلاد واشتد خوف العامة وكثر لغطهم فكانوا إذا رأوا جماعة يهرولون فى الطريق، قالوا: إنهم ذاهبون بدعوة من أحمد عرابى أو شاهدوا زحاما على حانوت، قالوا: إنه بإشارة منه لسر لا يعلمه إلا هو والمقربون إليه أو سمعوا مؤذنا ينادى حى على الفلاح، قالوا: إنما هو يدعو الناس إلى التعاون والتعاضد أو سمعوا امرأة تولول على صبى ضل اسمه أحمد، قالوا: إنما هى تستغيث بأحمد عرابى بيك لدفع ظلامتها وكشف غمتها وعم هذا الخلط جميع المدن والبلاد فكانت إذا وضعت حبلى صبيا سمته عرابى أو أحمد عرابى لا سيما أهل القرى واشتد تعلق الناس به شدة لم تكن تخطر لأحد على بال وتكلم أصحاب صحف الإنجليز والفرنسيس فى أمر مجىء أحمد عرابى وعبد العال حشيش إلى القاهرة وفصلوا وقاسوا وخاطوا فخشى الوزير محمد شريف باشا العاقبة واستقدم سائر المديرين والمحافظين وشدد عليهم بسرعة الانتخاب فأتموه فى ثانى عشر ذى الحجة المذكور.

(مطلب)

الاختلاف فيمن يتولى مجلس نواب البلاد

ولما تم انتخاب سائر الأعضاء ولم يبق إلا الرئيس اختلفوا فيمن يتولى الرئاسة وطالت أيام الاختلاف فتباينت الأغراض وتفرقت الأهواء وعادوا إلى ما كانوا عليه من الخلط والخبط وكثرت أراجيف ضباط الجند وتزايد تطوافهم فى شوارع المدينة ولبثوا على هذه الحال أياما حتى اجتمعت كلمتهم على انتخاب محمد سلطان باشا أحد أعيان منية ابن خصيب بالأقاليم القبلية وزال ما كاد أن يقع من الوحشة بين الوزير محمد شريف باشا وزعماء العصابة وشاع خبر رحيل أحمد عرابى وعبد العال حشيش عن القاهرة إلى دمياط ورأس الوادى ولم تكد تسكن الخواطر وتطمئن القلوب لقيام أحمد عرابى بك وعبد العال بك إلى مقر عسكرهما حتى عاد الأرجاف بقيام العسكر على كافة النزلاء الذين بالإسكندرية وإعمال السيف فى رقابهم فاشتد الخوف بالناس شدة بالغة، وتحرير الخبر أنهم وجدوا فى سادس عشر المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين رجلا من الشرطة قتيلا فى الطريق وكان أول من رأى

جثته رجلا إيطالياً فذهب الرجل إلى مقر محافظ المدينة وأعلمه بالخبر فلما شاع الخبر وعلمه أصحاب ذلك الشرطي ظنوا أن الإيطالي هو القاتل فهاجوا وماجوا وحملوا بنادقهم وتأثروا الإيطالي فاختبأ في مقر المحافظ فأرادوه عنوة واقتحموا المكان وهم فى ضجيج هائل وذهب جماعة منهم إلى موضع القتيل فحملوه وأتوا به أمام مقر المحافظ وصاحوا ونادوا وطلبوا الإيطالى للبطش به فاجتمعت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وتزاحم الناس على أبواب الديوان يريدون الدخول فنزل إليهم المحافظ وجعل يلاطفهم وأمر بالقتيل ليحمل ويدفن فامتنعوا وصاحوا فى وجهه وقالوا: لا يحل لك ذلك يامسلم أحضر لنا النصرانى الساعة لنبطش به وإلا ذهبنا بالجثة إلى القاهرة فاشتد اللدد وخاف الناس واختفى الأجانب وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وأرسل المحافظ إلى الوزير محمد شريف باشا يعلمه بالخبر فاستعظم الأمر جدا وسير إلى المحافظ يستحثه إلى مداركة الأمر وكتب إلى صاحب الشرطة يقول لازموا السكينة وسيقدم عليكم وفد لتحقيق الحادثة فبذل المحافظ وصاحب الشرطة جهد الاستطاعة حتى فرقوا تلك الجموع وحملوا الجثة وواروها التراب ليلا وبات الناس ليلتهم تلك وهم فى خوف ما عليه من مزيد، فلما كان اليوم الثانى قدم إلى الإسكندرية وفد الوزير محمد شريف باشا فسأل وبحث ودقق فلم يظهر أن للإيطالى ذنبا ولا جناية فاخلوا سبيله وقد ثبت أن القاتل للشرطى نفر من أهله لسر بينهم فسكنت الفتنة واطمأنت قلوب الخلق.

(مطلب)

الخبر باستفحال أمر مدعى المهدوية بالسودان

ولم تكن لتتمكن الهيئة الحاكمة إلى هذا الحين من تسيير المدد إلى السودان لقتال مدعى المهدوية، وقد وردت الأخبار من والى السودان وهو رؤف باشا فى ثالث صفر من السنة تنبيء باستفحال أمر مدعى المهدوية وإعلاء كلمته وأنه عاد فخرج على من وجده من العسكر المصرى فقتل منهم زهاء الثلثمائة ونهب متاعهم وسلاحهم فلما شاع خبر نصرته بين سكان الجبال اعتقدوا صحة دعواه فتبعه خلق كثير من العربان والقبائل الرحالة وشنوا الغارة على الكثير ممن لم ينضموا إليه ولم يقوموا لنصرته ودخلوا القرى فأحرقوا ونهبوا ما لا يحصى من البقر والغنم والأنعام والريش وسنّ الفيل واستلبوا ما فى خزائن مراكز الحكومة فلم يبقوا ولم يذروا،

ووصل الخبر بـذلك إلى أهل الخرطوم وتجارها فحـصل لهم فزع عظيم وداخلهم من الخوف ما لا مزيد عليه فجمعوا أموالهم وسيروا بها إلى أسوان بالصعيد الأعلى فكبر الأمر على الوزير محمد شريف باشا وجعل يرسل المدد تباعا من الجند والكراع وقدم إلى القاهرة طوائف التجار من الأقطار السودانية ما بين أهليين وأجانب فرارا من نار الثورة وإيذاء مدعى المهدوية وأصحابه فتـحدثوا بخبر ما وصلت إليه لموم المدعى وما يفعله أصـحابه من القتل والنـهب وإحراق المدن والقرى وذبح الأطفـال على صدور الأمهـات وإهلاك الحرث والنسـل وكثر انحـدار السفن ومـراكب النقل إلى أسـيوط والقوافل من طريق الأربعين وغيرها تحمـل أرزاق التجار وانقطع إرسال البضائع إلى السودان وتعطـلت سائر أسبـاب الرزق بتلك الأصقـاع فلم يبق عند الناس شك فى صحة خبر المتمهدى وقد كانوا إلى هذا الحين يظنون أن القول بظهوره إنما هو اختلاق من الرئيس مصطفى رياض باشـا أيام رئاسته ليتمكن بذلك من تمزيق شـمل عصابة الجند والتفريق بين كـبارها وأطالوا الكلام فى أمره أياما ثم تناسـوه بحديث مجلس شورى النواب وما سيكون من أمر رجاله وتبـعهم فى ذلك أصحاب صحف الأخبار المحلية وأكـثروا من حض الوزير محـمد شريـف باشا على سرعـة فتح أبواب ذلك المجلس وأطالوا العتب واللوم.

(مطلب)

افتتاح مجلس شورى النواب

فلما كان الخـامس من صفر افتـتح المجلس فكان يوما مشهـوداً أخذ الناس منذ شروق الشمس يـتواردون عشرات عشـرات إلى صوب المقام حتى غـصت حجرات المكان بالوفـود من أهل البلاد والأجـانب وامتـلأت دوائر قاعـة المجلس بالوجـهاء والمعتبرين ثم جـاء الأعضاء بملابس الزينة والتشريف فجلسـوا واصطف فى الفسحة الخارجية فرقـتان من الجند ولم يلبثوا إلا قليلا حتى أقبل الخديوى فى عـربته يصحبه الوزير محمد شريف باشـا وأمامهما أحمد خيرى باشـا المهردار وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوى فنادى الجند بالسلام وعزفت الموسيقى بالنشيد الخديوى فخرج للقائه زهاء العشرين من النواب وسائر النظار فدخل قـاعة الاستراحة ولبث لحظة ثم انتقل فى نحو الساعة السادسة إلى قاعة المجلس ووقف فى صدر المكان وعلى يمينه النظار ورجال ديوانه الخاص وأخذ ورقة وقرأ ما نصه.

أبدى لحضرات النواب ممنونيتى من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالى فى الأمور العائدة عليهم بالنفع وفى علم الجميع أنى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر افتتاحه للآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما يسر لنا من رفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الأهالى بقدر الإمكان فلم يبق مانع من المبادرة إلى ما أنا متشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذى أنا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم وأنتم تحيطون علما أن جل مقاصدى ومساعى حكومتى هو راحة الأهالى ورفاهيتهم وتنظيم أمورهم بتعميم العدالة بينهم وتأمين سكان القطر على اختلاف أجناسهم وهذا منهجى واضح مستقيم وعليه سيرى منذ توليت أمركم محبا للتربية ونشر العلوم والمعارف فعلى المجلس أن يكون مساعدا للحكومة فى هذه الأمور كلها خالصا مخلصا فى خدمة الوطن منحصرة وأفكاره ومذكراته فى المنافع العمومية مع مراعاة قرار لجنة التصفية وسائر تعهدات الحكومة مع الدول سالكا المسلك المعتدل والمنهج القويم الذى هو أهم شىء فى هذا الوقت الذى هو عصر الترقى والتمدن فالواجب علينا الاعتدال والتأنى وحسن التبصر وأن نكون يدا واحدة فى إتمام الأعمال النافعة متوسلين بعناية الله تعالى وإمداد رسوله الكريم ومتمسكين ارتباطا بالحضرة السلطانية وبالدولة العلية أدامها الله تعالى نسأل الله حسن النجاح وهو ولى التوفيق.

فلما أتم كلامه أمن الجميع على دعائه ونادى الرئيس قائلا أدام الله المعظم فكرر ذلك أيضا الحاضرون ثم استراح الخديوى بقدر جلسة الخطيب ثم خرج وركب عربته فاطلقت عند ذلك المدافع من قلعة الجبل وأخذ الناس فى الانصراف هيئة المجلس فأمر رئيسهم فعقدوا جلستهم وتلا عليهم هذا الخطاب.

أيها السادة النواب نحمد الله الذى جعل أمرنا شورى، ونصلى ونسلم على نبيه فيه المأمور بالشورى، والآمر بها،وبعد فقد سمعتم ما تضمنته المقالة الخديوية الكريمة من حسن القصد وسمو الإرادة مما لم يزدكم إلا يقينا بما عهدتم بالجناب المعظم من حسن النية، وكريم العنصر وسلامة الطوية، والارتياح إلى المصلحة الوطنية، وقد سمعتم فى هذا المقام الرفيع بعناية الجناب الخديوى العالى ورجال حكومته السنية أمور أوطانكم وأنتم خلاصة وجهاء القطر وبضعة أعيانه ونبهائه فواجباتكم من قبيل تقضى عليكم بالحكمة والاعتدال والثبات ولا أزيدكم علما بأن الولى العزيزى إلى الإصلاح والتنظيم قابل للتقدم والعمران جامع لأسباب المنافع الكلية

فمـا الاجتهـاد إلا لنوال المراد ولكنكم لا تجـهلون أن علينا حقوقـا واجبـة الحفظ وسلامـة الرعاية وأنا قـد أمرنا شـرعا بحـفظ العهـد ورعى الذمم فمن تلـك شدة الأرتباط ؟؟ للدولة العلية التى هى مركز قوتنا ومرجع سطوتنا وقد عرفنا منها العناية ؟؟؟ الإخلاص فلابد من ثباتنا على هذا الحـال بالنظر إليها ولا شك أن تقدمنا ؟؟؟ وتأييد أمـور الشورى فينا يسر هـذه الدولة العلية لما ينشأ لنا عنه من القـوة جزء من قوتهـا الكلية، وأن الذمم والمواثيق هى علاقـاتنا المالية والتجـارية مع الدول العظمى فهذه الذمم واجبـة الرعاية لما يترتب على حفظها من اسـتحكام صلات المواثيق بيننا وبين هاتيك الدول التى ينبغى لنا الأعتقاد برغبتها فى انتظام أمورنا وميلها يعود علينا بالنفع كمـا صرح بذلك عظماء رجالهـا على منابر المجالس النيابيـة وفى المنشورات الرسمية فإذا حفظنا تلك العـهود وراعينا تلك الذمم وعرفنا حقوق الوطن علينا ولم نذهل عن شيء من الواجبات لزمنا الأخذ بأسباب الحكمة والثبات للنظر فيما يجلب علينا النفـع ويـدرأ عنـا الضرر ويثبـت للنـاس جدارتـنا بما وصلنا إليه ويحقق لنا ظن أبناء الوطن الذين جعلـونا موضع ثقتهـم واعتمادهم فـوجهوا إخـوانى همتكم فى السعى بالحكمـة والاعتدال والتبصـر والثبات فمن جدّ وجـد ومن سار على الدرب وصل فنسأل الله العظيم حسن البداية والنهاية.

ثم انفض مجلسهم وتفـرقوا ولما كانت الساعة التاسعـة من تاسع الشهر المذكور وفد على مقر الخـديوى بالإسماعيلية عشرة من نواب البـلاد انتدبهم المجلس لتقديم الجواب على الخطاب الذى افتتح به الخديوى المجلس فـمثلوا بين يديه وحوله جميع الوزراء والوزير محمد شريف باشا على يساره فتلا أحدهم هذا الجواب.

بعد حـمد الله على توفـيقه وإرشـاده، والصلاة والسـلام على من اصطفى من عباده، نقوم لدى هذه السدة الخديوية الكريمة نحن مـعاشر الأمة المصرية مقام النيابة عن جمـيعهـا فى تقديم واجب الشكر لهـذا الجناب الخديوى الفخـيم على انعطاف عواطفه نحو مجلس شورى النيابة الذى انتخـبه بنطقه الشريف إظهارا لمقصده الجليل من حيز القوة إلى عالم الفعل وإجابة لرغبة الأمة ونظرا لمصلحة العامة بعد أن أزالت العوائق دونه وامتنعت الموانع بيننا وبينه بجلائل همـة الخديوى التى زلت لها صعاب المسائل، وخضعت لها رقاب المشاكل، حتى صفا الوقت واطمأنت الحال، ودنا المنى وانقادت الآمال، ولقد شنف أسماعنا، وأنعش أرواحنا، ذلك النطق الكريم، وملك أفئدتنا سرورا وطربا بما تضمن من الإفصاح عما عرفناه لولى النعمة وألفناه من نزاهة

ونبالة القصد حتى لقد نطقت السرائر بما بدا من نسمات السرور فلم تدع بالألسنة من حاجة للتعبير عن فرط محبة عظيمة من أمة كريمة لمولى تفضل عليها وتحبب إليها تحبب محب لحريتها مشغوف بخيرها ونفعها فلم يبق إلا أن نبذل غاية ما فى السعة وتأتى جهد الاستطاعة فى نفع هذه الأمة التى انتدبتنا للنظر فى منفعتها واستنابتنا عن أنفسها لرؤية مصالحها سالكين فى ذلك مسالك الحزم والتبصر وحسن النظر بما تتحسن بعناية الله مغبته وتحمد بيمن التوفيق غايته ويعضد مقاصد حكومتنا السنية المتجهة للرشاد والسداد وسلامة البلاد والعباد ويؤيد ما لنا من روابط التبعة للذات السنية السلطانية والدولة العلية العثمانية التى منحتنا عواطفها الكريمة من الامتيازات المرعية فكملت به النعمة وعظمت المنة ويؤيد علائقنا الإدارية مع الدول الأجنبية المحبة لمنفعتنا وفائدة بلادنا مبتهلين إلى الله جل ثناؤه وتقدست آلاؤه فى أن يحرس لنا هذا الجناب الخديوى الفخيم ويديم لأوطاننا به النفع العميم أدام الله توفيقها على أحسن ما يرام وبلغ به الوطن العزيز غاية المرام آمين.

والتأموا بعد ظهر اليوم ثانية وقرروا أمر تحقيق الانتخابات فكانت جملة النواب خمسة وسبعين ثم شكلوا لجنة لتنظر فى أبواب وفصول قانونهم وتنقيحه، وقد كان ذلك القانون هو الذى أنشأه الخديوى إسماعيل وقرر كل قسم نوابا عنه فى تلك اللجنة فأخذوا بأطراف العمل وساروا فيه سيرا حثيثا فلما كان ثانى عشر صفر سار الوزير محمد شريف باشا إلى مقر النواب ورفع لهم القانون الأساسى لأعمال المجلس لينظروا فيه ويبدوا ما يخطر لهم من الأفكار فى مواده وحدوده ثم وقف بينهم وألقى فيهم هذا الخطاب.

(أيها السادة النواب ـ إنى لا أقدر أن أعبر لحضراتكم عن سرورى من الحضور بينكم فى هذا اليوم الذى أعدّه مبدأ لعصر جديد إن شاء الله يعود على هذا القطر بالتقدم والنجاح وحضراتكم تعلمون أنه من منذ ثلاث سنوات تراءى لى أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من الورطات التى كانت محيطة بها هى توسيع نطاق الشورى واشتراك رأى نواب البلاد مع الحكومة فى نظر كل أمر مهم تعود منه المنفعة وكنت قدمت مشروعا لمجلس النواب الذى كان موجودا يومئذ وقد أجرى فيه تغييرات ثم تيسر للحكومة النظر فيها ثم طرأت حوادث سياسية ومالية ليست خافية عليكم قد ترتب عليها تعويق إتمام المشروع والحمد لله قد زالت العوائق وإنى لأجد نفسى سعيدا حيث إن أفكارى فى هذا الخصوص ما كانت إلا نتيجة مقاصد الحضرة الخديوية وهذه الأفكار قد طابق عليها عموم الأهالى ولهذا حصل انتخاب حضراتكم

واجتمعتم فلنهنىء القطر على ذلك ولنهنىء أنفسنا وندعو للذات الشاهانية والحضرة الخديوية ببقائها مصدرا لكل خير ولما كانت لائحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لا تلائم أفكارنا جميعاً قد أوضحت من منذ ثلاث سنوات وكررت المعروض الذى رفعته أخيرا للسدة الخديوية عند طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتغلت مع رفقائى بتحضير لائحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر فكان يلزم أن السلطة التى تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل بإطلاقها بالتدريج شيئاً فشيئاً لكن حيث إن مقصدنا جميعا واحد وهو خير البلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة فى إبداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأمورى الحكومة من أى وجه وأى صنف كانوا وصرح لكم بنظر الموازين العمومية وإبداء آرائكم فيها ونظر كافة القوانين واللوائح وقد التزمت بعدم وضع أى ضريبة ولا نشر أى قانون أو لائحة ما لم يكن بتصديق وإقرار منكم، وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه إخلال بحقوقكم والغاية فأنه لم يحجر عليكم فى شىء ما ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم إنما لا يخفاكم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الأجنبية بها ونشأ من ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهدها بالتزامات ليست خافية عليكم بعضها بعقود خصوصية والبعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الأمور موضعا لنظرها أو لنظر النوّاب حاشا لأنه يجب عليها قبل كل شىء القيام بتعهداتها وعدم خدشها بشىء مّا حتى نصلح خللنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب أمنية الحكومات الأجنبية ومتى رأت منا تلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتها بحسن إخلاص بدون مساعدتها فنتخلص شيئاً فشيئاً مما نحن فيه، وإنى لواثق بأن بصيرة وحكمة النواب ومساعدتهم الحكومة لابد وأن يترتب عليها ازدياد الثقة بنا هذا ومن المعلوم أننا تابعون للدولة وصوالحنا مرتبطة بصوالحها وهذه التبعية وهذا الارتباط هما السبب الوحيد لسلامتنا ونجاتنا فحقوقها حينئذ هذه مقدسة ومراعاتها فرض واجب على كل منا ولندع الله جميعاً بدوام الذات الشاهانية وتأييد دولته العلية التى منحتنا امتيازات تضمن لنا خير البلاد وحيث إن الثمرة المقصودة من اجتماع المجلس وهى نفع البلاد لا يمكن الحصول عليها إلا بعد التصديق على لائحة إجراءاته فالمأمول من

حضراتكم المبادرة بنظرها حتى إننا نشرع فى الأعمال النافعة المهمة ولكون من تتمة وضع مجلس نواب يلزم ترتيب مجلس للإدارة وتحضير القوانين ومحاكمة المأمورين عن كل أمر يجرونه خارج عن حدودهم أو مخالف للقوانين واللوائح فى أثناء تأدية وظائفهم فقد عمل عن ذلك مشروع وها هو مقدم للمجلس المأمول أيضاً الإسراع بنظره حتى يصدر مع اللائحة وإن شاء الله تعالى سيتقدم لحضراتكم عما قريب مشروع لائحة الانتخاب فنسأله تعالى ببركة نبيه الكريم أن يقرن أعمالنا بالنجاح ويوفقنا للاتحاد قولا وفعلا لما يكون فيه الإصلاح آمين آمين بجاه خاتم النبيين.

فأمّن الجميع على دعائه ثم تركهم وانصرف.

(مطلب)

مفاد ما فى قانون الانتخاب

وكان مفاد القانون الذى رفعه إليهم فى ذلك اليوم أن الانتخاب وكيفيته يكون بموجب قانون آخر يتبع القانون العمومى وأن مدة النيابة لا أقل من خمس سنين وأن النواب يكونون أحراراً فى الأعمال وإذا ارتكب أحدهم جريمة فلا يجوز للحكومة أن تقبض عليه إلا بإذن وتصديق من هيئة المجلس ومن أحكام هذا القانون أيضاً أن النائب يتوب عن الجهة التى استنابته خصوصا وعن مصالح البلاد كلها عموما ويكون مقر المجلس بالقاهرة ولا يكون التئامه إلا بأمر يصدر من الخديوى على قرار من مجلس الوزراء ولا يستعمل فى إدارة أشغاله إلا اللغة العربية ويصح للنظار أن يحضروا جلساته كما لهم أن يستنيبوا عنهم فى الجواب عن بعض المسائل أعضاء مجلس الإدارة أو أحد كبار الموظفين فى دواوينهم ويقدم النظار الجواب عن كل ما يسئلون عنه من قبل المجلس اللهم إلا فيما هو من خصوصياته وإذا اختلف مجلس الأمة ومجلس الوزراء فى أمر من الأمور جاز للخديوى حل عقد مجلس الأمة ويأمر بانتخاب سواه لمدة أربعة أشهر، فإذا صدق مجلس الأمة بعد الانتخاب الثانى على ما كان قرره الأعضاء السابقون كان قراره هو النافد ولا يعرض موضع الخلاف على مجلس الأمة ثانية فى كل مدته ولمجلس الأمة أن يتداول فى اللوائح والقوانين والضرائب وفى كل أمر تعرضه عليه الهيئة الحاكمة وله أن يرى فى ميزانية الخزينة ويبدى فيها رأيه فقط وأن لا يمكن فرض ضريبة من أى نوع كان بدون قانون يصدق عليه من الأمة فإذا جمعت ضريبة غير المقرر فى القوانين المالية عوقب جامعها

بأشد العقاب أما ميزانية الخزينة فتعرض على المجلس قبل نهاية الشهر الثانى من التئامه ويجب أن تكون موضحة التوضيح الكافى وله أن يبدى فيها رأيه وعلى الرئيس أن يبلغ ذلك إلى ناظر الخزينة قبل انحلال المجلس ولا يجوز للمجلس التداخل فى أمر العسكرية ولا قرارات لجنة التصفية وصندوق الدين وما يتعلق به ولا المعاهدات الدولية ولا يمكن المداولة فى المجلس إلا إذا حضر ثلثا الأعضاء ويقتضى لاعتبار قراراته أن تكون الأغلبية تامة أما قرار مسئولية النظار فيكون بأغلبية من ثلاثة أرباعَ الحاضرين، هذا هو ملخص ما فى ذلك القانون أتيت به تتميما للفائدة المقصودة.

(مطلب)

تولية أحمد عرابى وكالة ديوان الجند
وورود لائحة الدولتين للخديوى

وفرح الناس بفتح أبواب مجلس شورى نواب البلاد واستبشروا به خيرا فأناروا فى تلك الليلة منارات المساجد بالأنوار الكثيرة وأقيمت الأدعية على المنابر وهنأ الناس بعضهم بعضا وأصبحوا وقد شاع الخبر بتولية أحمد عرابى بيك وكالة ديوان الجند فتناقلوه وهم بين مصدق ومكذب لا سيما أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فلما كان خامس عشر صفر تأكد الخبر وتحقق صدق الرواية فهرع إلى داره طوائف الضباط والوجهاء والعلماء والأعيان والعميان وأصحاب العكاكيز ووقف الشعراء والمطرثون على بابه وأتته الهدايا من الضأن والأرز والسمن والعسل والسكر وبن القهوة والشمع وغير ذلك من أعيان البلاد وعمدها وتزاحموا على بابه يرجون لقاءه ويتمنون طلعته ولبث الحال هكذا يومين وخرج فى تاسع عشره يريد مقر الخديوى ليقبلْ الأعتاب على العادة المألوفة فى مثل ذلك فقابله الخديوى بالبشاشة والترحاب وأحسن لقاءه ولم يخرج من عنده حتى دخل قُونصلا الإنجليز والفرنسيس ورفع إلى الخديوى ورقتان هما فى عرف أهل السياسة (لائحة) وقالا: إنهما متحدتان فى المعنى والمبنى وقد بعثت بهما الدولتان يعدان الخديوى فيهما بالمساعدة والإعانة على قضاء كل ما يروم نواله لاستتباب سلطته وتمكين عرشه عند مسيس الحاجة وشاع خبر هاته اللائحة فتعجب الناس وكثر تحدثهم به وداخل ضابط الجند بسبب هذه اللائحة من الريب ما داخلهم فاجتمعوا بقصر النيل وتناجوا فى الأمر طويلا ثم اتفقت كلمتهم على أنّ البارودى يكلم هيئة مجلس النظار فى ذلك فاجتمع البارودى

بالوزير محمد شريف باشا ثم بالخديوى وعـقدوا لذلك مجلسا وتكلموا فى معنى ما جاء فى تلك اللائحة وبعد أخذ ورد اتحـدت كلمتهم على أن يرسلوا صورة منها إلى الباب العالى ويسألوه الجواب فبعث الوزير بالصورة إلى دار السلطنة وكأنّ القونصلين قد أحسـا بما وراء ذلك فتقدّمـا إلى الخديوى والوزير محمد شـريف باشا فى طلب الجواب وألحـا فى الطلب فـرسم الخديوى إلى الوزير بإعطاء الجـواب فطاول فـشدد الخديوى فى ذلك فكبر الأمر على الوزير وطال بينهمـا الأخذ والرد فاحتجب الوزير فى بيتـه أياما فذهب إليه قـونصل الفرنسيس فى صـبح حادى عشرى صـفر وطلب الجواب وألح فى الطلب فـقال الوزير: لا جواب عندى على ذلك البتـة والبلاد آمنة مطمئنة فإذا وقع فيها ما يكدر صفو الراحة كانت الدولة العلية أولى بالذب عنها فهى صاحبة السيـادة والخليفة أمير المؤمنين سلطان البلاد، فقـال القونصل: لا سبيل إلى غير مـا تطلبه دولتا الفرنسـيس والإنجليز، فقال الوزير: لم أعـرف إلى الآن ما مراد الدولتين من هذه اللائحة ولذلك فإنى استـوضح منك مشكلاتها قبل إعطاء الجواب فقام القونصل وتركه، وكلم قونصل جنرال الإنجليز كبيـر سياستهم فيما يسأله الوزير محمـد شريف باشا من فك أسرار ومشكلات تلك اللائحـة فرسم له بسؤال الوزير عما يريده ففعل وأبلغ ما أعطى بيانه ولبـث ينتظر الجواب، وبينما كان الوزير محمد شريف باشـا يراقب الحوادث ويطمن القلوب الراجـفة ويعمل عـلى منع الأراجيف وإزالة القلاقل إذ كتب صاحب صحيفة التـيمس الإنجليزية عبارة طويلة سماها باسم لائحـة الحزب الوطنى وضـمنها فـصولا وأبوابا لا يسـعنا إيرادها هنا وعزا تحـريرها وتنميقها إلى أحـمد عرابى بيك وبالغ فى مدحها واستحـسانها فكبر هذا الأمر على الوزير واستـعظمه وعـمل على تكذيبه وإذهاب مـا علق منه بالأذهان، وقـد كان لما تظاهر أحمـد عرابى بيك بزعامـة العصابة وتمكن من خلع الـرئيس مصطفى رياض باشا من منصب الرياسـة أحدقت به عيون أهل السـياسة من الإنجليز وكـثر تواردهم عليه وتزلفهم إليه رغبة منهم فى معرفة قدر إدراكه ومبلغ علمه بعوائد الأمم وأحوال البلاد وأساليب السياسة وكأنهم كانوا يرون فى ظهوره وخروجه مفتاحا لمغالق آمالهم فسـيروا له من دهاتهم وحـملة أسرارهم جـماعـة فجعلـوا يسايرونه ويبـالغون فى الأطراء عليه ويخـاطبونه بأنواع التجلة والتكريم ويقولون له إنك لـمـن أعاظم الرجال وأقطاب أهل السـيـاسة وإنك لـرجل الحرية ومنقـذ البـلاد وأهلهـا من وهدة الذل والعبـودية وأنت العون والسند وأنت الملجـأ والملاذ وغير ذلك من صنـوف التضليل والتغـرير حتى استهـووه وتطوّحوا به وكان ممن لازمه مـلازمة الظل من دهاة هؤلاء

القوم طاغيتان أحدهما اسمه وليم جريجورى وثانيهما اسمه بلانت فاستهوياه وغررا به تقريرا وزينا له كل عمل وحرّضاه على فعل كل خارجة لا سيما منهما بلانت فإنه تمكن من أحمد عرابى وأخذ بمجامع قلبه وكاشفه على ما خفى من سر بعثته إلى ديار مصر التى إنما هى سلخ الكنانة عن تابعية دار السلطنة العثمانية والعمل على تشييد مملكة عربية إسلامية يدخل تحت لوائها سائر بلاد العرب من عراق ويمن وحجاز وما بين النهرين وتونس وطرابلس والجزائر ودمشق الشام وكل بقعة من بقاع الأرض التى تحتلها العرب وبالغ فى المدح والإطراء، قال أحد المقرّبين إلى أحمد عرابى: وما زال ذلك الطاغية بأحمد حتى تاقت نفسه إلى طلب المعال الرخيصة وخضع له وعمل بمشورته فتجرد عند ذلك هو ورفيقه جريجورى على تحرير الرسائل المهيجة وتلفيق الأراجيف المزعجة وجعلا يرسلانها إلى صحفهم السيارة على لسان عرابى وشيعته حتى كادا ينكران متبوعية مصر لدار السلطنة العثمانية فكانت أصحاب صحف الإنجليز ترددها مشفوعة بالمدح والإطراء والتكهن بزوال ملك آل عثمان. اهـ.

قال جماعة: وزين بلانت ورفيقه إلى أحمد عرابى مخابرة شريف مكة وغيره من كبار العرب فى هذا الأمر وفى استنهاضهم إلى الخروج وشق عصا الطاعة عند ظهور الحركة بمصر قيل وسير إلى السنوسى بطرابلس الغرب يستقدمه إلى القاهرة ليكون له عونا على بلوغ الأرب وبعث إلى كبار مسلمى الهند يشاورهم فى الأمر فظهرت عندئذ حركة الخواطر وبدت إشارات الخروج وبلغت ترهات بلانت ورفيقه يومئذ والتغرير بأحمد عرابى مبلغا عظيما فكانا إذا سمعا أحمد عرابى يقول فى حديثه مع آخر أن نفرا من الجند أصابتهم اليوم تخمة تستلزم نقلهم إلى المستشفى كتبا إلى أصحاب صحف الإنجليز يقولان أشار أحمد عرابى بيك بنقل فريق من الجند وطائفة من العسكر بجميع سلاحهم وكراعهم إلى الجهة الفلانية وهم على قدم الرحيل والقلوب واجفة والخواطر مضطربة، وإذا سمعاه يقول زرت اليوم ضريح ولى الله العتريس أو اجتمعت بشيخنا فلان فدعا لى دعاء صالحا وبشرنى بأنى من أهل الجنة، كتبا يقولان علمنا ممن يوثق بحديثه أن قد طاف أحمد عرابى بيك على مساكن الجند ومعه جماعة من كبار العلماء وأئمة الدين فحثوا الجند على التعاون والتعاقد وإعزاز الدين والخروج عن طاعة الخلافة الغير الصحيحة إلى طاعة خلافة عربية تعمل بسنة الله ورسوله وغير ذلك من الأقاويل فكانت هذه الترهات والأضاليل داعية إلى كلمة القال والقيل وحاملة إلى طيرة الناس وتخوّفهم

وتسآلهم، قلت: وبلانت هذا رجل طويل القامة يبلغ الخمسة والأربعين من العمر قد نزل بالقاهرة أعواما يتقرب من بعض العلماء والمشايخ وأرباب الوظائف العالية ويتظاهر بمحبته إلى العرب وميله إلى عاداتهم وطباعهم وحريتهم وحبهم للاستقلال ومقته للذل والاسترقاق وولوعه بلغتهم وغير ذلك فاغتر الكثير منهم بظاهر أمره وأدنوه من مجالسهم فجلس وتصدر واستفرغ ما فى صدورهم من حيث لا يشعرون حتى عرف مبلغ علمهم ولبث بين ظهرانيهم يكاتب رءوساء قبائل عرب العراق واليمن والحجاز وما بين البحرين ويستميلهم بالعطايا والتحف وأصحاب الحل والعقد فى سنة من النوم لا يعرفون من أمره سوى أنه من سوّاح الإنجليز الذين دأبهم البحث عن الآثارالقديمة ومعرفة طبقات الأرض وقد اتخذ عين شمس له مقرا وما زال حتى ظهرت الفتنة بالقاهرة وقام أحمد عرابى ومن معه يطالبون بمطالبهم الطويلة ففرح بلانت وتجرد إلى العمل وتقرب من أحمد عرابى وأصحابه وجعل يزين لهم ما بدا ويحضهم على الأخذ بأطراف الحزم حتى كان من أمرهم ما كان مما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله تعالى.

وكان لما بعث الوزير محمد شريف باشا بصورة من لائحة الدولتين إلى الباب العالى كما تقدم القول أرسل السلطان إلى كبيرى السياسة الإنجليزية والأفرنسية يستعلم عن السبب الحامل على إرسال تلك اللائحة ويحتج عليهما فى ذلك فكتبا إليه يقولان إنهما لا ينازعان فى تبعية ديار مصر إلى مقام الخلافة العظمى ولكنهما عزمتا على تأييد سلطة الخديوى وحفظ مقامه الحالى وبقاء المراقبة على ديوان الخزينة كما هى بدون مساس فأحس السلطان بخطورة ما وراء ذلك من اشتداد الأزمة واستفحال الخطب إذا ظل الحال هكذا (قال جماعة) فراسل أحمد عرابى سرا على يدى أحد القرناء وكأنه رسم له بحشد الجنود والتأهب للقتال ومنع تطاول يد الدولتين فعاد أحمد عرابى إلى طلب زيادة عدد الجنود العاملة إلى ثمانية عشر ألفا وألح فى الطلب وشدد على البارودى فى ذلك فنادوا فى البلاد بخروج سائر العسكر وجاءت الكتب بذلك إلى المديرين والمحافظين فانحدرت العساكر أفواجا إلى القاهرة حتى ضاقت بهم منازل الجند أو كادت وانبثوا فى الأسواق فخاف طوائف الأجانب وزاد بهم الهلع وظنوا أنه ما وراء هذا الزحام إلا حصول الطعن وامتشاق الحسام فنزح الكثير منهم إلى الإسكندرية وطارت الأخبار إلى الآفاق بمجىء العسكر إلى القاهرة فهوّل أصحاب الصحف الإنجليزية وبالغوا فى الأمر ونهوا قومهم عن

الاختلاط بالمسلمين ومجانبتهم.

وبينما كان الجند يأتون إلى القاهرة تباعا والناس فى شاغل بهم عما سواهم كان نواب البلاد وهيئة الحكومة على طرفى نقيض فى أمر تخويّلهم حق النظر فى ميزانية الخزينة ومصروفات المصالح وقد طال بينهما الخلاف واشتد اللدد وأرسلوا لائحة مجلسهم إلى مجلس النظار يريدون الاعتراف منه بما أدخلوه على موادها من التحوير والتعديل لا سيما ما كان متعلقا بأمر الميزانية فطاولهم المجلس ومناهم فأبوا إلا ما يقولون وشددوا فلما كان يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول أعاد مجلس النظار إلى مجلس النواب اللائحة وأرسل يقول أن وكيلى الدولة الإنجليزية والأفرنسية يريان أن لاحق لمجلس النواب فى تقرير ميزانية الخزينة ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة فى هذا الشأن بشرط أن يستقر الاتفاق بين جماعة النواب وهيئة الحكومة على سائر بنود اللائحة وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب أن يصدقوا على اللائحة كما عدّلها مجلس النظار وأن يترك البند المتعلق بالميزانية إلى حين وأن يبدى النواب رأيهم النهائى فى أمر الميزانية ليتسنى للحكومة جعله أساسا لفتح باب المخابرة مع الدولتين فلما وصلت اللائحة إلى النواب مع الطلب بما تقدم كبر عليهم الأمر واستعظموه واجتمعوا فى بيت محمد سلطان باشا الرئيس وظلوا ليلتهم تلك يتشاورون ويتدبرون فى العمل إلى أن اتحدت كلمتهم على أن لا يجيبوا طلب الحكومة ولا يعملوا برأيها وأصبحوا وقد عقدوا مجلسهم على غير العادة وقرروا تسليم اللائحة وورقة الطلب إلى اللجنة التى كان عهد لها تحرير تلك اللائحة واشترطوا عليها أن تنظر فيها ثانية وتعدل منها ما ترى لزوم تعديله ففعلت وصادقت على بعض البنود وأنكرت البعض الآخر وأبقت البند المتعلق بالميزانية جائزا بجميع أحكامه، وفى صبح الخميس سار خمسة عشر من النواب إلى مقر الخديوى بالإسماعيلية ليطلبوا تنفيذ ما قرروه فمروا فى طريقهم ببيت الوزير محمد شريف باشا فدخلوا عليه وسألوه قبول العمل بما قرروه فامتنع وقال: هذا لا يصح فألحوا عليه فلم يقبل فساروا إلى مقر الخديوى وتقدموا إليه فى قبول لائحتهم والعمل بما قرروه فيها وإلا لزم تنزيل الوزير محمد شريف باشا وخلعه من منصب الرياسة وتحقق الوزير ما فى عمل جماعة النواب من الدسائس الغريبة عن طباعهم فخشى العاقبة وعمد إلى المواربة وعين للوساطة بينهم بطرس بك غالى كاتب سر مجلس النظار يومئذ ورسم له بالعمل فقام بالأمر وسلك مسالك الجد والحزم وعمل على تذليل تلك الموانع فكان إذا مهد السبل وأحكم العمل وسار معه جماعة النواب وهم آمنون مطمئنون بوصولهم إلى الغرض وسوس

لهم خناس العصابة فيرجعون ناكصين وهم أشد عنادا وأصعب مراسا من ذى قبل فلما ضاقت عليه المذاهب أو كادت عمد إلى مجامع العصابة فدخلها وما زال بكبارها وأصحاب الكلمة فيها حتى تمكن من تعديل بعض مواد القانون التى لا علاقة لها بالميزانية وبقيت أحكام المادة المتعلقة بالميزانية على ما هى عليه، وعظم الأمر على الوزير محمد شريف باشا واستعصى الحل فكتب قونصلا الإنجليز والفرنسيس إليه يقولان بناء على كون قانون التصفية لم يبح اشتراك نواب البلاد فى تقرير ميزانية الخزينة وبما أن الدولتين تقرّان أن أمر الميزانية صار ارتباطا بينهما وبين حكومة مصر فيجب على الحكومة أن ترفع لنا بيان ما يتطلبه الآن مجلس النواب لتبعث به إلى أصحاب الحل والعقد فى بلادنا ليروا فيه رأيهم، فجمع الوزير فى اليوم الثانى مجلس الوزراء وبينهم بعض نواب البلاد ليروا فى طلب القونصلين فتكلموا فى ذلك كثيرا وطال الأخذ والرد حتى علت الأصوات وكثرت الضوضاء واشتد الخصام وأبى النواب إلا ما أرادوا من رؤية ميزانية الخزينة وتعديل أبوابها على ما فيه المصلحة للبلاد ثم انصرفوا على غير طائل وعاد الوزير بعد ظهر ذلك اليوم فجمع إليه محمد سلطان باشا رئيس النواب وشريعى باشا رئيس التحرير وشواربى بيك وأمين بيك الشمسى ومحمد بيك سليمان وأباظه بيك وأحمد أفندى محمود وإبراهيم أفندى الوكيل وأحمد أفندى عبد الغفار وأعادوا البحث والجدال فى أمر الميزانية وفى نص الفقرة المختصة بها فى القانون **(قلت)** وكان نصها:

(متى تعادلت الآراء استشير مجلس الأمة فإذا صدق على قرار لجنة التحوير وأصرت الحكومة على رفض ذلك ولم تستعف الوزارة فض المجلس وجاز حينئذ أن تسحب المبالغ الضرورية لسير الإدارة وتوقفت الميزانية إلى أن يلتئم مجلس النواب الجديد فإذا صدقت لجنته على قرار لجنة المجلس السابق وجب أن يكون قرارها مقبولا . اهـ.

فلم يتم لهم فى ذلك اليوم أمر ولم ينفض لهم نزاع فانصرفوا وعادوا فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا إلى بيت الوزير ولبثوا يتنازعون إلى ما بعد نصف الليل ولكنهم لم يهتدوا إلى أمر مّا فعند ذلك نهض الوزير وقال بعد كلام: وحيث إننا لم نصل مع توالى الاجتماع إلى حل عقدة هذا الإشكال صار المتعين علىّ المخابرة فى ذلك مع قونصلى الإنجليز والفرنسيس إذ هى من المسائل الخاصة بهما وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع الوزير بالمستر مالت قونصل الإنجليز وتحادثا فى الأمر

فدخل عليهما قونصل الفرنسيس فتكلموا فى ذلك طويلا وتكلموا أيضاً فيما لم تصل إلينا معرفته إلى هذا الحين وسير الخديوى إلى سلطان باشا يستحثه على استمالة النواب وتركهم لهذا الشغب فأرسل يعتذر ويقول: أنه لم يقو على استمالتهم لأنهم جميعاً فى طاعة عصابة الجند وفى قبضة أحمد عرابى وأن لا سبيل إلى عدولهم إلا باستمالة زعماء العصابة واسترضائهم وهذا مما لا يقوى عليه هو أيضاً فرسم الخديوى باجتماع مجلس الوزراء فاجتمعوا فى سراى عابدين وبينهم سائر النواب وجعلوا يتجادلون فى أمر ذلك الخلاف فطال الحال واشتد بهم الجدال وكثر القيل والقال واحتدم الخصام وتعذر الوئام وانفض مجلسهم على غير طائل.

واتفق أن دخلت فى هذا اليوم إلى مينا الإسكندرية سفينة من سفن الحرب العثمانية آتية من دار الخلافة فجاء الخبر بدخلوها وتحدث الناس به كثيرا وجزم بعضهم أن مع ربانها أوراقا من بسيم أفندى أحد قرناء السلطان مخاطبة إلى أحمد عرابى وقال البعض: إن الربان المذكور جاء خفية من الإسكندرية إلى القاهرة ونزل بالنزل المعروف بلوقاندة أوريتتال وبات ليلته تلك وأصبح فركب حمارا واستتر برداء من أكسية جند البحر وسار إلى بيت أحمد عرابى بباب اللوق ولبث معه ساعة ثم رجع من فوره إلى الإسكندرية وشاع الخبر بذلك فطيره الناس إلى الآفاق وبالغوا فى نقله على عادتهم فأحس الوزير محمد شريف باشا بما وراء ذلك فكتب إلى المديرين والمحافظين وسائر مأمورى الحكومة يلزمهم بحض الناس على ملازمة السكون وترك الإشاعات وعدم الأخذ بأقوال أصحاب الغايات وقال: أن هذه السفينة وإن كانت من مراكب الحرب العثمانية ولكنها ليست الآن إلا فى خدمة والى الشام وأنها لما قامت من مرساها قاصدة إحدى الموانى العثمانية صادفها ريح عاصف فألقى بها إلى سواحل مصر فلجأت إلى مينا الإسكندرية فرارا من الأنواء ونظرا لكون بعض آلاتها تعطلت بأسباب ما لاقته ستلبث أياما حتى تصلح ما تعطل منها فى هاويس الإسكندرية ثم ترجع، فلم تبطل هذه الأقوال الإشاعة ولم تنكف الناس عن القال والقيل ولا سيما الأحزاب وضباط الجند، **قلت**: وكان لمجيء تلك السفينة فى هذا الحين أى بعد رفع الدولتين لائحتهما التى تقدم الكلام عليها سرّ خفى وقصد منوى عليه وكان السلطان وجميع قرنائه وأرباب شوراه وأصحاب الكلمة فى بابه وإمامه الشيخ أحمد أفندى أسعد يعتقدون أن فى ظهور أحمد عرابى وأصحابه وقيام الحركة بالقاهرة واضطراب الخواطر بالأقاليم القبلية فتحا ونصرا للسلطان على خصومه بديار

مصر فترفع فيها كلمة الخلافة وترجع الشوكة السلطانية إلى ما كانت عليه قبل سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية فيتولى الباب العالى التصرف فيها كتصرفه فى بقية الإيالات التابعة له من شام وعراق وكانت هذه الهواجس والظنون تقوى عندهم كلما أكثر أحمد عرابى والبارودى من إرسال كتب التلطف ورسائل التأدب إلى الباب العالى عند الشكوى من أفعال الرئيس مصطفى رياض باشا ومراقبى الإنجليز والفرنسيس فكثر لذلك توارد كتب السلطان على أحمد عرابى بواسطة بسيم أفندى من قرناء السلطان وجاءته الرسائل تترى بما لم تصل إلينا معرفته إلى الآن وظن رجال السلطنة أن بضاعتهم ردت إليهم، وكما كانت آمال رجال السلطنة العثمانية وبابهم العالى معلقة بالمحال وهم فى تغرير وضلال قد كان سعاة الإنجليز لا ينكفون عن التقرب من أحمد عرابى وأصحابه وكبار سياستهم يعملون ليس على سلخ مصر عن تابعية الخلافة العثمانية فقط بل وعلى إزالة ملك آل عثمان من قارتى آسيا وأوروبا وتأسيس دولة عربية ليتم لهم ما يرغبون وهذه هى سياسة غلادستون شيخ الأحرار من الأحزاب الإنجليزية منذ حداثته فكانوا كلما تقربوا من أحمد عرابى مال عطفا إليهم وعمل بقولهم وأخذ بمشورتهم وراسل مشايخ العرب باليمن والحجاز والعراق وتقرب من السنوسى وتحبب إلى شريف مكة ودعاهم إلى نصرته وجماعة الإنجليز يظنون أن قد تم الأمر لشيخ سياستهم غلادستون على يدى أحمد عرابى، وكان الخديوى إسماعيل باشا يرى أيضا أن فى ظهور أحمد عرابى واتساع كلمته واستفحال الخلل بديار مصر وتهديد مقام ولده توفيق باشا فرصة ربما كان من ورائها خلع ولده وعودته هو إلى كرسى الخديوية فجعل يراسل أحمد عرابى ويمنيه بالأمانى الكثيرة ثم عمد إلى الاستعانة ببعض كبار الإنجليز فماراهم بالهدايا العظيمة والتحف الجليلة قيل فكان أحمد عرابى يظهر له الطاعة ويتلطف معه فى الجواب ويهوّن عليه الأمر حتى ظن إسماعيل باشا المحال وبلوغه غاية الآمال، وكما كان إسماعيل باشا يمنى النفس بقرب عودته إلى منصب الخديوية على يدى أحمد عرابى بك وأشياعه كان الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا يتقرب أيضاً من أحمد عرابى ويهديه بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة على يدى أحد خدام بيت أبيه ويستفزه إلى نصرته بردّ تاج الوراثة إليه، قال بعض الكتاب: وأغراه بالرشا والبرطيل واشتد أمله وكبر رجاؤه بتحزب بعض رجال المابين الهمايونى إليه فكان أحمد عرابى يسايره ويتلطف فى الرد عليه ويمنيه بالأمانى الكثيرة حتى اختلط الأمر على أحمد عرابى

وطاش منه الرجاء وحار وقد كان فى خلده أن لا يعمل إلا لنفسه ولا يجاهد إلا فى إعلاء كلمته وارتقائه منصب الخديوية بما له من المكانة عند أهل البلاد والمحبة فى قلوب العساكر والأجناد والهيبة عند كبار الناس وعظمائهم كما فعل محمد على باشا الكبير، قال جماعة: وقد كانت هذه الآمال أيضاً لا تفارق كلا من محمود باشا البارودى ومحمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد كما سيتلى عليك خبر ذلك فى موضعه فكان مثلهم فى ذلك كمثل صبى فى يده مرآة يوجه بها نحو أشعة الشمس فينطبع ضوءها على الأرض ومعه فتية يتزاحمون ويترامون على ذلك الضوء فكل منهم يظن أنه أصاب منه شيئاً وهم لا يقدرون لحركة ذلك الضوء بتحريك الصبى للمراءة.

(مطلب)

عودة النواب إلى تنفيذ لائحتهم وما وراء ذلك

وعاد نواب البلاد إلى طلب تنفيذ لائحتهم كما صوروها وأصروا على ذلك وسار جماعة منهم إلى مقر ديوان الداخلية ورفعوا إلى الوزير محمد شريف باشا تلك اللائحة وقالوا: إن تأخير تنفيذها جالب للفشل فإنا عقدنا النية على أن لا نترك هذا اليوم يمضى بغير قبولها أو رفضها فجعل الوزير يلاطفهم ويهوّن عليهم ثم قال لهم: تعلمون أنى منذ أخذتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم اتعرض لشىء من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وإبداء رأيكم فيها على أنى ما زلت لا أتحول عن هذا الرأى فلذلك لم أصادق على ما رأيتموه فى أمر الميزانية إلا بعد رضا الدول ذوات الشأن فقالوا: إنّ هذا من خصائصك ولا دخل للدول فيه بل لا موجب لتوقفهم فإنها مسألة لا تمس ما لهم من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة، فقال الوزير: لا سبيل إلى ذلك البتة، فقال جماعة منهم: إنا نأسف جدا أن يصادق لنا على اللائحة غيرك يعنون بذلك إكراهه على التخلى عن منصبه، ثم انصرفوا وساروا إلى مقر الخديوى بعابدين وتمثلوا بين يديه وتقدم جماعة منهم وقالوا: إنا جازمون بمحبة مولانا للوطن وميله إلى إصلاحه ولهذه الغاية قد منح مولانا الأمة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها فنظمنا له هذه اللائحة ونقحناها وطلبنا إلى الوزير محمد شريف باشا أن يوقع عليها فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشىء مما فى العقود الدولية، فقال الخديوى: إذا كانت هيئة الوزارة قد أبت التصديق على اللائحة فماذا تطلبون حينئذ قالوا: نطلب أن تعزل فتشكل وزارة أخرى لا تأبى

التصديق والعمل معنا فوعدهم بإعطاء الجواب فى غد فانصرفوا ولبث الوزير بعد خروج نواب البلاد يفكر فى الأمر ويضرب أخماسا فى أسداس ثم قام ودخل على الخديوى وجعل يتحاجج معه فيما لم تصل إلينا معرفته وحضر قونصلا الإنجليز والفرنسيس إلى مقر الخديوى ودار بينهم الحديث فاشتد الجدال وطال القيل والقال، فوقف الوزير وقال: قد خلعت نفسى واعتزلت منصب الرياسة فانظروا من يتولاها فأجابه الخديوى إلى ذلك بحضرة القونصلين وانصرفوا جميعا وفى نحو الساعة الثالثة من ليلة الخميس خامس عشر ربيع الأول من السنة استقدم الخديوى الخمسة عشر عضوا المندوبين من قبل شورى البلاد لتنفيذ لائحة مجلسهم فتمثلوا بين يديه فقال قد تخلى الوزير محمد شريف باشا عن الرياسة فاختاروا من يتولاها فقالوا لا، وحاشا أن نتعدى على حقوق مولانا فيطلب مولانا من يختاره، فقال: لابد من ذلك فامتنعوا ويقى الحال على ذلك إلى الساعة الرابعة ثم انصرفوا وأصبحوا وقد استقدمهم الخديوى وسألهم أن يختاروا من يصلح للرياسة فقالوا نختار اليوم محمود باشا البارودى رئيس ديوان الجند بشرط تصديقه على لائحة مجلسنا ثم خرجوا وساروا إلى بيت البارودى وانتظم مجلسهم ومعهم جماعة من كبار عصابة الجند فتناجوا بينهم فيمن يختارونهم لبقية المناصب فاختاروا جماعة ممن لا يخالفون لهم كلمة وكأنهم أرسلوا إلى الخديو يعلمونه بذلك فلما كان بعد ظهر اليوم بعث الخديوى مع أحد رجال ديوانه الخاص إلى محمود باشا البارودى مرسوما يقول فيه: حيث دعت الأحوال لانفصال محمد شريف باشا بناء على استعفائه واقتضى الحال لانتخاب بديل عنه يكون متأهلا ولائقاً لمقام الرياسة ومن المسلم عندى أنك أهل لذلك لما اتصفت به من كمال الدراية وحلية الصدق والاستقامة فقد انتخبتك لهذا المقام الخطير وقلدتك رياسة النظار فيجب المبادرة بانتخاب هيئة النظار اللازم وجودها معك وحيث إن غاية قصدى ونهاية أملى إنما هى السعى وصرف الجهد لما فيه عمارة وسعادة الوطن وإصلاح أحواله فأملى فيك القيام بهذه المساعى الحسنة وفقنا الله جميعاً لما به الإصلاح والنجاح انتهى.

فلما وصل الكتاب إلى البارودى فرح به وفرح من معه من زعماء العصابة ورفع فى الحال إلى الخديوى عريضة ذكر فيها أسماء الوزراء الذين انتخبهم للهيئة الجديدة فكان مصطفى باشا فهمى للخارجية والحقانية وأحمد عرابى بيك للجهادية والبحرية وإسماعيل باشا أيوب للمالية ومحمود فهمى بيك للأشغال وعبد الله فكرى باشا للمعارف وحسن شريعى باشا للأوقاف فاستقدم الخديوى فى الحال قونصلى الإنجليز

والفرنسيس وكلمهما فى هذا الأمر طويلا ثم صدّق على هذا الانتخاب وأضاف إلى عهدة البارودى نظارة الداخلية أيضاً وجاء الوزراء وتمثلوا بحضرة الخديوى بسراى عابدين فحادثهم طويلاً فيما لم تصل إلينا معرفته فلم ينصرفوا من عنده حتى خلع إسماعيل أيوب باشا نفسه من منصب وزارة المالية بناء على أن خلع الوزير محمد شريف باشا لنفسه من منصب الرياسة لم يكن إلا بسبب بند الميزانية فأجابه الخديوى إلى ذلك وقام بقية النظار وساروا إلى بيت البارودى فعقدوا مجلسهم واختاروا لوزارة المالية بعد جدال طويل على صادق باشا وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع سائر ضباط الجند فى ساحة قصر النيل فوفد عليهم أحمد عرابى بيك وخطب فيهم خطابا طويلاً فى وجوب الاتحاد ووحدة الكلمة، ثم ساروا بعد ذلك جميعا إلى رحبة عابدين وتمثل جماعة من كبارهم أمام الخديوى يتقدمهم طلبة عصمت بيك أميرجند قصرالنيل فألقى طلبة خطابا بين فيه تعلق جميع أفراد العسكر بشخص الخديوى ثم ساروا إلى ديوان الداخلية حيث البارودى وإلى مقر والدة الخديوى وحرمه وهم فى أبهة وكبكبة زائدة، وقد كان نواب البلاد عند اشتداد الخلاف بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا على بند الميزانية ومسئولية الوزراء أمامهم على طرفى نقيض فكان جماعة منهم يرون أن الظروف التى قضت بتشكيل مجلس النواب وخوّلته النظر فى جميع مصالح البلاد هى نفس الظروف التى تقضى على النواب بلزوم التساهل وعدم فصم عرى الوفاق بينهم وبين هيئة الحكومة وإلا طاش المجلس عن الغرض وضل عن الغاية، وكان الآخرون يرون أن فى إكراه الحكومة على تخويل مجلس النواب حق النظر فى الميزانية وتعديلها بحسب ما تقتضيه مصلحة البلاد فائدتين عظيمتين أولاهما: تخفيف أثقال المصروفات بالتزام طرق الاقتصاد وقفل أبواب السرف والتبذير فى أى نوع كان فيسهل على البلاد التخلص من كثير من شدائد الديون وذل الاستدانة التى كانت السبب فى استرقاق أهلها وتثقيلهم بأحمال الضرائب والمكوس والمغارم، وثانيتهما: تعديل موارد الإيراد وترتيبها على نمط عادل جامع بين النظام والمساواة بين صنوف الرعية وكل مستوطن فى البلاد فيستتب بذلك الأمن ويرتفع الظلم والأعتساف وتتزايد العمارة فتعظم ثقة الأجانب بأهل البلاد ويجل قدر الحكومة فى أعينهم وتقوى شوكتها فلا يظفر بها نسر ولا يغتالها أسد (إشارة إلى دولتى الفرنسيس والإنجليز) وكان هذا الرأى لفريق من زعماء العصابة أيضاً فاستمالوا إليه كثيرين من وجهاء البلاد وأعيانها وتمسك كل فريق بمدعيانه فاشتد الخلاف يومئذ واستفحل فأدرك زعماء العصابة ما وراء ذلك وتجردوا

لمقاومة أصحاب الرأى الأول وحذروهم وهدّدوهم فكان إذا تخلف أحدهم فى بيته ليلة لا يشعر إلا وقد دخل عليه نفر من الجند فيوسعونه شتما وسبا ويتوعدونه بالتبعيد إلى أقاصى الدار فورًا وربما توعدوه بالقتل إن هو لم يعدل عن رأيه وما زالوا معهم على هذه الحال حتى اشتد بهم الخوف وأخذ من قلوبهم مأخذه فانضموا إلى بقية النواب وصاروا أشد طاعة وأكثر تزلفا إلى أصحاب الزعامة فقويت عزيمة أولئك الزعماء فخلع كبارهم رداء المواربة وأظهروا ما كانوا يخفونه عن الناس من طلب المعالى باستلام زمام حكم البلاد والتصرف فى أمور الرعية فجعلوا يعملون على استحكام النفرة بين نواب البلاد والهيئة الحاكمة ويراعوا أن البلاد فى حاجة إلى مثل الوزير محمد شريف باشا إذ أعماهم الغرض وتملك عليهم هوى النفس وما زالوا يوسوسون فى صدور النواب ويزينون لهم كل عاطل حتى تجرد النواب يومئذ إلى المقاومة واختاروا من بينهم أولئك الخمسة عشر كما تقدم القول ففعلوا ما فعلوه حتى نفر منهم الوزير محمد شريف باشا وفضل خلع نفسه من منصب الرياسة عن نقض العهود ومس الذمم فأنزل نفسه كما تقدم وكان ما كان من تقليد البارودى منصب الرياسة فلم يكن ليخفى على الناس يومئذ أن فى طلب نواب البلاد تقليد البارودى هذا المنصب غاية الجبن والتدليس فقد دلت على ذلك الدلائل وقامت على صدقه البراهين ولو لم يكن فى الأمر سوى اتحاد أصحاب الزعامة على تقسيم المناصب العالية بينهم قبل أن تصل إليهم لكفى.

ولما استقر بالبارودى منصب الرياسة فرح قومه وعم السرور أعوانه والمتقربين من بابه فمنهم من أولم ومنهم من أدب ومنهم من تصدق ودفع النذور وحذا حذوهم نواب البلاد فأكثروا من الولائم والمآدب وكان ممن توسع من النواب فى مأدبته أحمد محمود صاحب نيابة البحيرة حيث دعا إليها البارودى وأحمد عرابى وسائر الوزراء وجميع نواب البلاد وكبار الجند ولفيف العلماء وبعض الوجهاء وكثيرا من موظفى الحكومة ووكلاء الدواوين وبعد الفراغ من الطعام ارتقى صاحب البيت منبر الخطابة فتكلم طويلا وذكر فى كلامه ما عاناه نواب البلاد من العنت والشدة منذ بداية المجلس إلى تلك الليلة وعرّض بذكر وساطة بطرس بيك غالى بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا كما تقدم بيانه فى حينه وكان معهم فى تلك الليلة، فقال الخطيب ولا أخالكم تجهلون أيها السادة إننا لما قمنا بحقوق النيابة وتجردنا للدفاع عن الوطن وطالبنا رجال الحكومة يومئذ بمراعاة الذمم انتدبوا للوساطة بيننا وبينهم وسيطا من إخوانهم الذين يدعون الوطنية ويتظاهرون بمحبة الوطن فقام بالأمر وأدى عافاه

الله واجب الوساطة فكان تارة يتوعدنا وأخرى يهددنا وطورا يعزرنا وآخر يباكتنا وآونة يستميلنا بزخرف القول وآنة يعدنا برتب الشرف ونياشين الاعتبار وما درى أنا على غير ما كان يتوهم وإنا جميعا على قلب رجل واحد فى خدمة الوطن وبنيه.

ولما كان تاسع عشر ربيع الأول اجتمع الوزراء بعد الظهر بسراى عابدين وعقدوا مجلسهم بحضرة الخديوى وتكلموا فى قانون مجلس نواب البلاد فتقرر العمل به بدون تغيير حتى فى بند الميزانية، ثم تلى بينهم أيضاً الجواب على اللائحة التى كان رفعها قونصلا الإنجليز والفرنسيس إلى الوزير محمد شريف باشا فوافقوا عليه وتقرر إرساله إلى القونصلين على يد مصطفى فهمى باشا وفى ثانى عشرى ربيع المذكور سار البارودى إلى مقر نواب البلاد وسلم إلى رئيسهم قانون المجلس مصدقا عليه فقام النوّاب من ساعتهم ودخلوا على الخديوى وقدموا له مراسم الشكر والطاعة ثم انصرفوا، وقد قرأت فى ذلك اليوم فى إحدى صحف الأخبار الإنجليزية صورة مكاتبة بعث بها أحد كبار الإنجليز بعاصمتهم على جناح البرق إلى أحمد عرابى بيك يقول فيها، تقدّموا أيها المصريون فلا خوف عليكم من جانب الأمة الإنجليزية فإنها لا تروم إلا تأييد مذهبكم القائل يجب الرأفة بفلاح بلادكم، أى نعم فلتسقط أقوال الباخسين للأعمال المالية باختلاف الأكاذيب ولتعش الأمة المصرية لتحيا الأمة المصرية، وشاع خبر هذا الإنجليزى ففرح به ضباط الجند وسروا سرورا عظيما ونقشوا ترجمته على أوراق وجعلوا يرسلونها إلى الأحزاب والمتقربين وهؤلاء كانوا يتلونها على الناس محشوّة بالخلط والتحريف وسقط القول فكان منهم من يقول: أى والله قد جاء اليوم إلى أحمد عرابى بيك أعزه الله فرمان من ملكة الإنجليز منقوشا بخط يدها تقول فيه إنها فرحة القلب، قريرة العين بما علمت به من أعمال الحزب الوطنى وثبات زعماء عصابة الجند ووقوف نواب البلاد موقف الجلاد وأنها لم تكن لتعلم إلى هذا الحين قدر عزة نفوس المصريين ولذلك فهى ساخطة على من كان السبب فى إبعاد أخبار هذه الحقائق عنها وهى تطلب من الله تعالى أن يطيل بقاء أحمد عرابى بيك ويجعل أيامه كلها خيرا وبركة على البلاد وأهلها، فيقول الثانى بل هو خطاب سياسى متوّج بتاج الملكة، فيقول الثالث ليس هو كما تقولان فقد نظرته منقوشا بماء الذهب وأحسن الألوان التى لم تر عينى لها مثيلا، فيقول الرابع إنكم جميعا لفى ضلال فقد حدثنى من رآه بعينى رأسه وسمع ما فيه بأذنيه أنه على شكل كراسة مغشاة من الخارج بالديباج الأحمر وفيها أساطير كلها تحية وتعظيم، فإذا قيل

لهم قد نقلت أصحاب صحف الأخبار هذا النبأ وليس هو فى شىء مما تذكرون قالوا هى عادة أصحاب الصحف يقولون غير مـا يسمعون وظل الحال هكذا أياماً، وبينما كـانت الأفراح والولائم لنواب البـلاد والبـارودى قائمـة على ساق تحـرك المراقبـان الإنجليزى والفرنسـاوى ورفعا إلى الخديوى محررا سـياسيا احتجا فـيه على الحكومة حيث أباحت لنواب البلاد حق النظر فى ميزانية الخـزينة وخولتهم المراقبة على جميع ما يتعلق بأنواع الإيراد والمنصـرف فكان مما قالاه فيه ما تعريبـه، ولما انتشرت الأوامر الخديوية بتنظيم سلطة المراقبين وخصائصهـما كانت القوة المادية منحصرة فى شخص الخديوى بالأصالة عن نفسه وفى وزرائه بطريـق الوكالة والنيابة وبما أن حق المراقبين العمومـيين هو قاصر على إبداء النصيـحة وإعطاء المشورة فكان المتعـين إذا التسمك بنصيحـتهما واعتـبارهما بما يحق لهمـا من الاعتبار والمراعاة فلذلك تحـققت الآمال وأصـبحت خـزينة البلاد فى غـاية الضبـط والسداد بعـد أن كانت فى غـاية الخلل والأرتباك ولكن لم تلبث على هذه الحال طويلا حتى تزحزحت تلك القوة المادية من موضعها وانتقلت إلى مجلس نواب البلاد وفريق من كبار الجند واستأسر هذا الفريق جميع النواب فهم لا يعـملون عملا إلا بمشورته فهذا التغـيير العظيم الذى طرأ على نظام البلاد أحدث تأثيـرا مهما حيث كان دبيبـه تدريجيا مبتدئاً من شـهر فبراير سنة إحدى وثمـانين وثمانمائة وألف مـيلادية الذى هو تاريخ قـيام الثـورة وخروج الجند وزعزعة سلطة الخـديوى ووزرائه ومن هذا التاريخ أخذت هذه السلطة فى القـهقرى والانحطاط يوما عن يوم إلى هذا الحد وكان من نواب البـلاد الذين كانوا على عهد إسماعيل باشا مقيدين بقيود الرق والعبودية وأوقعوا البلاد تحت أحمال الديون الثقيلة أن قاموا فى هذا الحين يطالبون بحقوق غير ملائمة لحـالة البلاد ولهيئتها الاجتماعية وتمادى بهم الحـال إلى إكراه الخديـوى على خلع الوزارة التى كان مـعتـمده عليـها وألزموه بواسطـة جماعـة من كبار ضـباط الجند بتـسليم رئيس ديوان الجهـادية زمام رياسـة الوزراء حتـى انحطت بذلك سلطتـه وصارت همـلا مـهمـلا وكـأن لم يبق لشخص الخديوى وجود وحـيث قد بلغت هذه الأحوال حدها فصار لا يهـمنا كثيرا معرفـة ما إذا كان المراد التعرض أيضـاً لسلطة المراقبين واختـصاصهما أولاً لا سـيما وأنها قد أصبحـت اليوم منحلة العرى بأسباب عدم إمكانهما الاشـتغال مع الخديوى ولا مع وزرائه الذين أقـيموا فى هذا المنـصب جزافا لا ولا مع نواب الـبلاد والجند العاملين معهم فإن الخديوى وهؤلاء الوزراء ليـسوا مسئولين أمام الرأى العام والدول

الأجنبية عن الطرق والأسباب التى عارض فيها المراقبان ودوّناها فى مراسيم سينشرانها عاجلا، إلى أن قالا، ولقد كان المصدر الوحيد لتأييد قوانا الأدبية هو شخص الخديوى والوزراء أما الآن فلابد وأن تصير هذه القوة وهمية مع الوزراء الذين انتقاهم نواب البلاد وفريق رؤوس الجند فإن الوزراء الذين هم على هذه الصورة لا يكون إذعانهم إلا لرؤوس الجند ونواب البلاد إذ لولاهم ما كانوا ولقد تم هذا الأمر حيث عقدت الوزارة الحالية النية على تخويل مجلس النواب حقا فى نظر الميزانية ولم تكترث بمعارضة المراقبين معارضة رسمية فى هذا الأمر ولا ننسى أن السبب الذى أوجب سقوط وزارة الوزير شريف باشا هو مراعاتها عدم معارضة حكومتى الإنجليز والفرنسيس فيما طلبه مجلس النواب من أن يخوّل له حق النظر فى الميزانية فصار إذا قبول الوزارة الحالية لهذه الأمور وإخراجها إلى حيز الفعل هو بمنزلة قبول ما يمكن ارتكابه من انتهاك حرمة نفوذ دولتى الفرنسيس والإنجليز ونجم عن ذلك إزالة نفوذ المراقبين اللذين لا سلطة لهما إلا بسلطة حكومتيهما هذا ولا يليق التعامى عن الأسباب التى لابد وأن تدك أس الإصلاحات وتذهبها أدراج الرياح بعد توطيد أركانها فى داخلية البلاد منذ السنتين فإن التعامى مجلبة التغرير وقصارى الأمر أنه ليس ببعيد وقوع الخلل فى الأحوال المالية التى قامت بترتيبها وإصلاحها لجنة التحقيق ولجنة التصفية. اهـ.

فلما وقف الخديوى على ما فى هذا الخطاب تململ وسير به إلى البارودى فلم يكترث به ولا أعاره جانب الالتفات ثم عاد فاجتمع بالمراقبين وأعلمهما بأن ليس فى نية الوزراء قط التعرض لسلطة المراقبة على أى حال كان ومع ذلك فقد كان الوزراء إذا عقدوا مجلسهم للنظر فى أمور البلاد لم يدعوا المراقبين للحضور فيه كعادتهم فإذا سأل المراقبان عن السبب قيل لهما إن الوزراء إنما هم ينظروا فى الأحوال الإدارية والأمور الداخلية التى لا علاقة لها بالأشغال المالية فأصبح المراقبان بعد هذا هملا مهملاً بل سقطا مرذلا وشاع الخبر وتناقله أصحاب الصحف المحلية والأجنبية فكثر تساءل كبار حكومتى الفرنسيس والإنجليز واشتد بينهم الأخذ والرد وقام خطباؤهم وقوالهم يقلبون لنواب البلاد ظهر المحن بعد ذلك وعمت الإشاعة بقرب وصول بعض مراكب الحرب الإنجليزية والفرنساوية إلى مينا الإسكندرية فبالغ العامة فى التحدث بهذا الخبر وأحجم أصحاب صحف الأجنبية تكذيبه فخاف عقلاء الناس وتطيروا منه فلما كان اليوم الأول من ربيع الثانى طارت الأخبار إلى القاهرة بقدوم

سفن حربية فرنسية وإنجليزية إلى مدينة بورسعيد الناس واختلفوا فى أسباب حضور تلك السفن وكثر تحدّثهم فى أمرها فبالغوا فى وصفها واختلفوا فى عددها فمن قائل إنها عشرون ومن قائل بل أربعون فكتب البارودى إلى قونصل جنرال الفرنسيس فأجابه بأن ليس فى الأمر ما يدعو إلى الاضطراب وإنما هى سفينة واحدة قاصدة كوكشين الصين وهى معدّة لنقل الجنود الذين قضوا مدتهم العسكرية فى تلك الأقطار ونقل المرضى وشاع الخبر بذلك فلم تكن لتنكف لتنهى التحدث فى أمر حضور تلك السفينة حتى كثر اللغط أيضاً بحركة الملك يوحنا نجاشى ونزوله على حدود مصر الشرقية وتضييقه على أهلها وإحراقه الكثير من قراها وغير ذلك واشتد اللغط وكثر الأرجاف أياما حتى وردت الأنباء الصحيحة بأنه أهالى قرية من قرى أرض البورى التى تبعد عن مصوع مسافة يومين الضرائب لأصحاب الجباية (وكانت عادة ملوك الحبشة أن لا يجبيوا الضرائب (الجند والعسكر) قامت عليهم الجنود فأحرقت منازلهم وغنمت زهاء أربعة آلاف وعشرة آلاف من الضأن وثلاثة آلاف من الحمير وقتلوا نحو مائة وسبعين رجلاً أحد عشر فأذاع هذا الخبر أصحاب صحف الأخبار وتوسعوا فى الكلام على ذلك الحبشان وشوكة ملوكهم وشدة بأسهم وجبروتهم على الرعية عسى أن تنقطع أسباب القلاقل وتبطل الأراجيف.

وأشار البارودى بإبطال تسيير الجند الذين كانوا على أهبة السفر إلى السودان لردع صاحب المهدوية فأوقفوا وصرفوا وأشاعوا أن القوة التى هى فى بلاد السودان هى لحصر المتهمدى فى جبل هناك ودفع أذاه عن البلاد وأهلها وطيروا الخبر بذلك إلى الملأ فصدّق الناس الإشاعة أو كادوا فلم تكن إلا أيام حتى وردت الأنباء الصحيحة باستفحال أمر المهدى وتزايد جيوشه وخضوع الكثير من المدن والقرى إليه وقيام الحركة الدرفور وكردفان وغيرهما قالوا وبلغت لمومه إلى هذا الحين مبلغا عظيما فكان إذا نزل بأرض ولم تقم أهلها بأمره شن عليها الغارة ونهبها وحرق بيوتها وأعمل السيف فى أهلها على آخرهم فهابه لذلك الناس وخشوا سطوته وقاموا لنصرته فتقدم ولم ير أمامه ممانعا وبث الدعاة فى الأطراف حتى فى مراكز الحكومة وحول مقر الحكام فأجاب الناس دعوتهم صاغرين وكبر الخوف بالسواد الأعظم من أهل الكردفان وسنار والخرطوم فانجلوا عنها فرارا من بطشه فتعطلت أسباب الرزق ووقفت حركة التجارة وزال الأمن من تلك الأصقاع وانحدر أصحاب التجارة ببضائعهم إلى مدينة أسيوط ومنع تجار القاهرة من إرسال شيء من البضائع على

ظهور السفن إلى مدينة أسيوط كعادتهم ووصل إلى القاهرة ومصر بعض النازحين وظهرت الحركة فلم تبق للريب محلا، واتفق أن حضر فى هذا الحين إلى القاهرة جماعة من قبائل العربان ومشايخهم وساروا ما بين راكب وراجل وهم متقلدون السيوف يريدون مقر البارودى فلما رآهم العامة على هذه الحال ظنوا أنهم رسل مدعى المهدوية وهم فى ضجة وجلبة حتى دخلوا إلى ديوان الداخلية وصعد جماعة منهم إلى مقر البارودى فقابلهم وسألهم عن سبب حضورهم فقالوا نريد أن لا تضيع علينا حقوقنا التى ورثناها عن آبائنا وهم نالوها بمقتضى فرمانات محمد على باشا الكبير مقابلة خفارتنا للحدود ومنع العدوّ من الوصول إليها فقال: وماذا تبتغون الآن؟ وهذه قضية رآها من كانوا فى خطتى من قبل وفعلوا فيها ما فعلوه قياما بالمصلحة العامة فقالوا لا نرضى أن يؤخذ منا رجال للجند النظامى ولا أن تخرج قومنا للسخرة أو العونة وهذه حقوق ورثناها فلا سبيل إلى التخلى عنها ما دامت البادية بادية ونحن حارسوها فهوّن عليهم البارودى الأمر ولاطفهم فانصرفوا ولكن لم تنصرف عن الناس تلك الهواجس والأوهام وحضر فى هذه الأثناء أيضاً عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السودانى من مدينة دمياط إلى القاهرة ولازم أحمد عرابى بيك أياما فاشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم وقالوا: إن حضوره فى ذلك الحين عقب حضور أولئك العربان إنما هو مترتب على أن تكون مراكب العدوّ قد ألقت مرساها أمام حصون وقلاع دمياط فلم يبق إلا الرمى بالقنابل، وكان حضور عبد العال بيك فى ذلك الحين باستدعاء من أحمد عرابى ليتشاوروا فيما يلزم عمله للحصول على ما يطلبونه من ألقاب الشرف ونياشين الأعتبار فقد كانت القاعدة من القدم أن لا يتولى رياسة ديوان الجند إلا من حاز رتبة الفريق ليتمكن من سياسة الأمور وحفظ نظام كبار الضباط وكبار الجند وقد تولاها أحمد عرابى بيك وهو لهذا الحين لم يتخط رتبة إمارة فريق من الجند فلما كان لابد من ارتقائه منصة هذه الرتبة العالية وكان عبد العال بيك وبقية أصحاب الزعامة على ماهم عليه من الرتب الصغيرة خاف أحمد عرابى من أنه إذا نال تلك الرتبة السامية قبل أن ينالها أصحاب الزعامة حسدوه ثم أبغضوه وعملوا على نكايته وإذلاله فسير فى طلب عبد العال فقدم إلى القاهرة ولبث بها أياماً حتى تم لهم ما أرادوه من ترتيب أماكن إقامة سائر الجنود والعساكر وإبعاد من شاءوا إبعادهم من صغار الضباط وإدخال من كانوا يتوسمون فيه سمة الخلود إلى طاعتهم والقيام بإشارتهم، ثم رفعوا إلى الخديوى

ورقة بأسماء كثير من صغار الضباط الذين اصطفهم وقدم إليه أحمد عرابى فى طلب إعطائهم بعض الرتب والنياشين فلم يعجب الخديوى بذلك ورأى منهم من لا أهلية له ولا استحقاق فراجعه أحمد عرابى بيك وهوّن عليه الأمر فامتنع وجعل يطاول أياماً، وكانت عادة أصحاب الزعامة أنهم إذا رأوا من الخديو مطلوبة فى أمر يبتغونه أشاعوا أنه إنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة خصومهم فيكثرون حينئذ من الاجتماع والتطواف ويبثون الأراجيف ويختلقون الأكاذيب والترهات فإن عدل عن عزمه عدلوا هم كذلك عن فعالهم وإلا تمادوا حتى يتاح لهم الظفر فلما تحققوا إصراره على الامتناع من إجابة طلب أحمد عرابى بيك قام من بينهم عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السودانى وأشاع أنه قد دس إليه السم فى اللبن، قال وتحرير الخبر أنه بينما كان ؟ذات ليلة عند أحد أخوانه إذ عاد إلى بيته فقالت له الجارية التى كانت تعدّ له الشاى واللبن فى صباحا إنها تركت المحل لحظة لطيفة ثم عادت فرأت غطاء الوعاء الذى فيه اللبن مكشوفا ولون اللبن متغيرا قال: فبحث فى الوعاء الذى فوجد فى راسبه مادة فأبقاها إلى الصباح وأحضر طبيبا عارفا فحلل تلك المادة فإذا بها زرنيخ كاف لقتل نفس فأكثر واتهم فى هذا العمل غلاماً يبلغ السابعة عشرة وهو يهتم بتربيته فى بيته فقبض عليه وأتى به إلى مقر جند الحرس الخديوى برحبة عابدين وضيق عليه قيل فاعترف بأنه الفاعل بإغراء محمد بك بن إسماعيل بيك ابن أبى بكر راتب باشا ثم عدل واعترف بأن غلاما شركسياً من مماليك الخديوى رفيقا له فى المكتب أعطاه ذلك الزرنيخ وأوصاه بوضعه فى وعاء اللبن ففعل رجاء حارسى وصاية عبد العال بيك وحيازته على أمواله المودعة عنده ثم بعد ذلك سلم الغلام إلى صاحب شرطة المدينة فأودع فى السجن حتى تظهر الحقيقة، ولم ينتشر خبر هذا الخبر العجيب حتى جعل ضباط الجند يفدون على دار عبد العال بيك عشرات عشرات يهنئونه بالسلامة وهرع إليه كذلك أعيان المدينة والعلماء والوجهاء وبعض موظفى الحكومة واستقدم الخديو صاحب شرطة المدينة وشدد عليه فى استكشاف سر هذا الحادث وكشف الحقيقة وقد خافه ورسم بالقبض على ذلك الغلام الشركسى ووضعه بالسجن أيضا دفعا للشك والظنون وسير إلى عبد العال بيك أحد رجال ديوانه الخاص كدره من وقوع هذه الحادثة ويهنئه بالنجاة من شرها وأطال عبد الله صاحب الكلام فى هذا الحادث وبالغ فى مدح تلك السوداء التى كانت سببا فى نجاة عبد العال كانوا يزعمون فهاداها جميع ضباط الجند بالحلى والملابس وكان اسمها

تشريفا فجعلوا يصيحـون تشريف تشريف وينادون بالويل والثبور على أصحاب هذه المكيدة يعـرضون الخـديو وعداوته لجمـاعة الضـباط وأصحـاب الزعامة مـنهم حتى أجابهم إلى ما يطـلبون كبارهم من الرتب ونياشـين الافتخار ما كـانوا يسألون فنال أحمد عرابى بيك وعلى بيـك أمير جند الحرس وعبد العال بيك حـشيش أمير الجند السودانى لقب ميرلواء الباشوية وشاع الخـبر بذلك وتناقله الناس فهرع إلى دار أحمد عرابى العلمـاء والكبراء والوجهاء وتـزاحم على بابه الشعراء وغصت حـجرات داره بالكثير من الأجانب ووردت إليـه رسائل التهانى من عمد البلاد ومشـايخها والتجار بالبريد وسلك التلغراف وهادته الوجهاء بالمأكول والمشروب والملبوس والمفروش فأدب فى ذلك اليـوم وزين داره وأتت إليـه طوائف أرباب الأشاير وأصـحـاب العكاكيـز والمتعممين بطبولهم وزمورهم وكـاساتهم يضربون بها أمام داره واصطف حول الدار سائر ضباط الجند على اختلاف درجاتهم وجعلوا يضجون ضجيج استحسان ويهتفون هتاف التبريك وزاره فى غروب ذلك اليوم سائر رجال الحكومة الملكيين والعسكريين والرؤساء الروحـانيين ومحـررى صحف الأخبـار المحلية والأجنبـية وبعض قناصل الدول كقنصل دولة إيطاليا وغيره ممن كـانوا يكثرون الترداد عليه لأمور لم نصل إلى معرفـتها وما زالت داره محطا للمـهنئين وكعبة للشـعراء والمادحين ثلاثة أيام وهكذا جرى مع على باشا الديب وعبد العال باشا حشيش فقامت عند ذلك قيامة أصحاب الصحف الأجنبية لا سيما منهـا الإنجليزية ونادوا واحرباه إن لم تتدارك دولتا الإنجليز والفرنسيس الخلل الذى كان يهبط بمصر إلى حضيض الويل والدمار وجعلوا يحضون كبار سياستهم على الأخذ بأطراف العمل ووجوب تغيير منهج السياسة الذى اتخذته الدولتان منذ ظهور الجند إلى هذا الحين فأكثر قونصل الإنجليز من الغدوّ والرواح إلى مقر الخديو للمكالمة فى الأمر.

(مطلب)

تنزيل المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى لنفسه من منصب المراقبة وما كان بعد ذلك

واتفق فى ثالث عشرى ربيع الثانى أن تقـدم المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى إلى الخديو فى قبول تخليـه عن منصب المراقبة فأجابه الخديو إلى ذلك بغـير معاودة فانحدر من فوره إلى الإسكندرية ومعه عياله يريد عـاصمة الفرنسيس فلما شاع خبر انسحـابه من منصبه فرح أصـحاب الزعامة وبالغـوا فى الأسباب وعزوها لأنفـسهم

وقالوا إنما هى معجزة من معجزاتهم وآية من آياتهم وجعل عبد الله صاحب الطائف حينئذ يطنب فى مديح أحمد عرابى باشا ويثنى على همة رجال العصابة أولى العزم ويقول: قد آن والله الوقت الذى لابد فيه من التخلص من نيران هؤلاء البعوث الجائعة الذين لا يهمهم إلا إشباع بطونهم، واختلف الناس فى أسباب عودة الرجل إلى بلاده وتخليه عن منصبه وقد كان سعى الخديو والرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته خلف هذه الغاية ذاهبا أدراج الرياح فترامت الظنون إلى المرمى البعيد وكثر تحدث الناس فى هذا الأمر فمن قائل أن لاستعفائه غاية سياسية قضت حالة البلاد الحاضرة على دولة الفرنسيس باتحادها فلا يلبث أن يرجع إلينا وفى وعائه شىء من السم والدسم ومن قائل بل كان استعفاؤه إرضاء لأصحاب سياسة الإنجليز إذ هم يعتبرون أن بقاءه فى منصبه باعث على فصم عرى الاتحاد وقطع رباط الوفاق الذى عقدته الدولتان لأن الرجل شهم حازم جرىء حريص على نفوذه قوال فعال لا تأخذه رهبة ولا يخشى مكيدة وكان المراقب الإنجليزى على غاية من الجبن وضعف العزيمة وفساد الرأى، قال أصحاب هذا المذهب: فلما كان دى بلينار بهذا لا يعمل إلا لمصلحة بلاده خاصة ميالا إلى التفرد بالعمل وكان المراقب الإنجليزى لا يقوى ولن يقوى على مجاراته استقدمته دولته حرصا على بقاء عرى الاتحاد وشدّ رباط الوفاق وعزمت على استبداله بآخر أقل غيرة وأكثر صبرا، ومن قائل بأنه ليس فى الأمر شىء من هذا كله وإنما هى فلتة من فلتات السياسة الأفرنسية التى ما وراءها إلا الخيبة والعدم حيث لا ينفع الندم، وعندى أن لاستعفاء دى بلينار.هذا سبب آخر لعله الصحيح أو ما يقرب منه وذلك أنه لما سقطت وزارة غامبتا رجل الجمهورية الفرنساوية وخطيبها المقلق وقامت بعدها وزارة فريسينيه وكانت سياسة دى بلينار هذا على شاكلة سياسة غامبتا كلها حزم وكياسة وتدبير ورئاسة وكانت سياسة فريسينيه مشوبة بالضعف وعدم الثبات محفوفة بضوضاء المكاره من الأحزاب لا سيما منهم غلاة الحرية الذين كانوا أطوع إلى رغائب الإنجليز منهم إلى مصلحة وطنهم أدرك دى بلينار ما وراء بقائه فى منصب المراقبة فى هذا الحين من ذهاب الكرامة وسقوط الهيبة لا سيما وقد كان واقعا يومئذ بين منتطح عنزين عداء الفرنسيس الذين بمصر وتقييم لأعماله جزاء ما بدا منه لقونصلهم على عهد رئاسة مصطفى رياض باشا كما سبق بيان ذلك فى موضعه وبغض رجال الحكومة إليه فعمد إلى خلع نفسه واعتزال المنصب وتقدم إلى كبير سياسة الفرنسيس والخديو فى قبول ذلك فقبلاه فرحل راضيا من الغنيمة بالإياب، ولم تك تهدأ القلوب بعد زوال أراجيف استقالة المراقب الفرنساوى حتى شاع الخبر وذاع بحركة نجاشى الحبشة وزحفه بالجند الكثير على

حدود مصر وعقده النية على إضرام نار الحرب حتى يقضى ما فى نفسه فتحدث الناس به وخلطوا وخبطوا كعادتهم حتى خيل لهم أن قد قامت القيامة وانتصب الميزان، وتحرير الخبر أن علاء الدين باشا العامل يومئذ على شرق السودان أرسل إلى ديوان الخديو يقول قد جاءت رسل نجاشى الحبشة وبينهم قسيس من قسوسهم اسمه ملاك برهان قيروت ومعهم عشرة رجال آخرون خمسة منهم من أئمة الدين وترجمان اسمه يعقوب وعشرة من الأتباع الذين يحملون متاع الوفد فدفع إلى كبيرهم كتاب من النجاشى يقول فيه، باسم سيدنا يسوع المسيح كلمة الله إلخ.

من الملك يوحنا ملك صهيون نجاشى الحبشة وملك ملوكها إلى حضرة المحب المكنون علاء الدين باشا.

تخبركم أننا بنعمة سيدنا يسوع المسيح نحن وجميع عسكرنا ورجال مملكتنا حائزين كمال الصحة والعافية ممتعون بالراحة الوافية ونود استمرار العلاقات بيننا وبين حكومة مصر ونحب تثبيت أحسن الصلات الودّية وأنه مرسل لكم يامحبنا الباشا هدية وهى حصان من جياد الخيل إشارة إلى التودد والمحبة والسلام. اهـ.

وكان مع ذلك الوفد أيضاً هدايا أخرى بعضها إلى بطرك القبط بديار مصر وبعضها إلى الخديو وهى عبارة عن عشرة من الفضة المموّهة بالذهب ونياشين من الذهب الخالص وثمان درقات وكمية من اللؤلؤ وزهاء الألف وخمسمائة جنيه فرنسوى برسم القدس الشريف وكتاب إلى الخديو وكانت جميع رجال الوفد البيت المقدس ليلبثوا فيه ما شاء الله، فلما تحقق الخبر بقدومأولئك الحبشان ومثولهم بين يدى الخديوى ثم نزولهم بدار البطريكية القبطية بالقبيلة بطلت الأراجيف وزالت الهواجس واشتغل الناس بما سيكون من وراء ارفضاض مجلس نواب البلاد إذ ظهرت الإشاعة بقرب ارفضاضه ورجوع النواب إلى بلادهم وقد تناقلها أصحاب صحف الأخبار فما لبث أن بلغت أصحاب الصحف الأجنبية حتى وردت صحفهم مشحونة بالتقبيح والتعييب والاستهزاء والسخرية بنواب البلاد وأصحاب زعامة الجند وقام بعض الأجانب الذين فى خدمة الحكومة يسخرون أيضاً بالنواب ويهزؤن بأعمالهم فكانوا إذا قابل أحدهم رفيقه فى طريقه أو فى مجتمع عام قال له عوض صباح الخير أو مساء الخير مثلاً، إننا نودّع نواب الأمة الوطنيين - الوداع للنواب الوطنيين - وغير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء فحرك هذا كله ساكنا فى قلوب ضباط الجند فجعلوا يطوفون بالشوارع والطرقات ويكثرون من التطواف ملازمين مساكن الأجانب فانكمشوا وانكفوا عن الاجتماع فى المنتديات والطرق العمومية وخافوا العاقبة فقام بعض أصحاب صحف الأخبار المحلية يهوّنون الأمر

على أهل البلاد ويلاطفون ضباط الجند ويكثرون من الإطراء على النواب فكتب أحدهم فى وداع النواب يقول: وداع يزيد النفوس وجدا، وبعد يفيد القلوب قربا، وانفصال لا يؤثر فى المشارب إلا اتصالا، وافتراق لا يوجب فى المبادىء إلا اتحادا، وداع لنواب الأمة المصرية راحلين يوم السبت بما فى قلوب الأحبة من الثناء والدعاء مشكورين مأجورين مرجوّا عودهم بالمهابة والإجلال والتوفيق والإقبال إن شاء الله . اهـ.

فلما كان ثامن جمادى الأولى من السنة أى سنة تسع وتسعين فى نحو الساعة الخامسة العربية صباحا قدم محمود باشا البارودى إلى مقر النواب يحمل مرسوم الخديو بارفضاض المجلس فدخل عليهم وسلم ووقف بينهم موقف الخطيب، وقال: إن المدة القصيرة التى أقمتموها والأعمال الكثيرة التى نشرتموها تدل على شدة ميلكم إلى الإصلاح ورغبتكم فى تقدم الوطن العزيز، وحيث إن هذا اليوم هو اليوم المعين لأرفضاض المجلس بمقتضى لائحته الأساسية فقد أتيت بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن إخوانى لأشكر مساعيكم المحمودة وأرغب إليكم أن تشغلوا أفكاركم فى مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمشروعات التى ستوضع فى العام القابل موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة، قال: وهذا هو الأمر الكريم الناسق بانفضاض المجلس على مقتضى القانون أقدمه لديكم والله المسئول فى توفيقنا جميعا لخدمة الوطن العزيز.

فأجابه محمد سلطان باشا رئيس النواب يقول: إنا نشكر للجناب الخديوى المعظم عنايته باستنابة عطوفتكم فى ختم أعمال المجلس هذا العام ونسأل الله توفيقنا فى العام القابل لتتميم المقاصد الخيرية والمنافع العامة التى منع قصر الوقت فى هذا الاجتماع من إخراجها إلى عام الفعل كما نسأله أن يؤيد الاتحاد ويزيد تألف القلوب لنكون يدا واحدة وقلبا واحدا على خدمة هذا الوطن العزيز بما يحتاج إليه من الإصلاح آمين، فأمّن النواب جميعاً على هذا القول ثم ودّعهم البارودى وانصرف وقاموا هم من ساعتهم وساروا إلى مقر الخديو بسراى عابدين لوداعه فقابلهم وخاطبهم قائلا: إن اجتهادكم فى خدمة الوطن وقيامكم بأداء حقوقه الواجبة قد صادف لدينا موقع القبول والاستحسان كما أثبت لكم الفضل وعلو الهمة وصدق العزيمة فى خدمة الأمة ولا ريب عندنا أنكم ستصرفون العناية فى مدة انفضاض المجلس إلى البحث عن طرق المنافع العمومية والمذاكرة فيما يوضع لديكم موضع النظر فى العام القابل لتأتوا إن شاء الله على ما فى نيتى من الإصلاح لوطننا العزيز

وإنى أستودعكم الله ضارعا إليه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يترتب عليه سعادة بلادنا وأن أحسن الحال يحسن المآل آمين، فرد عليه محمد سلطان باشا رئيسهم يقول أيد الله تأييد الجناب المعظم بعنايته ويحفظه برعايته وأن يبقيه للأمة والوطن فتحصل فى ظله الأمانى وتكمل المنافع العمومية وتدوم قوم الاتحاد بين أركان البلاد ولها غرو فى ذلك فإنه أدام الله مجده قد بسط للنواب يد المساعدة فيما انصرفت همتهم إليه من أوجه الإصلاح ومهد لهم جانب العناية فى البداية والنهاية، ثم بعد ذلك قدم الموكب الخاص إلى الخديو المراسيم الصادرة للنواب باعتماد نيابتهم فسلم إلى كل منهم المرسوم الموجه إليه بيده فكان ما فيه.

قدوة الوجوه المعتمدين، والأعيان المنتخبين حضرة فلان زيد إقباله إنّ من الأمور التى أثبتتها التجارب من سوالف الأزمان حتى صارّت جلية عند ذى البصائر والأذهان ووصلت إلى درجة الاستغناء عن إقامة دليل وبرهان أساليب الأقوى فى تقدم الأمم والوسيلة العظمى لانتظام الأحوال على الوجه الأتم هو التشاور فى الأمور وتبادل الأفكار والمبادلة فى الآراء والأنظار ولا شك أن هذه هى أحسن المسالك والشرع الشريف يأمر بذلك فلذا تحرينا طريق الصواب واخترنا أن يكون لمصر مجلس نواب تبعث الأهالى أعضاءه بالانتخاب ويتبادل فيه آراء الأعضاء المرجوه فى مذاكرة ما يلزم من الأمور والقوانين والآن قد تم الانتخاب بالأهلية وعرض ذلك علينا فقوبل بالقبول والاستحسان لدينا فأصدرنا إليك هذا الرقيم إعلاناً على شرف العضوية مدة خمس سنين فى ذلك المجلس الكريم فنرجو الله تعالى أن يجعل هذا المجلس باعثا لحصول مقاصدنا وأوطارنا بتقدم أوطاننا وأقطارنا ووسيلة لانتظام أمورنا وأمصارنا وأن يكون سببا لنوال الفلاح وكمال الإصلاح إنه ولى التوفيق . اهـ.

فانفض من عنده شاكرين وأولم لهم البارودى وليمة فاخرة فحذا حذوه بعض أعيان القاهرة ثم سافر من سافر منهم وبقى من بقي فكتب صاحب جريدة مصر هذه الأبيات مودعا لهم بها قال:

ودّعتهم وبنفسي من مآثرهم ... آثار حمد أقامت بعد ما رحلوا
أكارم إن همو عن ناظري انفصلوا ... فذكرهم أبدا بالفكر متصل
لهم منازل حب في القلوب فهم ... بها مقيمون إن ساروا وإن نزلوا
فحبذاهم من قوم أماثل في ... أمثالهم بالمعالي يضرب المثل
وحبذا القول ما قالوه عن رشد ... وحبذا الفعل في الإصلاح ما فعلوا
ضنوا بأوطانهم وهي التي بذلوا ... في حبها النفس نعم الجود والبخل

وكان الناس يظنون أنه بارفضاض هذا المجلس وانحلال عقد اجتماعه تبطل تلك القلاقل المتتابعة فتطمئن القلوب الواجفة وتسكن الخواطر الراجفة وتنكف أصحاب الزعامة عن اختلاف المشاكل والأراجيف، فبينما هم على هذا الجانب من الظنون إذ قامت قيامة أصحاب الزعامة ورفعوا إلى الخديو فى خامس عشرى جمادى الأولى شكوى تتضمن أن عصابة سرية من جماعة الضباط الشراكسة الذين اختيروا لقتال مدّعى المهدوية بالسودان قامت للفتك بأحمد عرابى باشا وأنهم أعدوا له كمينا فى مفارق بعض الطرق لأخذه غيلة وجعلوا يبالغون ويهوّلون فكبر الأمر على الخديو ورسم بكشف الحقيقة، وبث أحمد عرابى باشا العيون حول جماعة الضباط الشراكسة وتتبعهم الجند فقبضوا على خمسة منهم وألقوهم فى سجن قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وهيؤا لتحقيق هذا الحادث مجلسا عسكريا مؤلفا من عشرين عضوا بينهم على بيك الروبى وعبد العال باشا أبو حشيش وانقسم هذا المجلس إلى قسمين أحدهما، لعمل النهار، والثانى: لعمل الليل وقبضوا على كثير من الشراكسة وألقوهم فى حبوس قشلاق عابدين وقبضوا كذلك على يوسف نجاتى بيك وآخرين معه فكانت عدتهم نيفا وأربعين فاشتد الخوف بأصحاب البيوتات من جماعة الترك والشراكسة وأخذوا حذرهم فى الداخل والخارج فلما كان تاسع عشرى الشهر انعقد مجلسهم العسكرى بقصر النيل وجعل يسأل المتهمين، قالوا: فتحقق أن الذى هيأ هذه العصابة هو راتب باشا سردار العسكر المصرى على عهد إسماعيل باشا فى بيت أحمد أفندى راشد أحد الضباط الشراكسة بحارة الرزنامجة القديمة وكان ذلك على علم من محمد أفندى طلعت ويوسف نجاتى بيك ومحمد نيازى أفندى وأمين شكرى أفندى وسالم شوقى أفندى وعمر أفندى رحمى المعاون بديوان الضابطة ومحمد شفيق أفندى ومحمد أفندى فؤاد الملازم بالمخالفات وأحمد فهيم أفندى وخليل حسنى أفندى ورشوان أفندى ونجيب أفندى المقيم مع شفيق أفندى وأحمد أفندى وصفى الملازم بالمخالفات قالوا: وتحالفت هذه العصابة على السيف والكتاب وجعلوا مقاصدها سرية لا يطلع عليها أحد من صغار الضباط حتى تتقوّى عزائمهم وتطمئن قلوبهم ثم اجتمع معهم بعد قليل من الأيام محمود أفندى طلعت أخو راتب باشا وعقدوا مجلسا وأعلموا الصغار من جماعة الضباط الشراكسة بأن أول شىء يعمله رجال العصابة هو أنهم يرفعون إلى الخديو عريضة يطلبون فيها ردّ حقوقهم إليهم ورفع يد الاستعباد عنهم ولم يطلعوا أحد من أولئك الأصاغر يومئذ على سر المقصد

الإعدامى الذى تحالف عليه كبارهم فانضم إليهم كثير من الأصاغر ومالوا إلى تعضيدهم فبلغوا يومئذ زهاء المائة فكتبت أسماؤهم فى ورقة وأعطيت إلى أحمد أفندى راشد صاحب الدار.

واتفق أن قدم من الإسكندرية خليل أفندى حلمى أحد كبار العصابة فاجتمع عصابة منهم فأبلغهم أنه قد انضم إلى عصبتهم على باشا شريف ووعدهم بالمساعدة جهد ؟استطاعته إذا ظلوا على هذه الحال من الاتحاد قالوا وكأنهم قد أحسوا بما وراء اجتماعهم فى بيت أحمد أفندى راشد فتركوا الاجتماع فيه واستبدلوه ببيت عبد الله أفندى الكردى فانضم إليهم عندئذ حسن أفندى الكردى ورجب أفندى ناشد وتشاوروا فاستقر رأيهم على الاجتماع فى ليلة جمعة ليقيموا كلا من رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى وعبد الله أفندى الكردى رؤساء موكلين يدبر كل واحد منهم خمسين رجلا ويأخذ عليهم العهد وأن يكونوا روحا واحدة وجسدا واحدا وإذا مات أحدهم قاتل الكل على دمه حتى إذا اتسع نطاق العصابة ونجحت آمالها اختارت الرؤساء من أصحاب الرتب العلية ؟؟ محمود بيك طاهر ومحمد بيك نجيب ومحمد بيك شوقى وهكذا كلما عظم أمرها واتسعت كلمتها فوّضت الرياسة إلى الأكبر من جماعة الشراكسة أو الترك واتفقوا جميعاً على أن مقام السيدة زينب ليتحالفوا ويجدّدوا يمين القسامة هناك ويظهروا ما أسروه من أسر عن بعضهم من قتل أحمد عرابى وكل من يناويهم الشر أو يقف فى سبيلهم هذا فلما عرضت الرياسة على عبد الله الكردى أباها وقال إنى أحس ياقوم بانقباض فى صدرى واضطراب فى قلبى ورجفة فى جسمى من هذا الاجتماع وأخشى أن يكون وخيم العاقبة تتمكن العصابة من إنفاذ مقاصدها ويعظم شأنها فإذا تم لها الأمر وقامت على قدم والوثاق أتيت لها بخمسمائة من الباشبوزق بمعاونة حسين بيك قراجول فأجابوه إلى ذلك حتى يبلغ مبادىء عصابتهم إلى بعض كبار الشراكسة ليكونوا لهم عونا عند الحاجة فاجتمع بالبغض منهم وعاد فأخبر رجال العصابة بأنه لم ير من أولئك الكبار إلا غاية الجبن حتى انفصل عبد الله الكردى عن رجال العصابة لأسباب فكادت تنفشل وتتفرق كلمتهم ولولا رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى أدركاها بهمة منهما حيث جمعا أفراد العصابة الذين كانوا عقدوا جلستهم تلك فى بيت أحمد أفندى فهيم الكائن بالقوطية واتفقوا على أن يكون كل من انتظم فى سلك العصابة إلى مقام السيدة زينب ليطلعوه على السر المقصود بهم على إخراجه

إلى حيز الفعل حتى لا تنفصم عقدتهم قبل إدراك مأربهم فلما انكشف أمرهم وعلم به بعض صغار الضباط الشراكسة ذهب أحدهم المدعوّ على رمزى وأخبر بعض أقارب أحمد عرابى وأفشى مكنون سرهم فهال أحمد عرابى الأمر ورسم فقبضوا على أكثرهم وتتبعوهم حتى لم يبق منهم أحد خارج الحبوس، حدثنى صاحب لى قال: عصابة الشراكسة وتناقله الناس حتى كثر تطواف الجند بالشوارع والحارات وأخذوا يقبضون على المارة ويكبسون البيوت ويخرجون من فيها من صغار الضباط الشركسة حاسرى الرؤوس حافى الأقدام فيزجونهم فى الحبوس بقشلاق حرس الخديو برحبة عابدين والناس خلفهم يترامحون وهم فى دهشة وحيرة فكنت لا تسمع فى تلك البيوت إلا عويل النساء وبكاء البنين والبنات وتأوّه الشيوخ وكان كل من أودع السجن منهم وكلوا به من يذيقه مر العذاب فكان الواحد منهم يقضى بياض يومه وسواد ليله واقفا على قدميه وأمامه الموكل به فإذا أغمض الجفن لكمه أو وخزه فينتبه وعيناه تذرفان الدمع فإذا خر على الأرض أو سقط مغشيا عليه من شدة التعب دهمه ذلك الموكل بالضرب واللكم المتتابع فيسترحم وليس من يرحم، قال وكانت حبوسهم مجردة عن كل ما يحتاج إليه المسجون كجرة للماء مثلا أو صحفة للطعام أو حصيرة للرقاد أو مصباح للضوء وكان ضجيجهم لا ينقطع وعبراتهم متراسلة فأثر هذا الحال فى الكثير من جند الحرس أثرا مؤلما فضجروا وكادوا يخرجون عن طاعة كبارهم فلم ينتبه رجال المجلس العسكرى إلا وجند الحرس على أهبة التخلى عنهم فتداركوا الأمر وعجلوا بالعقاب فجاروا وظلموا وأغمضوا جفن الطمان على وسادة الانتقام فلا حول ولا قوة إلا بالله، **قلت**: وطار خبر هذا الحادث إلى الآفاق فأرسل السلطان فى خامس جمادى الآخرة إلى الخديوى يسأل عن ذلك وكتب أحد الشراكسة إلى إحدى صحف الأخبار الأجنبية يقول قد نزل آباؤنا بديار مصر من عهد ليس بقصير فكانت هى مسقط رؤوسنا وأرض نشأتنا وقد تربينا تحت سمائها وتلقينا من علومها وفنونها أشكالا فقمنا بواجب شكرها وأخلصنا فى خدمتها أعواما طوالا وبذلنا النفس والنفيس فى تلبية داعى تقدمها ودافعنا عن مجدها باقتحام الحروب الروسية وتجشم الخطوب الهائلة الدموية فخدمناها خدمة الابن البارّ بأبويه ومازلنا على هذه الحال حتى وسوس شيطان الحسد فى صدور أهل البغى والفساد فرموا بعضنا بالفجور والتألب على اغتيال النفوس التى حرم الله قتلها وقبضوا عليهم قبض الوحش على فريسته وكبلوهم فى قيود الظلم وألقوا بهم فى

حبـوس الهوان وأذاقوهم مـضض اللكم والوخز وأليم الأخذ والرد وحـرموهم لذة الرقاد واحـرقوا منهم الأكـباد بنار الجوع كل ذلك بلا ذنب جنـوه ولا خطأ ارتكبوه فالله حـسبـنا ونعم الوكيل إلى أن قـال: وحيث ضـاقت بنا أرض هذه البـلاد وقد أصبحنا مضغة فى أفواه قوم لا يخشون يوم الميعاد فقد عزمنا على الرحيل إلى الدنيا واسعة الفضاء وقد عينا أنفسنا لخدمة أمير المؤمنين لا غير والسلام. اهـ.

فأعـجب الناس بهذه المقالة وحنوا إلى جـماعة الشـراكسة وعابوا على زعـماء عصابة الجند فعالهم، فلما كان حـادى عشر جمادى الآخرة حكم المجلس العسكرى على هؤلاء الضباط بالنفى والتـبعيد المؤبد إلى أقاصى السودان وكـانوا مائة وأربعين وبينهم عثمان رفقى باشا مع تجريدهم من كافة رتبهم العسكرية وامتيازاتهم ونياشينهم وأن يكونوا متـفرقين فى أنحاء السـودان بعيدين عن مراكـز المدن والبنادر والسواحل النيلية وحكموا كذلك على اثنين من موظـفى الحكومة بالنفى والتغريب مع تجريدهم من كافـة حقـوقهم المدنيـة وحكموا على راتب باشـا السردار الذى عـدّ زعيم هذه العصابة بالتجـريد من رتبه العسكرية وامتيازاته ونياشـينه وحرمانه من العود إلى ديار مصر بحيث إذا عاد إليها نفى منها على الصورة المذكورة وقال المجلس العسكرى فى حكمه أن الخديوى إسماعيل هو مسبب هذه الحركة العدوانية والباعث عليها مستعيناً فى بثـها بالمرتبـات التى تصرف إليـه فى كل سنة من خزينة الـبلاد فقـرر أن يكون للخديو توفيق ولهيئة الحكومـة حق النظر فى قطع هذه المرتبات وإلغائها ورفعوا هذا الحكم للخديو ليـرسم بتنفيذه وكان الذى رفعـه هو محمود باشـا البارودى، وقيل: على باشا الروبى والأول أصح فلما وقف الخديوى على ما فيـه كبر عليه واستعظمه فراجع البارودى فلم يقـبل فكلم فى ذلك أحمد عرابى فأظهـر غاية الشدة وبالغ فى الجفاء فـجعل الخديوى يطاول ويحاول لعله يتـمكن من استرضاء أصحـاب الزعامة فلما أعياه الحـال تجرد إلى تعديل الحكم فنقض فيه وأبرم واستبدل حكم الـتبعيد إلى أقـاصى السودان بالتـبعـيد عن ديار مـصر حـيث يشـاء المبعـدون مع حفظ رتبـهم ونياشينهم ولم يتعرض إلى مرتبـات أبيه فلما برز الأمر من ديوانه على هذه الصورة كبر ظهوره على البـارودى وأحمد عرابى وكادا يتميزان غيظـا وراجعا الخديوى فأبى إلا ما رسم به فألح عليه البارودى فامتنع وشدد فى الامتناع فعظم عند ذلك الخلاف وكبرت الفتنة وتزاحمت أقدام أهل السعاية على أبواب الفريقين وانبثت العيون حول مقر الخـديوى، قيل: وهدد البارودى الخديوى بالخلع فلم يلتـفت الخديوى إلى ذلك

ولم يحتفل به، حدثنى أحد المقربين من البارودى، قال: وتاقت نفس البارودى والنفس أمارة بالسوء إلى ارتقاء منصة الخديوية المصرية بعد استفحال أمر الخلاف بينه وبين توفيق باشا فجمع إليه جماعة من أهل التاريخ وكاشف بعضهم على ما فى نفسه وسألهم أن يأتوه بسلسلة نسبه فأتاه أحدهم بشجرة كثيرة الفروع ينتهى أصلها إلى السلطان الملك الأشرف طومان باى وقيل إلى السلطان الملك قانصوه الغورى فاشتد عند ذلك ظهره وكبرت آماله. اهـ.

قلت: ومع بحثى عن حقيقة هذا الخبر كنت أرى الناس فيه فريقين فريق يؤيده بالأدلة القاطعة وفريق ينكره ويقول إنه فرية على البارودى لا أنزل الله بها من سلطان وعندى أن قول الفريق الثانى أقرب إلى الصدق وأبعد عن الشماتة والحط من مقام البارودى، قالوا وتجرد البارودى إلى العداوة فلم يطق الخديوى الصبرعلى ذلك وقد علم بما فى نفس البارودى فراسل السلطان فى أمره وأعلمه بخبره فورد إليه الجواب باستعمال الحزامة والتأنى والإتيان على سائر الأمور من أبوابها فاطمأن عند ذلك الخديوى ورسم إلى جماعة الشراكسة بالخروج إلى حيث شاءوا فخرجوا جميعاً إلى دار السلطنة ولم يتخلف منهم أحد.

وسير البارودى إلى نواب البلاد يستحثهم على الحضور إلى القاهرة فحضروا جميعاً وانعقد مجلسهم بغير إجازة من الخديوى كما هى العادة فقص عليهم البارودى ما وقع من الخديوى وبالغ فى الشكوى واستمسك عليه بأمور منها مؤامرة جماعة الشراكسة على قتل أحمد عرابى وتبعيد الحرمة عائشة المعروفة بالكودية والغلام الحبشى الذى سرق بعض الجواهر من سراى عابدين وقيام إبراهيم أغا التتنجى إلى الشام بمأمورية سرية وإرسال ثابت باشا إلى دار السلطنة بغير موجب ولا سبب ظاهر وسعى الخديوى خلف إذهاب حقوق البلاد وتقليل امتيازاتها الممنوحة لها بالفرامانات السلطانية وغير ذلك من التهم التى ما أنزل الله بها من سلطان فأطال النواب اجتماعهم وتناجوا فى الأمر وجعلوا يقومون ويقعدون والحال على ما هو عليه من الوحشة والنفور بين الفريقين وأصبحت حادثة الجراكسة شغل البارودى الشاغل له عن حوادث السودان وخروج المهدى واتساع كلمته بين قبائل تلك الأصقاع وعجز رؤوف باشا عامل السودان عن إيقاف تيار الفتنة مع طلبه المدد ونداته المتواصل ولم تكن لتخفى يومئذ حقيقة الحال بتلك الديار عن الكثير من أهل القاهرة فقد وصل جماعة كثيرة من تجار السودان بعيالهم وأموالهم ومتاعهم وأخبروا بجميع

حوادث صاحب المهدوية وقصوا على الناس القصص والأنباء وحدّثوا عن عجز رؤوف باشا وأصحابه وقالوا: إن نار الفتنة لم تضطرم إلا بيد سلاطين بيك أحد مديرى ولايات الدارفور بما أعطاه إلى العربان من بنادق الحكومة وذخائر الحرب فكثر تحدث الناس فى ذلك وجعلوا يتبعون سير تلك الحوادث ويحسبون ما وراءها والله من وراء كل حساب، حدثنى صاحب لى قال: حدثنى من لا شك عندى فى صدق حديثه قال: ما تعاقد كبير السياسة الإنجليزية مع الخديوى إسماعيل عام ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية على إبطال تجارة الرق من بلاد مصر والسودان حتى جعل يطالبه بالمطالب الطويلة ثم لم يلبث أن دس إليه الرقباء من قومه فساروا إلى أرض السودان وجعلوا يجوبون البلاد من أدناها إلى أقصاها ويبحثون فى عادات أهلها وطباعهم وأميالهم والاختلاف الواقع بين عادات بعض القبائل والأدواء الناجعة فى استمالة أعصى القبائل وأشدها بأسا ثم عمدوا إلى تخطيط الأراضى ومعرفة ما فيها من الدروب والمسالك والعقبات والمرابك ووقفوا على حقائق نباتها وأشجارها وتربة أرضها وأنواع حيواناتها وأحصوا قبائلها عددا ولم يتركوا شيئاً تدعو إليه الحاجة إلا وأحصوه وكان ممن سير به من الإنجليز كبير من مقدمى جندهم اسمه غوردون فقدم إلى القاهرة ولبث أياماً لم يفارق فيها باب الخديوى إسماعيل ثم رحل إلى السودان باسم مراقب منع الاتجار فى الرقيق فلم يلبث أن صار حاكم شرقى السودان وخط الاستواء ثم سواحل البحر الأحمر ثم حكمدار جميع أرض السودان وخط الاستواء وأطلق الخديوى له الكلمة وأعطاه رتبة الباشوية وأتحفه بنياشين الشرف فعظمت هيبته وعلت كلمته ونزع إلى قلب الكثير من عادات تلك البلاد وأبطل بعض المغارم والمكوس ورفع ما تأخر من الأموال الأميرية عن مشايخ القبائل ولبث فى خرطوم السودان يأمر وينهى ويعطى من يشاء ويحرم من يشاء بلا رادّ ولا ممانع فنزح فى أيامه إلى أرض السودان كثير من الأجانب وأهل التجارة فراجت تجارتها وكثرت ثروتها ودرت أرزاقها وكان ممن سارت به مطية الأمل إلى تلك الأصقاع أيضاً رجل اسمه سلاطين قيل: أنه نمساوى الجنس، وقيل: إيطالى، والأوّل أصح وقيل: أن الخديوى إسماعيل هو الذى سير به إلى السودان فى خدمة واليها إسماعيل أيوب باشا فلبث فيها يتقلب فى المناصب الديوانية ويترفع إلى درجات الحكام والمديرين حتى قبض الله له من ولاه ولاية صغيرة من أعمال الدارفور فنشط عند ذلك من عقال وهب من خمول وأخذت كلمته من هذا الحين فى الظهور فلما تولى السودان

غوردون الإنجليز تقرب سلاطين هذا منه وأخلص فى خدمته وأجهد النفس فى طاعته، قال: وخلع غوردون نفسه من ولاية أرض السودان بعد بضع سنين ورجع إلى بلاده وهم أعلم من وطىء هذه الأرض بعادات أهلها وطباعهم وأميالهم وعاداتهم من قبائل العربان وقد بدأت فى أيامه تدب روح الحرية فى صدور كبار أشد القبائل بأسا وأعظمهم شهرة ولم يمض بعد ذلك غير القليل حتى ظهر رجل من الأبيض الدارفور اسمه محمد أحمد فادعى المهدوية وتظاهر بمظاهر النساك وتزيا بزى الصالحين واتخذ له خلوة ورباطا وجمع إليه جماعة من أهل الجبال سماهم دراويش وأكثر هو وإياهم من مظاهر التقشف والتعبد والزهد والورع فشاع بين العربان خبره وظهر اسمه واشتهر ذكره ومال إليه كثير منهم فهادوه بالهدايا من الأدرة والدخن والبقر والضأن وتقربوا منه ولازم بعضهم رباطه فكان يقص عليهم قصص الأبرار ويحدثهم بأخبار الصالحين ويحذرهم من قرب الساعة ودنوا لأجل ويقول إذا عم دين الإسلام واتحدت كلمة المؤمنين على يديه قامت الساعة وانتصب الميزان وحكم الحاكم الديان وما زال على هذا الحال حتى عم خبره وبلغت الآفاق شهرته وتجاوزت بلاد الدارفور فبلغ عدد من لازم خدمته ولاذ إلى رباطه نيفا ومائتين وأربعين درويشا وبدت على عهد رؤوف باشا معظم الخروج وتحزب بعض قبائل العربان وكادت تشق عصا طاعة أصحاب الجباية وامتنعوا من دفع الخراج فرفع أصحاب الجباية الأمر إلى رؤوف باشا وأخبروه بخبر هؤلاء القوم فلم يلتفت إلى ذلك ولم يحفل به فتورك من هذا الحين محمد أحمد فى تخت المهدوية آمنا مطمئنا وجعل يبعث الدعاة إلى بلاد الدارفور يدعون الخلق إلى طاعته ويستميلونهم إلى طريقته ويستنجدهم إلى نجدته واستخلاص البلاد من أيدى الكفرة المارقين فمال إليه ناس كثيرون جدًا من أهل تلك الأصقاع وتبعه آخرون ممن تبعوا غوردون الإنجليز من قبل وواصلوا رباطة بالهدايا والتحف وصاروا يجعون إليه فى أيام معلومة من كل شهر ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة فأوعز أصحاب الحل والعقد إلى رؤوف باشا بتدارك الخطب قبل استفحاله وأن سعين هيئة الحكومة بأصح الأخبار فأرسل رؤوف نفرا من الجند لا يبلغون المائتين وضابطين من صغار الضباط إلى مقر صاحب المهدوية ورسم لهم بقتاله وأن يأتوا به حيا صحيحا فلما كانوا على مقربة من رباطه انقض عليهم دراويشه فمزقوهم كل ممزق وسدوا عليهم المسالك وأبدوهم حتى لم يبق منهم سوى ضابط ورجلين قد ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار فاخبروا بما حل

بأصحابهم، قال المحدث، فلم يحرك هذا الحادث من قلب رؤوف ساكنا ولم يتبين له همة حيث جهز للقتال ثانية جماعة من الجند لا يزيدون عن الذين ماتوا وشدد عليهم فى الإتيان بمحمد أحمد حيا وكان المهدى بعد أن ظفر أصحابه بجند رؤوف وسلبوا ما كان من ذخيرة ومتاع قد ترفع بهم إلى الجبال وسير فى طلب النجدة من بعض القبائل فاجتمع لنجدته كثير من السود الأبطال وخرجوا للقاء أصحاب الوالى ودارت بين الفريقين رحى الحرب والقتال فظفرت لموم صاحب المهدوية وانتصرت على أصحاب الوالى نصرة مؤزرة وأبادوهم بحد السيف وشاع الخبر بين قبائل العربان القريبة من مقر المهدى فهابوه وخشوا بأسه وآمنوا بمهدويته وقاموا فى الحال لنصرته وتواردت على رباطه الهدايا وكثرت عنده المؤن فأحبه أصحابه وأخلصوا له الخدمة وبالغوا فى طاعته فوقع الوالى فى الخبال وبليلة البلبال وكتب إلى حكام الدارفور يستفزهم إلى إيقاف تيار هاته الفتنة فكان أول من لب نداءه سلاطين بيك حيث جمع نفرا من العربان وقلدهم بنادق الحكومة وجهزهم بمعدات الحرب وسير بهم إلى القتال فكان كغراب نوح عليه السلام يوم استقر به الفلك وكانت هذه الضربة من أشد الضربات على هامة الحكومة حيث تقوّت بقوم سلاطين ومعدات حربهم عزيمة صاحب المهدوية وكبرت شهرته وكادت تعم دعوته سائر البلاد وهان لديه من هذا الحين كل رخيص وغال فنهى وأمر وجمع وادّخر وغلب وقهر وفاز وانتصر ورتب قومه على أحسن ترتيب وسمى منهم أمراء الجيوش وكبار المئات والأمناء على بيت مال المسلمين وبالغ فى التظاهر بمظاهر الأولياء والصالحين بل الأنبياء المقربين وسن لأصحابه سنة جديدة فكانوا كلهم على قلب رجل واحد يأتمرون بأمره ويقومون عند إشارته، قال محدثى: كل هذا ورؤوف باشا كان كمن ضرب على سمعه وبصره، ثم تنهد وأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال: ولسوف يأتى يوم ترى فيه النفوس تفتك بالنفوس والرؤس مختلطة بالرؤوس يوم تنطبق فيه السنابك على السنابك وتلتقى البنادق بالبنادق والألوف تفتك بالألوف والسيوف تخابط السيوف فالله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قلت وكأن رؤوف باشا خشى عاقبة إخفاء الحقائق فجاء منه الخبر إلى أولى الأمر مفصلا بما هنالك من اشتداد الفتنة وخروج الكثير من بلاد الدارفور عن الطاعة فسيروا إليه المدد من القاهرة من جند وكراع وكتبوا إليه يقبحون فعاله ويتوعدونه بالعقاب الشديد وجعلوا يواصلون إرسال المؤن والذخيرة ويراقبون سير الحوادث فلما رأوا أن لا قبل له على إطفاء نار

هذه الفتنة خلعوه من منصب الولاية وأقاموا مكانه عبد القادر باشا أحد كبار الجند على أيام الخديو إسماعيل فسار إلى الخرطوم فى نفر من الأتباع ففرح الناس بولايته واستبشروا.

وبينما الناس فى شاغل بسبب حوادث أرض السود واستفحال أمر الفتنة وما يفعليه أصحاب المهدى فى كل يوم من القتل والنهب وسبى النساء والأطفال رفع قونصلا الإنجليز والفرنسيس فى حادى عشر جمادى الآخرة إلى الخديوى لائحة تتضمن وجوب إيقاف زعماء العصابة ونواب البلاد عند حدّ عدم مس العهود الدولية المرتبطة بها الحكومة المصرية والإقلاع عن كل ما من شأنه إثارة الخواطر ووقوع القلاقل والاضطرابات وإلا وجب التداخل القوى وإيقاف كل عند حده فاستقدم الخديوى عند ذلك البارودى وأعطاه تلك اللائحة فكبر أمرها عليه وعلى سائر أصحابه واستعظموا ما فيها وعدوه عارا وشارا وجعلوا يولون الاجتماع بنواب البلاد حتى تقررت القاعدة بينهم على أن يرسلوا بصورة من تلك اللائحة إلى الباب العالى ويسألون سرعة التداخل فى الأمر ومنع تعدى الدولتين على حقوق البلاد واختاروا من بينهم من يذهب إلى الخديوى ويحذره من التكلم فى أمر تلك اللائحة مع القونصلين حتى يرد الإذن من أمير المؤمنين، واشتد من هذا الحين بغض أهل البلاد الأجانب على اختلافهم فتقدم قناصل الدول إلى البارودى وأحمد عرابى فى ذلك فهوّنا عليهم الأمر وتكفلا بالأمن وعدم تكدير صفو الراحة فلم يطمئن مع ذلك للأجانب قلب ولم يكن لهم جأش ونزح الكثير منهم إلى أوطانهم فرارا مما كانوا يتوقعون وكثر اللغط بقرب وصول مراكب حرب الدولتين إلى ثغر الإسكندرية تارة وبقيام مأمور من كبار رجال السلطنة العثمانية أخرى، وقد بلغت الوحشة بين الخديوى والبارودى حدها وتفاقم الشر بين الفريقين، فلما كان أحد الأيام أرسل الخديوى أحد رجال ديوانه إلى البارودى يقول له تخلى عن مسند الرياسة واعتزلها وإلا أنزلناك عنها قهرا وكذلك قال لبقية الوزراء فعند ذلك عقدوا مجلسهم فى بيت البارودى وتناجوا فيما بينهم ثم سيروا إليه يقولون إننا لا ننزل عن منصبنا ولو أكرهنا على ذلك وإننا نعتبر كل أمر يصدر فى هذا الصدد بمثابة تهديد للأمن العام وتكدير لكأس الراحة فإذا قامت الفتنة بين أهل البلاد ولحق الإيذاء بالأجانب الدين بيننا كان الخديوى مسئولاً عن جميع ما يحدث دون غيره قيل فكبر هذا الكلام على الخديوى حتى كاد يتميز غيظا فلما كان اليوم الثانى الذى هو خامس عشرى جمادى الآخرة انقطع البارودى وبقية النظار عن الذهاب إلى نظاراتهم واجتمع نواب البلاد فى بيت

مقدمهم محـمد سلطان باشا ولبثوا ساعة يتـحدثون فى أمر انقطاع النظار ثم انتقلوا إلى بيت البارودى ولبثوا فيه طويلا وجـاءهم أيضاً بعض العلماء والمشايخ والوجهاء والأعيان وبعض قناصل الدول وتكلموا فى ذلك وأكثـر قونصلا الإنجليز والفرنسيس الغدوّ والرواح بين مقـر البارودى وسلطان باشا ثم جمع إليـه البارودى سائر الوزراء ونواب البلاد وأصـحاب الزعامـة من ضباط الجند وأغـلقوا عليهم الأبواب وأوقـفوا الحجاب قال بـعض المتقربين إليهم: وتكلموا فى خلع الخـديوى وتزيله وفيمن تصح ولايته من بعده كأن أمره بيدهم أو روحـه من عندهم وطال بينهم الجدال وكثر القيل والقال فكانوا إذا أتوا عـلى أمر وهموا بتنفـيذه قام من بينهـم من يفتحـه ويحذرهم عاقـبته فـيرجعـون عنه إلى غيـره وما زالوا حتى أعـياهم الحال وقلـت منهم الحيل فصمموا على اعتزال سائر الأشغال وترك الأمور وشأنها وإلقاء تبعة جميع ما يحدث من الخلل أو ما يقع من سفك الدماء والفتك بالأجانب والنزلاء فى قلب البلاد على شخص الخـديوى وأرسل البارودى فى الحال فى طلب محـمد سلطان باشا فـحضر ومعه بعض النواب فـاعلمه بما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يذهب إلى مـقر الخديوى ويعلمه بالخبر وكان ذلك فى نـحو الساعة العاشرة نهاراً فراجعـه محمد سلطان باشا وكذلك فعل نواب البلاد وطال بينهم الأخذ والرد إلى الساعة الرابعة عربى ليلاً فقام محمد سلطان باشا وسار إلى مقـر الخديوى ولبث عنده إلى الساعة السادسة ثم عاد إلى بيت البارودى واختلى معه إلى نحو الساعة الثامنة فكان بينهما من الحديث ما لم تصل إلينا معرفته إلى هذا الحين ثم انصرفوا جميعاً وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جمع الـبارودى سائر الـوزراء وأصحاب الزعـامة من ضـباط الجند وبعض العـلماء. والمشايخ والأعيان والوجهاء وجعلوا يتكلمـون فيما وقع عليه الاتفاق بالأمس فعلت أصواتهم وقامت بـينهم الضوضاء وتفرقت كلمـتهم فأرسل البارودى يطلب مـحمد سلطان باشا فحـضر ومعه جمـاعة من نواب البلاد فلم يستقـر بهم المقام حتى دخل قونصلا الإنجليز والفـرنسيس وطلبا من البارودى وأحمد عرابى أن يعطيا لـهما كفالة على عدم التعرض لرعايا دولتيهـما بسوء والذب عن أرواحهم وأموالهم عند مسيس الحاجة فأجابهما إلى ذلك ثم طفق البارودى يقص على القونصلين ما فعله الخديوى مما يعكس مشروعـات الأمّة ويصغر من قدر نواب البلاد وما وراء غـايته من تعديل حكم المجلس العسكرى وتعضيده لجماعـة الضباط الشراكسة وإرساله ثابت باشا إلى دار السلطنة لدس الدسائس وإذهاب امتيازات البـلاد فتكلم القونصلان مع البارودى

وأحمد عرابى ومحمد سلطان باشا طويلاً وأخذا على عهدتهما إزالة ما فى الصدور وإذهاب ما علق فى الخواطر وإرجاع الحالة إلى ما كانت عليه من المودة والصفاء، وقاما من ساعتهما ودخلا على الخديو وكلماه، قيل: فشكى إليهما ما يلاقيه من البارودى وأصحابه فما زالا به حتى هوّنا عليه وخففا عنه وزال بعض ما به من الغضب.

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرى جمادى الآخرة اجتمع محمد سلطان باشا ولفيف النواب وبعض العلماء والمشايخ والوجهاء بالبارودى وأصحابه فى بيته الكائن بشارع عابدين وتكلموا فى أمر الصلح وفى رجوع البارودى إلى معاطاة أشغال منصبه رحمة بالناس ودفعا لشماتة الأعداء وظلوا على هذا الحال إلى أن صارت الساعة الثانية عربى ليلا فقام محمد سلطان باشا ومعه جماعة من نواب البلاد وتقدموا إلى الخديو فى طلب العفو وحسم أسباب الشقاق فلم يقبل، وقال: لابد من خلع البارودى من مسند الرياسة فخرج محمد سلطان باشا ومن معه من النواب وعادوا إلى بيت البارودى وأخبروا بما جرى، فقال البارودى: نتخلى كلنا عن مناصبنا ونلقى تبعة ما يحصل من الأخطار على عاتق الخديوى وطال بينهم الكلام ساعة ثم عاد النواب إلى مقر الخديوى وتقدموا إليه فى قبول تنزيل البارودى فقط بشرط أن يتولى الرياسة مصطفى باشا فهمى فأجابهم الخديوى إلى ذلك فساروا إلى مصطفى فهمى باشا وكلموه فى الأمر فامتنع وشدد فى الامتناع وقال لا أتولاها والحال على ما هو عليه من الشدة والخصام فعادت عند ذلك الأمور إلى ما كانت عليه بل زادت خبالا وإشكالا وتعطلت الأشغال ووقفت حركة المصالح واشتد الخوف بالناس وأخذتهم الطيرة وعجز محمد سلطان باشا أوكاد عن التوفيق بين مطالب الفريقين وكثر تطواف صغار الضباط فى الشوارع والحارات وانبث الجند فى أطراف القاهرة وأكثر صاحب شرطة المدينة من التطواف والمراقبة وبقى الحال هكذا إلى سابع عشرى جمادى الآخرة فجمع محمد سلطان باشا لفيف العلماء والوجهاء وجماعة من الكبراء والأعيان واشتوروا ثم سار نفر منهم إلى مقر الخديوى بسراى عابدين وجعلوا يستعطفونه ويستميلونه إلى العفو عما فات وهو لا يلتفت إلى قولهم وما زالوا به حتى هان عليه الخطب ونسى أو كاد ينسى ما فات وأجابهم إلى ما طلبوا وهم الكافلون فتكفلوا فرسم باستبقاء الوزراء فى مناصبهم فأصبحوا وقد جلسوا على كراسيهم يأمرون وينهون وطيروا الخبر إلى الآفاق بزوال الخلاف وعود الأمور

إلى سابق مجراها فسكنت الخواطر المضطربة واطمأنت القلوب الواجفة ولكن لم يمض على هذه الحال أيام حتى وفد على مدينة الإسكندرية مساء الجمعة غرة رجب الفرد مدرعة من مدرعات الحرب الإنجليزية ودخل كذلك فى صباح السبت ثانيه اثنتان إنجليزيتان وثلاث أفرنسيات فأطلقت المدافع سلاما للحصون فردت عليها الحصون السلام وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة ثم بعد أيام وردت عدة سفن أخرى كبيرة فاشتد الخوف بالأجانب ونزح الكثير منهم من الإسكندرية وكثر تحدث الناس فى أمر حضور هذه السفن العظيمة وكادت تقف حركة الأشغال بالإسكندرية، فلما كان سابع رجب المذكور رفع القنصلان إلى مقام الخديوى بلاغا نهائيا من جانب دولتى الإنجليز والفرنسيس يطلبان فيه أوّلا تنزيل الوزراء من مناصبهم ثم خروج أحمد عرابى من ديار مصر إلى حيث يشاء من أرض الله الواسعة الفضاء مع بقاء رتبه ومرتباته وحفظهما عليه وتبعيد عبد العال مقدم الجند السودانى وعلى فهمى مقدم جند الحرس الخديوى إلى الأقاليم القبلية أو البحرية مع حفظ رتبهم وألقابهم على ما هى عليه فإن لم يتم ذلك بالتى هى وجب تنفيذه كرها فاستعظم البارودى ما فى هذا البلاغ واستكبره جدا فلم يجب عليه فسأله القونصلان، فقال: لا شأن للدول الأوروباوية معنا فى مثل هذه الأحوال وإنما نحن تابعون لسلطان فإذا شئنا فيلخابرن سلطاننا وما ذلك عليهن ببعيد وزعم البارودى وأصحابه بأن الصلح كان خدعة من الخديوى حتى تأتيه سفن حرب الدولتين فيفعل ما بدا له فكثر اجتماعهم تارة فى بيت البارودى وأخرى فى قشلاق الحرس الخديوى وكثر تطواف الجند فى الأزقة والحارات ليلا ونهارا وعاد محمد سلطان باشا إلى الوساطة بين الفريقين فلم يفلح ولم ينجح له عمل واشتدت الأزمة واستحكمت حلقاتها وتحذر كل فريق من الآخر ورأى البارودى أن فى خلعه لنفسه من منصب الرياسة غاية التبعة ونهاية المسئولية على الخديوى أمام الدول الأجنبية فخلع نفسه فى ثامن رجب وتبعه فى ذلك بقية الوزراء فهاج عند ذلك ضباط الجند وماجوا واحتج البارودى ورفاقه على بلاغ الدولتين واشتد الهياج والاضطراب فأرسل الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا ورسم إليه بتشكيل هيئة وزارة أخرى فامتنع فراجعه فأصر علي الامتناع ولازم بيته فسار إليه قونصل الإنجليز وكلمه فى الأمر فلم يقبل فأراه خبرا واردا إليه من صاحب السياسة الإنجليزية وترجمته: بودّنا لو يقبل شريف باشا رياسة الوزراء فتؤكدّوا له أننا نعضده ونؤيده جهد الاستطاعة فقال لا لكم ولا للكرامة والله ما

توليتها وهى على شفا جرف تتجاذبها الأهواء واشتد الخوف بالناس وسعى محمد سلطان باشا ونواب البلاد بين الفريقين فلم يفلحوا وذهب جماعة من ضباط الجند مع طلبة بيك عصمت إلى مقر الخديوى بسراى عابدين وكأنهم يريدون به السوء فرسم الخديوى بحضور الوزير محمد شريف باشا فحضر وانعقد مجلس حافل حضر فيه نواب البلاد والعلماء والأعيان والوجهاء فكلم الخديوى الوزير فى قبوله منصب الرئاسة وألح عليه فى ذلك وكذلك فعل النواب والعلماء والأعيان والوجهاء فقال أتولاها بشرط تنفيذ ما فى لائحة الدولتين وخروج أحمد عرابى من البلاد فعند ذلك قام طلبة عصمت وقال إنا فى طاعة أولى الأمر ولكننا لا نقبل ما فى تلك اللائحة ولاحق للدولتين فى طلب ذلك منا إذ هى أمور خاصة بالخليفة أمير المؤمنين ثم قام من فوره مغضبا فتبعه من كان معه من الضباط وانفض مجلسهم على غير طائل.

وظهرت بعد خروج طلبة من مجلس الخديوى حركة عظيمة بين الجند وسائر الضباط وورد الخبر من الإسكندرية بأن الجنود المرابطين فيها امتنعوا من قبولهم رئيسا على ديوانهم غير أحمد عرابى وأنه إن مضى اثنتا عشرة ساعة ولم يرجع إلى منصبه لا يكونون مسئولين عما يحصل بالإسكندرية فأزداد الحال إشكالا وخبالا وكبرت حجة الوزير محمد شريف باشا على عدم قبوله الرئاسة وكثر تطواف أحمد عرابى فى هذا اليوم أرسل إلى محمد سلطان باشا فى طلب سائر نواب البلاد فاجتمعوا فى بيت سلطان باشا وحضر أحمد عرابى فى نفر من الضباط والجند وأحاطوا بالبيت ومسكوا على من فيه المسالك ودخل أحمد عرابى فوقف فى وسطهم وعلى يساره محمد عبيد أحد ضباط جند الحرس الخديوى وخطب فيهم خطبة طويلة كلها حض على التعاضد والتعاون على خلع الخديوى ورفض سائر مقترحات الدولتين ثم طفق يقبح ما وقع من الخديوى ويعدد مساويه ومعايبه ومعايب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمغارم وغير ذلك من أنواع البلايا والرزايا فما أتم خطابه حتى علت بينهم الضوضاء واشتد الهرج فصاح أحمد عرابى ما بالكم لا تسمعون وكأنكم خشب مسندة إن كنتم لا تنادون بخلعه فنحن قد خلعناه فصاح عند ذلك سائر العسكر الذين كانوا حول البيت قد خلعناه ثلاثا وكان ممن حضر فى مجلسهم تلك الليلة الشيخ البحراوى مفتى الحقانية فقام ورد على أحمد عرابى وكاد أن يوقفه فتقدم إليه محمد عبيد وصفعه وأمسك بفروجيته فمزقها فصاح الشيخ فى وجهه

وصاح جميع الحاضرين واستل محمد عبيد سيفه وأقسم أنه يقطع عنق سلطان باشا ومن لم يناد بخلع الخديوى من سائر الحاضرين الساعة فهرب أكثر النواب وألقى بعضهم نفسه من الشبابيك وعلا الصراخ فى بيت نساء سلطان باشا ظنا منهن بأنه مات ذبحا وترامح الأتباع ليروا ما حل بساداتهم والجند تدفعهم عن الأبواب وما زالوا على هذه الحال من الجلبة والصياح إلى نحو الساعة السادسة ليلا فخرج أحمد عرابى ومن معه وهم يرعدون ويزيدون كأن بهم مسا من الجن وعلم الخديوى بما جرى فى بيت محمد سلطان باشا فى تلك الليلة فأرسل إلى الباب العالى وديوان المابين الهمايونى يقول إن الجنود المصرية لم ترض عن تخلى الوزراء عن مناصبهم وأن مقدمى الجنود والوزراء أقاموا الحجة على لائحة الدولتين فأتى إليه الجواب بأن قد رسم جلالة الخليفة أمير المؤمنين بإرسال وفد ليرى فى الأمر وسيقدم عليكم بعد ثلاثة أيام فانتظروه وكان الخوف قد كبر بالناس فلم ير الخديوى بدا من استبقاء الوزراء فى مناصبهم فرسم بذلك حتى يأتى وفد السلطان فعاد أحمد عرابى إلى تعاطى الأشغال وكتب إلى سائر قناصل الدول يطمنهم ويضمن لهم تأييد الأمن وعدم مس أحد من أهالى البلاد والأجانب بسوء وقال لهم بعد كلام أيضاً ولم تطلب العصابة الوطنية ونواب البلاد إلا أمورا ثلاثة، الأول منها إعادة لائحة الدولتين كما وردت مع خروج مراكب الحرب لتطمئن القلوب، وثانيها وضع قانون أساسى تتبين فيه حدود كل العائلة الخديوية والوزراء، وثالثها قطع المخابرات والعلاقات مع دولتى الإنجليز والفرنسيس خصوصاً وسائر الدول عموما لا بواسطة دار السلطنة العثمانية، وبلغ هذا الكلام الدول فأكبرته وأعظمته جدا وكتبت د،لة الإنجليز إلى قونصلها بمصر تقول إنها لا تألو جهد فى الذب عن مقام الخديوى والدفاع عن نفوذه ما استطاعت.

فلما كان عشرون من رجب دخل مينا الإسكندرية مركب سلطانية وفيها رجل من كبار الدولة اسمه المشير درويش باشا فنزل فى سراى رأس التين برهة لطيفة ثم ركب منها إلى محطة السكة الحديد وأمامه نفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وسافر إلى القاهرة فكان فى انتظاره على محطتها فريق من الجند ونفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وقد أعدوا لركوبه عربة من الأصطبل الخديوى فركبها وسارت الجنود أمامه وأصحاب الدولة خلفه فاجتمع عند ذلك الكثير من الحرافيش والسوقة وزعر باب الحديد البحر والأطراف وترامحوا أمام الجند وهم يضجون ويصيحون

ببذیء القول وفحش الكلام وأحاط جماعة منهم بعربة المشير وهم يصيحون بأصوات مزعجة نصر الله دين الإسلام ؟وهدم الله دين الكفار أتاكم الموت ياكفار أتاكم الموت بحرق النار وغير ذلك من عبارات السب واللعن وإشارات السخرية والأستهزاء، قيل فسأل درويش باشا عن سبب ذلك قال إن هذه عادة العامة إذا فرحوا بقدوم ضيف عزيز لديارهم فلم يستحسن منهم ذلك وأشار فلم يفعلوا وما زالوا على هذه الحال من الضجيج والصياح والنداء بعضهم على بعض إيذاء المارة من الأجانب وأهل البلاد حتى وصل المشير إلى المكان الذى أعدّ له فوقف أمام بابه ساعة وهم على ما هم عليه من الصياح والجلبة ثم انصرفوا وبات الناس ليلتهم تلك ذلك وهم فى شاغل مما عساه أن يحدث بسبب حضور درويش باشا ولقائه على هذه الصورة المنكرة وأصبح درويش باشا وقد بدأ فى المكالمة مع أحمد عرابى وكبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية وعقد لذلك عدة مجالس فتكلموا فيها طويلاً وكانوا إذا أغلظوا فى القول مع أحمد عرابى وعابوا ما وقع من الوزراء ولا سيما منهم البارودى قال لاحق لكم ولا عتب ما دامت البلاد آمنة مطمئنة وها هى الفتنة قائمة على ساقها ومع ذلك لم يقع فى جوف البلاد ولله الحمد ما يكدر صفو الراحة وطال الكلام بينهم أياماً على غير جدوى.

وكان مذ قدمت سفن حرب الدولتين إلى مدينة الإسكندرية قد أخذ الأجانب يفدون عليها أفواجاً وهم فرحون بها مطمئنون كأنهم لا يخشون بجوارها جائرا فكبر ذلك على العامة والسوقة من أهل الإسكندرية وحسبوه إهانة لهم وإذلالا وظنوا أن الأجانب إنما يريدون بأهل البلاد الشر فأظهروا التغيظ وبدت منهم دلائل الشر وأغلظوا فى مخاطبة الأجانب فكان إذا كلم الواحد منهم أجنبياً هزله الرأس وأسبل الجفن توعدا وتهديدا فأحس الأجانب بما وراء ذلك وخافوا شر العاقبة فأخذوا فى التأهب والاستعداد وأكثروا من شراء البنادق والبارود واستخدم عظماؤهم بعض الأقوياء من أسافل اليونان وزعر الطليان، قيل: وشاوروا فى ذلك أميرى مراكب حرب الإنجليز والفرنسيس فوافقاهم عليه وأرسلوا رجلا منهم إلى القناصل بالقاهرة ليسألهم فى ذلك أيضاً فلم يوافقوا عليه واشتد تحذر الفريقين وظهرت علامات الوحشة فقل تطواف الأجانب فى الليل وامتنع جلوسهم فى محلات اللهو وأغلق أصحاب الحوانيت منهم حوانيتهم فكانت وحشة عظيمة للغاية، فلما كان يوم الأحد سادس عشرى رجب من السنة أى سنة تسع وتسعين هجرية وحادى عشر جونيو سنة

إحدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية بينما كان الأجانب خارجين عن بيوتهم قامت الغوغاء من أهل الإسكندرية وتجمعت زمرا وسارت أولا من الشارع المعروف بشارع إبراهيم وبأيديهم العصىّ والهراوى والمساوق وحطب الوقود وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين ثم أتى جماعة منهم من شارع الضبطية وأخرى من سوق الطباخين وكأنهم كانوا على عهد واتفاق وأوقعوا بالأجانب ضربا وقتلا فترامح الناس إلى الحوانيت والبيوت وتسابق الأجانب يريدون الخلاص وأطلقت البنادق من منافذ البيوت على الغوغاء فكانوا إذا رأوا أجنبياً ترامحوا خلفه ونزلوا بالعصى والهراوى على أم رأسه حتى يسقط ميتاً فيأخذون ما معه ويتركونه ويلحقون بغيره وقد أفحشوا فى القتل والسلب وتخريب الحوانيت ونهب ما فيها فكثر الصياح من أقصى المدينة إلى أقصاها واشتد البكاء والعويل وضاقت الأرض فى وجه الأجانب ولجأ بعضهم إلى بيت أصحاب الشرطة فرارا من الموت فلاقاهم أصحاب الشرطة الذين هم جند المستحفظة بسنابك البنادق فقتلوهم عن آخرهم فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار وطافت الغوغاء جميع حارات الأجانب فكان إذا رأى الأجنبى نفرا من هؤلاء الأخلاط مقبلين نحوه امتقع لونه فى الحال وتخلخلت قدماه فإذا هم بالفرار فلا تطاوعه قدماه فيعدو عدو الغراب خطوات ثم ينكب على وجهه فيلحقونه بضرب العصىّ والنبابيت وربما وجدوه ميتا من شدة الخوف فكان ذلك من غرائب الطبيعة وقد جرح ومات فى ذلك اليوم خلق كثير وبينهم جماعة من كبار الأجانب ووجهائهم، وكان مقدم جند الإسكندرية يومئذ سليمان بيك داود فأرسل إليه عمر باشا لطفى محافظ المدينة فى طلب المدد من الجند ليستعين بهم على إيقاف تيار الفتنة وحقن الدماء وكان ضابط المدينة قد تمارض فى ذلك اليوم ولم يخرج من بيته فأرسل سليمان بيك يقول لا دخل لى فى شيء من ذلك حتى يأذن لى أحمد عرابى فطير عمر لطفى باشا الأخبار إلى القاهرة بما وقع فورد الأمر من أحمد عرابى بقيام الجند ومنع تلك الفظائع فتفرقت العساكر فى الشوارع وأخذوا فى التطواف فى نحو الساعة الحادية عشرة العربية نهارا وكانت إلى هذه الساعة قد تفرقت الغوغاء وتمزقت اللموم وطاف محافظ المدينة فى نفر من أصحاب الشرطة ومعاونى الضابطة وأمر فجمعوا ما بقى من جثث القتلى بالشوارع والطرقات وجوار حمام الضابطة فكانوا نيفا وثلثمائة قتيل، وقيل: غير ذلك ونادوا بالأمان وعود الناس إلى تعاطى أشغالهم وما زال الجند يطوفون الليل كله وبكاء النساء وصياح الأبناء على آبائهم متتابع، فكانت

حادثة يالهـا من حادثة لم يسبق لها مثيل إلا فى دولة المماليك الثانية وقيام العامّة على نابليون بالقاهرة، ولما علم من بمصر والقاهرة بما وقع بالإسكندرية قامت بينهم ضجة عظيمة وتسابق كل من له أهل أو ولد بالإسكندرية إلى موارد الأخبار يسألون وعم الخوف والإضراب وباتوا وهم فى كمد ملازم وأصبحوا وقد اجتمع سائر قناصل الدول ودخلوا على المشير درويش باشا وكلموه فى الأمر وأغلظوا فى مخاطبته واتهموه بإضرام نار هذه الفتنة وعنفوه وقالوا أنت وحدك المسئول عن كل ما جرى إذ لولا حضورك فى هذه الظروف ما أريقت هذه الدماء الزكية ونحن اليوم نطلب منك أن تكفل صيانة أرواح جميع الأجانب الذين فى داخل البلاد، قيل: فاضطراب المشير وأشار بعقد مجلس فى سراى عابدين للمداولة فى الأمر فعقدوه وحضر فيه الخديوى ودرويش باشا ومن معه من رجال الوفد العثمانى والوزير محمد شريف باشا وكبار رجال الحكومة وسائر قناصل الدول فتقررت القاعدة بينهم بعد أخذ وردّ على التكفل لقناصل الدول بحفظ أرواح وأموال سائر الأجانب ونزلاء البلاد منهم بشرط امتثال أحمد عرابى وطاعته وقيامه بتنفيذ كل ما يصدر إليه متعلقا بالأمن فأجابهم أحمد عرابى إلى ذلك وتكفل لهم درويش باشا بجميع ما طلبوه وبملاحظة طاعة الخديوى والقيام بجميع أوامره فانفض مجلسهم يومئذ على ذلك وقام أحمد عرابى من فوره وأرسل إلى سائر المديرين والمحافظين بمنع اجتماعات الجند أينما كانوا وكتب إلى سليمان بيك داود مقدم جند الإسكندرية يستحثه إلى الالتفات ومنع وقوع شىء من الحوادث والقلاقل وبذل العناية فى ملازمة جند الإسكندرية لحدود الطاعة والامتثال.

ورسم الخديوى بتحقيق أسباب هذه المذبحة ومحاكمة كل من كان له يد فيها وشكل لذلك مجلس مخصوص يرأسه عمر لطفى باشا محافظ الإسكندرية فاجتمع المجلس فى دار المحافظة وبينهم مندوبو قناصل الدول وقد كثر فى هذا الحين رحيل الأجانب عن الإسكندرية وحضورهم من داخل البلاد عشرات ومئات إلى السواحل طلبا للفرار والنجاة وكثر تواردهم حتى لم يبق منهم أحد فى المدن والقرى ونزح أيضاً العدد العديد ممن كان منهم بالقاهرة وقام الخديوى إلى الإسكندرية فى سادس عشرى رجب ومعه درويش باشا ورجال ديوانه الخاص فلما نزل بمقره برأس التين استدعى إليه قناصل الدول وحادثهم فى أمر الفتنة وطيب نفوسهم وكلمهم كذلك درويش باشا وهوّن عليهم وبقى قونصلا الإنجليز والفرنسيس بالقاهرة ولم يحضرا

مع الخديوى إلى الإسكندرية إلا بإجازة من حكومتيهما بعد أيام فلما قدما إلى الإسكندرية أوعزا إلى سائر قناصل الدول بالتشديد عن رعاياهم بالجلاء عن البلاد ففعلوا فاشتد الخوف بالناس ونزل من بقى من الأجانب إلى السفن الراسية أمام الإسكندرية وطلب قناصل الدول من دولهم سفنا لنقل رعاياها فجاءتهم فسكنها الناس بدل البيوت فرارا مما عساه أن يقع.

حدثنى صاحب لى كان لا يفارق باب الخديوى فى هذه الأيام قال: دخل المراقب الإنجليزى يوما على الخديوى وقال له: هل يمكن الاعتماد على ما يقوله المشير درويش باشا من طاعة الضباط وأمانة العسكر المصرى فى الخدمة عند مسيس الحاجة، قال فتأفف الخديوى وقال: أنى يكون لنا ذلك ولم نر منهم إلى الآن إلا العسف على أنى أخشى العاقبة ولا أرى سبيلا لتوطيد الأمن فى هذه الظروف إلا باستنجاد أمير المؤمنين فيرسل إلينا فريقا من عسكره المنصور يذب عن البلاد ومن فيها عند مسيس الحاجة ولم أر فى سفارة المشير درويش باشا ما كنت أتمناه من الفلاح فقد خابت سعيا وباتت وأصبحت وكأنها لم تكن شيئاً مذكورا، وشاعت هذه الأقوال بين الناس وعلم بها قناصل الدول فتقدموا إلى الخديوى فى خلع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى عسى أن تفلح فى تدارك الخطر قبل استفحاله فأجابهم إلى ذلك وقد كانت حاجة فى نفسه، ورسم بتشكيل وزارة جديدة برئاسة إسماعيل راغب باشا وهو من كبار رجال الحكومة القدماء وأنزل أحمد عرابى باشا نفسه من منصبه وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فاستغرب الناس هذا الأمر وكثر تحدثهم به فلما استقرت براغب باشا الرئاسة تقدم إلى الخديوى فى طلب العفو عن جميع من اشتركوا فى الحوادث الأخيرة إلا من كان لهم يد فى مذبحة الإسكندرية وقال للخديوى: إنما نريد بذلك تطييب القلوب المتنافرة فيعود الأمن وتزول المخاوف وترجع الأحوال إلى سابق مجراها فأجابه الخديوى إلى ذلك ثم جعل راغب باشا يشدّد فى تحقيق حادثة الإسكندرية ويقبض على كل من كان له يد فيها وبث العيون والجواسيس وأصحاب الشرطة فى أنحاء البلاد فجاءوا بالكثير من السوقة والغوغاء والحمارين والشيالين وأهل البطالة والكسل وبعض مشايخ الحارات ومشايخ الطرق وجماعة من أصحاب الشرطة فأمر بهم فألقوهم فى حبوس الإسكندرية حتى غصت بهم وضاقت وجعل الخديوى يطوف فى نفر من الحراس فى شوارع المدينة وأرجائها

تطمينا للقلوب وتسكينا للخواطر المضطربة وكذلك كان يفعل درويش باشا ومن معه من رجال الوفد ومع ذلك فقد كان جلاء الأجانب عن البلاد متتابعا.

وتقدمت الدول الأوروباوية على يد سفرائها إلى الباب العالى فى عقد مؤتمر دولى بدار السلطنة للبحث فى أنجع الأدواء الحاسمة لأسباب الفتنة بديار مصر وإيقاف أهلها عند حدهم وشددوا على الباب العالى فى طلب ذلك فامتنع وقال ليس فى الأمر والأنباء متواصلة من درويش باشا باستتباب الأمن ورجوع سائر الأمور إلى مقدر ما كانت عليه فأبى كبار سياسة الإنجليز إلا عقد ذلك المؤتمر والباب العالى يطاول ويحاول ثم استعان بدول روسيا وألمانيا وإيطاليا فأعانوه وقاموا لنصرته خوفا من مطامع الإنجليز فى مصر دولة الإنجليز منهم ذلك وكتبت تقول أنها تتعهد متى تم عقد ذلك المؤتمر لا تعمل قط على فصم عرى الصداقة التى بينها وبين الباب العالى ولا تعمل على أراضيه إلى جانب أملاكها ولا أن تستولى على مصر ولا على قسم منها ولا أن تسعى قط فى الحصول على شىء من الامتيازات السياسية أو التجارية ما لم يشاركها فى ذلك بقية الدول فانحازت لرأيها عند ذلك سائر الدول وانفرد الباب العالى فأصر على الامتناع فتشذذت الدول وعقدت المؤتمر فى قسطنطينية فى سابع شعبان من السنة أى سنة تسع وتسعين ولم يحضره أحد من جانب الباب العالى فتقررت القاعدة بينهم على أن الحكومة وكلاؤها بالنيابة عنها على هذا البروتوكول (يعنى المحضر السياسى) تتعهد قط اغتنام أرض مّا ولا الحصول على امتيازات مّا ولا أن يكون لرعاياها من يكون لغيرها من رعايا الدول الأخرى فى مصر وذلك فى جميع المسائل التى عليها بسعيها واشتراكها فى المخابرات لترتيب وضبط أمور البلاد المذكورة الإنجليز من هذا اليوم يعدّون المعدّات ويجهزون الجنود ويجعلون سفن حربهم قدم الاستعداد ثم دعوا بقية الدول إلى الأشتراك معهم فى عمل يكون من ورائه الفتنة ووقوفهم عند حد الطاعة أو أنهم يسيرون معا إلى الإسكندرية والعساكر لإرجاع الأمن والراحة إلى تلك البلاد فأحست الدول بما وراء ذلك لأسباب لم تصل إليها معرفتنا لغاية الآن، فلما رأت منهن هذا الإحجام قونصلها بمصر وهو المستر مالت فتمارض ونزل إلى إحدى سفن الحرب الإنجليزية أمام الإسكندرية ولبث بها أياما والناس يتساءلون عن سبب ذلك ثم شاع الخبر إلى برندزى إحدى موانى البحر الأبيض فتحدث الناس به كثيرا وأخذتهم الطيرة فى هذا الحين على هذه الصورة هو بمثابة إشهار الحرب على البلاد وإطلاق النار على حصون

الإسكندرية، وبينما كـان مالت قونصل جنرال الإنجليز بعـيدا عن منزويا فى برندزى كأن لم يبق بين دولتـه وديار مصر عـلاقة كان دوفرين سـفير السلطنة يغـرر بالباب العالى ويزين لرجال المابين استرضاء أحمد عـرابى نياشين الاعتبار وما زال بهم حتى أفلح سعيه فأحسن السلطان على أحمد عـرابى المجيدى الثانى وسير الخبر بذلك إلى القاهرة ففرح أحـمد عرابى وأصحابه وظنوا أن رضاء السلطـان وارتياحه إلى ما هم عليـه من مخالفـة الخديوى والدولتـين ولم يعلموا الخطـر القريب وتناقل أصـحاب الصـحف المحلية خـبر هذا الإنعـام وفصلوا فـيه وقـاسوا وخـاطوا فنقله أصـحاب الصحف الإنجليزية ونادوا بالويل والثبور وقـالوا أنه لبرهان جديد على عداء السلطان لسيدة البحار ودولة العظمـة والفخار وعمر كبار سياستـهم على إحباط أعمال المؤتمر الدولى وتقدموا إلى بقية الدول فى رفع لائحة إلى البـاب العالى يطلبون فيها إما أن يسير جنوده إلـى مصر لإخماد نار الفـتنة وإرجاع الأمور إلى سابق مـجراها وإما أن يترك الدول ترى رأيهـا فى ذلك فامتنـع الباب العالى وقـال لا داعى لإرسال الجنود والبلاد آمنة مطمئنة فأعجب الإنجليز امتناعه ووافق ما فى نفوسهم وقد كانوا يخشون من ذهاب عسكر السلطان إلى مصر ويحسبون لذلك ألف حساب وأوعزوا فى الحال إلى أميـر سفن حـربهم الراسيـة أمام الإسكندرية أن ينتـحل أقل العلل والأسـباب العدائية ويطلـق على الفور مدافعه على حـصون الإسكندرية حتى يدكهـا دكا وكان أحمـد عرابى قد قدم من القـاهرة إلى الإسكندرية فى حاشـيته وبعض الخدم ومـعه بعض كبار الجند المقرّبين إليه فاستقرّوا بالترسخانة وكان فى حصون الإسكندرية تسعة آلاف مقاتل فكتب سيمور أمير تلك السفن إلى أحمد عرابى يقول أن الجنود المصرية آخذة فى تحصين سائر القلاع وإلقاء الأحجار الكبيرة فى مدخل المينا ليسدوه ويمنعوا المدد فينحصـر الأسطول وأن فى تحصين الحصـون وتقوية الاستحاكـامات مع وقوف سفن دولة الإنجليز أمامها عارا وتحـقيرا فإن لم تنكف الجنود عن ذلك أطلقت عليها مدافعى وأصليها نارا حـامية، وكان طلبة عصمت أحد أصـحاب الزعامة هو المتولى أمر ذلك فكتب إلى أمـير السفن يقـول ليس فى الأمر شىء مما تقول وأن حـصوننا وقلاعنا هى فى حـالة لا تستدعى عملا مّـا فعاود سيمـور الكلام وأغلظ فى القول وقال: لابد من جلاء العـساكر المصرية عن طابيتى الأنفوشى والبـرج واحتلال الجنود الإنجليزية لهمـا فلم يجبه طلبة إلى ذلك أيضاً فجـعل سيمور يهدد عسـاكر الحصون ليلا بأنوار الكـهرباء التى كانت تنبـعث من مراكب الحـرب على الحصون فـتخطف

الأبصار وتهتز لها القلوب وشاع خبر ذلك بين الناس فاشتد بهم الخوف وكثر جلاؤهم عن الإسكندرية إلى القرى والأرياف البعيدة وكثر تطواف أحمد عرابى فى الشوارع والطرقات وخلفه جماعة من الجند يحملون البنادق وأرسل سيمور إلى الخديوى على يدى كولفن مراقب الإنجليز يقول له: أترك المدينة وأنزل إلى إحدى السفن كى لا يصيبك شيء مما عسى أن يحصل بأسباب ضرب القلاع والحصون فلم يقبل، وقال: عار علىّ أن أترك المدينة وفيها العدد العديد من رعاياى المخلصين فألح عليه كولفن فامتنع وقال: لا يحل لى أن أتركهم فى وقت الشدة ولا يجمل أن أترك بلادى فى ساعة الضيق، وتداخل قناصل الدول فى الأمر وسعوا فى الصلح بين سيمور البحر وعرابى البر فلم يفلحوا وكان سيمور يأتيهم فى كل يوم بطلب جديد فإذا امتنع عرابى من تنفيذه جاءه بأشد منه فكتب أحمد عرابى محضرا بجميع ما يطلبه سيمور ووسمه بالعداء والفجور وقال عن سيمور: أنه مثال الظلم والعداء للبلاد وأهلها وأنه أهان المصريين واحتقرهم ولم يراع للهيئة الحاكمة حرمة ولا اعتبار ولذلك وجبت مقاومته جهد الاستطاعة وأنه قد فوض أمر الدفاع عن البلاد إلى أحمد عرابى ومن معه من كبار الجند المصرى ثم أخذ ورقة هذا المحضر جماعة من أصحاب الزعامة وطافوا بها على بيوت الوزراء فوضعوا عليها أسماءهم قيل ودخلوا بها على الخديوى أيضاً فلم ير بدا من التوقيع عليها ثم أرسلوا هذه الورقة إلى سيمور البحر وسير فى الحال أحمد عرابى إلى سائر المديرين والمحافظين يعلمهم بأن يكونوا من الآن على قدم الاستعداد لإرسال المدد من المال والرجال عند الطلب وأكثر من تطوافه على القلاع والحصون وترتيب الذخيرة ومعدّات الحرب فلما كان يوم الأحد ثانى عشرى شعبان جاء رسول من قبل سيمور ودخل على الخديوى بمقره برأس التين، وقال: إن الأمير على عزم إطلاق المدافع على الحصون فى صبح الثلاثاء رابع عشرى الشهر وقد جئت أسألكم أن تنتقلوا من سراى رأس التين إلى سراى الرمل تحرزا مما عساه أن يحصل من رمى القنابل ثم تركه ودخل على المشير درويش باشا وناوله خطابا يقول فيه: إنك أنت المطالب بحياة الخديوى وعليك تبعة جميع ما يحصل لشخصه فأحذر العاقبة والسلام، وفى صبح الثالث والعشرين من شعبان أرسل إلى راغب باشا رئيس الوزراء ودرويش باشا مندوب الباب مكاتبة يقول فيها: حيث قد انسحب قونصلنا من الديار المصرية ولم يبق بها أحد الآن من وكلاء دولتنا فقد انقطعت بذلك العلائق التى كانت بين حكومة جلالة ملكة الإنجليز

والخديوية المصرية ولم يبق بينهما من الوداد ما كان، فلما شاع هذا الكلام بين الناس خافوا خوفا عظيما وازداد جلاؤهم عن المدينة وشدد قناصل الدول على من تخلف من رعاياهم بسرعة الأرتحال أو النزول بالسفن الراسية أمام الإسكندرية واشتد الهرج والمرج فى الشوارع والطرقات وأغلق فى ذلك اليوم ما بقى من حوانيت الأجانب وغيرها من حوانيت أهل البلد وهرع العامة إلى بابى رشيد وسدره فارّين إلى الريف وخرجت مراكب حرب الفرنسيس فى مساء ذلك اليوم راجعة فلم يبق منها سوى مركبين تحت طلب قونصل جنرال الفرنسيس فكان لخروجها دهشة عظيمة وكثر تساءل الناس عن سبب ذلك فاختلفت الأقوال فمن قائل: إن خروجها كان لخلاف وقع بين أميرى الأسطولين، ومن قائل: بل بين الدولتين، ومن قائل: لكره الفرنسيس لقتال المصريين وغير ذلك من الحدس والتخمين وقد عاب عقلاء الناس على الفرنسيس هذا الأمر وعدّوه فلتة من فلتات سياستهم المحفوفة بالطيش والخفة وقالوا: سوف يندم أصحاب سياسة الفرنسيس على ما فرط منهم فلا ينفعهم الندم واشتد قلق الناس وتحذرهم وامتناعهم من الخروج من دورهم فى الليل فكانت وحشة عظيمة للغاية.

ولما كانت الساعة الأولى من يوم الثلاثاء رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية أى صباح الحادى عشر من يوليو سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية صوب سيمور أفواه مدافع سفنه نحو الحصون والقلاع وأطلق عليها القنابل إطلاقا متتابعا فاطلقت الحصون كذلك مدافعها وتتابع الرمى من الفريقين ووصلت قنابل السفن إلى القلاع والحصون والبيوت وضواحى المدينة فكانت أشكالا مختلفة بعضها عن بعض ففتكت بجند الحصون فتكا ذريعا ودكت بعض القلاع دكا فلما اشتد الرمى وكادت تتعطل مدافع الحصون خرجت الغوغاء من الحارات وانتشرت فى الأطراف واختلطت بالجنود وهم فى جلبة وصياح وتزاحموا على القلاع والحصون يريدون معاونة الجند فكان إذا هم الجند بتصويب مدفعه نحو سفن الإنجليز هللوا وصاحوا ونادوا ياأهل بيت رسول الله، ياشيخنا ياأباصيرى، ياسيدى ياقوت يا عرشى، وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة وسار جماعة منهم وأمامهم أرباب الأشاير بالبيارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطىء البحر ناحية السيالة وصاروا يصيحون بأعلى أصواتهم بيالطيف الله أكبر الله أكبر وهم يطوحون البيارق ويضربون الطبول والكاسات فرمت عليهم إحدى تلك السفن شيئاً

من القنابل الصغيرة تباعا فمزقتهم وأهلكتهم عن آخرهم إلا من كان بعيدا واشتد الرمى من السفن وتراسل فاتصلت نيران إحدى القنابل بمخازن البارود الكائنة بقلعة آطة فالتهب البارود وانفجر انفجارا هائلا ودمر القلعة ودكها دكا وأهلك جميع من بها من الجند والعامة والضباط والتصقت لحومهم وما بقى من مشاشهم بجدران القلعة فكان لها منظر تنفطر من رؤيته القلوب وتتفتت من هوله الأكباد وما زال الرمى متراسلا من السفن والحصون وأحمد عرابى لا يخرج من قلعة القضا ولا يعلم بشىء مما هو جار فى غيرها من بقية القلاع، قيل: وكان لا هم له فى ذلك الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة بعض الأوراد وتحريك أصبعيه على مسبحة كانت بيده، وكان راغب باشا رئيس مجلس الوزراء وبعض الوزراء عند باب رشيد فخرج الناس من المدينة هائمين على وجوههم من شدة رمى القنابل وفعلها بالقلاع والدور والوكائل ومروا من باب رشيد زمرا كالإبل الآبقة، فلما كان وقت الظهيرة بطلت مدافع الحصون وسكنت أصواتها وظهر على ما بقى من القلاع رايات بيضاء إشارة إلى الكف وطلب الأمان فانكفت السفن عن الرمى وخرج حينئذ أحمد عرابى من مخبئه وسار إلى مقر الخديوى بسراى الرمل فسأله الخديوى عما جرى بالقلاع وما حل بالعسكر فقال: الخيبة والفشل والخطر الشديد ولا حول ولا قوّة إلا بالله فلم يبق فى قدرتنا أن نقاوم فأما أحسن التدبير فالتسليم بسائر مطالب أمير السفن، فلما سمع الخديوى هذا الكلام كبر عليه الأمر واستعظمه وكان معه بالسراى يومئذ عثمان باشا وإسماعيل باشا كامل والزبير باشا والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش على عهد إسماعيل باشا وفريديكو بيك وتيكران بيك وآخرون غيرهم فجمعهم إليه وعقد فى الحال مجلسا منهم وكلمهم فى الأمر كثيرا فاتفقوا على أن يسيروا طلبة بيك عصمت أحد أصحاب الزعامة رسولا إلى سيمور أمير السفن ليخابره فى الصلح فسار طلبه وغاب ساعة ثم عاد وأخبر الخديوى بأن سيمور يطلب أن تحتل عساكره ثلاث قلاع من أكبر قلاع المدينة وإلا فانه يعاود الرمى بالقنابل بعد الظهر، قال: فسألته مهلة حتى تحصل المداولة فلم يقبل فأمر الخديوية عند ذلك بالمجلس فانتظم وتكلموا ثانية فتقرر أنه لا يصح قط للخديوى المصرية الترخيص فى نزول جنود أجنبية فى قلاعها ولا حصونها بغير إذن من الباب العالى وكتبوا بذلك محضرا ولكنهم لم يبلغوه إلى سيمور السفن.

وأخذ من بقى من جند القلاع والحصون فى الخروج منها قبيل الغروب وقد تركوا ما فيها من جثث الأموات والذخيرة والمهمات وساروا نحو باب رشيد والباب الجديد وخرجت كذلك بقية العساكر من معاقل رأس التين وباب رشيد والباب الجديد إلى ناحية الملاحة وحجر النواتية وتتابعوا فى الخروج الليل بطوله فلما لاح الفجر ظهر سليمان بيك داود مقدم جند الإسكندرية ورسم إلى بعض الفرسان بالنداء فى الناس بالخروج من المدينة عاجلا ومن تخلف حل به ما يكره فكثر النداء فى الحارات والشوارع وهب الناس من نومهم وكأن على رئوسهم الطير وخرجوا هائمين وهم حفاة حاسرو الرءوس، فكانت الأطفال تبكى وتصيح والأمهات يولولن والرجال تتسابق وتترامح وهم فى دهشة وذهول وتتابع خروج النساء من ذوى البيوتات لا يحملن من متاعهن سوى المآزر وما عليهن من خفيف الثياب والعسكر يستحثوهنّ إلى الخروج من الباب الجديد وينادون عليهن بأصوات التهديد فلم تشرق الشمس إلا وقد غصت رحبات الباب الجديد بالخلق الكثير من الرجال والنساء والأطفال وهم فى أسوأ حال وكثر الزحام واختلط الناس بعضهم ببعض وارتفعت الشمس فاشتد بهم الظمأ فطلبوا الماء فلم يصلوا إليه وانتشر العربان حول تلك الأطراف فعاثوا وأفسدوا وسلبوا كل ما وصلت إليه أيديهم فعلا عند ذلك الصياح وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب وهم بعضهن بالرجوع إلى المدينة على ما فيها من المخاوف والأخطار فلم يتمكنّ إذ بانت طلائع زمر الأخلاط والحرافيش يحملون المنهوبات من الحوانيت بالمنشية وشارع شريف باشا والميدان والسكة الجديدة من أصناف الحرير والديباج والمقصبات وأفخر الملبوسات وأثمن المجوهرات والمصوغات وأنواع التحف وأصناف الزينة والمشروب والمأكول وأصناف العطريات وأثاث البيوت من الصينى والبلور وغير ذلك مما يجل عن الحصر وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين وأكثرهم ملطخ بالدم، وكان لما أخذ الناس فى الخروج من المدينة وقد تركوا بيوتهم بما فيها من متاع وفرش ومأكول ومشروب تطاولت أيدى العامة إلى سرقة بعض الشىء من ذلك ولم تكد تصل إليه أيدى البعض الآخر حتى برز سليمان بيك داود فى ميدان محمد على، قيل: ونادى فى الجند والعامة بكسر حوانيت التجار ونهب ما فيها وإضرام النار فى المدينة حتى تصير رمادا وأكثر من النداء بذلك فقامت العامة قومة واحدة وكسروا أبواب الحوانيت بالفؤوس والبلط ونهبوا جميع ما فيها من الحرائر والمقصبات وأصناف الأقمشة الغالية والمجوهرات

والمصوغات وكل مـا وصلت إليه أيديهم وكان الرجل منهم إذا حمل شـيئاً من ذلك وهم بالخروج لحـقه من هو أقوى منـه فيضربـه أو يقتله ويأخذ مـا معه وربما اقـتتل الاثنان أو الثـلاثة منهم على شـىء لا يستـحق بعض قـروش وأنحـدر العـربان من السيوف والرمل والمندرة وباب العرب ومريوط وغيرها وانبثوا فى المدينة انبثاث الجراد فقتـلوا ونهبوا وفسـقوا بالأبكار والأمهات قـسرا وعاثوا فيـمن خرج من الناس إلى الباب الجـديد وخطفوا مـا وجدوه من حلى وملبـوس وقتلوا بعض النـساء بإطلاق البنادق والرجال بطعن الرمـاح وفعل كذلك الجنود فنهبوا وخطفـوا وأطلقوا بنادقهم على من كان يقاومهم وكان المشهد مريعا جدا والخطب شديدا للغاية، فلما كان بعد الظهر بساعة أضرموا النار فى الكثير من بـيوت المنشية وشارع المسلة وشارع الضبطية والميدان وفى تلك الوكائل العظيمة والمبانى الشـهيرة فاندلع لهيب النار وتطاير الشرر إلى عنان السماء وأظلم الجوّ وامتلأ بالدخـان واسودّ وجه الأرض من الرماد المتساقط والجند يطوفون ويزيدون النار إضراما بإراقة زيت البترول على ما لم يشتد منها لهيبه والعامة يسيرون بين النار وهم يحـملون المنهوبات والناس فى بكاء ونحيب والأطفال والنسـاء يلتهـبون عطشـا ويصيـحون الماء الماء، ودخل الليل فكان المنظر أشـد هولا وإزعاجا فقـد كانت المدينة كلها كشعلة واحدة وبقى الجند والنهـابة على ما هم عليه من القتل والنهب والعبث بالأبـكار والنساء كرها إلى صباح اليوم الثـانى فأخذوا فى الجلاء عن المدينة وخرج مـعهم من لم يبق معه شىء يخاف عليه وتبـعهم من كانوا بالباب الجـديد فرارا من العربان الضـاربين حولهم كالوحـوش الخاطفة وأمر أحـمد عرابى فأتوا بقطارات السكة الحديد وأركبوا فـيها الناس إلى سائر البنادر والقرى لحد القاهرة وأرسل فى يـوم الحريق أصحـاب الزعامة إلى مـقر الخديـوى بسراى الرمل جماعـة من الفرسان يبلغ عددهم زهـاء الأربعمائة فارس وبعض أصـحاب الشرطة فـأحاطوا به مـن كل جانب وعلم الخـديوى بخـبـر ذلك فأرسل يـسأل عن سـبب حضورهـم فقال مقـدمهم: إنما جئنا لحراسـة الذات الخديوية والمحافظة عليـها، قال بعض الكتاب: ولم يكن الأمر كـذلك فقد كان حضـورهم لإضرام النار فى السراى وقتل كل من يخـرج فارا منها وظلوا واقـفين إلى قبـيل الغروب ثم سارت جمـاعة منهم وبقيت جماعة أخرى تبلغ زهاء المائتين وخـمسين فسير عند ذلك الخديوى إلى منيب أفندى مقدمهم يدعوه إلى الطاعة ومـراعاة الذمة والعهد فأذعن وتمثل بين يدى الخديوى وأقـسم أنه يموت بين يديه وجعل يـكلم الجند حتى أطاعوا أيضـاً وحلفوا يمين الطاعة ثم نصبوا خيامهم أمام مقر الخديوى وقاموا بخفارته.

ودخل فى ذلك اليوم على الخديوى محافظ المدينة وقص عليه خبر ما جرى من إضرام النار بالمدينة ونهب حوانيت التجار وانحدار العربان من الأطراف وما فعلوه من القتل والنهب والعبث بالأبكار وما الناس عليه من الشدة بسبب إكراههم على الخروج من المدينة فبكى الخديوى وطرق كفا لكف ورسم إلى إسماعيل باشا كامل وإلى الزبير باشا بالانحدار ومنع العامة من النهب ورد العربان إلى منازلهم فانحدرا وبذلا جهد الاستطاعة فلم يفلحا، وأرسل سيمور البحر فى سادس عشرى شعبان يعلم الخديوى بأنه على عزم أن ينزل بعض عسكره إلى سراى رأس التين لحراستها ويطلب إليه أن يأتى إلى إحدى سفن الحرب فيقيم بها حتى تخمد نار الفتنة فامتنع الخديوى وقال : إنى أفضل البقاء فى مقرى برأس التين بين رعاياى الأمناء على البقاء فى سفينة الأميرال وانحدر من ساعته من سراى الرمل فى عربته ومعه المشير درويش باشا وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الفرسان والحجاب وجاويشية ديوانه وساروا بين أطلال القصور والمبانى التى دمرتها النيران، فلما رآه العامة ظنوا أنه أحمد عرابى عائد لقتال الإنجليز فصاحوا الله ينصرك ياعرابى وما زال حتى دخل سراى رأس التين فلاقاه الأميرال سيمور فى نفر من الجنود الإنجليزية يبلغون الثلثمائة مقاتل وأصعدوه إلى السراى فجلس وجلس معه سيمور يتحادثان فيما لم تصل إلينا معرفته لغاية الآن، فلما كان غروب اليوم نزل أيضاً من كان على ظهور السفن من وكلاء الدول وصعدوا إلى مقر الخديوى وهنؤه بالسلامة وباتوا ليلتهم تلك وهم فى تحرز وأصبحوا وقد أنزل سيمور طائفة أخرى من عساكره إلى البر ورسم لهم بالتطواف فى المدينة فجعلوا يطوفون فى الشوارع والحارات ومعهم بعض المدافع الخفيفة فكانوا إذا رأوا أحدا من العامة أو أسافل الروم بين أطلال الحريق يلتقط ما بقى من النهابة رموه بالبنادق وشددوا فى ذلك فامتنع الناس قاطبة وكان إلى ثانى يوم الحريق لم يبق فى المدينة أحد من العساكر والجنود المصرية ولا من الضباط ومقدمى العسكر إلا انسحب إلى حجر النواتية وامتدوا منه إلى كفر الدوار وتركوا المدينة ومن بقى فيها يضرعون إلى الله من هول ذلك اليوم العصيب.

(وقد نظمت قرائح بعض الأدباء فى حريق هذه المدينة الآهلة القصائد الرنانة فمنها قصيدة لقدرى بيك أحد رجال الدولة الذين كانوا مع المشير درويش باشا قال فيها) :

إسكندرية هذه أحلام ... أو قد قضت فيما نرى الأيام
ما هذه الأحوال ياثغر الغنى ... حارت بها الأفكار والأوهام
أتكون قاعا بلقعا منشية ... إن العمارة بعدها لحرام
أو تنظر العينان أبهج بلدة ... أضحت رمادا والسماء قتام
أحرقت أعرابيّ ثغر بلادنا ... والله قد حاطت بك الآثام
ياليت شعري ما اقترفت فأنه ... ما سام هذا الفعل قبلك حام
فنقول من فرط الهنا أهل العنا ... إسكندرية هذه أحلام

انتهى باختصار

(وقال أحد الأدباء أيضاً فى هذا المعنى):

تفطر القلب من حزن ولا عجبا ... والدمع فاض على الخدّين منسكبا
إسكندرية ما هذا الخراب وكم ... من نكبة بك قد حلت فوا حربا
قتل وموت وتدمير مهاجرة ... سلب ونهب وكف للنساء سبا
قد كنت راقصة مثل العروس وها ... أصبحت ثكلي فلا حظا ولا طربا
وكنت بالأمس مثل الشمس مشرقة ... فناء كل ضياء عنك واحتجبا
ما هذه الحال في يوم وليلته ... يحل فيك مصاب قط ما كتبا
يبكيك دان وقاص والدموع دم ... وقد كوت نارك الأهلين والغربا

(وقال طيب الذكر أديب أفندى إسحق فى ذلك أيضاً):

عج بي على تلك الطلول ونادى ... أني تحمل أهل هذا النادي
هل صادهم شرك الردى فأبادهم ... صرف أناخ على ثمود وعاد
أم غادروا الأوطان في أوطانهم ... مذ حاذروا غدر الزمان العادي
وسل الرسوم وإن خلت عنهم وما ... فعلوا قبيل رحيلهم بفؤادي
خلفته في حبهم ميتا فهل ... أحياه أم محياه أهل ودادي
أم حملوه رديف صبري والمنى ... وتجلدي وتعالي ورقادي
أم غادروه رفيق وجدي والضنى ... وتلهفي وتذللي وسهادي
يا وارد الإسكندرية طامعا ... بمنافع الأصدار والإيراد
أقصورها خفيت عن الأنظار أم ... آثار قصري في القفار بوادي
أم تدمر قد دمرت وعمورة ... ما عمرت أم دار ذي الأوتاد

هذي عروس الشرق ماتت فاكتسى حزنا عليها الغرب ثوب حداد
بالأمس كانت والبياض دثارها واليوم صارت أرسما بسواد
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت والخوف منه مبعد القصاد
كانت موارد للظماء وقد غدت ما أن بها من مورد للصادي
كانت مراتع نعمة فغدت وما فيها سوى البأساء للمرتاد
كانت وكان الدهر يسعد أهلها فأصابها بالأهل والإسعاد
كانت وكنا لا ينام حسودنا صارت وصرنا راحة الحساد
كانت وما تخشى بوادر ضدها فغدت ترجى رحمة الأضداد
قامت على أقوى العماد تزين ما تحت التي رفعت بغير عماد
فأبادها جهل خفيّ ما بدا مثل له من حاضر أو بادي
جهل الذي رام الأماني وهي في قمم الجبال وكان دون الوادي
وعدا وما لقي الثعالب عمره يبغي اقتحام عرائن الآساد
وسعى إلى الشورى ولكن خالها لما تهتك برقع استبداد
وعلى المساواة ابتنى هدم الهنا لما تساوى حزبه بفساد
وقد ادّعى في عسفه حرية يامن رأى حرية استعباد
وإلى الإخاء دعا فنال بفعله من قومه ما لم ينله العادي
شقيت بزلته الجموع وطالما أشقت جموعا زلة الأفراد
وتلاه في سبل الغواية معشر زلوا وضلوا حيث ضل الهادي
غرسوا الجناية في الجنون فما جنوا مما جنوه غير شوك قتاد
وسعوا فسادًا في البلاد كأنهم والحادثات أتوا على ميعاد
خلعوا الشعار المستعار من الحيا فتقمصوا عارا إلى الآياد
وتخيلوا أن الطريق خلت لهم فسعوا فكان العدل بالمرصاد
فأتاهم رعد المدافع مبرقا فنبوا عن الأبراق والأرعاد
وسطوا على المستأمنين خيانة لم تشف منهم غاية الأحقاد
ورموا بنارهم الديار وبدّدوا ما استجمعت من طارف وتلاد
نكر عرفنا منه أن لبعضهم بز اللصوص وبزة الأجناد
ونقيصة يسعى بها أبناؤهم لمقابر الآباء والأجداد
أسفا على تلك القصور فأنها كانت منى الورّاد والروّاد

أسفا على من قاده استسماؤه　　للفاتكين ولم يجد من قاد
أسفا على قوم أتاهم فجأة　　صوت المنادي بالبلاء ينادي
فتسارعوا طلب النجاة من الردى　　بنفوسهم والأهل والأولاد
ياهولها من ساعة مرت بما　　زهقت به الأرواح م الأجساد
كم حامل خرجت بها محمولة　　فوق الكواهل أو على الأعواد
ومصونة نفسا تقول لصحبها　　ياليتني قدمت قبل ولادي
لطخت بآثار الولاد ومادرت　　جسدا تلطخ قبله بجساد
دمياء ما يدميه لمس حريره　　طفل قريب العهد بالميلاد
ومعمر لم يبق في الدنيا له　　غير السكينة من منى ومراد
ومريض قوم غاب عنه طبيبه　　وجفاه أنس الأهل والعوّاد
خرجوا وهم لا يهتدون سبيلهم　　والنائبات روائح وغوادي
ودموعهم والنار في أحشائهم　　حلت محل مزادهم والزاد
فكأنهم إبل ببدو نالها　　ألم السغوب وحاد عنها الحادي
تعلو وتهبط جانحات لا ترى　　من بلغة في أنجدو وهاد
أو أنهم قصدوا الصبوح فجاءهم　　في فجأة منهم طريد طراد
شهد الوبال ولم يجد من منجد　　فأغذ في الأتهام والانجاد
فتفرقوا والهول ملء قلوبهم　　يقتادهم زمرا بغير قياد
أو أنهم أهل القبور تيقظوا　　سحرا بنفخ الصور بعد رقاد
نشروا عراة واجفين فيومهم　　يوم المعاد أتى بلا ميعاد
والنار موقدة سرت من خلفهم　　فكأنها حيات بطن الوادي
والجند شردّهم قتال عدوّهم　　فرقا فلم يتجلدوا لجلاد
ونضوا على أهل السبيل بواترا　　في الحرب ما نضبت من الأغماد
قد حدّيت شفراتها لكنها　　كانت على الأعداء غير حداد
ولرب عاد منهم في رعدة　　ما أن تسلم بصائد الرعاد
سكنت فرائسه على نهب الحمى　　من قبل تسكن رعدة الصياد
ومرأس حيث الجواد وخلفه　　مما حباه النهب حمل جواد
عدم الرباط فشده بنجاده　　وأتى معسكره بغير نجاد
فهم اللصوص وإن هم قد أوهموا　　أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد

وبلادهم قـــد نالهـــا من عـــارهم ... مـــا لـم يحق في عـــهـدنا ببــلاد
عـيبت فلولا السابقـون ومـجـدهم ... وبقـــاء مـن ولدوا من الأمــجـــاد
ومـــؤيـد ملـك أمـــيـــر عـــادل ... أدبـي بمفـــــرده علـى الأعـــــداد
وعـصــابة كـانـت قـلائد فـضلهم ... أبهـى من الأطواق فـي الأجـيـــاد
لم تلف فـي مـصـر ومـصـر عـزيزة ... من قـــائـل هذي البـــلاد بلادي
إلا وقــد ولـى الشــريف أمـــورها ... فلهـــا بحـول الله خـيـــر مـعـــاد
مــولـى له في النـفع رغـبــة طامع ... وعن المـضـــرة عــفـــة الـزهاد
وهو الذي يـخـبــا لبـوم كـريهـة ... وســـداد ثـغـــر من طريـق ســـداد
وإذا بـدا مـــن لـيــل خـطــب رأيه ... أزرى بـنور الـكـوكب الـوقــــاد
ياحــــائز المجــد الـرفــيع وجـــامع ... الفـضل الصـديع وواحـد الآحـاد
ياجــالب النـعم العظام ورافع الـنقم ... الجـــســـام ومـــوئـل القـصـــاد

إلى أن قال:

بيـــضت بالـنعـــمـــاء أيامي ومـــا ... حـــالت فـأصـبغ عـرفـهـا بســواد
وبلـوتني فـــرأيت مـني صـــادقـــا ... مـــا شـاب ورد صـــلاحــه بفـســاد
وحـــمــــيــتني والـنائبــات ملـمــة ... ونصـرت ضـعفـي والزمان مـعـادي
وظهـرت فـيك بكل مـدح صادق ... صـرف ومـــا جـمـري كـمين رمـاد
وقــد اعـتـذرت ومـا ورا مـتنصلي ... في الـقلب غـــيـــر أمــانة ووداد
فـإذا صفـوت فذاك غـاية مـقصدي ... وإذا رضـــيـت فــذاك كل مـــرادي
يـاصـــــبح كـل مــــؤمّل بالنجـح ... كل تـوسل يـامــــورد الأمــــداد
لولاك مـــا أحـــيـيت لـيـلى ضــاربا ... في الشـــعـــر بالأسـبــاب والأوتاد
وصـــفـــا لما يجــري الـدمــوع أقله ... ويقـل فـيـــه تفـــتت الأكـــبـــاد
فلقـــد هجـرت الـشـعـــر لما أن رمى ... ضـعف الـسليـقـــة سـوقـه بكـسـاد
واسـتـــامـه مـن ليس يفـرق بـين مـا ... يفـني ويبـــقى عـــالي الإنـشـــاد
لكن رأيتـك يانصــيـري جـــامـعـــا ... نقـــد البـصـــيـــر ودقـــة النقــاد
فنظـمـتــه نـظم الفــرائد مــثل مـــا ... نظـمت لـديك قـــلائـد الأرفـــاد

إلى أن قال

زعـمـــوا بأن سـريرتي قـــد كـدّرت ... فلمن يـصـافي بـالجـمــيـل يصـــادي
فـبـعثت صافي الشـعر يثبت صفوها ... ولو اسـتطعت جـعلت فـيـه فـؤادي

انتهى

وأخذ أحمد عرابى وأصحابه فى التأهب والاستعداد للقتال فأرسل فى طلب الجند وعدة الحرب من مؤن وذخرة وسير فى طلب جماعة المهندسين وأرسل العيون الجواسيس إلى أطراف الإسكندرية ليأتونه بالأخبار وأرسل إلى القاهرة مكاتبة يقول فيها سنقاتل الإنجليز دفاعا عن الدين والوطن فعجلوا بالمدد وثابروا على الدعاء للعسكر المظفر بذلك فأرسل إليه يأمره بالإمساك عن جمع الجند وإعداد المعدات ويقول له لا خطوب قط بين بلادنا والدولة الإنجليزية وأن أمير سفن الحرب يقول أنه على أهبة تسليم ترتيب القوة الحافظة لها واستتب الأمن فيها وسأل أحمد عرابى أن يسرع رأس التين ليكلمه فى الأمر، وكان لما خرج أحمد عرابى من الإسكندرية بعد والقطوب المدلهمة ونزل كفر الدوار لحق به بعض من التف عليه من الأجانب بلانت الإنجليزى الذى سبق لنا الكلام عليه فبينما هم جالسون مع أحمد عرابى الخديوى بما ذكر فأراه إلى بلانت وشاوره فى الأمر، قال بعض الكتاب: فقبح له بمشورة الخديوى وحبب إليه مقاتلة الإنجليز حتى يذعنوا، وقال: إن الإنجليز ليس لهم منتظم يقدرعلى مقاومة العساكر المصرية وأن الدول كافة لا تترك الإنجليز وشأنهم فى ذلك فهن للإنجليز بالمرصاد فإياك وأن تخدعك ظواهر الخديوى وأمير السفن وثابر على ذلك حتى يعلموا أن فى هذه البلاد رجالا، قال وكان هذا الكلام خدعة من بلانت فاغتر أحمد عرابى وهان عليه كل خطب وكتب إلى الخديوى يقول: إنى لم الإنجليزية بجند القلاع إلا بعد أن صدر لى بذلك قرار مجلس الوزراء فإذا كان قد رغب الآن فى الصلح بعد انتشاب القتال فلا بأس به ولكن هذا الطلب الحرب قائمة بيننا وبينه وإنى لا أرغب عن الصلح ولكن مع المحافظة على شرف البلاد والحكومة فإذا أراد الأمير تسليم المدينة فليسملها وليعجل بسحب مراكبه عن الإسكندرية أما الأستعدادات الحربية فلا مندوحة عنها ولابد منها حفظا لشرف البلاد ما دامت القوة الإنجليزية على سواحلها ولا يمكننى الرجوع إلى الإسكندرية وألقى بيدى ما دام الإنجليز بالإسكندرية وختم كلامه بطلب سائر الوزراء إلى مقره بكفر الدوار فكبر الأمر على الخديوى ومنع من إرسال أحد إلى كفر الدوار وراجع أحمد عرابى فى ذلك فلم يلتفت أحمد عرابى إلى قوله وتجرد إلى العداوة والبغضاء وأرسل فى الحال إلى يعقوب سامى باشا وكيل ديوان الجند يومئذ يوقع بالخديوى ومن معه ويرميه بالتهم الطويلة ويصفه بالمروق وسوء النية نحو البلاد وأهلها ويقول أنه هو الذى جلب كل هذه المصائب بسوء رأيه وفساد تدبيره وأنه يطلب لذلك عقد

مجلس من علماء الأزهر ومشايخ القاهرة والوجهاء والأعيان ليروا رأيهم فى خلع الخديوى وتولية من يصلح لتدبير شئون البلاد فجمع يعقوب سامى باشا جميع العلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين وأرباب المناصب العالية والأعيان والوجهاء وكبار التجار وعقد مجلسا منهم فى غرة رمضان برئاسة حسين دراملى باشا الذى كان وكيل نظارة الداخلية وتلا عليهم مرسوم أحمد عرابى وكان المكان غاصا بجماهير الناس حتى السوقة والغوغاء وأسافل القوم فما أتم القارىء كلامه حتى علت الضوضاء واشتد الهرج وجعل بعض العلماء والمشايخ يقبحون ما فعله الخديوى ويرمونه بالمروق وكان بينهم الشيخ عليش المغربى الأزهرى شيخ المالكية فوقف فى وسط ذلك الجمع وقد أخذته رجفة فصاح الله أكبر الله أكبر قد خلعناه ياقوم قد خلعناه الله أكبر على من طغى وتكبر ثم اضطرب وأخذته الرجفة فكثر عند ذلك صياح العامة فكانوا بين مدمدم ومحوقل وناطق بالشهادتين ثم اتفقوا على أن يرسلوا إلى الإسكندرية وفدا ليرى أولا ما يدعيه الخديوى على زعماء العصابة عموما وأحمد عرابى خصوصا وثانيا ليحقق ما إذا كان الوزراء مسجونين كما جاءت بذلك الأخبار وقد وقع اختيارهم لذلك على على مبارك باشا ورءوف باشا وأحمد بيك السيوفى والشيخ سعيد بيك الشماخى والشيخ على نايل والشيخ حمد كبوه فساروا إلى كفر الدوار واجتمعوا بأحمد عرابى وحدثوه بما جرى فسرحهم إلى الإسكندرية ومعهم نفر من الجند فلم يتمكنوا من دخولها إلا بعد شدة زائدة وتمثلوا بين يدى الخديوى وقصوا عليه جميع ما وقع فساءه الأمر ورسم بخلع أحمد عرابى من منصب الوزارة وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وكتب إلى دار السلطنة يخبر بعصيان أحمد عرابى وأصحابه ورفع عن نفسه تبعة ما ينجم عن فعالهم من الخطر على البلاد وأهلها وكان فى هذه الأثناء قد ورد مرسوم السلطان إلى درويش باشا ومن معه بالعود إلى دار السلطنة بناء على تغير الحال وتوال سفير الإنجليز من المابين مأربا فعادوا وكأنهم عافاهم الله لم يحضروا إلا لتضرب الإنجليز حصون الإسكندرية وتحتل جنودهم المدينة على مشهد منهم وكأن أحمد عرابى يعلم سر بعثهم فلم يطع للخديوى كلمة وقد أخذ فى إعداد معدات الحرب والذخرة وبالغ فى جمع العساكر والأجناد وإنشاء القلاع والحصون على طول خط ملاحة الإسكندرية وعالج سدّ ترعة الإسكندرية ليمنع الماء عنها فلم يفلح وسير إلى القاهرة يشدّد فى طلب المؤن والمدافع وطوائف البنائين والمهندسين، وقد وصل إلى القاهرة مرسوم الخديوى بخلع أحمد

عرابى من منصبه وشاع خبره وتحدث الناس به فكادت تقف رحى أعماله وتنصرم حزمة آماله فأدرك يعقوب سامى ما وراء ذلك وجمع سائر من حضروا فى المجلس المنعقد فى غرة رمضان وتلا عليهم ما رسم به الخديوى من خلع أحمد عرابى وتنزيله فاختلفت عند ذلك كلمتهم وتفرقت أغراضهم وعلت بينهم الضوضاء وكان بينهم جماعة من كبار الضباط وصغارهم وطائفة من الجند فلما رأوا ما هو عليه ذلك الجمع من الهرج واختلاف الكلمة وأدركوا أن السواد الأعظم منهم ميال إلى خلع أحمد عرابى كما رسم الخديوى قاموا وصاحوا فى وجوه الناس وارتفعت أصواتهم بسبب الخديوى وتقبيح فعاله ونادوا القتال القتال ما دام الإنجليز فى قلب البلاد ثم أكثروا من الحركة وقبضوا على سيوفهم كأنهم يقاتلون الإنجليز فانكمش سائر الحاضرين وخافوا وتحققوا أنهم إن مالوا إلى خلع أحمد عرابى والعمل بمرسوم الخديوى أخذتهم سيوف الضباط وحراب الجند من أمامهم ومن خلفهم فقر رأيهم على استبقاء أحمد عرابى فى منصبه وتكليفه بالذب عن البلاد ما دامت مراكب حرب الإنجليز أمام الإسكندرية وعدم الالتفات إلى ما رسم به الخديوى فطير يعقوب سامى الخبر بذلك إلى الآفاق وعلم به الخديوى فأحزنه جدا ورسم ثانية بخلع أحمد عرابى وعصيانه وسير الكتب بذلك إلى القاهرة وسائر المدن والبنادر فمنع الضباط وصولها وجعلوا يجوبون البلاد ويحضون الناس على بغض الخديوى ويسمونه بالمروق عن الدين وقام الخطباء والفصحاء من أهل البلاد يخطبون فى الناس ويحضونهم على معاونة زعماء العصابة والأخذ بناصر مقدمهم أحمد عرابى وقام بعض الشعراء من أهل القاهرة يلقون الأشعار الحماسية والقصائد المهيجة من ذلك قصيدة لأحد علماء الأزهر يقول فى مطلعها:

لعمرك ليس ذا وقت التصابي ... ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوي ... ولا وقت التغافل والتغابي
ولا وقت التشبب في سليمي ... ولا وقت التشاغل بالرباب

إلى أن قال:

ولكن ذا زمان الجدّ وافى ... وذا وقت الفتوّة والشباب
ووقت ليس فيه يليق إلا الـ ... إقامة بالقلاع وبالطوابي
ووقت فيه الاستعداد فرض ... لتنفيذ الأوامر من عرابي

إلى أن قال:

وفي مصر لقد طمعوا ومصر ... بكم والله أمنع من عقاب

وقال فيها:

وقوموا بالثبات على الأعادي وقولوا فيهم فصل الخطاب
وإن سألوكم من بعد هذا فما غير المدافع من جواب

إلى أن قال:

وقولوا ياعرابي سر بأمر تراه فأنت ذو الأمر المجاب
ودم لوزارة لسواك تأبى وإن وصلت إليك بلا طلاب
وقولوا ياعرابي دم رئيسا لحزب النصر محفوظ الجناب

(ونظم آخر قصيدة فى هذا المعنى قال فى مطلعها):

نوال المعالي من طعان الكتائب ونيل الأماني من ثمار المتاعب
وقهر الأعادي بالتدبر أوّلا وبعد بإشهار السيوف القواضب

إلى أن قال:

ولسنا كقوم عن طريق الهدى عموا إلى اليوم من اضلالهم في غياهب

ومنها قوله:

ومن كعرابي في البرايا وحزبه أولى العزم أصحاب القنا والقواضب

وغير ذلك من الشعر والنثر شيء كثير لا يسعنا إيراده هنا، وسير أحمد عرابى جماعة من الفرسان وأخرى من المشاة إلى ناحية المندرة ووكلهم باستطلاع أخبار الإنجليز فلم يبلغوها حتى خرج عليهم جماعة من عسكر الإنجليز وناوشوهم القتال فقاتلوهم وتغلبوا عليهم فانهزم الإنجليز وولوا الإدبار فأعمل المصريون فى أقفيتهم السيف ثم عادوا فى ثانى يوم وقاتلوا حتى أجلوا المصريين عن مواقفهم فسير أحمد عرابى فى طلب المدد من المال والرجال ومد الحصون والقلاع من الرمل إلى كفر الدوار وأقام بكفر الدوار خطا عرضه ثلاثون مترا وحفر تحته خندقا فاصلا ما بين الخط والفضاء وقد جعل فى هذا الفضاء عدة كثيرة من القلاع، وكان خط الدفاع الأول مما يلى المحلة بمسافة ألف متر على طول الخط الممتد من الرمل إلى البيضاء وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة إلى كفر الدوار فبلغت عدة هذه الاستحكامات والمواقع الدفاعية زهاء الخمسمائة وكذلك فى المسافة الواقعة ما بين كفر الدوار وأبى حمص وكان بين أبى حمص ومدينة دمنهور تل كبير مرتفع فحصنوه وجعلوه معقلا يقيهم عند الحاجة إذا تقهقروا إلى الوراء وعززوا دمنهور بالكثير من المدافع الكبيرة وعبوا فيها المؤن والذخيرة ومعدات الحرب وأقام فيها

جماعة من الجند ووكلهم بتسيير المؤن وتوصيل المدد إلى كفر الدوار، ورأى سيمور من استعداد أحمد عرابى وتأهبه للقتال وقطعه لجميع المواصلات مع الإسكندرية ما لم يكن يتوقعه فأرسل إلى عاصمة الإنجليز فى طلب النجدة ورسم فمدوا سلكا تلغرافيا تحت البحر من الإسكندرية إلى بورسعيد وجاءه المدد من المشاة والفرسان وأصحاب المدافع على ظهور السفن من قبرص وجبل طارق ومالطة والهند وكأنهم كانوا جميعاً على قيد فرسخ من مدينة الإسكندرية وجعلت حكومة الإنجليز تبالغ فى التأهب والاستعداد غير سائلة عما تقوله بقية الدول ولا راغبة فى مشاورتهن ولا ميالة إلى مشاركتهن وقد أعدت من المال لنفقة هذه الحرب مائتى ألف ألف وثلاثمائة ألف من الذهب وكان ما جاء إلى سيمور من الجند ألفين وأربعمائة من الفرسان وثلاثة عشر ألفا من المشاة وألفا وسبعمائة من أصحاب المدافع وثلاثة آلاف وسبعمائة ما بين خدمة المرضى وأصحاب الخدم وجيشا احتياطيا قدره ثلاثة آلاف ومائة مقاتل وكان المقدم على هذه الحملة قائدا اسمه الجنرال جارنت ولسلى وآخر اسمه أوبيا ومعهما آخرون من الأمراء والقوّاد فلما نزلت هذه الجيوش بمدينة الإسكندرية أخذوا فى ترميم ما تهدم من الجسور الواقعة على خندق الباب الجديد وما تداعى إلى السقوط من جدران قلعة كوم الدكة ونصبوا بعض المدافع على باب رشيد للدفاع عن محطة السكة الحديد ونصبوا تسعة مدافع من الطراز الكبير على قلعة كوم الدكة وبالغوا فى تحصين المدينة لمنع الواصل إليها وسارت طائفة منهم إلى الملاحة فقطعت خط السكة الحديد الموصل إلى الإسكندرية لتكون المدينة آمنة من هجوم العصاة.

ووقع بين الباب العالى ودولة الإنجليز وبقية الدول مناقشة وجدال فى أمر إرسال عساكر عثمانية أو عساكر مختلطة من الإنجليز والفرنسيس والإيطاليين إلى مصر ما استغرق الأيام الكثيرة ولكنها كلها كانت مماحكة ومراوغة فكان كل فريق من الدول ولا سيما العثمانيين والإنجليز والفرنسيس يظهر للآخر خلاف ما يبطن ويقول غير ما يفعل ثم عادت دولة الإنجليز وشدّدت على سعيد باشا مندوب الباب العالى فى تلك المفاوضة وأعلمته بأنها لا تسمح قط بأن تطأ أقدام الجنود العثمانية أرض الكنانة وأنها قد أخذت على نفسها إرجاع الحالة إلى ما كانت عليه من الهدوء والسكينة وتأييد مركز الخديوى بكل ما تصل إليه قدرتها فراجع سعيد باشا اللورد دوفرين سفير الإنجليز فى ذلك، فلما كان خامس رمضان انقطع سعيد باشا عن ملاقاة سفير الإنجليز وانكف عن مناقشته فى الأمر فجعل السفير يفكر فى ذلك فما هو إلا أن

جاءه الخبر فى ثانى يوم بقيام سفينتين كبيرتين من سفن النقل العثمانية وعليهما جماعة كثيرة من العسكر العثمانى وكان قيامهما من دار السلطنة تحت جنح الليل وفيهما أيضاً كثير من الذخيرة والمؤن ومعدات الحرب وأن قد قام بعدهما أيضاً فى نفس تلك الليلة مركبان أخريان إحداهما إلى أزمير وثانيتهما إلى الدردانيل وفى ثالث ليلة قام غيرهن يحملن كثيرا من الجند وآلات الحرب وقامت أخرى فى خامس ليلة من الجهة المعروفة بقرن الذهب إلى صورابأى بمياه جزيرة كريد وكانت فى نفس هذه الليلة مركب أخرى على أهبة القيام إلى جهة غير معلومة وشاع الخبر حينئذ بأن السلطان قد رسم بجعل جميع هذه القوات تحت إمرة درويش باشا وآخرين من كبار القواد العثمانية فتأهب هؤلاء للقيام على ظهر الباخرة عز الدين إلى سلانيك ثم يسيروا منها ليلتقوا بالجند إما بمياه رودس أو مياه صوراباى فخشى سفير الإنجليز عاقبة ذلك وأزعجه الخبر وسير إلى كبير سياستهم يعلمه بالأمر فلم يكن بأسرع من أن جاء الأمر إلى سيمور أميرال سفن الحرب الراسية أمام الإسكندرية يقول: إذا جاءتكم مراكب حرب الدولة العثمانية فامنعوا من نزول أحد من جندها بالإسكندرية وبورسعيد وأى جهة من الموانى المصرية واحذروا ما استطعتم وأعلموا مقدمى العساكر السلطانية مع غاية الرقة والتلطف بأن يرجعوا فورا إلى جزيرة كريد أو إلى أى جهة يشاؤنها وإياكم والتغافل، فرتب عند ذلك سيمور مراكبه وصفهم فى سلك الدفاع وأبلغ سفير الإنجليز خبر ذلك إلى سعيد باشا مندوب الباب العالى فراجعه سعيد باشا وقال: إن السلطان رسم بتسيير عسكره وهو يكفل بإرجاع الأمور إلى سابق مجراها من الأمن وصفاء الحال وسيرسم أيضاً بعصيان أحمد عرابى واعتباره خارجا عن طاعة أمير المؤمنين فلا موجب إذا للتعرض لمراكب الدولة إذا وصلت إلى الموانى المصرية التى هى جزء من بلاد السلطنة فقال السفير: قد ذهبت الفرص وطاش الغرض ولم يبق من حاجة إلى شىء من ذلك البتة وقد سارت الجنود الإنجليزية على جناح الطائر الميمون وما كنا نرجوه بالأمس قد أصبح عندنا اليوم أمرا مقضيا فراجعه سعيد باشا فلم يقبل، فقال له: قد قبلت الدولة سائر مقترحات الدول بشأن إرسال العساكر السلطانية وبسائر الحدود والاختصاصات التى حددتها لها بالديار المصرية وصرحت بقبولها جميع ما ترى لزوم إجرائه أيضاً لإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه فقال السفير: لا سبيل إلى ذلك وقد نفذ المقدور فكبر الأمر على السلطان واستعظمه للغاية وارتبكت أحوال الباب العالى وكثر توارد الجنود الإنجليزية

على مدينة الإسكندرية وقـدم إليها فى خـامس عشرى رمضـان الدوق أوف كانوت ثالث أولاد ملكة الإنجليز وهو أحد مقدمى العساكر وأخذوا فى تحصين بعض القلاع والحصون وتعبية المؤن والذخيرة ثم جعلوا يناوشون العساكر المصرية عند كنج عثمان وحجر النواتيـة وكفر الدوار مناوشة خـفيفة ونشـر ولسلى مقدم العساكـر الإنجليزية منشورا يقول فيه، لم تأت الجنود الإنجليزية إلى هذه الديار بقصد الغزو أو فتح البلاد وإنما حضورهم لردع العصاة وإيقاف تيـار الفتنة إلى حد إرجاع الهدوء والسكينة إلى سابق مجراهمـا وتأييد سلطة الخديوى جهد الاستطاعـة، ثم رسم فألقوا بأوراق من هذا المنشور فى مواقع المصريين ليعلم الضباط ما فيها فالتقطوا منها شيئاً كثيراً.

ولما كان خـامس شوال انتـشب القتـال ما بين طليـعة العرابيـين وبعض الجنود الإنجليزية عند كفـر الدوار وطال زهاء الساعتين ثم انجلى عن هزيمة العرابـيين فباتوا ليلتهم تلك وأصبحـوا يقاتلون فكانت الحرب بينهم سجالا وبالوا وأصبحـوا فاقتتلوا قتـالا عنيفـاً فأظهـر العرابيون بسـالة زائدة وكادوا يسـتظهرون على الإنجليـز فطلب مقـدمهم المدد فجـاءه على قطارات السكة الحديد من الإسكندرية واشـتد الرمى من الجانبين بالقنابل والرصاص شدة بالغة ثم افترقوا وقد تحرز كل فريق فى موقفه وكان مقدم العـرابيين فى هذه المواقع طلبة عـصمت وأصبحـوا ولم يتقدّم الفريقـان لقتال وكانت أخبار الحرب والقتال تأتى إلى الإسكندرية والقاهرة على غير حقيقتها منقولة عن الفلاحين والعربان وضباط الجند ومقدمهم طلبة عصمت فلم يحلها عقلاء الناس محل التـصديق ولم يعـيروها جـانب الألتفـات، ونزل من كان على ظهـور السفن الراسية أمام الإسكندرية من الأجانب على اختلاف أجناسهم إلى المدينة ودارت رحى الأعمال فى دواوين الحكومـة وباشر أرباب الوظائف وظائفهم على قـدر الاستطاعة فعز عند ذلك المأكول ونفد ما كان موجودا منه ببعض الحوانيت واشتد الجوع بالناس ثلاثة أيام خرج فيهـا صغار الناس على اختلافهم إلى رحـبة سراى رأس التين وهم يضجون ويعجون فهال الخـديوى أمرهم ورسم بإطعامهم وشدد فى ذلك فرتبوا لهم مشارد الثريد بالأرز واللحم مرتين فى كل يوم وكان الخديوى يلاحظ إطعامهم بنفسه وهو مشرف عليهم من مجلسه وشدد الإنجليز فى المحافظة على المدينة فكانت الجنود تطوف فى النهار والليل ومنعوا من خروج الناس من بيوتهم بعد غروب الشمس إلا من كان معه كلمة سر الليل وهى كلمة كان يتفق عليها فى غروب كل ليلة ليعبر بها من يتلقاها وكانوا يقبضون على كل من يرونه سائرا بغير مصباح ولو كان يعرف سر

الليل وأفحشوا فى رمى الناس بالرصاص لأقل سبب وكان إذا رأى أحد المرابطين أحدا فى الطريق بعد الغروب نادى عليه بكلمة (هلت) ومعناها قف فإن لم يجبه على الفور بكلمة (فرند) يعنى صاحب أو رفيق رماه بالرصاص فيسقط ميتا وإذا رأوا مارا بحارات المنشية أو غيرها من جهات الحريق ظنوه يلتقط ما بقى من المنهوبات فيقتلونه فى الحال برمى البنادق فخاف الناس واستوحشوا وامتنع خروجهم قاطبة فكانت شدة عظيمة ووحشة بالغة، وتقدم إسماعيل راغب باشا إلى الخديوى فى قبول خلعه نفسه من منصب رياسة الوزارة فقبل منه ذلك ورسم إلى الوزير محمد شريف باشا بتشكيل وزارة أخرى مع قبوله هو مسند الرياسة فأذعن وأطاع، وكان لما طير البرق الخبر إلى الديار الأوروباوية بخروج عرابى وأصحابه عن طاعة الخديوى وإشهاره الحرب على الإنجليز وبقاء الخديوى مع كبار الدولة وحاشيته بمدينة الإسكندرية وكان مصطفى رياض باشا يومئذ بإحدى مدن الفرنسيس فارا من وجه زعماء العصابة على ما تقدم بيانه فى محله عاد من فوره إلى الإسكندرية وتمثل بين يدى الخديوى مسترحما فعفا الخديوى عنه ورسم له بتولى نظارة الداخلية ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة فلم يحفل أصحاب الزعامة بها ولا أحلوها محلا وجدوا فى إرسال المدد إلى كفر الدوار وهم يشيعون فى كل يوم أخبار هزيمة الإنجليز ووقع الموات فيهم وسير أحمد عرابى إلى المديرين والمحافظين فى طلب حشد الجند من خفراء البلاد وتسييرهم إلى مواقع التل الكبير وفرض على كل مديرية عددا فكان ما خص البحيرة ألفا ومائة واثنين وسبعين والقليوبية ألفا وثمانية وثلاثين والشرقية ألفين وسبعة وسبعين والغربية ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسة وثلاثين والدقهلية ألفين وستمائة وخمسة وستين والجيزة ألفا وثلاثمائة وخمسين وبنى سويف ستمائة وخمسة وتسعين والفيوم ثمانمائة وثلاثة وستين ومنية ابن خصيب ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين وأسيوط ألفين وثلاثمائة وخمسة وأربعين وجرجا ألفين ومائة واثنين وستين وقنا ألفا وستمائة وعشرة وإسنا ألفا وأربعمائة واثنين وستين فكان جميعهم خمسا وعشرين ألفا فاهتم بعض المديرين بهذا الطلب وبالغ فى الاهتمام وتراخى البعض الآخر ولم يحفلوا به لما يعلمونه من سوء العاقبة وسوء المصير وجاءت الأخبار بذلك إلى أحمد عرابى وهو على حصون كفر الدوار فكبر عليه الأمر واستعظمه وعاود الطلب وشدد وهدد وقام الخطباء من أهل البلاد فى المساجد يحضون الناس على الجهاد ودفع العدو وأكثروا من الأرجاف والتهويل وقام بمدينة أسيوط رجل اسمه

الشيخ على المليجى فجعل يحض الناس على الغزو والجهاد ويستفزهم إلى التطوع فى سبيل طاعة أحمد عرابى وخطب فيهم يوما يقول:

الحمد لله الذى جعل أمة محمد ﷺ خير الأمم، وعوّدها العناية والنصر إذا العدوّ بها ألم، لا إله إلا هو لا عز لنا إلا به إلى يوم الدين، فهو المختص بإعانة من هاجر فى سبيله وكلف عزمه وسمعه، لقوله تعالى ﴿**ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله إن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾، ونحمده سبحانه وتعالى على ما أولانا من النعم، ونتوب إليه من جميع الآثام إذا انجرّ بها القلم، ونسأله اللطف والإعانة على الكافرين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتعالى عن المشاركة والمشاكلة، وعن أن يحتاج لمشارك له فى إعانة من خرجوا من بلادهم متطوّعين، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، وذروة سنام المجد وتاجه وإكليله، رسول خصه الله بالعناية والفتح المبين، اللهم صل وسلم على هذا النبى العظيم، والرسول السيد السند الكريم، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه كلما برق بارق النصر للمؤمنين وبأن أثر الذل على الخائنين، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد فياعباد الله لا خفاء أنه قد مرت بنا فى الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم، وما ذلك إلا لعدم الحمية الإسلامية فى حكامه الذين كانوا كالليل المظلم، إذ كانوا منهمكين فى ميدان حظهم الدنيوى وعن الدين غافلين، والآن قد ظهرت البشائر بعز المسلمين وسطوتهم، إذ قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالأخذ فى أسباب قوة الدين ورد ما ضاع من شوكتهم، وصاروا باذلين الهمة فى التوصل لما يبعد الأمة عن التشويش ولما يكونون به آمنين، إذ قد شرع رئيس المجاهدين المؤيد بنصر ربه فى مدافعة من كانوا فى تشويش الأمة أول سبب، وباع نفسه هو وجيشه للجهاد فى سبيل الله ولم يبال بمشقة ولا تعب، كل ذلك لحفظ الوطن وإعلاء كلمة الدين، فطوبى لقوم باعوا الحياة الدنيا وشروا الآخرة ولم يكن لهم مطمح نظر سوى النصر من رب العالمين، واعلموا عباد الله بأن الله تعالى أمرنا فى كتابه المجيد بالقتال وأوضح لنا أمره، فنعم السيد الآمر ونعم من امتثل أمره، وتأمل فى قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾. فالمسلم العاقل من اكتفى بأمر مولاه، واشترى آخرته وباع دنياه فى سبيل الله، وتباشر بقوله تعالى: ﴿ **فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا**

مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن اوا مع الصابرين﴾ فأقبلوا عباد الله واخلعوا عنكم ثياب البخل والكسل، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله قبل اقتراب الأجل، وزوّدوا أنفسكم التقوى وأعرضوا عن المتقاعدين، فمن الواجب الآن على غنينا القاعد بذل الهمة فى الإنفاق على من تبرع بنفسه لدفع الأعادى، وصارت شهامة الإسلام على وجهه وجميع أعضائه تنادى، وجعل قوّته قوله تعالى: ﴿ثم ننجى رسلنا والذين امنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين﴾ فمن لم يقنع الآن وبعد الآن بما سمعه فهو منافق، ومن دين الحق مارق، وغافل عن قوله تعالى: ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من انتدب خارجا فى سبيلى غازيا ابتغاء وجهى وتصديق وعدى وإيمانا برسلى فهو ضامن على الله عزّ وجلّ إما أن يتوفاه فى الجيش بأى حتف شاء فيدخله الجنة وإما أن يسيح فى ضمان الله وإن طالت غيبته حتى يرده الله إلى أهله مع ما نال من أجر أو غنيمة وعلى الله قصد السبيل». وجاراه فى ذلك أيضاً آخر اسمه الشيخ محمود إبراهيم من أهالى أسيوط فخطب يقول ـ حمدا لمن جعل أعلام الملة المحمدية، على كواهل أعلام الأمة العربية، وحرسها بشهب ثاقبات، لرجم شياطين أهل البغى والغوايات، وصلاة وسلاماً على من كان إذا أراد غزوا ورّى به، ليتأهب ذو الهمة فيتوجه بصادق آرائه، وعلى آله الذين أقاموا أنفسهم أسوارا لحرمة الدين، ومن تبعهم فى المحاماة من كل حر لعرضه يصون (أما بعد) فإن الإنجليز قد طاشت عقولهم، وعميت بصائرهم، فلم يحسنوا الضروريات فساموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها، وساقوا إلينا من زيف المعارضات خسيسها، وقابلوا عيشنا بخداع، وفتشوا أكنافنا لغدر أضمروه ليوم النزاع، ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الإيمان، وفينا لهم بعقد الذمة والأمان، فعاملناهم بالحسنى، وجبرنا ما كان منهم ضعفا ووهنا، فلما صحت أبدانهم، وعمرت أوطانهم، لم يقنعوا بذلك، بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك، فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب، فخربوا بيوتهم بأيديهم من غير زعزعة منا ولا اضطراب، وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء، والله يؤيد بنصره من يشاء، حيث أقام ناظرا بعين الشرع ناظر، لم يخش فى الله لومة لائم أو زجر زاجر، فقابل كتائب الضلال، وأذاقهم كأس النكال، وقام خطيبنا يدعو إلى دعوة الحق، إذ كان من أم الكتاب بها فى عصرنا هو الأحق، فلباه أناس باعوا أرواحهم للجهاد، فى قطع جيش الضلالة والعناد، فأقبلوا إليه من كل فج عميق أفواجاً،

بالمال والنفس فرادى وأزواجاً، فعند ذلك دهى الإنجليز ما دهاها، حيث لم يكن فى حسابها ما عراها، فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابى باشا هو المشار إليه بـ (يبعث الله على رأس كل مائة سنة) فإن البشائر دلت عليه، حتى يمزق الباغون كل ممزق، ويحيا المندوب والمفروض بهذا الموفق، وتموت البدع التى اسودّ القطر بظلمائها، ويختفى شارق الظلم بأرجائها، فحاشا أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه فى ذمة كافر، جعل الله سعادة أحمد عرابى باشا وجنده الظافرين بأعدائنا فى المبدأ والآخر آمين.

وجاء الأمر إلى سيمور البحر بعد وصول ولسلى مقدم العساكر البرية كما تقدّم القول فرحل سيمور بسفنه عن الإسكندرية إلى بورسعيد وألقى مرساها أمام المدينة على هيئة الدفاع وبقيت سفن النقل أمام الإسكندرية وكان لما وصل سيمور بسفنه إلى بوغاز بور سعيد رأى هناك سفينة حربية صغيرة اسمها الصاعقة راسية أمام المدينة فتخوف سيمور منها وقد جاءه الخبر بأن فيها من الديناميت والمواد الالتهابية ما يكفى لسد البوغاز فى أسرع من لمح البصر وأن ربانها من أحب الناس إلى أصحاب الزعامة فتحرز سيمور منها وباتوا ليلتهم تلك وقد قضى ملاحو الصاعقة ليلتهم فى جلبة وحركة فلما أصبحوا أرسل سيمور إلى الربان يقول: ما هذه الحركة وما داعى تلك الجلبة وقد شوشتم علينا وأقلقتمونا فقال الربان: هى حركة لابد منها أمام السفن الأجنبية، فأرسل إليه ثانية يقول: كف وإلا ألحقتك والمركب إلى قاع البحر وارع حرمة سفن الحرب الإنجليزية ما دامت على قدم الاستعداد فانكمش الربان وخاف، وقدمت إلى بورسعيد بعض الطرادات الأفرنسية والألمانية والإيطالية تخفر السواحل يمنة ويسرة وحضرت مدرّعة كبيرة إنجليزية اسمها أوريون ورست أمام البوغاز فمانع أصحاب البوغاز من الفرنسيس فى دخولها فبقيت أياما ثم دخلت وسارت حتى رست فى بركة التمساح وكان فيها من الضباط مائة واثنان وأربعون ومن العساكر والأجناد عدد كثير، قيل وكان من أخص عمل هذه السفينة الوقوف أمام القنطرة بعد قطع خط التلغراف الموصل إلى دار السلطنة، ثم عدلت عن قطعه وعادت فألقت مرساها أمام مدينة الإسماعيلية، وكانت الحرب إلى هذا الحين قائمة ما بين العرابيين والإنجليز عند مواقع كفر الدوار والمواقع الأمامية بلا انقطاع حتى أتت الأخبار إلى أحمد عرابى بوصول مراكب الحرب إلى مدينة بورسعد ونزول جيوش ولسلى بمدينة الإسماعيلية فسار من كفر الدوار إلى التل الكبير ومعه جماعة

من الضبـاط وطائفة من الحـرس فلما وصل قطاره إلى مـدينة الزقازيق خف لـلقائه العمـد والأعيان والمشايـخ وأرباب الطرق والأشاير وموظفـوا الحكومة فنزل بالمحطة وعلى يمينه عبد الله صاحب الطائف وجلس بالكشك المقـابل لها فاجتمع عند ذلك زعانف الناس حول الكشـك واشتد زحامهم وعـلا الضجيج وكثر الصـياح بكلمات وعبارات قـد لفقوها على قـدر عقولهم من مثل العـسكر فى الطوابى، الله ينصرك ياعرابى، يامولانا ياعـزيز، أهلك عسكر الإنجليز، ياسيمـور ياوش القملة، من قال لك تعمل دى العـملة، وغير ذلك من بذىء القـول وفحش الكلام ولبث على هذا الحال برهة ثم قـام ودخل عربة القطار وهو ينادى أنا لها أنا لها والنـاس فى ضجيج زائد والغوغاء يصفقـون بأيديهم ويضربون الأرض بأرجلهم فسار به القطار إلى التل الكبير على عجل وجعلوا من هذا اليـوم يتابعون إرسال المؤن وآلات الحرب إلى التل الكبير وتوارد الجند من مـشاة وفرسان وأصحاب المدافع وكثـر الوارد منهم فتعطلت قطارات السـفر من الإسمـاعيليـة والسويس وهاجـر من السويس من رجـال الدولة وبعض الأهالى وأجهد الجند الطاقة فى إنشاء الحصون والمعاقل وأقاموا المتاريس على مسافة وجمعوا الكثير من أهل البلاد لهذا العـمل ورتبوا المقدمات وبالغوا فى تعبئتها وعالجـوا قطع الماء الحلو عن الإسماعـيلية والسويس وتبع العـسكر كثير من السـوقة وأصحاب الـصنائع الدنيئة مثل الإسكافـية والقهوجـية والسمكرية والخيـاطين وباعة الأفيون والمكيفات ونصبـوا لهم المطاول وعملوا النايات والعشش من القش والبوص وغير ذلك فـأصبح ذلك الصعيد آهلا بأصناف الناس وكـانت لما رست تلك السفينة الإنجليزية أمام مدينة الإسـماعيلية تصدّت إلى سائر ما وجـدته هناك من بقية السفن على اختلافـها ومنعت وقوفها أمـام المدينة وشددت على أصحابها وضـيقت فرحلوا عنها وهـم صاغرون وخلا لها الجوّ فلم يمض إلا النصف الأول من تلك الليلة حتى قامت فى المدينة حـركة شديدة للغاية وضـوضاء وجلبة، ثم اشتـد بعد ذلك إطلاق البنادق وجر المدافع وزحف الجند فـهب الناس من مضاجعهم مـذعورين وكأن على رؤوسهم الطير ونظروا وإذا العساكر الإنجليزية قد ملأت الفضاء وهـم فى حركة زائدة كأنّ العـدوّ يهاجمهم ثم لم يمـض على ذلك إلا ساعة أو بعض ساعـة حتى دوت أصوات المدافع من تلك السفينة وسفينة أخرى جاءت فرست بجانبها اسمها كارليفور واشتـد الرمى وتراسلت القنابل على مواقع العـرابيين بناحيـة نفيشة ومـا زال الحال هكذا طوال الليل فلمـا أشرقت الشمس سكتت المدافع وخـرج جماعـة من الإنجليز

قاصدين قرية العرب فلما رآهم أهلها مقبلين خرجوا على وجوههم هائمين فأخذتهم نيران البنادق من كل جانب لا سيما منهم النساء والأطفال ثم قطعوا سائر خطوط التلغراف القائمة ما بين السويس والإسماعيلية والقاهرة فاشتد الخوف بأهل الإسماعيلية من الأجانب والأهلين ونزح الكثير منهم إلى بور سعيد والمنزلة والمنصورة وغيرها ووصل إلى الإسماعيلية سيمور أمير سفن الحرب وولسلى مقدم العساكر البرية وكثر توارد المؤن وآلات الحرب ودواب الحمل من الجمال والخيل والبغال على ظهور السفن والشوانى واشتدت الحركة بزحف العساكر وجر المدافع وتحميل الأثقال، قيل: فأخذت أحمد عرابى وأصحابه الطيرة واشتد بهم القلق وقد كانوا على عهد مع ديلسبس فاتح خليج السويس بأنه لا يمكن سفن الإنجليز من العبور والوصول إلى مدينة الإسماعيلية فكتب أحمد عرابى إلى المابين الهمايونى كتابا يقول فيه: كنت قد بسطت لعطوفتكم قبل الآن أمر اعتداء الإنجليز وتسلطهم فى جهتى السويس والإسماعيلية على الترعة ومخالفتهم للعهود بما جاء مخلا بنظام الترعة وبسطت أيضاً ما كان من الهمة التى بذلناها فى جعل الترعة على الحيادة لأنها نقطة وحيدة لاجتماع منافع الأمم وممر تجارة العالم أجمع وحيث قد قرب الآن توجه المحل الشريف والحجاج المسلمين إلى جهة الحجاز كتب إلى المسيو ديلسبس الموجود الآن فى الإسماعيلية بالاستفهام عما إذا كانت إنجلترا تمانع فى مرور عساكر المحافظة المعتادة على التوجه مع المحمل الشريف أولا فأجاب وكالة الجهادية بالتلغراف، قائلا: إنه بالنظر إلى الأحوال الحاضرة لا يمكنه أن يأخذ على نفسه تبعة إرسال المحمل الشريف قال وبعد ورود هذا الجواب منع الإنجليز جميع سفن الدول الحربية من المرور بالقتال وقطعوا الأسلاك البرقية الكائنة بين السويس والإسماعيلية كما عرفنا ذلك بالتلغراف ثم أدخلوا سفنهم الحربية مع العساكر بأسلحتهم وقد أجرينا الاحتياطات لمقاومة العدو إذا تقدم إلى داخلية البلاد وكان قومندان الخط الشرقى ومحافظ الإسماعيلية ويوزباشى المستحفظة هناك قد أفادوا أن من عزم الإنجليز أن يطلقوا مدافعهم على النقط العسكرية الكائنة فى مداخل البلاد ففى هذا الصباح علم من الأخبار الواردة أن الإنجليز شرعوا فى الساعة التاسعة من ليلة أمس فى إطلاق القنابل من جهة الإسماعيلية على نفيشة أما نحن فبالنظر إلى احترامنا لعهود الترعة بأن تكون على الحياد وإلى عدم تقويتنا لتلك النقطة وعدم وجود قوة عسكرية تقوم بشأن المحافظة على النقط فيما عدا نقط العساكر المستحفظة وموالاة التحريض الشديد

على عدم مس حقوق الترعة كل ذلك جعلنا فى مأمن تام من تحمل أى تبعة كانت. ولما بدا من الإنجليز هذا الاعتداء على ضفاف الترعة أقام المسيو ديلسبس الحجة على الأميرال الإنجليزى وأرسل صورة الحجة بالتلغراف إلى الحكومة الفرنساوية فاتصل خبرها بوكلاء الدول فى عاصمة الحكومة المشار إليها فأعلموا بها دولهم بصفة رسمية أما الإنجليز فسيرا منهم على حكم المثل السائر «البادى أظلم» لم يلتفتوا إلى إقامة الحجة بل أصروا على الإخلال بنظام الترعة وفى هذا الشأن أرسل تلغراف إلى المسيو ديلسبس بما يأتى «بما أن الإنجليز خرقوا نظام حيادة الترعة فقد صارت مصر مضطرة إلى سدها وتعطيلها منعا لاعتداءتهم فإذا لم يرد لنا جواب فى مدة أربع وعشرين ساعة اضطررنا إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للمدافعة» ـ قال ـ فمن التفاصيل التى تقدم سردها تعلمون أن الدولة الإنجليزية التى كانت متخذة لها مقاما خطيرا لدى الخلافة الكبرى وفى دار السلطنة العظمى وكانت تزعم أنها أشد الدول محافظة على السلام وأنها لا تحارب مصر ولا تقصد بها شرا قد أوقعت المسلمين فى إشكال عظيم ومن التعدى الذى قامت به أمس ظهر فى الواقع أنها تتظاهر بخلاف ما كانت تزعمه سابقا وتحقق أيضاً أنها مقاومة لجميع المصريين الأمة الخاضعة للدولة العثمانية، وأنها داست بأرجل المطامع منافع جميع الدول ولم تخش أحدا ورمت بنار الحرب والقتال إقليما عظيما فبما أن أعمال الإنجليز وصلت إلى هذه الدرجة لم يعد فى الإمكان أن نتراخى فى اتخاذ الوسائط الموصلة لدفع كيدهم وأما النتائج الوخيمة التى ستترتب على ذلك فستكون عائدة على المعتدى الظالم وقد بسطت فيما مضى شرح الأحوال التى كانت جارية يوم تدوينها وإرسالها فلكى يكون ما أعقبها غير خاف على شريف علم ظل الله بادرنا إلى كتابتها وتقديمها لنادى عطوفتكم . اهـ.

وكان أحمد عرابى وأصحابه يعلمون أن دخول عسكر الإنجليز إلى جوف البلاد سيكون من هذه الأرجاء الواسعة ولا سيما من جهة الصالحية فعقد مجلسا من جميع الضباط وكبار العصابة وتكلموا فى هذا الأمر ثم استقر رأيهم على تجييش قوة ثالثة يكون مركزها الصالحية وسيروا فى طلب ما جمعوه من خفراء البلاد بالجهاد القبلية والبحرية وألبسوهم الدرعيات من البفتة البيضاء ولبد الصوف عوض الطربوش وسلحوهم بالبنادق والقرابينات على غير دربة ولاخبرة وجعلوا المقدم عليهم على الروبى أحد زعماء العصابة وساقوهم إلى الصالحية فعسكروا بها وعملوا بعض الخطوط والمتاريس وخرج معهم محمود باشا البارودى متطوعاً يريد الغزو والجهاد فى

الإنجليز، وكان أحمد عرابى قد أعد لنفسه بالتل الكبير خيمة سعيد باشا ابن محمد على الكبير وهى من عجائب الخيام التى قلّ أن يكون لها مثيل، وأقام بها بين الخدم وطوائف الحرس كأنه فى عرس أو وليمة فجباءه جميع العلماء والمشايخ والعمد والأعيان ووجهاء البلاد للسلام وهاداه عمد ومشايخ سائر البلاد بالهدايا من السمن والأرز والعسل والدقيق وعجول البقر وفحول الجاموس والضأن لطعامه وطعام الجند المحاربين معه وأكثروا من إرسال الحلوى والفاكهة على اختلافها فكانت تأتى إليهم على قطارات السكة الحديد، وكان لما ذاع الخبر بما عليه المحاربون من الراحة ورغد العيش تطوع الكثير من أرباب الطرق والأشائر والمتعممين وأصحاب العكاكيز من سائر البلاد القبلية والبحرية وسار من منية ابن خصيب إلى مواقع التل الكبير الشيخ عبد الجواد ومن اليمون الشيخ الجنيد فى لموم كثيرة وطبول وزمور وكاسات وبيارق فأنزلوهم فى ناحية أعدت لهم فكان لا هم لهؤلاء القوم البتة سوى طلب المأكول والمشروب فى الأوقات الثلاثة فإذا أكلوا وشربوا وامتلأت بطونهم من الثريد واللحم المسلوق وجحظت عيونهم عقد كل طائفة منهم مجلسا كما يسمونه فيذكرون ويرطنون بكلمات لا معنى لها البتة ويصيحون وينادون مدد مدد فإذا اشتبك القتال بين الجند والإنجليز واشتدّ رمى المدافع والتقت نيران البنادق بالبنادق صاحوا وترامحوا ونادوا ياسيد يابدوى يا أبا عبد العال يا آل البيت يارجال الله ثم لا يلبثون أن يختفوا عن الأبصار، فإذا بطلت الحرب عادوا إلى حلقات الذكر وتكلموا برطانتهم ثم يقولون قتلنا من الكفار كذا وذبحنا بحد السيف كذا وكذا ولا نزال بهم إن شاء الله حتى نأتى على آخرهم ببركة آل البيت وكذلك كان يفعل جماعة العربان الذين كانوا بالصالحية مع معسكر على الروبى عند النداء فى العسكر بالخروج إلى القتال.

وبينما كانت الحال على ما وصفنا فى مواقع التل الكبير وكفر الدوار والصالحية كان العامة بطنطا ودمنهور والمحلة الكبرى يفعلون ما لا يوصف من النهب والقتل والعربدة ويكثرون من التطواف ليلاً ونهاراً جماعات وبأيديهم العصىّ والمساوق وهم فى ضجة وجلبة وصياح بيامولانا ياعزيز أهلك عسكر الإنجليز وغير ذلك من العبارات التى لفقوها، حدثنى من شاهد، فعال العامة بمدينة طنطا ورآها رأى العين بعد كلام قال: ولم أتجاوز البيت يعنى بيته حتى رأيت البلد يضج بالغوغاء وصراخ النساء والأطفال وتجمع الناس فى الأزقة والشوارع يدفع بعضهم بعضا فسألت عن السبب فقيل لى أن الحرب على أبواب البلد وقد ثار المسلمون على النصارى

يذبحونهم وينهبون بيوتهم ويسبون نساءهم وأولادهم فقلت فى نفسى فتنة ورب البيت وأسرعت إلى مقر ديوان المديرية فرأيت أمامه من المناظر المحزنة والمشاهد الموجعة ما تنفطر منه الأكباد فقد كانت الناس تقتل وتجر من أرجلها على الأرض كالبهائم المأخوذة إلى السلخ بعد الذبح وكان الغوغاء وخفراء الديوان يحملون العصىّ والمساوق ويوقعون العطب بكل من يمر عليهم من النصارى ولا يرفعون أيديهم عنه حتى يقضى عليه، وكان بعد موته على هذه الحالة الشنعاء يستلمه جماعة آخرون، فمنهم من يجره من رجليه، ومنهم من ينزل على رأسه بالهراوة حتى تتطاير أجزاؤه . اهـ.

وحدثنى أيضاً من شاهد ما وقع فى نفس ذلك اليوم بالمحلة الكبرى بعد كلام قال: وقد كنت فى سوق السلطان وكان الوقت بالغا إذ ذاك من النهار حدّ الساعة السابعة إذ أقبل من ناحية القنطرة جم غفير من الحمارة والسوقة وكلهم من السفلة والرعاع وفى أيديهم العصىّ والمساوق وبعض الآلات الجارحة والنارية وهم فى ضجة وجلبة عظيمة وكلما مروا بحارة أو زقاق انضم إليهم أهله من أصحاب البطالة حتى اقتربوا منا فسمعناهم ينادون ياتجار اقفلوا حوانيتكم لأن النصارى جعلوا يقتلون المسلمين على القنطرة فعند ذلك سارعنا إلى النهوض وقصدنا بيوتنا خوفا على العيال، وكان معنا فى هذا الحين حسين أفندى سامى مأمور تاريع المديرية فأبى الذهاب إلى بيته وقال: حتى أرى ما أصاب المسيو كجروس مفتش تاريع المحلة فذهبنا معه وقبل أن نصل إلى بيت ذلك المفتش سمعنا الغوغاء يقولون: يامسلمون اقتلوا النصارى وانهبوا بيوتهم كما أمر ضابط البلد، ووصلنا إلى بيت المفتش فوجدنا بابه مغلقا وعليه جماهير العامة وأصحاب الفتنة يريدون كسره واقتحام البيت لنهب ما فيه وقتل المفتش ومن معه فصاح فيهم حسين سامى وفرّق جموعهم ودخل على المفتش وهدّأ روعه وسكن جأشه وسار الأهالى رجالا ونساء وأولادا وهم يصيحون الله أكبر الله أكبر ويهجمون على الحانات ودكاكين التجار وينهبون ما فيها من مأكول ومشروب وملبوس ومفروش واستمر الحال على هذا الوصف إلى قبيل الغروب قليل وقد قتل تسعة رجال منهم ستة من الروم وثلاثة من مهندسى التاريع الأجانب، وقد كانوا مقيمين فى ناحية الشون الكبير وكان لأحدهم زوجة ولآخر ثلاث بنات أبكار وغلام وحماة التجؤا كلهم إلى بيت محمود أفندى منجد مأمور مركز سمنود فآواهم وذب عنهم جهد الاستطاعة - قال - وقد أحرقت العامة بعض القتلى بنار البترول وألقوا البعض الآخر فى البحر ومنهم من دفن فى تل الواقعة. اهـ.

(**قلت**): وكانت فعال العامة بالقاهرة أيضاً بالغة حدّ الجفاء والشدة ولكن لم يقع شيء من القتل ولا النهب ليقظة صاحب الشرطة إبراهيم فوزى بيك وتطوافه فى الشوارع والأزقة والحارات ليلاً ونهارا وقد رأيت جماعة منهم يوما يطوفون وبينهم حمار وعلى ظهره كلب أسود وعلى رأس الكلب قبعة (برنيطة) بالية والكلب فى غاية الخمول والكسل كأنه أطعم شيئاً من المخدّرات كالحشيشة ونحوها ولسانه قد تدلى من شدة الظمأ والتعب وهم يصيحون حول بياسيمور ياوش القملة من قال لك تعمل دى العملة، وما زالوا على هذه الحال من التطواف إلى وقت الهاجرة ثم أتوا إلى قشلاق جند الحرس الخديوى برحبة عابدين فلما صاروا أمام الباب تقدم أحدهم نحو الكلب وألقاه عن ظهر الحمار وذبحه بسكين كانت معه ذبح الشاة، فصاح عند ذلك الجمع صياحا متتابعا الله الله قطع الله رأس سيمور قطع الله رأس سيمور يريدون سيمور أمير مراكب الحرب وهكذا كان شأنهم مع الكلاب فى كل يوم حتى انكمشت واختفت عن الأبصار ولجأت إلى مواقد الحمامات وخرائب المدينة وكان إذا ظهر واحد منها ونادى عليه أحد الصبيان باسم سيمور انذعر وترامح واختفى عن الأبصار فرارا من الموت وكأن الكلاب قد أدركت بملكة التمييز (أى الغريزة الحافظة لنوع الحيوان) ما وراء كلمة سيمور من لبس القبعة والتطواف على ظهر الحمار ثم قطع الرأس **أقول**: والشيء بالشيء يذكرحدثنى صاحب لى، قال: حدثنى أبى رحمه الله وقد كنت أقص عليه يوما فعال العامة بالكلاب فى تلك الأيام فتبسم وقال: ليس فى الأمر ما يدعونى إلى الاستغراب من تلك الحيوانات الداجنة فقد أتى إلى القاهرة على عهد محمد على باشا الكبير أمير من أمراء الإنجليز ومعه زوجته للتفرج على آثار الديار فأقام بالقاهرة ما شاء يتجول فى شوارع المدينة ويتفرج على ما فيها من الدور والمبانى والمساجد والمعامل وكانت يومئذ كثيرة إلى أن سار يوما إلى ناحية الحسينية والدمرداش ومعه زوجته وكان زىّ ملابس الأمراء فى ذلك الحين قبعة طويلة سوداء وسراويل ضيقة وكساء مخروطا من الأمام ولفافة حول العنق، وكان كساء النساء فستانا تحته آخر بأسلاك الحديد على شكل قبة الهواء وقبعة كثيرة الأقمطة والأربطة فلما وصلا إلى ناحية الحسينية عرّج بهما ترجمانهما إلى ناحية المذبح ليروا كيفية الذبح فى هذه البلاد وكان أمام المذبح كثير من الكلاب الأشداء كأنها الوحوش الكاسرة فلما رأت هذه الهيئة الغريبة والزى البعيد عن عادة أهل البلاد قامت على الأمير وزوجته قومة واحدة فذعرتهما ومزقت ملابسهما فتداركهما أهل تلك الخطة

وخلصوهما فعادا إلى المدينة ولبثا ما شاء ثم عزما على الرحيل عن مصر فذهبا لوداع محمد على باشا فلاطفهما وحادثهما ساعة وسألهما عما أعجبهما فى البلاد - قال: وكان محمد على باشا شديد الرغبة فى تقدم البلاد وإيرادها موارد العز والرفاهية ميالا إلى توسيع نطاق الزراعة والتجارة والصناعة محبا لخيرها جهد الاستطاعة فقال الأمير: قد رأينا فى بلادك أيها الأمير كل ما يسر الخاطر ويقر الناظر ويبشر إن شاء الله بخير المستقبل غير أن قد رأينا أيضاً شيئاً لم نره فى بلاد الأمم المتمدنة قال: وما هو، قال: رأينا بناحية المذبح عند باب الحسينية جيشا من الكلاب فما وقع نظرها علينا حتى قامت قومة واحدة كالوحوش الكواسر فازعرتنا فتداركنا نفر من أهل تلك الخطة فخلصونا وعهدنا بالبلاد المتمدنة أن لا يترك فى شوارعها مثل هذه الحيوانات الكاسرة فقال الباشا يحزننى جداً ما أصابكما ولكن إذا عدتما إلينا فى السنة القابلة إن شاء الله فلا تريان إلا ما يسركما فشكراه وودعاه وانصرفا فأرسل الباشا فى الحال فى طلب كتخداه لأظه أوغلى فدخل عليه فقال: عليك من الساعة أن تبعد عن القاهرة ومصر جميع ما فيهما من الكلاب وتسير بها إلى الدار البيضاء وطره والجيزة وإياك أن تبقى منها واحدا، قال: فنزل الكتخدا وسار إلى ديوانه ودعا إليه مشايخ الحارات، وقال: تجمعون من الساعة سائر كلاب مصر والقاهرة ومن ترك واحدا منها حل به ما يكره فنزل مشايخ الحارات وجعلوا يطوفون فى الأزقة والحارات وتبعهم الصبيان يقبضون على كل ما يجدونه منها وكثر البحث والتفتيش وأخرجوها من كل فج عميق واشتدوا عليها شدة بالغة فكانوا يسيرون بها عشرات ومئات إلى الدار البيضاء وطره والجيزة فأدركت الكلاب ما هنالك واختفت عن الأبصار فشددوا فى طلبها أياما حتى ظنوا أنه لم يبق منها واحدا فانكفوا، فلما كان بعد بضع أيام ظهر منها ما كان مختفيا وهى فى أسوأ حال من الجوع وجعلت تسعى فى طلب الرزق ولا خفاء أن عادة السوقة وأصحاب الحوانيت إذا جلسوا فى حوانيتهم صباحا لا يبيعون ولا يشترون حتى يفطروا فيأتون بالفول المدمس والبصل والخبز ويجلس الرجل منهم وظهره إلى الطريق فكان إذا أتى كلب ووقف أمام الحانوت يطلب صدقة التفت إليه صاحب الحانوت فيقول له اخسأ - جر - عصا - امش - فلا يتحرك فإذا قال لغلامه: ناد ياولد على شيخ الحارة - هرول الكلب مسرعا واختفى عن الأبصار لإدراكه ما وراء حضور شيخ الحارة من القبض عليه والتغريب وبقى الحال هكذا فى منع الكلاب وطردها عن الحوانيت أياما كثيرة.

وكبـرت فى هذا الحين شـرور مهـاجرى الإسكندرية وعظمت فـعالهم فـعاثوا وأفســدوا وبالغوا فى إيذاء الناس بلا فـرق ولا تميز فـابعدوهم عن مصـر والقاهرة وفـرقوهم فى الأقـاليم القـبلية والبـحـرية وأسكنوا من بقى منهم بالقـاهرة فى دور الحكومة وبيوت الأمـراء الذين لجؤا إلى الخديوى بالإسكندرية وأنزلوا جـماعة منهم فى بيت محمـد سلطان باشا رئيس نواب البلاد على ما فـيه من فرش وبسط وأثاث نكاية وانتقامـا ورتبوا لهم خبزا فى كل يوم وأقـاموا عليهم من يقوم بتـدبير أمورهم وإحضار طعامهم فى أوقاته فكانوا لا يشكرون نعمة ولا يحمدون محسنا ولا ينفكون عن المهاترة والشناعة والمـلاكمة بعضهم مع بعض رجـالا ونساء وأولادا وكان الرجل منهم إذا أعـوزه الأفيون أو الدخـان أو بعض المكيـفات عمـد إلى الحوانيت المقـفلة ففتحها وأخذ ما فيـها بلاخوف ولا اكترات فكان إبراهيم فوزى بيك صاحب شرطة القاهرة لا ينفك عن التطواف ليلا ونهارا ومعه جماعة من أعوانه بأيديهم العصى فإذا رأوا جماعة من هؤلاء الحرافيش فى إحدى الطرق فرقوا جمعهم وباعدوا بينهم وبين بعض كى لا يتمكنوا من فعل شىء بالدور والحوانيت المقـفلة وكانت فعال من تفرق منهم فى القـرى والبلدان غاية فى الـشناعة والإيذاء أيضـاً فكانوا ضربة على الـبلاد وأهلها.

ولما تكامل حضـور العساكر الإنجليـزية إلى مدينة الإسماعـيلية جعل مقـدمهم يستكشف مـواقع العرابيـين ومعاقلهم وحـصونهم التى كانوا يشـتغلون بعـملها بين الإسماعـيلية والمسخوطة وكانوا قـد تمكنوا من منع الماء عن الإسماعيلية وبورسـعيد والسويس فرأى مقدم الإنجليز أن يعاجلهم بالقتال وهم على هذه الحال فزحف عليهم وقاتلهم قتالا شديدا حتى أوقع بهم واستولى عـلى مواقعهم ثم كر عليهم العرابيون فأخرجوا الإنجليز من مراكزهم ولكنهم عادوا فاستولوا عليها بعد قتال، وسار جماعة منهم قـبل ظهر السـادس من شوّال يبلغ عـددهم زهاء الثلاثمـائة قاصـدين نفيـشة فوصلوا إليها فلم يجدوا فيها أحـدا من العرابيين فأنهم لما علموا بقرب الإنجليز منهم تركوا نفيـشة وساروا إلى المحسمـة فعلم الإنجليز بخبرهم فـتبعوهم وضيـقوا عليهم وأخذوا عليـهم الطرق من كل جانب فتـقهقروا من المحـسمة وتركوا بعض مـا كان معـهم من المؤن والذخرة وآلات الحـرب وكان محـمود باشا فـهمى ناظر الأشـغال العمـومية وأحد زعـماء العصـابة مع العرابيين يومـئذ فى ذلك المكان يرتب خطوط الدفاع الأمامـية للتل الكبير فـتركه العرابيون وتقـهقروا فلاقاه نفـر من الإنجليز عند

محطة السكة الحديد ولم يعرفوا من هو إلا بواسطة أحد العساكر المصرية المجروحين لأنه كان لابسا لباس الملكيين وبيده مظلة بيضاء فلما اقترب من ذلك الجندى المجروح وكان الجند جالسا قام وأدى له إشارات التعظيم ففطن الإنجليز لذلك وقبضوا عليه فسجنوه ليلتهم تلك فى حجرة صغيرة ثم أصبحوا فسيروا به إلى الإسماعيلية، فلما تمثل بين يدى مقدم الجيوش الإنجليزية قال له: أأنت ممن تركوا العسكر وولوا الإدبار أو ممن أسروا قهرا قال إنى أسير ولست منهزما فأمر به مقدم الجيوش فنقلوه إلى الإسكندرية وسجنوه فى دار محافظة المدينة وتقدم الإنجليز فى ذلك اليوم يريدون قطع شأفة العرابيين فخرّج عليهم جماعة من العرابيين ورموا عليهم بالبنادق رميا متتابعا وكذلك رمى الإنجليز واشتبك الحرب بين الفريقين ففعلت يومئذ نيران العرابيين بالإنجليز فعلا رديئا وكان القيظ لا يطاق فى ذلك اليوم ففعلت الشمس أيضاً بهم من الموت ما لم تفعله نيران العرابيين وظهرت مدافع المصريين أيضاً وتابعت الرمى بالقنابل على مواقع الإنجليز واشتدت فى الرمى حتى اتصلت بمؤخر الإنجليز وفعلت بهم فعلا أليما، وكان العرابيون قد حصنوا التل الذى هناك وأقاموا فيه خطوط دفاعهم مرتبة ترتيبا حسنا إذ كان يشتغل فيها من أهل البلاد والقرى المجاورة زهاء سبعة آلاف فلما اشتدت عليهم نيران الإنجليز وتراسلت قنابلهم انسحبوا إلى التل المذكور وتحصنوا به فتبعهم الإنجليز فى عاشر شوّال وقاتلوهم قتالا عنيفاً وكان مقدم المصريين فى هذه الواقعة الفريق راشد باشا حسنى الجركسى المعروف بأبى شنب فضة فقاتل فى ذلك اليوم قتالا شديدا جدا وفعلت نيران مدافع العرابيين بالإنجليز فعلا رديئاً وكانت قنابلهم تأتى إلى مواقف الإنجليز تباعا محكمة الرمى والإصابة حتى اتصلت بموقف ولسلى مقدم الجيوش فقتلت من حاشيته وجرحت فشهد الإنجليز لأصحاب المدافع وامتدحوا كفاءتهم وما زالوا على هذه الحال والرمى متراسل من الفريقين وراشد باشا يدير الحركة ويتابع الإشارات لأصحاب المدافع وهو بين ملتقى النارين حتى جرح جرحا بليغا وشاع الخبر بذلك بين العسكر فانفشلوا وانهزموا فتبعهم الإنجليز وضيقوا عليهم حتى أخذوا مواقفهم وغنموا ما كان فيها من المدافع والمؤن والذخرة واشتد التعب بالإنجليز وأعوزهم الماء والطعام فقد قضوا ثلاثة أيام كاملة بعد هذه الوقائع لا يأكلون سوى البقسماط اليابس ويشربون الآسن الممزوج بدماء القتلى من الإنسان والموتى من الحيوان ففعل فيهم هذا كله فعلا رديئاً ووقع فيهم الموات واشتدت بهم العلل والأمراض وحاول

العرابيون رجوع الكرة عليهم واسترجاع مواقع القصاصين منهم فخرجوا عليهم بقوتين إحداهما: قدمت من مواقع التل الكبير، والثانية: من مواقع الصالحية وكان مقدم هاتين القوّتين فى ذلك اليوم على باشا فهمى المعروف بالديب فخرج الإنجليز للقائهم واقتتلوا قتالا عنيفا فظهر الإنجليز على العرابيين وجرح على الديب جرحا خفيفا وتقهقر المصريون وانفشلوا وتبعهم الإنجليز وقد مات فى هذه الواقعة من كبار الإنجليز وصغار ضباطهم جماعة وعدد من الجنود وتحصن العرابيون بعد ذلك فى حصون ومعاقل التل الكبير فتبعهم الإنجليز رويدا فجعل المصريون يرمون عليهم بالقنابل رميا متتابعا غاية فى الإحكام فتربص الإنجليز حتى تكاملوا، حدثنى صاحب لى قال: ودبر العرابيون الأمر ورتبوا كيفية هجومهم على الإنجليز والإيقاع بهم بأن تسير من مواقع الصالحية قوّة مؤلفة من الجنود بين مشاة وركبان ومدفعيين وجماعة من العربان بقيادة على الروبى والبارودى فتأتى على ميمنة وخلف الإنجليز قبل مطلع الفجر الأوّل، وتسير قوة أخرى من مواقع التل الكبير وتأتى على ميسرة وخلف الإنجليز أيضا بعد وصول القوة الأولى بقليل ثم تلتحق القوتان بطرفيهما فيصير الإنجليز فى القلب ويقطعان عنهم خط الرجعة إلى المحسمة ويعملان فيهم القتل والتشريد قال: وسمعت أهل الحرب يقولون كانت هذه الخطة غاية فى الإتقان بالغة حد التفنن الحربى ولكن لحظ الإنجليز لم يتم للعرابيين شىء من ذلك إذ تأخر حضور عسكر الصالحية فى الميعاد المحدد لالتقائهم بجند التل الكبير وانقسم الرواة فى سبب تأخرهم إلى قسمين قسم قال: إن الخبراء من العربان الذين تولوا الإسراء بالجند ليلا من صحراء الصالحية إلى المحسمة قد ضلوا عن الطريق فلم يشعروا إلا ونور الفجر قد لاح وهم على قيد فراسخ من المواقع فخاف الضباط وتربصوا قليلا ليتحققوا الأمر فسمعوا أصوات المدافع مترادفة فرجعوا على أعقابهم القهقهرى، وقسم قال: إن الذى أوجب تأخرهم إنما هو ضخامة الجيش وثقل مدافعه وصعوبة السير على رمال تلك الصحراء المموّجة فلما وصلت طليعة جند التل الكبير إلى مقربة من مواقع الإنجليز وكان الإنجليز قد أحسوا بما دبره العرابيون قابلهم فرسان الإنجليز بالسيوف شمال المراكز وأعملوا فيهم الضرب فتقهقروا وعادوا إلى الوراء بدون قتال ولجؤا إلى مقدمات قلاع التل الكبير ولم يفلحوا فى هذه اللحظة التى كان عليها تمام نصرتهم والله يؤتى النصر من يشاء من عباده.

وبدأت تظهر من هذا الحين طلائع الأخبار ببعض المدن وفى القاهرة بعزم

السلطان على إشهار عصيان أحمد عـرابى ومن معه من كبار العصابة وأنهم خوارج مارقـون واتصلت هذه الأقوال ببعض أخـصاء أحمـد عرابى والمقـربين إليه من أهل البلاد فبالغوا فى كـتمانها وكأنهم قد أشفقوا عليـه فكثرت رؤياهم وأحلامهم أو هم أكثروا منها وجعلوا يذيعونها بين العامة وصغار الناس علها تدفع عن أسماعهم الخبر القائل بعزم السلطان على تكفير أحمد عـرابى والنداء بخروجه وشقه لعصا الطاعة، حدثنى صاحب لـى ممن كان فى ركاب أحمد عـرابى بالتل الكبير قال: وكـثر وقوع الأحلام والرؤيات لبعض المشـايخ والمتعممين من أهالى القـاهرة ومصر وبعض المدن فكانوا يسطرونها على أوراق ويرسلونها إلى أحمد عرابى بالتل الكبير وكلها عجائب وغرائب فقد اطلعت على بعض ما فى تلك الأقـوال فرأيت أنها من الإفك والبهتان بمكان عظيم وعلى الخصوص منهـا أحلام أهل الشرقية وبعض مشايخـها فقد أرسل أحدهم إلى أحمد عرابى يوما يقول رأيت في نومى الليلة البارحة كأنى دخلت بستانا كثير الأشجار يانع الثمار تجرى فيه الأنهار فأدهشنى حسن ما فيه وتقدمت رويدا وأنا أسرح الطرف فى ذلك البهاء الظاهر والجنة التى لا يعرف لهـا أوّل من آخر فبينما أنا على هذا الحال إذ أمسك بكتفى صبى ما رأت عـينى أجمل طلعة من طلعته، وقال: إلى أين ياهذا أصلحك الله؟ فـقلت :لا أدرى ورب البيت، قال: انظـر إلى يمينك ولا تجزع فنظرت فإذا بـى أرى كرسيا من الزمرد الأخـضر وبجانبه آخـر من العقيق الأصفر ثم سـمعت دويا كصوت النحل ومنادياً ينادى أنزل يامـصطفى أنزل ياأحمد أنزل يامحـمد فاشتد عند ذلك صـوت ذلك الدوى وارتج المكان رجة مزعـجة حتى كـدت أسقط مـغشـيا على من شـدة الخوف فـلم ألتفت إلا وقـد جلس على ذلك الكرسى الأخضر إنسان لم تر عينى أحسن شكلا منه وبيده مسبحة حباتها من العنبر فنظر إلى المكان نظرة المشـفق ثم دق كفا لكف فـحضر لـديه فى الحال جمـاعة من الغلمان كـأنهم البدور إذا بدت وقبلوا الأرض بـين يديه وقالوا: لبيك ياحـبيب الله قال: أين المجـاهد أين المغازى أين نسل ولدى الحـسين فغـاب بعضهم لحظة لطيـفة وعادوا وأنت بـينهم أيها الأمـير الجليل متـشحـا بحلة من السندس الأخضـر وعلى وجهك هيـبة وجـلالة الله أكبر فـقال النبى عليـه الصلاة والسـلام، تقدم ياأحـمد فتـقدمت وأنت خاشع مطرق فـمد النبىّ ﷺ لك يده الشريفـة فقبلتـها مبتـهلا، وقلت: انظر يارسـول الله ما فـعل الكفار بنا ونحن فى جـوار عتـرتك الطاهرة وآل بيتك الكرام انظر كيف طرقوا أرض الكنانة بخيلهـم ورجلهم فعاثوا وأفسدوا وأراقوا

الدماء هدرا ثم اغرورقت عيناك أيها الأمير بالدموع فنظر إليك رسول الله ﷺ وهو باسم وقال: خفف عنك ياأحمد فسوف تظفرون بهم وينصركم الله عليهم نصراً مبينا ثم ناولك سيفا قبضته من الذهب الخالص المرصع بالدر والجوهر، وقال: اضرب بهذا رقابهم ولا تكف عنهم حتى يستسلموا بإذن الله تعالى فلما سمعت أنا هذا الكلام من رسول الله ﷺ وكأنى والله فى يقظة لا فى منام صحت فرحا وقلت الله أكبر الله أكبر على من طغى وتجبر فانتبهت من نومى وكان رؤياى منقوشة على صدرى فأبشر بالنصر والغلبة على القوم الكافرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قال الراوى لهذه العبارة: وكانت هذه الأكاذيب تتلى بين المحاربين فى مواقع التل الكبير من ضباط وجند وعربان وفى مواقع الصالحية وكفر الدوار فيتناقلها العامة والسوقة الذين يتبعون الجيش فى مواقع القتال وهؤلاء يبثونها محشوة بالإفك والبهتان بين أهل المدن والقرى القريبة فكان الناس لا يشكون قط فى صدقها ولا يقبلون لها تأويلا وظل الحال على ما هو عليه من انبثاث دعاة العصابة فى جوف البلاد يحضون البسطاء من أهلها على إمداد المحاربين فى مواقع التل الكبير بالنفس والنفيس ويموّهون عليهم الحقائق ويقصون عليهم تلك الأحلام والمنامات محشوّة بالخلط والتخريف حتى عم الفساد واختل النظام واشتدت الفتنة واتسع خرقها وصار الناس كلهم يتطاولون على مقام الخديوى بالسباب وفحش القول ويرمونه بالمروق ويتهمونه بترك دينه والتمسك بدين النصرانية ونصروا عبد الله صاحب الطائف ودعاة العصابة معه وأحلوا سائر مفترياتهم محلا عظيما، وبينما كانت الحرب قائمة على ساقها أمام مواقع التل الكبير ونار الفتنة تتأجج فى جوف البلاد كان سفير الإنجليز بدار السلطنة العثمانية يكثر من تهديد رجال المابين ويعمل على قطع حبل الاتصال الذى كان مشدودا بينهم وبين أحمد عرابى ولا سيما منهم الشيخ أحمد أسعد إمام السلطان فكان يقضى بياض يومه وسواد ليله وهو يغدو ويروح ما بين الباب العالى ومقر السلطان ويعمل بدهائه ويدبر بفطنته وذكائه ويلح بطلب صدور فرمان السلطان بعصيان عرابى، وكان يرجو من هذا العمل أمرين خطيرين أولهما: صرف وجه أحمد عرابى وأشياعه عن السلطان ورجال المابين فيفتتنون وتنقصم عروة اتحادهم والثانى تنزيل أحمد عرابى من عيون المصريين وصرف وجوههم عنه لخروجه عن طاعة سلطانه ورميه بالمروق واعتبار أن حربه للإنجليز حرب غير جائزة ولا هى من الجهاد فى شىء كما كانوا يظنون وما زال السفير يعمل ويكيد حتى أفلح وغرر

بالسلطان ورجال ما بينه وكبار دولته وأصدر فرمانا بخروج أحمد عرابى وعصيانه فطير السفير الخبر بذلك إلى الآفاق وأوعز إلى صاحب جريدة الجوائب العربية التى تطبع فى دار السلطنة العثمانية فنقش ذلك الفرمان على صحائف جريدته فابتاع السفير منه زهاء ستة عشر ألف نسخة وسير بها إلى الهند ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية فوصل منها إلى مدينة الإسماعيلية شىء كثير فأمر به مقدم الجيوش الإنجليزية فنشروه على أيدى الجواسيس من العربان والفلاحين فى معسكر التل الكبير والصالحية وكفر الدوار فما انتشر بينهم وذاع خبر ما فيه حتى تراخت عزائم العسكر وفترت همم الضباط وكادوا ينفشلون وعم خبر ذلك بين الأفراد فتحدثوا به كثيرا.

وكان ممن جاء مع عسكر الإنجليز إلى الإسماعيلية محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وجماعة آخرون من رجال الحكومة المتحزبين للخديوى قد سير بهم الخديوى فى ركاب مقدم العسكر الإنجليزية ليكونوا له عونا على قضاء حاجاته ويمهد أمام جيوشه ما يحدثه أهالى القرى من الموانع والعقبات فجمع إليه سلطان باشا بعض طوائف العربان ممن كانوا حول معاقل العرابيين واستمالهم وأجزل عطاءهم وقرّب منه بعض كبارهم فأطاعوا ومالوا إلى العطاء ودخلوا بين جند التل الكبير وأذاعوا بين صغار الضباط وأفراد العسكر خبر ما رسم به السلطان من عصيان عرابى ومن تبعه وأنهم خارجون مارقون عن طاعة أمير المؤمنين فأزعجهم هذا الأمر وتراخوا وانحلت عزائمهم وانفشلوا أو كادوا واتصل خبر ذلك بأحمد عرابى وأصحابه فهالهم وكبر عليهم وتناجوا فيه طويلا فاتفقواعلى كتمانه وإخفائه إلى حين ولكنهم لم يفلحوا إذ انتشر الخبر وعم وتكلم به سائر العسكر، قيل: وجاء فى هذا الحين رسول من عند مقدم الجيوش الإنجليزية فاجتمع بأحمد عرابى فى سرادقه وتحادثا ساعة فيما لم يصل أحد إلى معرفته حتى الآن ثم قفل الرسول راجعا إلى معسكر الإنجليز فظهرت بعد ذلك على وجوه كبار الضباط وصغارهم علامات اليأس والقنوط ووقع بينهم الهرج وبانت على وجه أحمد عرابى دلائل الضعف والاستسلام وذهبت عنه تلك الشدة والحدة وتولاه الخمول فلم يكن لهم فى هذا الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة الأوراد والأحزاب وتقليب مسبحته ذات اليمين وذات الشمال والاحتجاب عن الناس إلا القليل من مقدمى العسكر وكان مقدم جنود خطوط التل الكبير الأمامية اسمه على يوسف المعروف بعلى خنفس فراسله محمد

سلطان باشا أيضاً واستماله إلى طاعة الخديوى فأطاع واستوثق لنفسه، فلما كان ثامن عشرى شوّال من السنة أى سنة تسع وتسعين ومائتين رتب مقدم جيوش الإنجليز عسكره على مقربة من خط السكة الحديد وترك المعسكر كله خاليا فى حراسة نفر قليل من جماعة المهندسين وأبقوا نارهمْ موقدة إيهاما بأنهم متربصون فى مضاربهم فلما صاروا على قدم الاستعداد سروا بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوّال تحت جنح الظلام وأمامهم جماعة من الضباط المصريين ممن كانوا فى خدمة الخديوى بالإسكندرية وجماعة من عربان الهناده يدلونهم على الطريق وما زالوا على قدم السير حتى بلغوا مقدمة خطوط العرابيين فأمر لهم على بيك يوسف فدخلوا بين صفوف عسكره بلا ممانع ولا مدافع وكان جل العسكر فى هذا الحين نياما على الحصون والمتاريس والضباط فى فراشهم بأقمصة النوم كأنهم فى أسرة بيوتهم بين أحضان عيالهم آمنين مطمئنين وما زال الإنجليز حتى صاروا فى وسط المعقل وأطلقوا البنادق تباعا فانصبت نيرانها على العرابيين انصباب المطر فهبوا من نومهم مذعورين وحملوا على الإنجليز فلم يثبتوا إلى لحظة لطيفة حتى تمت هزيمتهم وولوا الإدبار وثبت أصحاب المدافع وأكثروا من الرمى بالقنابل فركب الإنجليز عند ذلك أقفيتهم وأعملوا فيهم السيف وأفحشوا فى قتل كبارهم وصغارهم فلما سمع عرابى أصوات المدافع والبنادق هب من نومه وقيل: بل كان على يقظة فخرج من سرادقه وخرج معه عبد الله صاحب الطائف وركب فرسا وركب عبد الله كذلك ومعهما جماعة من الفرسان وخرجوا على وجوههم يريدون بلبيس وقد ترك عرابى ما كان فى سرادقه من أوراق ومتاع فتبعهم نفر من فرسان الإنجليز وترامحوا خلفهم فلم يدركوهم أو لم يشأوا أن يدركوهم وما زالوا حتى أتوا أنشاص الرمل قبيل الظهر واتفق أنه كان بمحطة أنشاص قطار من قطارات المهمات قاصدا القاهرة فترامح أحمد عرابى ومن معه حتى أدركوه وركبوا فى آخر عربة فيه فسار بهم إلى القاهرة فدخلوها فى الساعة الثامنة عربى نهارا من تاسع عشرى شوال والناس فى شاغل عنهم بما هم عليه من التطواف والضجيج فى الشوارع والحارات فقد كان العامة وأرباب الطرق والأشاير وسائر صبيان المكاتب يطوفون زمرا فى ذلك اليوم ويصيحون بيالطيف، ياجبار اهلك عسكر الكفار، وكان المؤذنون يعجون على المنائر ويبتهلون إلى الله بعبارات الاستغاثة وطلب النصر على العدوّ فلما دخل عرابى القاهرة طاف صاحب الشرطة ومعه جماعة من العسكر يمنع الناس من التجمع فى الشوارع ويشدد على العامة بملازمة

السكون على غير عادته فلم تلتفت العامة إلى قوله وبقوا على هذا الحال من التطوّاف والضجيج والعجيج حتى شاع الخبر بوصول عرابى ومعه رأس سيمور أمير سفن الحرب الإنجليزية ورؤوس كثيرين من كبار الإنجليز والمصريين فهرع عند ذلك العامة من كل صوب وحدب وتبعتهم النساء بالزغاريت واشتدت جلبتهم وتزاحمت الغوغاء فى الشوارع والطرق وكثر صياحهم وضجيجهم واشتدت الحركة فخاف أصحاب الحوانيت وأغلقوا حوانيتهم وكبر خوف أصحاب البيوت وتطيروا من شر ذلك اليوم العصيب وسار عرابى بعد وصوله إلى قصر النيل وجمع إليه أصحابه من كبار الضباط وصغارهم وأخبرهم بخبر هزيمته ودخول الإنجليز فى جوف الحصون والمعاقل قيل: وشكى وبكى فتكلموا فى الأمر طويلاً فألح عليهم بالتعجيل فى إنشاء الحصون والمعاقل ومد الخطوط والاستحكمات أمام العباسية وأن يجمعوا المتشردين من العسكر ويلتقوا بالإنجليز قبل أن يدخلوا المدينة فيقاتلوهم وخطب عبد الله صاحب الطائف فى ذلك وجعل يستحثهم ويستنهض همم فاختلفت كلمتهم وكان ممن حضر معهم يومئذ فارا من الصالحية على الروبى فأشار بوجوب التسليم للقضاء وعقد المجلس العرفى فعقدوه واستدعوا سائر أعضائه من كبار العسكر والملكيين والعلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين والوجهاء والأعيان فقص عليهم عرابى ما جرى وبكى وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال: وإنى ما زلت على قدم الدفاع ورد العدوّ عن البلاد ما دام فىّ رمق من الحياة وجعل ينتحب فردّ عليه بعض الحاضرين من كبار العسكر وقال: أوماكفاك ياهذا أن دمرت الإسكندرية حرقا بسوء تدبيرك وجهلك العواقب حتى تريد أن تدمر القاهرة أيضاً بسوء فعالك فإن كنت لم تبق فيها على شىء فإن لنا فيها عيالا وأطفالا وأملاكا لا نسلم بضياعها ضحية لأغراضك فكفى كفى ماجرى، فعند ذلك أطرق عرابى رأسه خجلاً ولم ينطق ببنت شفه وطال بين الجميع الأخذ والرد ساعة ثم استقر رأيهم على كف القتال وعدم التعرض لعسكر الإنجليز بشىء مّا وأن يتقدم أحمد عرابى وأصحابه إلى مقام الخديوى فى طلب العفو عنهم بعريضة يرفعونها إليه فقام عبد الله صاحب الطائف وكتب عريضة ملأها بالطعن والتنديد بفعال الإنجليز وشحنها بالإفك والتغرير والتضليل وقص فيها ما وقع من البداية إلى النهاية ولم يصرح فيها بذكر شىء من ذنوب أحمد عرابى وذنوب أصحابه ثم جعل يتلوها على الحاضرين فلم تعجبهم وكان ممن حضر فى ذلك المجلس أيضاً بطرس باشا غالى وكيل الحقانية فكلم عبد

الله فى ذلك، وقال: إن المقام الآن لا يحتمل شيئاً من الطعن ولا التشديد فهات أملى عليك ما يحسن رفعه إلى مقام صاحب الأمر فأملى عليه شيئاً من عبارات الاستعطاف والاسترضاء فأعجب الحاضرين وأوقع عليه عرابى وأصحابه على كره من صاحب الطائف ثم اختاروا لهذه السفارة محمد رءوف باشا وبطرس باشا غالى فطلب على باشا الروبى مرافقتهما وقاموا من ساعتهم فى قطار مخصوص فسار بهم إلى الإسكندرية فلم يصلوا إلى كفر الدوّار حتى جاءهم الخبر بأن تربصوا حتى يأتيكم عبد الله برسالة من عرابى وأصحابه فتربصوا حتى حضر عبد الله على قطار مخصوص ومعه عريضة أخرى يخالف ما فيها ما فى العريضة الأولى، وقال: يقول لكم عرابى باشا لا ترفعوا إلى الخديوى العريضة الأولى وارفعوا إليه هذه، وكان لما قام رءوف باشا ومن معه إلى الإسكندرية فكر عبد الله فيما سيلقاه من العذاب إذا حوسب كل بعمله فزين لعرابى العدول عن طلب العفو وأن يظهر من الضعف قوة ومن الخوف رجاء ويكتب إلى الخديوى قصة يدفع بها عن نفسه عار الذل وشماتة الأعداء فأجابه عرابى إلى ذلك وعبد الله إنما يريد بهذه الحيلة التمكن من الفرار والاختفاء فلما وصل إلى كفر الدوار اختفى ولم يوقف له على أثر إلى أن كان من أمره ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

ووصل رءوف باشا ورفاقه إلى الإسكندرية فى غرة ذى القعدة بعد العناء الشديد وتمثل هو وبطرس باشا بين يدى الخديوى ورفعا إليه عريضة عرابى وأصحابه فلم يقبلها وأمر بعلى الروبى فقبضوا عليه وأودعوه فى السجن منفردا عمن أتى بهم الإنجليز من مواقع الحرب من العرابيين وفرح أهل الإسكندرية يومئذ فرحا لا يوصف وأتت رسائل التهانى إلى ديوان الخديوى من كل صوب وطاف طوائف الفرنجة بالإسكندرية يهللون وينشدون أناشيد النصر ونزل المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز إلى الإسكندرية ودخل على الخديوى وهنأه من قبل ملكة الإنجليز ومناه بالأمانى الكثيرة، أما المقاتلون من الإنجليز بمواقع التل الكبير فإنهم لما دخلوا فى وسط معاقل العرابيين وحصونهم نسفوا بعضها ومزقوا شمل من كان بها من العساكر ثم تركوا منهم جماعة لدفن جثث القتلى فأحصوها فكانت زهاء الألفين وسار الباقون قاصدين القاهرة من طريقين الأول بجانب السكة الحديد الموصلة إلى مدينة الزقازيق وبنها وبلبيس والثانى على ضفة الترعة الحلوة الخارجة من القاهرة كى يصلوا إليها بأسرع ما يمكن خوفا من أن يصيبها ما أصاب مدينة الإسكندرية وكان سير فرسانهم إلى الزقازيق غاية فى البطأ والفتور بسبب تعب الخيل وضعف الجند عن الحركة فلما

صاروا على قيد فرسخين من الزقازيق هجموا عليها ولكن بغاية الضعف والاختلال فلم يروا من يردهم فمال جماعة منهم نحو السكة الحديد وكان بها فى هذا الحين خمسة قطارات مشحونة بالعساكر المصرية والمهمات الحربية وكثير من المرضى والجرحى فأربعة من سائقى هذه القطارات لما رأوا اقتراب الإنجليز منهم قاموا وأسرعوا فى مسيرهم فنجوا بمن معهم من الوقوع فى أيدى الإنجليز أما الخامس فأنه ما كاد يتحرك حتى لحقه ضابط من الإنجليز ورماه بالرصاص فسقط ميتا فلما رأى العرابيون ما حل بسائق القطار وهجوم الإنجليز عليهم ألقوا بأسلحتهم وفروا طالبين النجاة فلم يتبعهم الإنجليز لقلة عددهم فنجا العرابيون جميعا وفى نحو الساعة الثالثة عربى نهارا تكامل وصول جميع العساكر الموكلين باحتلال مدينة الزقازيق مع مقدمهم الجنرال ماكفرصون وأما الفريق الثانى الذى سار إلى القاهرة على ضفة الإسماعيلية فأنه عبر الترعة من ناحية التل الكبير وسار سيرا حثيثاً جداً على شكل هجوم وما زالوا كذلك حتى وصلوا إلى مدينة بلبيس ليلا فباتوا فيها ليلتهم وهم على أهبة وتحفظ ثم ساروا غلسا فى ثانى يوم الذى هو غرة ذى القعدة وقد تركوا الطينة وترفعوا نحو الخانكاه ومازالوا يجدّون السير حتى بان لهم سواد القاهرة فى نحو الساعة العاشرة ونصف عربى نهارا وما وطئت حوافر خيلهم أرض العباسية حتى غابت الشمس فنزلوا عليها وهم فى أسوأ حال من شدة التعب وفعل الشمس وقلة الماء وشدة الحركة وكان عدد من دخل العباسية فى تلك الليلة زهاء سبعة آلاف مقاتل وسار نحو قلعة الجبل أيضاً زهاء ثلاثة آلاف آخرين فدخلوها فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلاً وأخرجوا من كان بها من العسكر المصرى وصغار الضباط وفكوا قيود من وجدوهم فى حبوسها ممن أتى بهم زعماء العصابة من المديرين والوجهاء والأعيان وغيرهم وكذلك فكوا قيود أصحاب الجنايات قيل ولم يكن مقدم العساكر الإنجليزية الذين صعدوا إلى قلعة الجبل يعرف طريق القلعة من جهة العباسية فضبط اثنين من صغار الضباط المصريين الذين كانوا بمعاقل العباسية ليدلاه على الطريق فامتنعا فرسم بقتلهما فأطاعا وسارا مع الإنجليز حتى أدخلاهم القلعة فقابلهم مقدمهم جندها وبش لهم وأدخلهم بها على الرحب والسعة وكان بالقلعة من العساكر المصرية فى تلك الليلة زهاء أربعة آلاف مقاتل كاملى العدد فسلموا بغير منازعة وألقوا بأسلحتهم ونزلوا من ساعتهم إلى معسكر قصر النيل فلما خلت القلعة منهم استلم مقدم الإنجليز سائر المواقع والأبواب ومفاتيح قلعة المقطم الواقعة على

رأس قلعة الجبل وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دخل القاهرة الجنرال ولسلى كبير مقدمى الجيوش الإنجليزية ومعه محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وبعض كبار الضباط من المصريين فهرع للقائهم بعض موظفى الحكومة ممن كانوا فى حبوس العرابيين بالقاهرة وإبراهيم فوزى بيك صاحب شرطة المدينة، وكان لما دخل الجنرال لو بعسكره إلى العباسية ولاقاه صاحب الشرطة رسم له بالقبض على أحمد عرابى وكافة أصحابه والإتيان بهم إلى العباسية فنزل صاحب الشرطة وذهب إلى أحمد عرابى فوجد معه طلبة عصمت وآخرين غيره فقال لهما الجنرال لو مقدم جيوش العباسية يطلبكما الساعة فاضطرب أحمد عرابى ولكنه جعل يظهر من الضعف قوة وقام ومعه طلبة عصمت وساروا جميعا إلى العباسية وأرسلوا فى طلب على يوسف أيضاً وعلى يوسف هذا هو الذى سلم للإنجليز قلعتى الجبل والمقطم بعد أن تخلى لهم عن الطريق فى مقدمات التل الكبير كما تقدم بيان ذلك فى محله، فلما دخل ومن معه فى وسط معسكر الإنجليز أوقفوهم برهة وحولهم جماعة من العسكر بالبنادق والحراب ثم أخذوهم إلى مقر الجنرال لو وكان الجنرال جالسا على كرسى ورجلاه ممدودتان على كرسى آخر وحوله جماعة من عسكره وترجمانه فلما تمثلوا بين يديه لم يلتفت إليهم برهة طويلة ثم نظر إلى أحمد عرابى نظرة الظافر وقال: أأنت عرابى باشا؟ قال: نعم، قال: أأنت الذى عصيت وخرجت عن طاعة أميرك ومولاك وحاربته بغير سبب حتى سقطت فى أيدى جند ملكة انجلترا فتلجلج عرابى ولم يردّ الجواب فالتفت إليهم الجنرال وقال: اخلعوا عنكم سيوفكم فخلعوها وتقدموا بها إليه وقالوا إليك نسلم سيوفنا وإلى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمى نسلم أنفسنا لأننا نعتقد سلامة نواياها نحونا ومعاملتنا بالعدل فامتنع الجنرال من أخذ سيوفهم بيده وقال: لستم أهلا لأن تؤخذ سيوفكم كأسراء الشرف ألقوها إلى الأرض كما تستحقون فألقوها أمامه فأشار إلى بعض صغار الجند الذين حوله فأخذوها وقبضوا على عرابى وطلبة عصمت وعلى يوسف وألقوهم فى سجن العباسية فى تلك الليلة، هذه رواية، وفى رواية أخرى أنهم لما تمثلوا بين يدى الجنرال لو بسيوفهم أخذها بيده فقالوا إننا نحمد الله تعالى على تسليمنا بأنفسنا إلى أمة تعرف العدالة وتقدرها قدرها وسيتضح لها أنا ما عملنا إلا بواجبنا ولم نسع إلا خلف حقوقنا وإن عندنا من العسكر المنظمة بمراكز العباسية زهاء خمسة وثلاثين ألفا ومثلهم فى مواقع كفر الدوار ورشيد ودمياط وهم على قدم الدفاع عند أول نداء

فيهم ولكنا لم نقدم على فعل شيء بعد ذلك خوفا على سلامة البلاد وقد سلمنا بأنفسنا فداء للوطن **(قلت)**: وعندى أن لا حقيقة لهذه الرواية فقد كان موقفهم فى تلك الساعة محفوفا بالمكاره وأبعد من أن يتكلم فيه الفصيح اللبيب اللهم إلا إذا كانوا على يقين من السلامة وبينة من أمرهم وهذا ليس بالأمر البعيد فقد كان فى انسحاب أحمد عرابى من مواقع التل الكبير ودخول العساكر الإنجليزية بين حصون ومعاقل المصريين على ما مر بيانه سر سيتلى عليك فى محله إن شاء الله.

ولبثوا فى سجن العباسية إلى يوم الأربعاء حادى عشرى ذى القعدة ثم نقلوهم إلى قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وقد احتله طائفة من الجنود الإنجليزية ونزل فريق آخر بقشلاق قصر النيل ففعلوا به ما لا خير فيه فقد أخذوا جميع ما فى ديوانه من فرش وبسط وطنافس وشراشف وكراسى فكانوا يبيعونها للعامة تحت القصر بأبخس الأثمان أو بشيء من التبغ أو العرق أو الفاكهة أو الخبز أو الجبن وأحرقوا جميع ما عثروا عليه من الأوراق والدفاتر الديوانية والأدوات على اختلافها ونزل الجنرال ولسلى بسراى عابدين واتخذها له مقرا وأقام على أبوابها الحراس والحجاب وأنزل بسراى الحرم الخديوى جميع أركان حربه ونزل الجنرال موريس مقدم النزل بسراى المدرسة التى برحبة عابدين وانبثت العساكر الإنجليزية فى شوارع القاهرة زمرا تطوف وتخاطب العامة بعبارات التحية وكان الهنود منهم يكثرون التطواف بالخطة المعروفة بخطة سيدنا الحسين وناحية دهليز الملك والحسينية ويحيون الناس ويقولون السلام عليكم يا مسلمون نحن مسلمون مثلكم أتينا لخلاصكم من أيدى العصاة المارقين، واهتم محمد سلطان باشا بأمر المؤن والعلوفات لعسكرالإنجليز وقد كثر طلبهم للخبز والأرز واللحم والسمن وغيره فشدد محمد سلطان باشا على صاحب شرطة المدينة فى ذلك فلم يقدر على القيام بأداء هذه الطلبات فى أوقاتها، وقد كنت يومئذ من مفتشى المراقبة العمومية فأتانى الطلب من محمد سلطان باشا على يد صديق لى اسمه عبد القادر بيك فهمى من قضاة المحاكم المختلطة فذهبت إليه فرسم لنا بأن نهيىء ديوانا يناط به لوازم العسكر الإنجليزى وكتب بذلك إلى صاحب شرطة المدينة وإلى ديوان الخزينة فأنشأنا ديوانا بالمكان الذى كان به ديوان المحافظ وقمنا بجمع حاجة الجيش فكانت أشياء كثيرة جدا من الضأن والبقر والخبز والأرز والسكر والفلفل والعسل والشاى وبيض الدجاج وبن القهوة والزبدة والسمن والخضروات

وحطب الوقود والتبن والفول والشعير والحشيش اليابس فى كل يوم صباحا مما قيمته ألف جنيه مصرى وسبعمائة جنيه عدا ما كان معهم من المؤن والعلوفات.

وعادت الأشغال الديوانية بعد أيام إلى سابق مجراها ووردت كتب الخديوى بالقبض على سائر من كان له يد فى إضرام نار الفتنة فقبضوا على من بالقاهرة وأودعوهم فى سجون بيت الشرطة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فأفحش المديرون والمحافظون فى معاقبة الناس وبالغوا فى إيذائهم وعلى الخصوص منهم مديرى الشرقية ومنية ابن خصيب فأخذا بالشبهات وملأ السجون من أصحاب الوجاهة وكبار الناس تشفيا وانتقاما وتزاحم أصحاب الوشاية وأهل السعاية على باب مصطفى رياض باشا ناظر ديوان الداخلية فأخذ بقولهم وشدد وهدد وتبعه فى ذلك سائر المأمورين ومن له كلمة مسموعة فانكمش الناس وعم الخوف وبات كل من لا يأمن على نفسه وولده، وكان لما دخل الجنرال وود بعسكره مواقع كفر الدوار حضر للقائه يعقوب سامى وكيل ديوان الجهادية فرسم له بإحصاء ما فى تلك المواقع من جند وآلة وسلاح فأحصاهم فكانوا زهاء ستة آلاف مقاتل وسبعمائة فرس مسرجة ملجمة وخمسين مدفعا بجميع مهماتها وخمسة عشر ألف بندقية فنقل جميع ذلك إلى القاهرة ثم رسم بدفن ما وجد من جثث الموتى من الإنسان والحيوان وبصرف جميع العساكر إلى أوطانهم فانصرفوا ماعدا الضباط فأنه أمر فسيروهم إلى سراى الرمل تخفرهم جماعة من فرسان الإنجليز، قال بعض الإنجليز: وكانت مواقع كفر الدوار غاية فى المنعة وحسن الوضع الهندسى والطبيعى قلّ أن يمكن التغلب عليها إلا بعد معاناة الأهوال وموت الألوف من الأبطال إذ كانت تنقسم إلى ثلاثة خطوط منتظمة محاطة بأرض غير مسلوكة لكثرة ما فيها من الأوحال والمرابك ويتفرغ من تلك الخطوط خطوط أخرى على شكل زوايا قائمة ممتدة إلى جهة سكة حديد كفر الدوار وترعة المحمودية وكانت الخطوط جميعها مسلحة بكثير من المدافع المرتبة على هيئة مناسبة للغاية قلّ أن يمكن معها للعدوّ الظفر بها وكان أمام كل خط من الخطوط الثلاثة خندق بعرض خمسة عشر قدما متقن الوضع محكم العمل وكان بين الخط الأوّل والثانى والثالث خمسة آلاف متر وكان على رأس الأول منها قلعة تسمى قلعة الإسلام إعزازا للدين وهى من أجمل القلاع شكلا وأقواها بنيانا وأحكمها وضعا. اهـ.

وكان العرابيون قد سدوا خط السكة الحديد بسدّ من البناء والتراب فرسم

الجنرال وود بكسر هذا السد فكسروه بشيء من الديناميت وأصلحوا بعض ما تعطل من خط السكة الحديد وعثروا وراء الخط الثالث من تلك الخطوط على كثير من عربات النقل مشحونة بشيء كثير من الحرائر والمقصبات والأطالس والشاشات وغيرها من منهوبات الإسكندرية فجمعوا ذلك كله وأحصوه، ولما أنجز يعقوب سامى ما رسم به الجنرال وود تمثل بين يديه وخلع سيفه وسلمه إليه وقال: لم يكن فيما فعلته إلى الآن مع أصحاب الثورة إلا طاعة مولاى الخديوى وكمال الإخلاص فى خدمة أهل البلاد وكثيرا ما نصحت عرابى فلم يقبل حتى كانت العاقبة ما كانت فلم يلتفت الجنرال إلى كلامه بل قال له: وما الذى جرى للقائمقام الإيطالى مسيو يولشي الذى نزل من بضعة أسابيع من مركب الحرب الإيطالية ولحق بعرابى فى كفر الدوار فقال لا أعرف من هو ذلك الرجل فالتفت الجنرال إلى جماعة الضباط المصريين فرأى الرجل بينهم وهو فى زى الضباط المصريين فأمسك بيده وقال هو هذا الذى أطلبه قال: ذلك وسلمه إلى نفر من الإنجليز فساروا به إلى الإسكندرية ليجازى عما فعل، واستسلم أيضاً من كانوا فى رشيد وحصون أبى قير والبرلس وطابية أشتوم الجميل القريبة من مدينة بورسعيد وغيرها من بقية القلاع والحصون ولم يمتنع سوى عبد العال أبو حشيش مقدم جند دمياط ومن معه من الضباط وصمم على الامتناع والمقاومة ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا بعددهم وآلات حربهم ولازموا الحصون والمتاريس وجدّوا فى تحصين مواقعهم فلم يلبثوا حتى شاع بينهم خبر استسلام جند طابية الجميل وبقية الحصون ففترت همتهم وتراخت عزيمتهم وتركوا سلاحهم وتفرقوا أشتاتاً ولم يفلح عبد العال فى ردّهم وجاء الخبر بذلك إلى الجنرال وود فسير فرقة من عسكره على قطار السكة الحديد إلى دمياط فلما وصلوا السنانية أرسل كبيرهم إلى عبد العال يقول إنا لم نحضر إلى هنا إلا لنأخذك كرها إذا لم تأت بنفسك خاضعا فامتنع عبد العال وأرسل يقول إنى مريض فعبر كبير الإنجليز النيل إلى دمياط فى قلة من أصحابه ودخل على عبد العال بمقره وقيل بل لاقاه عبد العال عند باب الديوان فأمر مقدم الإنجليز فقبضوا عليه قبيل الغروب وعبروا به النيل إلى السنانية ووضعوه ليلته تلك فى إحدى عربات البضاعة والجند يخفره وأصبحوا فسيروا به إلى القاهرة وأنزلوه فى سجن أحمد عرابى ومن معه وهى دار أعدوها لهم بجوار جامع أزبك عند رأس الأزبكية.

وفعل الإنجليز بمدافع الحصون والقلاع جميعها ما لا خير فيه وألقوا جميع

ما وجدوه فى المخازن من البارود والمهمات وآلات الحرب والعدد فى النيل وقد كان شيئاً كثيرا جدا وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فانقبضت صدورهم وظنوا بالإنجليز السوء بعد أن كانوا فرحين بمقدمهم، فلما تم للإنجليز ما أرادوه من نسف مواقع كفر الدوّار وحصون التل الكبير وتعطيل مدافع سائر القلاع من الإسكندرية إلى أبى قير فرشيد فالبرلس فدمياط فالجميل وما بين هذا كله من المعاقل والأبراج أنزلوا عسكرهم فى جميع المخافر ومراكز الأربطة بالإسكندرية والقاهرة ورتبوا منهم أصحاب الشرطة والعسس وجماعة يطوفون فى الليل والنهار مشاة وركبانا لانتشار عسكرهم فى الطرق والشوارع العمومية وأماكن اللهو والقصف بخطة الأزبكية والعتبة الخضراء والموسكى وجلهم سكارى فكان العامة يتحككون فيهم ويمازحونهم أو يشوّشون عليهم وجماعة العسس المتطوفون يحملون السكارى منهم إلى المعسكرات فكان مقدّمهم يرسل الأوامر تباعا إلى كبار ضباط العسكر وصغارهم بمنع العسكر من الاجتماع فى الحانات والتشديد على باعة الخمور والمسكرات بالامتناع عن بيع الردىء منها إليهم وإلا بولغ فى عقابهم فلم يأت ذلك بفائدة إذ تفشت الحميات الخبيثة بين العسكر كافة فى قلعة الجبل والعباسية وقصر النيل وميدان عابدين وفى سائر المخافر حتى فى مساكن الضباط فأنشئوا الشفاخانات (وهى بيوت المرضى) بقلعة الجبل والعباسية فامتلأت بمرضاهم من كل صنف ورتبة وكثرت موتاهم كثرة بالغة فكانوا يحملون الجثث بالنقالات على أكتاف الخدم من الهنود أو على عجلات المدافع مغطاة بالراية الإنجليزية وأمامها الجند بالبنادق والموسيقى تعزف بألحان الحزن والحنان فإذا كان الميت ضابطا أو عظيما من قوّادهم سيروا جواده خلف العجلة التى تحمل نعشه مجللا بالسواد وعلى سرجه قبعة الميت وسيفه وحذاؤه فى ركاب السرج بشكل يخيل للرائى أن صاحب الجواد راكب عليه فكانت العامة إذا رأوهم على هذه الحال تجمعوا عليهم خلقا كثيرا وزاحموهم من الأمام ومن الخلف وربما دخل الصبيان بين صفوفهم فلم يكونوا ليظهروا شيئاً من الضجر فإذا وصلوا بالميت إلى المقبرة وضعوه لحظة لطيفة للصلاة عليه، وربما رثوه بشىء من الكلام يناسب مقامه أو رتبته ثم يوارونه التراب وحينئذ يطلقون بعض المدافع من قلعة الجبل أو يطلقون بنادقهم فى الهواء فوق القبر ثم يعودون صفوفا كما أتوا وكانت المنية يشتدّ فعلها يوما عن يوم بين عسكرهم الهندى فأهلكت منهم خلقا كثيراً فاهتم لذلك مقدّم الجيوش ورسم بإرجاعهم إلى أوطانهم وجاءه الأمر بذلك فأخذوا

يرحلون طائفة بعد أخرى إلى مدينة السويس ومنها إلى الأقطار الهندية على ظهور النقالات والشوانى الكبار وبقيت طائفة من فرسانهم وبعض كبارهم بالمكان المعروف بالبوليجون بالعباسية وهم فى ضعف وهزال وقد شاع يومئذ أنهم سيلبثون بالقاهرة حتى يأتيهم الطلب إلى عاصمة الإنجليز فيتمثلون بين يدى امبراطورتهم فتهنئهم عن أنفسهم وعن بقية الذين أبلوا منهم البلاء الحسن فى قتال العرابيين، هذا ومن عجيب الاتفاق أن الليلة التى دخلت فيها الجيوش الإنجليزية القاهرة وضواحيها وهى ليلة الثانى من ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين وألف أى خامس عشر سبتمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف كان الكثير من أهالى القاهرة ومصر القديمة عاكفين على الأعراس والأفراح والولائم وهم فى شاغل عن كل ما سوى ذلك فكانت فعالهم فى ذلك اليوم كفعالهم يوم دخول نابليون بونابرت القاهرة بجيوش الفرنسيس سواء بسواء فكأن مدارك القوم هداهم الله لم تتصل إلى شىء من الترقى من ذلك الحين إلى الآن وفى ذلك ما فيه من العجب العجاب.

ونهض أصحاب صحف الأخبار من الإنجليز يفصلون ويقيسون فى شكل موقعة التل الكبير ويلبسونها أثواب المدح والإطراء ثم جعلوا يعرّضون بذكر حروب بونابرت مع طوائف المماليك بديار مصر ويعجبون بالفرق بين ما لاقته جنود بونابرت من التعب والموات بسبب وعورة الطرق وقلة الماء وما لاقته جيوش الإنجليز من التوفيق وحسن الحظ ونسف مواقع التل الكبير فى قليل من الزمان وعدّوا أفعال مقدم عسكرهم من العجائب والآيات الحربية فرد قولهم بعض الكتاب وأكثروا من النقد والتعييب وقالوا: إن الصورة التى هجم بها قائد الإنجليز على مواقع التل الكبير كانت غاية فى الخلل بالغة حدّ الطيش الذى ما بعده إلا الخسارة والندم قالوا ولا يخطر على بال عاقل قط أن قائدا محنكا يجسر على اتخاذ تلك الخطة الهجومية على خطوط عدوّ من إحدى الدول الأوروباوية فإن إسراء تسع مراحل تحت جنح الظلام كاف وحده للجزم بالفشل والخسارة وبشؤم المصير وأن خروج مقدم عسكر الإنجليز هذا بعسكره فى نحو الساعة الثانية عربى ليلا وتركه جميع المعسكر تحت حراسة نفر من الجند وإسراءه وإياهم إلى منتصف الليل ثم تربصه ثم إسراءه لمن أكبر الأغلاط وأتعس المناورات وقد عابوا أيضاً طريقة الهجوم التى فعلها عند خطوط التل الكبير الأمامية وقالوا إنها تخالف الطرق الجديدة المعمول بها الآن فى جيوش الدول الكبرى وجزموا بوجود سر خفى فى الأمر وشىء متفق عليه بين قائد العساكر

الإنجليزية وبين أحمد عرابى ومن معه من زعماء العصابة ولولا ذلك ما تمكن مقدم جيوش الإنجليز من الدخول على تلك الصورة الخارقة لكل فنّ ونظام عسكرى، وكتب رجل اسمه جون نينى كتاباً فى هذا الصدد يقول فيه، مالى أرى إخواننا الإنجليز ولا سيما أصحاب صحف الأخبار منهم يلهجون بذكر موقعة التل الكبير ويحسبونها كرامة لمقدم عسكرهم مع أن الأمر ليس فى شىء من ذلك البتة لأنه لما اشتدت الأزمة واستحكمت على جيوش الإنجليز حلقات الضيق قدم إلى أحمد عرابى فى ظهر ثامن عشرى شوال من السنة يعنى سنة تسع وتسعين أحد مشايخ العربان وأعلمه بأن الإنجليز على قدم الهجوم على خطوط الدفاع بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال المذكور بساعتين وأنهم سيسيرون بعد ذلك إلى بلبيس ليفتحوا الطريق منها إلى القاهرة فكان الذى يجب على أحمد عرابى فعله بعد أن سمع هذا الكلام أن يبادر على الفور بتحصين مدينة بلبيس جهد الاستطاعة كى لا يتمكن العدو من دخولها وهى التى كانت أول حصن لبونابرت عند زحفه على مدينة القاهرة ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك وأرسل إلى طلبة عصمت مقدم جند كفر الدوّار يستمده ويقول له أرسل لى المدد بحيث يكون وصوله إلى التل الكبير ضحوة تاسع عشرى شوال يعنى بعد أن تكون قد خرقت جيوش الإنجليز خطوط التل الكبير ومزقت شمل من بها من الجنود وساروا منها إلى بلبيس ليفتحوا الطريق إلى القاهرة ومع ذلك فقد جاء المدد قبل الأجل المضروب ودخل مدينة الزقازيق ولكن ما الذى رآه ياترى ذلك المدد رأى جندا شاردا كالإبل الآبقة وأشلاء قد غطت وجه الفضاء وقد تم الأمر للإنجليز وفر أحمد عرابى هاربا إلى القاهرة فعاد المدد مع من لحق به من الفارّين إلى القاهرة - قال - ومن العجب العجاب أن فى الليلة التى دخل فيها الإنجليز معاقل العرابيين كان العربان على رأس الخطوط الأمامية منها فلما سمعوا صوت أول طلق خرج من بنادق الإنجليز صاحوا وترامحوا وعلت جلبتهم وجعلوا يدوسون بأرجلهم بطون الجند النائمين فهب الجند من نومهم مذعورين لا يعرفون من معهم ومن عليهم وخرجوا على وجوههم هائمين ومع ذلك فقد قابل أصحاب المدافع منهم عساكر الإنجليز وهم لا يزيدون عن ثلاثة آلاف مقاتل فقاتلوهم فأعمل الإنجليز فيهم السيف كأنهم يقاتلونهم وجها لوجه ومع ذلك فقد راسل أصحاب المدافع الرمى على الإنجليز فأصلوهم نارا حامية - قال - ولم يبق مجال للشك أو الريب فى أن ساداتنا الإنجليز قد قبضوا على كثير من صغار الضباط المصريين

وكبارهم عندما هموا بالفرار بما أخـذوه من الرشاوى والبراطيل فأذاقوهم كأس المنون بحيث لم نر بين جثـثهم جثة واحدة أو شـيئاً من مشامش أحـد العربان الذين كانوا كما قلنا على رأس الخطوط الأمامية فى تلك الليلة وبين الحصون والمتاريس ولم يكن ثمت مـا يدرأ عنهم فى تلك الساعـة نيران الإنجليـز غير أنـهم كانوا على عـهد مع محمد سلطان باشا وبينة من الأمر قبـل وقوعه ومن العجب العجاب أننا لم نر أحدا من هؤلاء العربان سيق إلى الحبوس كما ساقوا غيرهم مع أنهم كانوا لا ينقصون عن أربعة آلاف كلهم مـدججون بالسلاح بل لـم نر أحدهم أوقف يوماً موقف المسـئول فليقل لنا السادة الإنجليز هل بعد هذا كله من دليل على صحة ما يزعمون وما بالهم اليوم ينكرون على جماعة العربان ذلك التوفيق والفوز العظيم الناجم عن فعالهم وما لنا لا نسمعهم يرددون آيات الشكر والثناء على سلـطان باشا جزاء ما قام به من بذل الأصفر الرنان حتى أزال به ما كان يتخلل طريق عسكرهم من العقبات وحال دون ما كان يتـرصدهم من المرابك والهلكات ـ قال ـ والحق أقول ولا أخـشى لومة لائم أن جيش الجنرال ولسلى الذى كان يبلغ زهاء خمـسة وثلاثين ألف مقاتل كاملى الآلات والعـدد لم يقـاتل فى تلك الليلـة على خطوط التل الكبـيـر سـوى ثلاثة آلاف من المصريـين وبينهم قليل من أصحـاب المدافع وكلهم فى دهشة مـن النوم فأنه لما كـثر صياح العربان عند دنو الإنجليز من الخطوط وارتفعت أصواتهم وعلت جلبتهم خرج سائر المصريين على وجـوههم هائمين فلم يبق منهم بالمعاقل فى تلك السـاعة سوى هذا النزر القليل وعليـه فإنى لم أر فى نصرة مقـدم الإنجليز على مواقع التل الكبـير شيئاً يستوجب الاستغراب أو التفاخر والإعجاب . اهـ. بنصه.

وقد كانت رحى المناقشة إلى يوم دخول الإنجليـز مواقع التل الكبير دائرة ما بين الباب العالى واللورد دوفرين سفير الإنجليز بدار السـلطنة العثمانية على قاعدة تقرير عصيان أحـمد عرابى وخروجه عن الطاعة وكانت هذه المنـاقشة غاية فى المواربة بل كانت من قبيل إظهار غير الخـفى وإخفاء الظاهر المشاهد لأنه بعد أن كانت انقطعت المخابرة بينهما بشأن إرسال العساكر السلطانية إلى ديار مصر لأسباب ما أنزل الله بها من سلطان ووصل إلى المابين الهـمايونى الخبر بقـيام الجنرال ولسلـى مقدّم حـملة الإنجليـز بعسكره مـن الإسكندرية إلى مدينـة بورسعـيد وأنه قـد احـتل القنطرة ثم الإسماعـيلية وأنه أخذ يقاتل الـعرابيين تباعا وأن مـساعى محمـد سلطان باشا فى استمالة العربان إلى طاعة الخـديوى قد تمت أو كادت عاد رجال الدولة إلى فتح باب

المخابرة مع السـفير بشـأن إرسال فريق من العسكر السلطانى إلى مصـر وألحوا فى الطلب فكان السفير يطاولهم تارة ويحاولهم أخرى ثم عاد إلى المواربة فى القول فلما آنسوا منه بعض الرغـبة عادوا فأظهروا عـدم الرضا عن قاعدة الاتفـاق الذى بموجبه يرسل السلطان عسـكره، قيل: فانقبـض السفير عند ذلـك وانكف عن الكلام أياماً أخرى. وكان الإنجليز قـد سيروا جماعة منهم فى هذا الحـين إلى الشام لشراء بعض الدواب من البغـال والخيل والجمال لحملتـهم على مصر، فأرسل البـاب العالى إلى عمـاله بالولايات يحذرهم مـن بيع تلك الدواب وخروجـها من بلاد الدولة فـفعلوا وقبضوا على من اسـتخدمه الإنجليز من أهل البلاد فى خـدمة هذه الدواب وألقوهم فى الحبوس، فجاء الخبر بذلك إلى السفير فاستعظمه وكبر عليه وكلم الصدر الأعظم فى ذلك وبالغ فى الشكوى وأكثر من الترداد بين البـاب العالى والمابين ومازال يغدو ويروح حتى رسم السلطان فى ثامن شوال بإطلاق أمر البيع والشراء فى تلك الدواب لمن يشاء من خلق الله وأطلقوا سبيل من كانوا فى الحـبوس بسببها، وأرسل السلطان بعد ذلك أحـد رجال ديوانه الخـاص إلى السفـير يسـأله أن لا يكون نزول العسـاكر السلطانية المزمع إرسـالها إلا فى مدينة الإسكندرية فقام السـفير من ساعتـه واجتمع بصدر الدولة وكبارها وكلمهم فى الأمر فكلمـوه طويلا وبعد أخذ وردّ قال السفير: إنه سيبلغ هذا كله إلى كبير السياسـة الإنجليزية فوافقوه على ذلك ووافقوا أيضاً على جميع الأوجه التى كانت سـببا فى الاختلاف ورفع السفير الأمر إلى كبـير سياستهم ثم عاد فكلم السلطان فى إصـدار فرمانه بعصـيان أحمد عـرابى وشقه لعصـا طاعة الخلافة، قيل: فتململ السلطان وامتنع فألح السفير فشدد هو فى الامتناع ورسم إلى رجال دولته فجعلوا يطاولون ويحاولون ويهوّنون على الـسفير الأمر والسفير لا يزداد إلا تشديدا فى الطلب وسير إلى الصـدر الأعظم يوما من يقول له: أن دولة الإنجليز لا تعتبر إرسـال العسكر السلطانى إلى الإسكندرية أمرا مقضيا وأنه لا يصـير التوقيع على الاتفاق المبرم بشأن ذلك حتى يصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابى ومن معـه، وباتوا وأصبحـوا وقد جاء الخـبر من صاحب سـياسة الإنجلـيز برفض طلب السلطان نزول عسكره بمدينة الإسكندرية فكبر الأمر على السلطان ورسم إلى الصدر الأعظم بمعاودة السفير وفتح باب المخابرة معه، وأنه متى تم إرسال العساكر السلطانية إلى الإسكندرية رسم السلطان بعصـيان أحمد عرابى، وطير الخـبر بذلك إلى الآفاق فعاد الصدر إلى الكلام مع السفـير وأظهر غاية اللين والتلطف وثابر على الكلام مع

المجاملة لعله ينال أربا فلم يفلح، قيل: فأرسل إلى الولاة ثانية يمنع من خروج دواب الحمل لحملة الإنجليز على مصر ففعلوا وأحس السفير بذلك فانكف عن الكلام مع رجال السلطنة أياماً فراسله الصدر الأعظم فى ذلك فامتنع وقال: لا سبيل إلى ما تطلبون فسير إليه من يعلمه بأنّ أمير المؤمنين لا يمتنع من قبول نزول عسكره بأبى قير عوضا عن الإسكندرية فإذا وافقت دولته على ذلك وصار التوقيع على العهد أصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابى ومن معه فأظهر السفير رضاه بهذا الشرط، ولكنه طلب قبل كل شيء أن ينفذ الأمر لسائر الولاة والعمال بالكف عن منع خروج الدواب من ولاياتهم فأجابه الصدر إلى ما طلب، وشاع الخبر بذلك فى دار السلطنة فظن الناس أنه لم يبق بعد هذا كله من سبب للمواربة والتكلف لا سيما وقد ورد على بعض رجال الدولة الخبر بتقدم العساكر الإنجليزية وتغلغلهم فى جوف البلاد المصرية وانضمام بعض كبار العربان إليهم، فلما كانت ليلة سادس عشر شوال سار سعيد باشا صدر الدولة إلى دار سفير الإنجليز وأعلمه بأن أمير المؤمنين ميال كل الميل إلى التعجيل بتسيير عساكره إلى أبى قير كما وقع الاتفاق فلم ير من السفير فى ذلك اليوم وجها باشا ولا صدرا رحبا فانصرف عنه وعاد إليه فى ثانى يوم ومعه كاتم أسرار السلطان. وقال: الخليفة يقرئك السلام ويقول أنه لم يكن ليأنف قط من تنفيذ رغائب صاحب السياسة الإنجليزية كما هى إذا تساهل فى نزول عساكره السلطانية بمدينة الإسكندرية كما أنه لا يحجم أيضاً عن تقليل عددهم المتفق عليه ابتداء وتنزيله إلى ألفين أو ألف مقاتل وأنه يرسل معهم باكر باشا الإنجليزى قائدا ثانيا ولا يمنعه من أن يأخذ معه من الضباط الإنجليز من يشاء بحيث تبقى العساكر السلطانية فى ديار مصر فى هذه الحملة تحت المراقبة الإنجليزية كما كانت أيام الحرب الروسية، قيل فرفع السفير محصل هذا الكلام إلى صاحب سياستهم فلم يرد عليه الجواب أو ورد ولكنه لم يبلغه إلى الصدر الأعظم، وجعل يطاول ويحاول إلى أن وردت إليه الأخبار بنجاح حملتهم وتحقق من تمام استمالة بعض كبار الضباط المصريين وصغارهم ومشايخ قبائل العربان وجاءه الأمر من صاحب سياستهم بأن يبلغ السلطان أن حكومة الإنجليز كانت لا تتأخر عن قبول شروط إرسال العساكر الشاهانية إلى مدينة الإسكندرية لولا ما يحول دون ذلك من الدواعى والأسباب الكثيرة ولكنها مع ذلك لا تمتنع من قبول إرسال ألفين منهم وتنزيلهم فى أحد مواقف ترعة السويس، قيل: فلما سمع السلطان هذا الكلام حزن جدا لا سيما وقد

جاء الخبر فى هذا الحين إلى المابين والباب العالى بتغلغل ولسلى وعسكره فى جوف البلاد وأن قد انضم الكثير من كبار الضباط وصغارهم إلى جهة الإنجليز فأرسل السلطان الصدر الأعظم إلى دار السفير يقول: إن أمير المؤمنين يقبل تنزيل عسكره فى مدينة بورسعيد وأنه فى مقابلة ذلك يتعهد بإصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابى وسائر زعماء الثورة بديار مصر فأظهر السفير رضاه عن ذلك ولكنه لم يبد جوابا شافيا.

فلما كان رابع عشرى شوال سار السفير إلى الباب العالى صباحا ومعه ورقة مسطّور فيها العهد المراد إبرامه بشأن إرسال العسكر السلطانى ودخل إلى مقر الصدارة ولم يستقر به المقام حتى جاءه من أعلمه بصدور الفرمان الشاهانى القاضى بعصيان أحمد عرابى فسر بهذا الخبر سرورا عظيما، ولكنه لما اطلع عليه لم يعجبه وانقلب سروره حزنا أو هو تظاهر بذلك وقال إنه لم يتضمن شيئاً البتة من الأسباب والقواعد التى وقع الاتفاق عليها فراجعه الصدر الأعظم فلم يلتفت إليه وامتنع من التوقيع على ورقة العهد القاضى بإرسال العساكر الشاهانية إلى مصر فعاوده الصدر ولاطفه وهوّن عليه، وقال: لابد من إرجاع كل شيء إلى ما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يطلعه على ما فى ورقة العهد فأطلعه عليها فإذا هى لم تعين مدينة بورسعيد محطا للعساكر السلطانية كما وقع الاتفاق على ذلك بل تبيح نزولهم على ضفاف ترعة السويس ليس إلا فاستاء الصدر الأعظم من ذلك، وقال للسفير: وددت أن لا يبقى بيننا من الآن شيء من المواربة فقد ذهب الصبر واختلط الحال والعهد الذى أبرم بيننا إنما هو على جعل مدينة بورسعيد محطا لعساكرنا وقد وافقتمونا على ذلك فلا موجب إذا أن تعدلوا فتركه السفير وانصرف ثم عاد وقد كتب فى تلك الورقة ما نصه: أن حكومة جلالة الملكة تبيح للعساكر السلطانية الرحيل إلى مدينة بورسعيد ومنها إلى الموقع أو المواقع التى يحصل الاتفاق عليها ما بين مقدمى الجيشين . اهـ.

(**قلت**): وقد قصدوا بذلك أن العساكر السلطانية يأتون فيمرون من ترعة السويس ولا ينزلون على ضفافها إلا حيث يأمرهم مقدم عسكر الإنجليز، فأبى السلطان عليهم ذلك، وقال: لا بل ينزلون بمدينة بورسعيد فوعد السفير بتبليغ هذا الكلام إلى صاحب سياستهم وانكف عن مقابلة الصدر الأعظم أياما فأحس رجال الدولة بما وراء هذا التطويل وأدركوا ما يترصدهم من الخيبة لا سيما وقد جاءتهم

الأخبار يومئذ بقرب تغلب الإنجليز على أصحاب التل الكبير وأنهم قد طيروا الخبر بعصيان أحمد عرابى وخروجه عن طاعة أمير المؤمنين كماتقدم القول.

وفى سادس عشرى شوال سار الصدر الأعظم إلى مقر سفير الإنجليز متأبطا بعض الأوراق وصورة من العهد المتعلق بإرسال عساكرهم إلى ديار مصر ومذكرة للتوقيع عليها من السفير وكلمه فى الأمر، وقال: قد رسم أمير المؤمنين بأن لا يمكن التغاضى عن عدم ذكر هذه العبارة فى بنود الاتفاق وهى: «ينزلون بمدينة بورسعيد» فأبى السفير عليه ذلك. وقال: لا بأس من أن نأتى على تفسيرها فى سطور المذكرة بهذه العبارة «تسير العساكر الشاهانية قاصدة مدينة بورسعيد لكى تتمكن من الدخول من خليج السويس» وكانت تلوح على وجه السفير فى هذا الحين لوائح الاضطراب والوجل وكأنه كان يتوقع حدوث حدث جديد وكان فى كل لحظة يدخل عليه أحد بطانته فيكلمه همسا فكان تارة يحمر وجهه فرحا وأخرى يصفر وجلا ورجال الدولة فى شاغل عنه بمراجعة بنود الاتفاق وقراءة عبارة المذكرة ثم أعادوا معه الكلام فلم يقبل إلا ما أشار به وأصر على الامتناع فقاموا من عنده وانقطع الكلام بينهم أياماً أخرى، فلما كان تاسع عشرى شوال وردت الأخبار إلى السفير بانتصار الجنرال ولسلى على العرابيين ودخوله القاهرة فأشاع السفير هذا الخبر وطيره إلى الآفاق فجاءه فى ذلك الحين الصدر الأعظم وناظر الخارجية وكلماه فى أمر إرسال العساكر السلطانية إلى بورسعيد وفى تعديل بنود العهد وكأنهما لا يعلمان شيئاً مما حل بالعرابيين، فلما سمع السفير كلامهما تبسم وقال: قد ضاعت الفرص وذهبت الآمال بل قضى الأمر فلم يبق من موجب لإرسال العساكر السلطانية وقد انتصرت ولله الحمد عساكرنا وظفر مقدم جيوشنا بأهل الثورة ظفرا مبينا، قيل: فأظهر الصدر الأعظم استغرابه من هذا الخبر وقال: وكيف ذلك؟ فقال السفير: نعم وقد أتانى الأمر بأن استرجع صورة الاتفاق التى قد كنت بعثت بها إلى المابين ولقد كانت حكومة جلالة ملكتنا تودّ أن لا تعمل إلا ما فيه إرضاء أمير المؤمنين غير أن الظروف لم تأت بالغرض ولكنها لم تغير قط شيئاً من العلائق الودية الكائنة بين الدولتين من القدم فقال ناظر الخارجية: أى نعم وأن حكومة عظمة أمير المؤمنين لا تنسى قط ماهية الحب المتبادل بينها وبين حكومة جلالة الملكة، وعليه فإنى أسأل باسم مولانا أمير المؤمنين ما هو الأجل الذى ضربتموه لجلاء عساكركم عن أرض الكنانة فطفق عند ذلك السفير يحدّثهم بخبر ما لاقته العساكر الإنجليزية من التعب

أمام حصون التل الكبير وجعل يبالغ فيما بذلته حكومة جلالة الملكة من النفس والنفيس حبا فى إرجاع الهدوء والطمأنينة إلى البلاد بعد أن كادت تقوض الفوضى ربوعها إلى أن قال: ولقد زادت هذه الضحايا فى نفوذنا نفوذا آخر نجم عنه مسئولية عظيمة لا يمكن التخلى عنها لا سيما وقد انحل الجيش المصرى وأصبح خديوى البلاد فى حاجة إلى تدبير حكومته وإرجاع سابق سلطته فلا يجمل بدولة بريطانيا فى هذا الوقت إجلاء عساكرها وترك البلاد بلا حافظ ولا رقيب على أنها مع ذلك قد رسمت بجلاء فريق منهم وهى على عزم أن لا تبقى منهم أحدا فى جوف البلاد متى سمحت الظروف بذلك إلى أن قال: ولا أرى نفسى مقصرا فى القيام برغائب أمير المؤمنين كما لا ينكر جلالته علىّ ذلك ولكن إعراض جلالته عن الأمر فى حين وجوب الإقبال والتزامه جانب التطويل فى الوقت الذى كان يجب فيه الاختصار كلاهما كان باعثا على وقوع ما وقع. ومع كل ذلك فإن رباط المودّة بين الدولتين لا ينفصم أبدا فقام الصدر الأعظم ومن كان معه وانصرفوا وشاع فى الأستانة خبر دخول جيوش الإنجليز إلى القاهرة فاضطرب الناس وأخذتهم الطيرة وقبحوا فعال الصدر الأعظم ووزير الخارجية ورموهما بالخيانة وسوء النية واتهموهما ببيع أملاك الدولة بثمن بخس وقامت الفتنة فى السراى السلطانية وتفرقت أغراض أهل المابين ورمى كل رفيقه بالغش والخيانة وانكشف من أسرارهم المضحك والمبكى، وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى هذا الأمر وتوسعوا فى القول وكادوا يفضحون ما استترت معرفته عن الناس فمنعوهم وهددوهم فانكفوا وفى القلوب ما فيها وقد صدق من قال: وقد يغلب المقدر على التقدير حتى تكون الآفة فى التدبير فالله حسبنا وكفى.

ورسم الخديوى بخلع سائر المديرين والمحافظين وسائر المأمورين الذين استلموا زمام الوظائف على عهد أصحاب الثورة فخلعوا، ورسم أيضاً بصرف سائر العساكر المصرية ورجوعهم إلى أوطانهم فتفرقوا ولم يبق منهم بالقاهرة إلا نفر قد لبسوا لباس العامة ودخلوا فى خدمة بعض الناس وكذلك رسم بتشكيل لجان خصوصية لتحقيق حادثتى رابع عشرى رجب ورابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين بمدينة الإسكندرية وفى طنطا وأخرى بالمحلة الكبرى لتحقيق ما وقع بهما من القتل والحريق ثم أرسل مصطفى رياض باشا الذى ولى نظارة الداخلية إلى المديرين والمحافظين يستقدم من وقع القبض عليهم من أهل كل بلد ممن كان لهم يد فى إضرام نار الفتنة

فسيروا بهم مكبلين بالحديد عشرات عشرات وهم فى أتعس حال وقام المأمورون بعمل التحقيق فجيء لديهم بالمتهمين من كل فج عميق فخاف الناس وأوجس كل شرا من عدوّه وصديقه إذ كثر أصحاب السعاية على باب مصطفى رياض باشا وتزاحموا على ديوانه وتسابق الغريم إلى النكاية بغريمه والجار إلى الإضرار بجاره لأقل سبب ،وأنشئت محكمة عرفية فى القاهرة وجعل رئيسها محمد رؤوف باشا وأخرى رئيسها إسماعيل أيوب باشا، فاختصت محكمة رؤوف باشا بالحكم فى جميع الدعاوى التى ترفع من اللجنة الخصوصية وجعلوا أحكامها فى ذلك قطعية لا تقبل الاستئناف وشكلوا لجنة عسكرية أخرى بالإسكندرية لتحكم أيضاً فى القضايا التى ترفع إليها من محكمتى الإسكندرية وطنطا المخصوصتين حكما قطعيا لا يقبل الاستئناف وكثر القبض على الناس وانبث أصحاب الشرطة يبحثون على الفارّين من المتهمين فكانت شدة عظيمة للغاية كل هذا والخديوى بالإسكندرية يتابع إصدار المراسيم بإعادة النظام وترويج الأعمال كسابق مجراها، فلما كان حادى عشرى ذى القعدة قام الخديوى من الإسكندرية إلى القاهرة فدخلها فى الساعة السابعة عربى نهارا "وكانت طوائف الجند من الإنجليز والهنود مشاة وركبانا مصطفين ذات اليمين وذات الشمال من محطة السكة الحديد إلى سراى عابدين فلما نزل من القطار ونزل معه الدوق أوف كانوت ثالث أولاد ملكة الإنجليز، وكان هذا الدوق قد حضر للقتال كقائد فرقة من العساكر الإنجليزية، أطلقت المدافع من قلعة الجبل وفسحة المحطة تباعا وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى وهتف الجند بأصوات التهليل فركب عربة يجرها أربعة من جياد الخيل وركب على يساره الدوق المشار إليه وجلس أمام الخديوى ولسلى مقدم الجيوش الإنجليزية وأمام الدوق المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز وكلهم بملابس الزينة والتشريف وخلف العربة طوائف الحرس وكبار الضباط وكوكبة من الفرسان وما زال سائرا بين صفوف الجند وأصوات التهليل ودعاء العامة المتواصل وزغاريت النساء من أعالى البيوت حتى نزل بمقرّه بعابدين وأمر فعملت الولائم والمآدب لكبار عسكر الإنجليز أياماً كثيرة وأهداهم نياشين الافتخار من كل رتبة وصنف وأحدث نيشانا جديداً من المعدن المعروف بالبرنز على شكل زاوية سماه النجمة المصرية وأهداه لجميع الجنود الإنجليزية الذين شهدوا قتال مواقع كفر الدوار والتل الكبير، ثم أتت جميع الجنود الإنجليزية إلى القاهرة فلم يبق منها إلا نفر بالإسكندرية وبورسعيد والإسماعيلية فاستعرضها الخديو برحبة عابدين بين عزف

الموسيـقى وأصوات المدافع وكـانوا قد أعـدّوا لذلك كشكا لطيـفا فى وسط الرحـبة وزينوه بالبـيارق والرايات وكـان بين هذه البيـارق والرايات الراية الإنجليزية فـجلس الخديو بالـكشك ومر الجند من أمـامه تباعـا على أشكال متنوعـة واتفق أن جلوس الخديو بذلك الكشك كان تحت الراية الإنجليزية وعلى يمينه الدوق أوف كانوت فتطير الناس من ذلك وخافـوه وترامت ظنونهم فى ذلك اليوم إلى المرمى البعيـد وجعلوا يتساءلون عن معنى ذلك الاستعراض وما فيه من الرموز والإشارات الخفية وما ينجم عن جلوس الخديو تحت ذلك العلم الإنجليزى.

وانقضت ليالى الأفراح والولائم على أحسن ما يكون من الأبهة والزينة وعادت الأعمال الديوانيـة إلى سابق مجراها فجـعل الوزير محمد شـريف باشا يدبر الأمور على أحسن ما يكون من التـدبير وقد رأى أن فى بقاء جميع العسـاكر الإنجليزية فى جوف البلاد خطرا دائما وكمدًا ملازما فكلم قونصل جنرال الإنجليز فى ذلك وكشف له عمـا فى سياسـة بقاء جيوشـهم بالقاهرة من الخطل وضـعف الرأى وطال الأخذ والرد بينهـما أيامـا حتى تقـرر الاتفاق على بقـاء اثنى عشـر ألفا منهم بين القـاهرة والإسكندرية وطالبت حكومـة الإنجليز الخـزينة المصرية بنـفقة هذه الجنـود ورسمت بصرف ثمـانية وأربعين ألفـا ذهبا فى كل شهر مـا دامت هذه الجنود قائمة بحـراسة البلاد، قـالت: حتى يسـتتب الأمن وتتوطد الراحـة وتقوى الحكومـة الخديوية على القيام بشئونها المالية والإدارية منفردة، ثم رحل عن القاهرة سائر الجنود الذين حصل الاتفاق على تسفيرهم وعاد الجنرال ولسلى إلى عاصمة بلاده وقد أهداه كبار القاهرة وأعيانها سـيفا من الصنعة المصرية منقوشا عليـه هذه العبارة (هدية من المصريين إلى الجنرال ولسلى قائد الجيـوش الإنجليزية). ولم يكد يستقرّ بالجنرال المقـام فى عاصمة بلاده حتى قـدم إلى القاهرة اللورد دوفرين سفـير الإنجليز فى دار الخـلافة لينظر فى تنظيم أمور البلاد على ما تقـتضيه المصلحة الإنجليزية فقوبل بغـاية الاحتفال وأنزلوه مع حاشيتـه وبطانته بقصر النزهة بشبرا من ضواحى القـاهرة فلبث به أياما ثم انتقل إلى دار قطاوى بيك بخطة الإسـماعيليـة فلازمه بعض الأجانـب النازلين بمصر ممن يدعون العلم بعـادات البلاد وأخلاق أهلهـا وما يحتـاجونه من خير أو إصـلاح شر فقصوا عليه ما وصلت إليه معارفهم وبث هو كـذلك العيون لتأتيه بأخبار العامة وما يقوله أهـل البلاد، وجعل يوالـى الاجتمـاع تارة بالخديوى وأخـرى بالوزير محـمد شريف باشا ويكثر من التطواف فى شوارع القاهرة وبين مجتمعات العامة وظل على

هذه الحال أياما، ثم حرر تقريرا فى غاية التطويل والإسهاب وقسمه إلى أبواب وفصول دوّن فيها ما شاء من احتياجات البلاد المالية والإدارية والقضائية وما ينفعها من النظامات الداخلية وبالغ فى إظهار حاجتها إلى ترتيب أمر الجندية وأصحاب الشرطة أوّلا، ثم جعل المراقبة على جميع مصالح الحكومة فى حالة أقوى وأكمل مما هى عليه الآن، ثم توسيع نطاق المصالح الأميرية المتولى إدارتها الموظفون الأجانب وتقليل عدد الموظفين بالدواوين من المصريين، قال: وهم الذين ضاقت بهم تلك المصالح لكثرتهم، وتنظيم محاكم عدلية على نظام يناسب حال أهل البلاد والمساواة بين الأجانب والأهلين وإنشاء هيئة شورية تكون حاصلة على شىء من الحرية واستقلال الفكر ولا بأس من أن تكون هذه الهيئة هى مجلس نواب البلاد أو ما يشابهه وإبطال تجارة الرقيق وقطع دابر الاسترقاق وتأمين طرق التجارة وسبل الاتصال ما بين الديار الأوروباوية والشرق عن طريق مصر وعلى الخصوص حرية المرور من خليج السويس، هذا أهم ما جاء فى تقرير دوفرين هذا، فلم تتناوله الأيدى حتى قابله أصحاب صحف الأخبار المحلية بألسنة الطعن وعابوا عليه كثيرا من الملاحظات ولا سيما ما يتعلق منها بخدمة الحكومة وأرباب الوظائف وشددوا عليه النكير ورموه بالخلط والخبط، وقالوا: إنما هى سفسطة نقلها عن رسله الذين كانوا يجوبون القرى ويطوفون البلاد وينقلون عن حرافيشها وزعانف النزلاء فيها الذين لا خبرة لهم ولا دراية بالأمور فما هو إلا كلام فى كلام فى كلام. فلم يلتفت دوفرين إلى هذا كله ولم يعبأ به وعمد إلى الاهتمام بأمر من كانوا فى الحبوس بتهمة الاشتراك فى الفتنة وقد غصت بهم وضاقت إذ بلغت عدتهم يومئذ ألفا ومائتى مسجون لم يحسب بينهم محمود فهمى وأحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود البارودى ويعقوب سامى وعبد العال حشيش وعلى فهمى وعلى الروبى وغيرهم من كبار العصابة ومقدمى الثورة، فكلم مصطفى رياض باشا فى ذلك وسأله التعجيل فى أمر أولئك المتهمين وفك قيود البرىء منهم فأعظم مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأكبره لأنه لا يستطيع أن يرى يدا فوق يده أو كلمة سابقة لكلمته فلم يلتفت إلى ذلك ولا أحل طلب دوفرين محله وقد وردت الشكاوى تترى على مقر دوفرين من أصحاب الحبوس يعدّدون فيها ما يقاسونه من أليم العذاب وأشكال الضيم وذهب بعض نسائهم وذراريهم إلى مقرّه يبكون ويتوجعون إليه مما يلاقيه أهلهم من الجور والعسف من مصطفى رياض باشا ويسألونه الرحمة بأنفسهم والرأفة بأهلهم، فهال

دوفرين أمرهم وأحزنه وقيد جماعة من كبار ضباط الإنجليز بتفتيش جميع السجون التى بالإقليمين القبلى والبحرى وسماع ظلامة سائر من بها من أهل البلاد فذهبوا وعادوا وقصوا عليه من أخبار تلك السجون ما تنفطر من سماعه القلوب لا سيما حبوس الشرقية ومنية ابن خصيب فتقدم إلى الخديوى فى العفو عن سائر أصحاب الجرائم الصغيرة فأجابه إلى ذلك ورسم بالعفو عن سائر صغار الضباط إلا من كان منهم فى مظاهرتى غرة ربيع الأول ورابع عشرى شوال سنة ثمان وتسعين ومن كان تحت السلاح وقت مذبحة حادى عشر يوليو سنة اثنتين وثمانين ميلادية أى رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ولبثوا فى الخدمة العسكرية إلى حين ظهور الفتنة وإضطرام نارها وماعدا الذين دخلوا فى الخدمة العسكرية باختيارهم بعد اشتداد الفتنة ووقوع مذبحة حادى عشر يوليو المذكور فسكنت عند ذلك خواطر الناس قليلا وزال عنهم بعض الخوف، قال بعض الكتاب: فلم يرق هذا فى عينى مصطفى رياض باشا وأغضبه فنزع إلى التفرد بالأمر وعمد إلى معاكسة اللورد دوفرين فشدّد فى تعقب أعمال أحمد عرابى وأصحابه وضيق عليهم وهدد فأحس دوفرين بما وراء ذلك وأدرك أن العاقبة إنما هى شر على أحمد عرابى وأصحابه، وفى ذلك نكث لعهدهم معه فرسم بوجوب التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه بالطرق العادلة ورفع الأمر بعد ذلك إلى محكمة لتحكم فيه ومنع تعرض مصطفى رياض باشا وكفه عن العبث بالنظام الذى جاءت الجيوش الإنجليزية لتثبت أركانه، قال المستر شارلس رويل أحد كتاب الإنجليز فى كتاب ألفه فى حوادث مصر الأخيرة، فامتعض لذلك مصطفى رياض باشا وأبى إلا معاقبتهم بغير تحقيق وألح على اللورد دوفرين فى ذلك فلم يقبل وصمم على إجراء التحقيق والتزام جانب العدالة ورسم بسرعة العمل فزاد امتعاض مصطفى رياض باشا واشتد به الغيظ إلى حد لم يطق معه السكوت فسار إلى مقر اللورد دوفرين وكلمه طويلا واحتد وأغلظ فى القول فلم ير من اللورد دوفرين أذنا واعية ولا وجها طلقا فتركه ودخل على الوزير محمد شريف باشا وكلمه أيضاً فى ذلك فقال الوزير: لابد من التحقيق ورفع الأمر إلى محكمة، فكاد مصطفى رياض باشا يتميز غيظا وسأل الوزير أن يقيله من منصبه فأجابه إلى ما طلب بغير معاودة، وقد قيل: فى أمر تنزيله من هذا المنصب أقوال أخرى أضربنا عن ذكرها ومن هذا الحين أصبح عمل التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه ورفع نتيجته إلى محمكة تحكم عليهم بما تراه أمرا مقضيا لا رادّ له.

وكان لما أخذ الإنجليز محمود فهمى أسيرا فى موقعة القصاصين على ما تقدم بيان ذلك فى حينه وأتوا به إلى الإسكندرية أرسل المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز إلى اللورد جرانفيل زعيم أو صاحب سياستهم يقول: أن الجنرال ولسلى مقدم جيوشنا فى مصر يرى أن من مواجبه تسليم جميع الأسرى الذين يؤتى بهم من ساحة القتال إلى سلطة وتصرف الخديوى فأجابه اللورد جرانفيل إلى ذلك بشرط عدم الحكم على أحد منهم بالقتل ما لم تصادق على ذلك حكومة الملكة، فاعلم القونصل الخديوى بذلك فقبله واشترط على نفسه أن لا يأتى أمرا فى حقهم قبل أن تعترف به دولة الإنجليز، فلما كان سلخ ذى القعدة قدم إلى القاهرة رجلا اسمه مارك نابيير من كبار علماء الشريعة الإنجليزية ومعه آخر اسمه ريشارد آيث وتقدما إلى المحاماة والدفاع عن أحمد عرابى أمام المحكمة التى سيرفع لها أمره فمانع فى ذلك الوزير محمد شريف باشا، وقال: أن الشريعة المعمول بها فى بلاد مصر لا تبيح للمجرمين اختيار من يدافع عنهم ولا إجراء التحقيق معهم علانية ولا تجيز وجود أحد من الأجانب فى هيئة المحكمة وأبلغ هذا الكلام إلى المستر مالت فرفعه إلى زعيم سياستهم فورد الجواب على غير ما يرضاه الوزير وصمم الزعيم المشار إليه على وجوب الدفاع عن أحمد عرابى ورفقائه وعلى تنفيذ ما أشار به مما يتعلق بكيفية المحاكمة فبعد أخذ وردّ طويلين قبل الوزير محمد شريف باشا ذلك بشرط أن يكون المحامى عن أحمد عرابى مصريا لا إنجليزيا فلم يقبل اللورد جرانفيل، وأعاد القول بترك الدفاع عن أحمد عرابى إلى من يختاره هو لنفسه من أى جنسية كانت بشرط اجتناب جميع وسائل الإكراه والتهديد فامتنع الوزير من قبول ذلك وطال الأخذ والرد بين الفريقين أياماً وقفت فيها رحى التحقيق ثم عادت على ما رسم به زعيم السياسة الإنجليزية رغما عن كل مكابرة وعناد، وانقسمت الآراء وتباينت الأقوال فى أمر دفاع الإنجليز عن أصحاب الثورة ومحاماة كبار شريعتهمْ عن أحمد عرابى فكان الناس فى ذلك على طرفى نقيض لاسيما أصحاب صحف الأخبار المحلية فقد قام بعضهم ينادى بوجوب تسليم أهل الثورة لشريعة البلاد ومنع دفاع الإنجليز عنهم وعدم مس كرامة الشريعة المطهرة فلم يجدوا لندائهم من مجيب، ونزع فى عاصمة الإنجليز جماعة من كبارهم وآخرون من كتابهم وجعلوا يصيحون بألسنة أقلامهم واعدالتاه وا إنسانيتاه وأمرحمتاه، وكان فى مقدمة هؤلاء القوم السير وليم جريجورى والمستر بلانت اللذان تقدم لنا الكلام عما فعلاه، وجاء بلانت هذا برجل من أصحاب الشريعة الإنجليزية اسمه برودلى وقيده بالدفاع عن أحمد عرابى، وكان

هذا الرجل من موظفى حكومة الهند ثم انفصل عنها ولحق بباى تونس مولاى حسن باى فقدم القاهرة فى رابع عشرى ذى القعدة وطلب الاجتماع بأحمد عرابى فلم يسمحوا له بذلك، فاستعان هو ومن معه من جماعة الكتاب والمحامين بقونصل جنرال الإنجليز فأعانهم ونزع إلى مساعدتهم وطلب من الوزير محمد شريف باشا جعل التحقيق مع أحمد عرابى وبقية أهل الثورة علنيا فطال بين الفريقين الجدال وكثر القيل والقال وأبى القونصل إلاما أراد ومازال حتى تقررت القاعدة على تسليم أمر الدفاع عن أحمد عرابى وأصحابه وعمن يشاء من بقية المجرمين إلى برودلى هذا وتقييد بوررللى بيك أحد محامى الحكومة بإقامة الدعوة العمومية ثم تعينت أوجه التهم وأسبابها فكانت ـ أولاً ـ تهمة أحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رحمى كاتم سر أحد عرابى بكل ما حدث من الأضرار المترتبة على رفعهم الراية البيضاء على طوابى الإسكندرية فى يوم الأربعاء خامس عشرى شعبان، ثم إخراجهم جميع العساكر المصرية من المدينة وإضرام النيران فيها، بينما كانت تلك الراية تخفق على حصونها ـ ثانيا ـ تهمة أحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رحمى وعلى فهمى بتحريض الناس وحضهم على حمل السلاح والخروج عن طاعة أمير البلاد وماترتب على فعالهم هذه من القتل والنهب والسلب وإراقة دماء الأبرياء من النساء والأطفال ثم تهمة أحمد عرابى ومحمود فهمى وطلبة عصمت ومحمود سامى باستمرار القتال ومحاربة الإنجليز بعد علمهم بإتمام الصلح وتقرير قاعدته. وشاع الخبر بذلك وكثر طلب أصحاب التهم من العامة وصغار الموظفين بمحكمتى طنطا والإسكندرية واشتد أصحاب الشرطة فى البحث عن الفارّين منهم فكبسوا على الكثير من الدور والوكائل فعظم خوف الناس وكانت شدة بالغة.

فلما كان سابع ذى الحجة انتظم مجلس التحقيق فأتوا بأحمد عرابى ورفاقه وخلفهم الحراس من أصحاب الشرطة بالبنادق والحراب فكان لايرى على وجه أحمد عرابى شىء من الاضطراب أو الخوف بل كان ساكن القلب هادئ اللب، وكان إذا سئل أجاب بلا تردد ولا تلجلج وأكثر من الاحتجاج بل ندد وقبح وعاب عليهم ما يرمونه به من العصيان والخروج عن طاعة الخليفة وأمير البلاد وقدم إلى هيئة المحكمة كثيراً من الرسائل التى كانت تأتيه من كبير المابين الهمايونى ومن كاتم أسرار أمير المؤمنين ومن الشيخ أحمد أسعد إمام السراى السلطانية وكلها استنهاض

وتحريض وتشجيع على التظاهر بما كـان وإعلاء كلمة السلطان فى داخل البلاد. قال أحد الكتاب العارفين بحقائق هذه الأمـور بعد كلام طويل: وقد نجحت تمام النجاح تلك الدسائس الإنجليزية وفازت فى دار السلطنة عـامى أحد وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية واثنيـن وثمانين فإنه ما تظاهر أحـمد عرابى مظاهرته الحربيـة بميدان عابدين التى لم يكن القصـد منها إلا تنزيل مصطفى رياض باشا ورفـاقه من منصب الوزارة حتى حض الإنجليز الباب العالى على انتهاز هذه الفرصة للحصول على سلطة فعلية فى بلاد مصر فأطاع وعمل بما أشاروا، فلما رأوا فـلاح سياستهم والعمل بمشورتهم زادوا وغرروا برجال الدولة ومنوا السلطان بالأمانى البعيـدة التى منها محو امتيازات عائلة محـمد على باشا الكبيـر وإعادة مصر إلى ولاية عثـمانية خاضعـة تماماً للباب العالى إن هو عمد إلى تعـضيد أحمد عرابى وأصـحاب الحزب الوطنى - قال: ولم يقف أرباب السياسة الإنجليزية عند هذا الحد من التغرير بالسلطان ورجاله بل أوعزوا أيضًا إلى أصـحاب صحف أخـبارهم أن يساعـدوا على نوال هذه الحظوة فصـاحوا بالثارات السلطان عبـد الحميد وأشاروا على دول أوروبا بأن تسـأل الباب العالى فى إرسال جيوشه المظفرة لإخماد نار هذه الثورة التى لا يقوى على إخمادها إلا العساكر العثمانية، فـاغتر الباب العالى بذلك أيضًا واندفع دفعة أخـرى فى غير طريق الهدى وسيـر إلى القاهرة جماعـة من المابين والسراى السلطانية بـينهم الشيخ أحمد أسـعد وقدرى أفندى ليؤكدوا إلى أحمد عرابى ورفـاقه تعضيد أمير المؤمنين لهم فنشط عند ذلك أحمـد عرابى وتجرد للدفـاع عن حقوق أمـير المؤمنين فمـالت إليه قلوب أهل البلاد واستمال إليه من كان يخالفه من قبل ومن بعد ا.هـ.

وقدم أيضًا أحمد عـرابى إلى هيئة المحكمة عدة محاضر موقعًـا عليها من عمد وأعيـان البلاد يمتدحـون فيهـا أعماله ويشكرونه على نهـضته ويسـألون له النجاح والفلاح ويطلبون منه الاستمرار على الدفاع عن حقوق الوطن وأهله ومحاضر أخرى منهم أيضًا بمعنى ما ذكـر إلى رئيس المابين الهمايونى فأعجبـت هذه الأوراق جماعة الإنجليز وعظمت لديهم الأمر واشـتد بها أزر برودلى الذى تقيد بالمحـاماة عن أحمد عرابى ورفاقه فبالغ فى الدفاع وشدد فى الحجة وأعانه على ذلك جماعة من كبار دار الندوة الإنجليـزية وجمـاعة من أصـحاب الكلـمة فى دولتـهم إذ قام منهم الخطبـاء والفصحـاء يشدون النكير على رجال السلطنة العـثمانية ويرمونـهم بالخديعة والمكر، فتـبدلت عـند ذلك الأحوال وتبـددت الآمال وانقلبت من طور إلى طور ومـازالت

الأمور بين أخـذ ورد وإقبال وإدبار حـتى ثبت عصيان أحـمد عرابى ورفـاقه فكتب رئيس لجنة التـحقـيق إلى برودلى يقول: قـد صار من المقـرر فى نية هيـئة مـجلس التحقيق إحالة أحمد عرابى على المحكمة القانونية التى تشكلت للحكم على العصاة وأصحاب الثورة حـيث قد تراءى وجوب محاكمتهم بالعـقوبة المنصوص عنها بالمادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثـمانى وبالمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى. وشاع الخبر فاختلف الناس فيما سيكون من وراء ذلك وتفرقت آراؤهم وترامت ظنونهم إلى المرمى البـعيد وكلهم مـجمع على فشل الحكومـة وفوز جماعة الإنجليز.

(مطلب)

محاكمة أحمد عرابي ومن معه من العصاة

فلما كان يوم الأحد ثانى عشرى محرم الحـرام افتتاح سنة ثلثمائة وألف هجرية أى رابع ديسمـبر ختـام سنة اثنتين وثمانين وثمـانمائة وألف ميلادية اجـتمعت هيـئة المحكمة فى قاعة مجلس شورى القوانين وأتى المتفرجون من كل رتبة ودرجة وغص المكان بجماهير الإنجليز وكبار ضباطهم وكتاب صحف أخبارهم وجمع قناصل الدول وكانت أمارات الهيبة والوقار بادية على هيئة المكان والناس كلهم فى سكون وخشوع فلم تكن إلا ساعة حتى دخل المتهمون ووقفوا فى وسط المكان فأحدقت بهم العيون من كل جانب وتهللت الوجوه فـرحاً بوقوفهم فى موقف الجـزاء فأشار الرئيس إلى أحمد عرابى وقال : يا أحمد عرابى باشـا قد أتوا بك اليوم أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعـصيان والخروج عن طاعة الذات الخديوية كمـا ثبت ذلك أمام مجلس التحقيق وأن عقابك على هذه الجناية يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثـمانى والمادة التاسعة والخمسين من قـانون الجزاءات الهمايونى فهل تعـترف بأنك مذنب أم لا؟ فـقام فى الحال برودلى المقـيد بالمدافعة عن أحـمد عرابى وناوله ورقة فأخذها عرابى وجعل يقـرأ ما فيها بصوت جهورى فكان هكذا: أعترف بإرادتى وبناء على نصيحة المحامى عنى أنى مرتكب للجناية التى أنا متهم بها الآن. فلما أتم أحـمد عرابى كلامـه قال الرئيس : انفضت الجلسـة مؤقتاً وسـيتلى الحكم فى الساعة الثالثة بعـد الظهر. ولم يحضر فى ذلك اليوم بوررللى بيك المدعى العمومى لكى يشرح لهـيئة المحكمة موضوع التهمة ويسـمع الحاضرين ما أتاه أولئك المجرمـون من الفظائع وما ارتكبـوه من الجرائم ولأقام من يتكلم بـدلا عنه فاندهش

عند ذلك الحاضرون وجعل ينظر بعضهم إلى بعض وهم فى حيرة واستغراب وجعل جماعة الإنجليز يكلمون بعضهم همسا والسرور يطفح على وجوههم، فلما كانت الساعة الثالثة تسابق الناس إلى قاعة الجلسة حتى ضاق بهم المكان ولم تكن إلا لحظة حتى خرج الرئيس والقضاة وجلسوا على منصة الحكم فأتوا لديهم بالمتهمين، فلما صاروا فى وسط الجمع أشار الرئيس إلى أحمد عرابى وقال: اسمع الحكم عليك ثم تناول ورقة وقرأ ما نصه: حيث قد ثبت ارتكاب أحمد عرابى باشا جناية العصيان والخروج عن الطاعة وهذه الجناية منصوص ومعاقب عليها بحكم المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاء الهمايونى، وحيث مع ثبوت ارتكابه هذه الجناية لدى مجلس التحقيق لم يتعرض المجلس للبحث فى شيء خلافها ولذلك لم يطلب من المحكمة إلا الحكم بالعقوبة المنصوص عنها فى المادتين المذكورتين وهى عقوبة القتل. فبناء على هذه الاسباب ، قد حكم باتحاد الآراء على أحمد عرابى بالقتل لارتكابه جريمة العصيان والخروج عن طاعة الجناب الخديوى طبقاً لأحكام المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى ويرفع هذا الحكم للجناب العالى للتصديق عليه وقد حكم بهذه العقوبة أيضًا على بقية المتهمين بجريمة العصيان مع أحمد عرابى المذكور. فلما سمع الحاضرون هذا الحكم تهللت وجوههم فرحاً ولكن لم يضع رئيس المحكمة ورقة ذلك الحكم من يده حتى تناول أخرى وأخذ يقرأ ما فيها وإذا به عفو خديوى ونصه : قد اقتضت إرادتنا بأن الحكم الصادر على كل من أحمد عرابى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلىّ فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى المتضمن جزاءهم بعقوبة القتل وقع تبديله بالنفى إلى الأبد من جميع الأقطار المصرية وملحقاتها، وأن هذا العفو يبطل ويقع إجراء الحكم على المذكورين بالقتل إذا رجعوا إلى الأقطار المصرية أو ملحقاتها وأن يجردوا جميعاً من كافة الرتب وألقاب الشرف والنياشين مع محو أسمائهم من سجل العسكرية.

فما أتم الرئيس قراءته حتى وقع الهرج بين الناس وعلا وجوههم الاصفرار وانقبضت نفوسهم وجعل بعضهم ينظر إلى بعض وكأن على رؤوسهم الطير وجلس عرابى وبقية المجرمين وهم باشو الوجوه منشرحو الصدور فتقدمت عند ذلك إحدى النساء الإنجليزيات هى زوجة نابيير شريك برودلى الذى تقيد بالمحاماة عن أولئك المجرمين وهى بملابس الزينة والأعراس وناولت عرابى باقة من الورد الأبيض إشارة إلى الظفر والغلبة ثم صافحته ضاحكة فصافحها باسماً فاشتد تعجب الناس

واستغرابهم وكبر عليهم هذا الأمر وخرجوا وهم يتحدثون به ويعجبون من تصاريف الأيام. وأخذ العهد على أولـئك المجرمين بالبقاء فى الجهة التى تعـينها لهم الحكومة بعيدة عن الديار المصرية وكتبوا بذلك صكا فوقعوا عليه جميعاً.

(مطلب)

رسم الخديوي بمصادرة أصحاب الثورة

فلما كان ثالث صفـر رسم الخديو بمصادرة أحمد عرابى وسـائر أصحاب الثورة وقيدوا جماعة بضبط أرزاقهم وعقاراتهم فضبطوها فلم تكن شيئاً يذكر ولم يتعرضوا إلى شىء من متاعـهم وكان كثيراً خصـوصًا متاع أحمد عرابى، وقـد قيل: إنه كان يحتوى على شىء كـثير مما نهبه النهابون من الإسـكندرية مما خف حمله وغلا ثمنه ولم يمسوه بشىء كما أشار بذلك وزير سياسة الإنجليز، ثم تأهب المجرمون للرحيل إلى سيلان إحدى ممالك الهند الإنجليزية وقد كانـوا يعلمون بأنها ستكون دار إقامتهم قبل أن يـصدر الحكم عليـهم بالإعدام بأيام كـثيـرة كما هو ظاهـر مما كتبـه برودلى المحامى عنهم فى كـتابه المعنون بعنوان (الله ينصرك يا عرابى) أو (كـيف كان دفاعنا عن أحمد عرابى) فـحملوا إليهم سائر متاعهم وذخـائرهم وأتوا لهم بها فى قشلاق قصر النيل فى منتصف ليلة خامس عشر صـفر المذكور وكذلك حضر إليهم من شاء الذهاب معهم من نسـائهم وجواريهم وأولادهم وأتباعهم فكانوا نيفاً وسـتين ما بين إناث وذكور وساروا جميعاً فى قطـار مخصوص فى تلك الليلة إلى مدينة السويس، ثم أنزلوهم فى إحـدى بواَخر الشركـات الإنجليزية وصحـبهم بعض رجـال الإنجليز مودعين ومطيبين لخواطرهم فأقلعت بهم السفينة بسم الله مجراها.

(مطلب)

قيام تجار الإسكندرية لمطالبة الخزينة بثمن ما نهبه النهابون

وكلم اللورد دوفرين الوزيو مـحمد شـريف باشا فى أمر من بقى من أصـحاب الفتنة فرسم الوزيـر بالتعجيل ففـعلوا وقد كانوا أنفذوا من قبل الحـكم على سليمان داود مقدم جند الإسكندرية بـالإعدام شنقاً لارتكابه جريمة إحـراق المدينة فضلاً عن جريمة الخروج عن الطاعة وحكموا على بعضهم بالتبعيد إلى سواكن ومصوّع وعلى البعض الآخر بالتبعيد إلى الشام وغيرها وكانوا كثيرين، وعفى عن البعض وانفضت

حينئذ مجالس التحقيق ومجالس القضاء وانجلى أصحاب الثورة عن مصر ولكن لم ينجل عنها شر فعلهم إذ قام تجار الإسكندرية يطالبون الخزينة بثمن ما أخذه النهابون وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه، ونزع قناصل الدول كافة إلى الشدة فى الطلب فجعل الوزير محمد شريف باشا يطاول ويكثر من مخابرة كبار رجال السياسة حتى تقررت القاعدة بينهم على إلزام الخزينة برد ثمن جميع ما نهبه العامة والرعاع وكانت الخزينة إلى هذا الحين قد أمحلتها الحوادث وزادها إمحالا نفقة الجنود الإنجليزية القائمة بين الكنانة والإسكندرية فضلاً عن كساد التجارة وتعطيل أسباب المعاملات وبوار أكثر الزروعات بأسباب جمع سائر أبناء البلاد وتجنيدهم لقتال الإنجليز بمواقع التل الكبير وكفر الدوّار فلم ير رجال الدولة بدأ من الاستدانة فاتفقوا على أخذ قرض قدره أربعة آلاف ألف من الذهب، وتقدم اللورد دوفرين إلى الوساطة فى أخذ هذا المال من بيت روشيلد الغنى الشهير بعاصمة الإنجليز واهتم صاحب سياستهم بذلك اهتماماً عظيماً كى لا يفشل فى سياسته بعد نصرة التل الكبير، وقيد الوزير محمد شريف باشا جماعة من موظفى الحكومة ورجال الدولة بإحصاء ما نهبه النهابون وحرافيش الإسكندرية وما أكلته نيران الحريق فأنشئوا لذلك ديواناً بدار محافظة الإسكندرية سموه ديوان لجنة التعويضات وطيروا خبره إلى الآفاق فتزاحمت على بابه أصحاب الشكايات فأحصوا ما ضاع لكل صاحب حانوت ومخزن وأصحاب البيوت فكان شيئاً لا يكاد يدخل تحت الحصر لكثرته فردّوا لهم قيمته ذهباً من ذلك القرض ومازالوا حتى لم يبق أحد من أصحاب الشكايات فربح يومئذ من ربح وخسر من خسر وقليل هم الخاسرون.

وتسابق من يومئذ أصحاب الدور والوكائل إلى البناء وإعادة ما تهدم فتوسعوا فى العمل وبالغوا فى الإتقان فلم تمض إلا أشهر حتى عادت المدينة إلى أحسن ما كانت عليه من الرونق والبهجة واتسعت وعمرت ربوعها وامتلأت حوانيتها بأصناف المتاجر الفاخرة والبضائع الثمينة وعاد إليها من نزح منها من الأجانب على اختلافهم وجاءها الكثير من تجار الإنجليز بأصناف البضائع النفيسة والصنائع الغريبة فاتسع نطاق الأخذ والعطاء وراجت التجارة وعادت الأمور إلى سابق مجراها واتصلت العلائق التجارية بعضها ببعض بين القاهرة والإسكندرية وداخلية البلاد على ما كانت عليه من قبل واطمأنت قلوب أهل البلاد وزالت عنهم أسباب الوحشة فلم يبق من الثورة إلا حديثها والحديث ذو شجون.

ونظم بعض الأدباء فى سير هذه الحوادث المهمة ومآل هذه الخطوب المدلهمة

كثيرًا من القصائد المشخصة لبعض وقائع الحال وما بلغت إليه يومئذ الأحوال مع وصف ما وقع من أصحاب الثورة من سوء الأعمال منها منظومة العلامة مصطفى باشا صبحى التى عنوانها «صدق المقال فى مثالب البغاة الجهال» وهى:

تبين عقبى غيه كل معتدى ... وأمسى العرابى وهو بالذل مرتدى
يعض بنان المستكين ندامة ... ويقرع بالإذلال سنّ المسهد
فهلا رعى نعماء كانت ظليلة ... عليه وهلا قد وعى نصح مرشد
وهل ندم الباغى إذا حم أمره ... إلى الحين يجدى بالرجاء المردّد
بنى الجهل والطغيان كيف كفرتمو ... بأنعم توفيق العزيز محمد
مليك توافيه الملوك لنصره ... بأنفسها غير الخميس المجرّد
وهل غير إحسان الخديوى عليكمو ... سوابغ كانت من طريف ومتلد
نبذتم قوانين الشريعة ضلة ... وجاهرتمو بالبغى فى كل مشهد
ومن كان لايدرى حقيقة أمركم ... أنبئه الأنباء عنكم ليهتدى
ولست مريداً بالقوافى مصانعا ... ولا راهبا من غائل أو مندّد
فقد تلجئ الأحوال للعجز حازما ... كما تلبس الأحرار أثواب أعبد
ويدخل فى عد النواصب خيفة الـ ... ـردى علوىّ حين لم يلق مفتدى
وما أنا إلا ذاكر ما جنيتمو ... كما يذكر الرائى فعال المعربد
سرقتم نقود الجند ثم رميتمو ... دفاترها ليلاً بسرداب مفقد
وقد ظهرت تلك الخفايا جلية ... وحان جزاء السارق المتعمد
كما سرق التفتيش طلبة عامدا ... وبالرفت أمسى فى عقال التلدد
ورب يتيم قد أكلتم تراثه ... وأبعدتموه عن مجير ومسعد
وقلتم جنى ذنبا ليعفى وتظفروا ... بإعدامه والمال يبقى لذى اليد
وأرملة أتلفتمو جل مالها ... وصيرتموها عرضة للمفند
وأظهرتم التوكيل عنها تسترا ... على نهب محصولاتها والتردّد
وبالوفر لما أن فصلتم كغيركم ... تضررتمو كالأرقش المتوقد
ووطأتم العصيان بالعهد بينكم ... وثرتم بقصر النيل ثورة مفسد
وفى مصر ساورتم سراى أميركم ... مراراً وأوريتم زناد التمرد
وجئتم تجرّون المدافع حولها ... حصاراً وأبرقتم بأصوات مرعد
فأصبحتمو أصحاب سيف ومدفع ... وللفأس والشادوف وسمات باليد
ولما تيقنتم بأن جزاءكم ... هو القتل أعملتم دسائس ملحد
وأجمعتمو كيد ابن ملجم إذ غدا ... يحاول قتل الأبرياء ولا يدى
وألفتمو حزب الضلال يحوطكم ... بترقيش بهتان وزور ممهد

وقلتم عن الأوطان والدين أنكم ... تحامون فى الجلى محاماة صندد
وما للأوطان والدين آفة ... سواكم عليها إذ أتيتم بمؤيد
وزدتم على ماهية الجند وافرا ... ومن يستزد بالبغى ما شاء يزدد
وأنشأتمو قانون يربى معاشكم ... بتلفيق أحكام وقول معقد
يخالف أسلوب القوانين وضعه ... ويزرى بيبيت المال إزراء محصد
فأمست به بعض الأرامل منكم ... لواء وأخرى كالفريق الممجد
وغيرتم الضباط عمرا بفاسد ... وسعداً بمشئوم وحراً بأوغد
ولقبتمو منكم عبيداً بخالد ... تريدون سيف الله بعدا لمعتدى
وألقاب شتى من همام وقائد ... وحامى حمى الهيجا وفارس معهد
وقدمتمو أهل الرذائل منكمو ... كما شتتموا فى مسند بعد مسند
يجرّون أعقاب السيوف على الثرى ... فتعركه فعل السفيه اليلندد
وصححتم الأضغاث بالوهم بينكم ... وبالرغم سدتم لا بفضل ومحتد
وأبرمتمو عهد التحالف بينكم ... على الحرب إن فى اليوم تنشب أوغد
وكان عفا بالحلم عنكم أميركم ... فآليتمو إلا وفاء التعهد
هو الحلم حتى يقتل الجهل ربه ... وترمى به الأهواء فى شرّ مورد
ولما أتى الأسطول مصر مسالماً ... أثرتم بريح البغى نار التعند
ومناكمو بالمستحيل خطيبكم ... وأدمج غشا فى حماس مقلد
وأوهم زورا أن فيكم بسالة ... فحاولتمو بالجهل خطة أصيد
وهيأتمو بعض الطوابى تنمرا ... وهددتمو سيمور كل التهدد
فسببتمو إحراقها وخرابها ... وكانت حصاناً بالبناء المشيد
وأتلفتمو الخرطوش من غير عائد ... مع الريح يدوى لا إلى الفلك يهتدى
ولم تر منكم فى سفين إصابة ... تعلل نفس الحرّ عند التنهد
وغادرتمو قتلاكمو دون ملحد ... وخلفتمو الجرحى بها دون منجد
وصلتم على المستأمنين لتأخذوا ... بثار الطوابى من ضعيف ومقعد
وأخرجتم السكان من دور ثغرهم ... سراعاً بتهديد وضرب مبدّد
وكم من برئ قد قتلتم ببغيكم ... وكم من عزيز قد أهنتم وسيد
وكم ذات خدر قد فضحتم وحامل ... جبهتم فألقت حملها دون مولد
وأحرقتمو منشية الثغر بعد ما ... نهبتم وسرتم كالنعام المشرد

وكـان سليـمـان الغـبـىّ مـعـينا ... إلى الحـرق وقـافـا لذى كل مـرصـد
فـمـالـكمـو لا أحسن اللّه حـالكم ... هربـتم هـروب الأرعش المتـسـبلد
وخلفـتمـو فى الثغـر عارا ورحـتمـو ... بخـزى لكم يـبـقـى بذّم مـخـلد
وعـاودكم بعـض الغـرور فـملتـمـو ... إلى الرمل مـيل الغـادر المتـقـصـد
وحـاصرتمو قـصـر الخديوى بعسكر ... وخـيل تـوالت من كـمـيت وأجـرد
وفى كـفـرة الدوار خلـتم مـقـامكم ... منيـعـا فـأظهـرتم كـمين التـحـقـد
وحـالفـتمـو إبليس فـيـهـا وقد خـلا ... لكم جـوّهـا فى فـدفـد بعـد فـدفـد
فـصـفـرتمو تـيـهـا ونقـر بعـضكم ... ولاح لكم بيـض به النصـر يفـتـدى
وفى العزل والتنصـيب والحكم جرتمو ... وكنتم لجـمـع المال أشـره مـجـتـدى
سلبتـم من الأنحاء محـصول زرعـها ... ومـا للأهـالى من لجـين وعـسـجـد
وأظمـأتم الإسكـندرية حـينمـا ... منعـتم وصـول الماء من كل مـورد
وكم مـحضـر أمـضيـتمـوه بقهـركم ... وممتنـع أرهبـتـمـو بـالتـوعـد
وأخـربتم الـبلدان ثم صـعـدتمو ... إلى التل فى جيـش كـثـيف مـعـدّد
إليكـم إليكم إنمـا قـد تركـتـمـو ... إلى أجل دون القـصـاص مـحـدّد
فـهـذى جيـوش للنضـال تواصلت ... بكل سـفـين مـثل صـرح ممرّد
لنصـر الخـديوى أو لقـهـر عـداته ... لهـم وثبـات بين راغ ومـزبد
وأضحت رحى طغيانكم فى عديدكم ... تدور عـليـكم بـالكروب المهـدد
بطـالع توفـيق المفـدّى وبغـيـكم ... خـذلتم غـداة الحـرب فى كل مطرد
وفى وقـعـة التل الكبـير انـهـزامكم ... يعـيـركم فـى كل عـصـر مـجـدد
أغـارت عليكـم فـيـه أول فـرقـة ... فطرتم شـعـاعـا كـالهـبـاء المبدد
ومـا رابهـا الروبى هنـاك بخـيـله ... ولا زأر الذئـب الكمـين بمـرقـد
فـأيـن الذى واعـدتمو وادّعـيـتـمـو ... به مـن ثبـات فـى الوغـى وتجلـد
فـهلا صبرتم وهـو تصديق زعـمكم ... وهلا قـتلتم وهـو خـيـر لمرتدى
إذا كـانت العـورات يخـفى ظهـورها ... لدى البـحث فى نـاد دقـيق التـفـقـد
ولكن فـضـحـتـم بالفـرار كـدأبكم ... وكـان العـرابى بالـهـزيمـة مـبـتـدى
كـدأب بـنى كلـب غـداة تمكـنت ... بنـو أسـد منهـا بضـرب المهند
كـدأب جـهـول باع ثوراً لبـومـة ... وقـيـده فى غـصـنهـا المتـأوّد
لعـمـرى لقـد أبدى العـزيز لجـهلكم ... من الحلـم مـا يوهى صـلابة أقـود

ورقـاكـمـو بالمكرمـات فـحـدتمو وكل لـئـيم إن رقـى يتـمـرّد
مطايا العلى فى الخطب تنجو بصادق وتكبـو بمـعـتل السـريرة أحـقـد
بيمن الخديوى مـصـر كانت لأهلهـا عـروسـا تجلت فـى كـسـاء زمـردى
سـقـاها نمير النيل صـفـوا فـأزهرت وراقت بنى الدنيـا بـوجـه مـوردّ
تدبـرها للسلـم نظار مـجـدها وأحكامـهـا تبـدو بعـدل مـوطد
فـعـهـد ريـاض كـان يزهو نـضـارة وكـان شـريـف للعلى خـيـر منجد
وقـد حذراكم مـا استطـاعا فـختنمو وأضـحى بكم سـامـى أشـرّ مـقلد
تضـلونه جـهـلاً ومكـراً يضلـكم وكل بـآراء المضلين مـقـتـدى
ومـازال فى أمـر (١) البـريئين آخـذا بقـول العـرابى مظهـراً للتـشـدد
إلى أن هوى بـعـد العـتـوّ ولا لعـا لعـشـرة باغ فى الحـمـاقـة أوحـد
جـعلتم(٢) لذى الداعين فيـها رئاسة فـعـرضـتـموها للدواهى بـأجـرد
وهل مـيت الأحـيـاء يرجى لمعظم من الأمـر فى يوم من الخطب أسـود
بمنـشـوره البـرقـى هيج فـتـنة وأسند عـهـد الحكم فى غـيـر مـسند
كـأن له فـى الأمـر حـق تصـرف وصـيـره فـيكم بـقـصـد التـوددّ
لقـد زاد فى الطنبـور أنكر نـغـمـة بهـا أرق المحـزون صـوب المغـرّد
ولولاه مـا حـاز العـصـاة من القرى مـغـانم شتى غـيـر رفـد ومـرفـد
فـقل للعـرابى إن رؤياك صـادفت ولكنهـا وافت على غـيـر مـقـصـد
وتأويـلهـا بـالحـبس تـلقى إهـانة ويعـقـبـهـا شـر يسوءك فى غـد
فـيـا كل مـشـئـوم ويا كل غـافل لك الويل من عـاد عن الرشد مـبعـد
أراك درست البـغى بـالجـهل كـامـلا وفى الحـزم لم تبـدأ بأول أبـجـد
وسلمت سيف الذل فى مصر صاغرا فيـا شئوم سـيف فى الوغى لم يجرّد
فلو كنت تجزى بالذى تسـتحـقـه لنـاداك داعى الحكم غـيـر مـردّد
تقـدم عـرابى وأرق أعـواد واعظ بصـمـت وقـبل الارتقـاء تشـهـد
ومـثلك فى ذا الحكم كـل مـجـاهر ببـغى على عـدل العـزيـز المؤيد
ولكن عـفـا عنكم أمـيـر تعـوّدت خـلائقـه الإحـسـان كل التعـوّد
له الفـضـل أمـا أنتـمو بفـضـولكم تعـيـشـون أمـواتاً بزلة أنـكد

(١) البريئين: يريد بهم جماعة الشراكسة.

(٢) لذى الداعين: يريد به راغب باشا.

ولولا صدور العفو ناحت نساؤكم وغص بنوكم بالقراح المبرّد
وإن تبعدوا لا قرّب اللّه داركم ولا دار من والاكمو فى التحيد
فبغيكمو أبقي عراقيل جمة عليكم بها لعن من اللّه سرمدي
فسيروا إلى أرض الجزيرة حيثما منيتكم حمت بها وكأن قد
وكم سائل هل أخرجوا من ديارنا وهل أمنت أوطاننا عود معتدي
فقل في جواب السائلين مؤرخا بلى خرجوا كرها لنفي مؤبد
سنة ١٣٠٠ ٥٢ ١٧٠ ٢٢٦ ٨١٠ ٤٢
يعيش أبو العباس ذخراً لمصره وكهفاً لأهليها ورغما لحسد
يعيش الخديوي مصلحا لرسومها بعد وإجلال ومجد وسودد
وتسمو به الأنجال مثل جدودهم سموا لإبراهيم بعد محمد
ولا زالت النظار تحمي ذمارها بحزم وتدبير ورأي مسدد
وإن تعرض الآراء من أيّ وجهة فإن الخديوي ينتقي كل أفيد
أصالته بالرأي في مصر أرخت محمد توفيق به الكل يقتدي
سنة ١٣٠٠ ٥٢٤ ٨١ ٧ ٥٩٦ ٩٢

وقال العلامة البحر الفهامة الشيخ الجليل على أفندى الليثى فى ذلك أيضاً :

كل حال لضدّه يتحوّل فالزم الصبر إذ عليه المعوّل
يافؤادى استرح فما الشأن إلا ما به مظهر القضا يتنزل
رب ساع لحتفه وهو ممن ظنّ بالسعى للعلى يتوصل
قدر غالب وسر الخفايا فوق عقل الأريب مهما يكمل
غاية العقل حيرة وعقال واللبيب الذكى من قد تأمّل
كيف ننسى وحادثات الليالي فاجأتنا بكارث ليس يحمل
أذهبت أنفسا وغالت نفيسا وذوى مربع الحظوظ وأمحل
كان إقليمنا رياض صفاء فيه للواردين أعذب منهل
من رآه يقول توفيق مصر أبصر الناس بالأمور وأعدل
قد أمنا الزمان فيه وغمنا آمنين الخطوب لا نتململ
نتهادى فى ظل أسمى مليك من سجاياه كل خير يؤمل
فسرت أعين الحوادث فينا فأطرحنا الوقار والأمر أعضل
ورأى غيرنا من الحلم أمرا غبرّة فابتغى الذى لا يحصل

وإذا المرء كــان بالوهـم يبــغى فـخــيـال الظنون مـا قـد تمثل
ويح قـوم سـعـوا لإدراك أمـر دون إدراكـه الجـبـال تـزلزل
مـا أصـروا عليـه إلا أضـروا بـأناس مـن نابه أو مـغـفـل
ذاك يسـعى على التـقـيـة خوفـاً وسـواه يسـعى لكيـمـا يجـمل
لو أصـابوا الـرشـاد عند ابتـداء كـانت الـغـاية الجـمـيلة أمـثل
وكـفـينا مـعـرّة أو بقـتـنا فـاستـوى شـائك السلاح وأعـزل
أه مـن رقـدة الحـلوم ودهـر أيقـظتـنا صـروفـه إذ تـبـدّل
كـانت الـناس فـى ظلال نـعـيم تجـتـنى من ثمـار غـصن تـهـدّل
مـا لنا لـم نقم بـجـد وندعـو من عـدا المهـتـدى وننـصح من ضلّ
مـا لنا كلنا سـوى الـقل منا قـد سلكنا سـبـيل غـاو مـضلل
قـد تسـاوى الغـبى والمتـغـابى وعليـم من جـاهل صـار أجـهل
قـد جـبنا وصـاحب الجبن جـان وهـو بالـطـبـع فـى الآنام مـرذل
لو رزقـنا الـسـداد لانسـد باب وحـقـنا دمـاء قـوم تحـلل
كـان ياقـوته المذاب مـصـونا فسـقـينا به الثـرى اذ تهـبل
كم غـرسنا جـمـاجـمـا وجسـومـا وجنـينـا الأسـى بـزلـة مـن زلّ
يـاترى مـن يقـوم عنا بـعـذر إذ أطعنـا الغـواة فى كل مـحـفل
حـيـث حـدنا عن المـليك وخـفنا سطوة مـن عـداه والقطر مـقـفل
حـيـث لا يرفـع البـريد شـكاة وسلـوك السلـوك صـار مـعـطل
حـيـرة أدهشـت أولى الـلب حـتى مـا اهتـدى للصـواب منهم مجـمل
ذاك سـر القـضـا وليس عـجـيـبـا أن يحـار الأديب فـيـه فـيـذهل
غـيـر أنا لمـا أفـقـنا أرقنـا من شـئـون العـيـون دمـعـا تسلسل
وبسـطنـا اللسـان فـى ذم قـوم إن ذكـرنـاهمـو نـغص ونخـجل
ومـددنـا أكـف ذلّ لمـولـى شـأنه البـر كم عـفـا وتـطوّل
آل مـصـر بغـيـره لا تـلوذوا إذ هـو المـلجـأ الملاذ لمن زل
ياعـظيـم الجناب يـا خـيـر مـلك سـعـده قـد أباد مـن قـد تغـول
مـن بغـى والوغـى أثار فـحكـم فى طلاه الحـسـام فـالسيف فـيـصل
واجـعل العـدل عـادل الـرمح فـيـهم نافـذاً قـدر مـا يعـلّ وينـهل
واسـقـهـم كـالذى سـقـيناه إنا قـد شـربنا من بعـد بعـدك حنظل

واغتفر زلة لمن جر غما لبلاد ولا منيع يؤمّل
كم مليك عفا وأنت المفدّى فوقهم همة فلا تتعجل
وامنح الناس من سجاياك عطفا واجعل العفو موضع الشكر واعمل
فجدير بمجد ذات الخديوى كل فضل وليس للعذر محمل
فابق واستبق من رعاياك قوما أمّلوا العفو من حباك المسهل
إن تدقق تدق أعناق ألف بل مئين من الألوف تقتل
والرعايا تضيع بين عدوّ وولىّ له الفخار المؤثل
حاش توفيقنا يقصر عما ينشر الصفو فى البلاد وينقل
سيدى لا عدمت شكرا سناه يملأ الخافقين ليس يعلل
لا تكلف جميل طبعك أمرا غير ما فيه فهو لا يتحوّل
كان ما قد أساء حلما فلما أصبح الصبح بالسرور تأوّل
هذه مصر زينت واستعدت لسعيد الركاب لما تفضل
وازدهت بالجمال حين تبدّى موكب بدره بنور تهلل
موكب حف بالكواكب زاه من رجال أعزة قد تبجل
كلهم صادق شريف الطوايا نصحهم والخطوب تنهلّ يبذل
ما رأت مصر يوم بشر كهذا أيّ يوم بدا أغرٍّ محجل
دمت للدين والدنا خير راع ولعباسك النجيب المؤمّل
ما جرى بالفخار عنك حديث صار بين الملوك بالمدح أكمل
أو أشار الزمان للسعد أرخ الخديوي لمصر يا سعد أقبل
سنة ١٢٩٩ ٦٦١ ٣٦٠ ١٤٥ ١٣٣

وصل

(فيما كان من وراء احتلال الجيوش الإنجليزية لأرض الكنانة)

قد كان من وراء ما تقدم من الحوادث والأنباء واحتلال الجيوش الإنجليزية للقاهرة وبعض الثغور والمدن كالإسكندرية ودمياط والسويس وطنطا والإسماعيلية أن

وقع أمران خطيران فى نوعهما وعليهما حياة البلاد السياسية والاقتصادية فى مستقبل الأيام ـ الأول: قلب هيئة الحكومة وتغيير عاداتها والتزاماتها القديمة وإبطال الكثير من مراسمها المعمول بها من أيام محمد على باشا الكبير واستبدالها بالقوانين والشرائع الثابتة والإحداثات التى تناسب روح العصر وترقى البلاد وأهلها إلى ذروة العمران والمدنية ـ والثانى: سلخ الأقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها مرسحا للفوضى وعيث العائثين من الخوارج الذين هم مدعى المهدوية والملتفون حوله وقد ذكرنا فيما تقدم كيف كان خروج ذلك وأمر الفتنة وحديث النافخين فى ضرامها وكيف تطاير شررها حتى عم تلك الأصقاع شرقاً وغرباً ثم كيف كان عجز الحكومة يومئذ عن إخماد نارها بسبب الثورة العرابية وما جرته على مصر وأهلها من الويل وذهاب القوة والصولة على أنه لم يمض على مقدم اللورد دوفرين رسول الإنجليز بمصر أيام حتى عكف على ابتكار الإحداثات وسن النظامات الجديدة آتيا الأمور من أبوابها فرسم بإنشاء المحاكم الأهلية على هيئة وشكل المحاكم المختلطة بديار مصر وتوسع فى نفقتها وساعده على ذلك الوزير محمد شريف باشا وبطرس غالى باشا لأن إنشاء هذه المحاكم كانت حاجة فى نفس الوزير منذ أيام الخديوى إسماعيل وأتوا لهذه المحاكم بجماعة من القضاة البلجيكيين والهولانديين منعاً لتطاول أيدى رجال الدول الكبرى إلى وظائفها والاستئثار بها أو كما شاع يومئذ تمهيداً للوصول إلى حل عقدة المحاكم المختلطة وإذهاب سلطتها لأنها عقبة كؤد فى سبيل بسط الحماية الإنجليزية على البلاد وإخراجها من تحت نير المراقبة الدولية وقد كنت ممن وقع عليهم الاختيار لوظيفة القضاء بمحكمة المنصورة ثم لرئاسة النيابة العمومية بها فسارت هذه المحاكم سيرا حثيثاً واشتدت عزيمة رجالها جميعاً بما نالوه من الحرية فى العمل والاستقلال فى الفكر ففرح الناس بها فرحاً عظيما وحمدوا دوفرين على صنيعه كما شكروا الوزير محمد شريف باشا على عنايته واستبشروا بحسن المآل. وبينما هم على هذه الحال إذ وردت كتب صاحب السياسة الإنجليزية وهو يومئذ اللورد جرانفل إلى دوفرين سفيرهم بلزوم سلخ سائر الأقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها إلى مدعى المهدوية بغير رد ولا معاودة فصدع دوفرين بالأمر وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فلم يوافقه وقال: لا يكون هذا الأمر وفى عروقى قطرة من الدم فراجعه دوفرين فلم يقبل فكبر الأمر على دوفرين وأعظمه وكلم الخديوى فيما بدا من الوزير من الغلظة والمكابرة ثم أوعز إلى

مالت قونصلهم بما أوعز فقامت حينئذ بينه وبين الوزير قائمة الأخذ والرد وبدت علامات الوحشة، وجعل مالت يكيد المكايد والوزير هادئ القلب ساكن اللب لا يزحزحه عن عزمه شيء من ذلك، ثم اشتد دوفرين فى الطلب وجعل يسد فى وجه الوزير أبواب كل عمل ونافذة كل أمل حتى استفزه وأضاع صبره وتقدم إلى الخديوى فى قبول استقالته من منصب الرئاسة فأجابه الخديوى إلى ذلك بحضرة الوزراء وقال له: أقلتك. قيل: فالتفت الوزير إلى دوفرين وقال: إنى بريء مما سيراق من الدماء فى سبيل هذه الغايات الرديئة فولوا الرئاسة من تشاءون والله من وراء ما تفعلون.

قال بعض الكتاب: وأشار دوفرين على الخديوى بتقليدها للوزير نوبار باشا فصدع نوبار باشا بالأمر ولكنه لم يقدر على المجاهرة بسلخ السودان عن جسم مصر.

(مطلب)
اعتزال الوزير محمد شريف باشا وتولية الوزير نوبار باشا

وأعجب الناس بما فعله الوزير محمد شريف باشا وازدادوا تعلقاً به واشتدت محبتهم له واندفع أصحاب صحف الأخبار يلهجون بحمده فجاءت إليه رسائل التهانى تترى من كل فج عميق، وزاره أصحاب السياسة من الإنجليز والفرنسيس ليعرفوا منه ما خفى من الأسباب وما استعصى عليهم فهمه من مغامز هذه السياسة وكان ممن زاره عظيم من الإنجليز فكتب يومئذ إلى إحدى صحف أخبارهم يقول: زرت الوزير محمد شريف باشا فى داره بعد اعتزاله للرئاسة فحادثنى طويلاً فى جميع الضحايا التى ضحاها فى سبيل الوفاق مع وكلاء دولتنا بديار مصر لعلهم يقفون عند حد يكون من ورائه الكف عن مشاغبته، ثم قال لى وهو يتنفس الصعداء: قد أقسم مالت قونصلكم أن يتركنى وشأنى أتصرف فى العمل حسبما تقتضيه مصلحة البلاد إذا قبلت الرئاسة ومع ذلك فما كنا نتأخر عن فعل ما كانت تشير به دولة الإنجليز فيما يتعلق بالإصلاحات فقط، لا فيما يمس وجودنا السياسى الذى يقضى علينا بالمحافظة على الأصقاع السودانية الشرقية والقبلية وإلا فنكون غير سالكين مسلك الصداقة نحو الأمة التى تعتبر ذلك أمراً ضرورياً لحياة مصر وراحتها. وليس يخاف أنى كثيراً ما ضحيت محبة الأمة لى وتعلقها بى إرضاء لمطالب الإنجليز ومع ذلك فإنى أعتبر نفسى غير أهل لمنصبى إذا افتخرت بهذا العمل. أما زعيم

السياسة الإنجليزية فإنه لم يعمل عملاً طيباً لنا نحن معاشر المصريين وتشديده علينا بترك السودان فى أيدى المهدى أكبر برهان على ما أقول، لأنه من المعلوم أن ترك السودان للمهدى مما يزيد فى قوته ويصيره عزيزاً قوى الجانب، فإذا بلغ متمناه هذا فماذا تكون ياترى الواسطة فى إيقاف تيار تلك القوة الثائرة ومن الواضح البين لكل ذى بصيرة أن جعل حدود مصر عند أسوان أو وادى حلفا كما أشار صاحبكم يستلزم وضع جيش من خمسة عشر ألفا إلى عشرين ألفا من الجنود ليبقى رباطا هناك فمن يا ترى يقوم بنفقة هذا الجيش. نعم إن الخطر بعيد عنا حتى الآن ولكنكم سترونه قريباً على الأبواب ولا أنكر عليك سيدى أن السودان كانت تكلفنا الشىء الكثير من المال غير أنه لا خسارة علينا إذا حافظنا على حدودنا بإنفاق زهاء مائتى ألف جنيه وأظنك لا يعزب عليك أن محمد على باشا أدرك فى أيامه أن حماية حدود مصر الأصلية تستلزم ضم أراضى النيل الأبيض إليها فسعى فى ذلك وأخضع بقوته تلك الأطراف وجعلها تابعة لديار مصر فنعم ما فعل، وهل يصح بعد ذلك أن تترك حكومة متوحشة بربرية على حدود البلاد فتسلبها راحتها وطمأنينتها مدى الأيام على أن النفقات التى تنفق على إقامة خط دفاعى على النيل الأبيض لا تبلغ جزءًا من النفقة التى يستلزمها الدفاع عن وادى حلفا أو أسوان وأن خمسة عشر ألفاً من المصريين يقومون على حراسة الخرطوم وبربر ودنقلة وسنار وعلى ذلك يكون من الخرق فى الرأى بل من قلة التبصر تضحية سكان هذه المدن ومن فيها ونحن مسئولون عن الذب عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

قال الراوى: ثم أطرق الوزير لحظة ورفع رأسه وقال: وماذا تفعلون يا ترى أيها الإنجليز بدعاة المهدى الذين أقسموا أغلظ الأيمان أن يموتوا بحد السيف أو يفتحوا مصر السفلى، أما أنا فلم أفهم ما الحامل للإنجليز هداهم الله على التنحى عن مقاتلة المهدى واحتلال السودان، وما الباعث لهم على معارضتنا فى استرجاع البلاد التى أخذها مدعى المهدوية ولماذا لا يسمحون لنا بإبقاء النيل الأبيض فى حوزتنا كما كان؟ ولماذا لا نطلب من أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد النجدة فيمدنا بعشرة آلاف من أبطاله وقد أمددناه مراراً عند حاجته إلى ذلك، وإنى أقول لك الحق: إنا لو أجلينا المهدى عن الخرطوم لاتخذت المسألة دوراً آخر ولكن قل لى بحقك ما الذى يدعونا نحن إلى الانجلاء عن ذلك البلد قبل أن يتقدم لها المهدى بأقوامه وهاهو الزبير باشا قد أبى الذهاب إلى دارفور والآن حيث إنى خلعت نفسى من الرئاسة ومادام أمر الجلاء عن السودان شيئاً مقرراً ولا يمكن التخلى عنه فلابد أن حسين باشا ومن معه

من العربان لا يتقدمون إلى الأمام وتفتر عزيمتهم تماما - قال - وإنى لا أخفى عنك أنى ناظر إلى المسألة من وجهها الحقيقى فلذلك أرانى مشاهدا من بعيد جميع المصاعب التى تترصدنا، فإن نجاح المهدى أحدث تأثيراً قوياً فى عقول أهل البلاد بحيث صار يتعذر علينا إنفاذ ما ننويه حالة كون البلاد بأسرها تضادنا فى ذلك - قال: وأنت تعلم أن سقوط هيئة الوزارات عادة لا يكون إلا عند مباينة رأى الرئيس لآراء الأعضاء الآخرين ومن تبعهم من أعيان البلاد، أما وزارتنا فقد كان سقوطها مسبباً عن اتفاقنا فى الرأى بشأن عدم ترك السودان، نعم إنى مع رفاقى سلمنا بجميع ما يمكن التسليم به على أننا قد رأينا أن ترك الخرطوم وبربر ودنقله أمر لا تقوى عليه عزيمتنا وكيف نستطيع ذلك وهى ليست من أملاكنا الخاصة؟ وما نحن إلا قائمون بحراستها بموجب فرمان سلطانى لا يسمح لنا بالتصرف فيها دون رضا الباب العالى وكأنى بصاحبكم يزعم أن بقاء السودان فى يدنا ضرب من الجور والظلم، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا ياترى جازفنا بإنفاق الأموال الطائلة فى إبطال التجارة بالعبيد حتى أغضبنا أهل تلك البلاد وحاربناهم لتوطيد أركان التمدن وتثبيت قدم الإنسانية وإن كنا قد أنفقنا الأموال الكثيرة فى ذلك فإنا ولله المنة لم يعاونا أحد على تحمل أثقال هذه النفقة، نعم إنى صممت على التسليم بترك كردفان والدارفور ولكننى لم أسلم قط بترك الخرطوم وسوف ترون ما سيكون من وراء سياسة صاحبكم الخرقاء وما ستتكبده البلاد من النفقة الثقيلة لا لشىء سوى المحافظة على القوم فقط.

قال الراوى: ثم حملق إلىَّ الوزير بعينيه وقال: إنى أقول لك الحق إنى حزنت جدًا من جراء حادثة السودان ولكنى لم أضجر وثابرت عى العمل وأجهدت النفس ما استطعت، فلما أيقنت أنى مشرف على هوة عظيمة جزعت ووقفت ثم خلعت نفسى من منصب الرئاسة وكان بودى لو يعلم الناس كافة إخلاصى فى الخدمة حتى النهاية ولكن يأبى الله إلا ما يريد. اهـ.

قلت: فكان لمقالة الوزير غاية الوقع فى نفوس أقيال السياسة وأقطابها وتكلم عنها أصحاب صحف الأخبار الأجنبية وعدوها غاية فى الإصابة والسداد بل آية من آيات حسن النظر وأصالة الرأى وازدحم على بابه كبار الكتاب من الإنجليز والفرنسيس لاستكتاب حق أفكاره فكان يحدثهم غير متهيب من عظيم أو كبير.

وبينما كانت الظنون تترامى إلى ما سيكون من وراء تولى الوزير نوبار باشا منصب الرئاسة وما سيكون من وراء ترك السودان وغوائل الحرب القائمة من أقصاها

إلى أقصاها كان زعيم السياسة الإنجليزية يتخبط فى الأمر ويعمل على سلخ السودان شرقاً وجنوباً لأقل الأسباب وأوهى العلل.

(مطلب)

بعثة الأميرال هيوت إلى نجاشي الحبشة

ثم قدم فى هذه الأثناء إلى القاهرة أمير من أمراء سفن الحرب الإنجليزية اسمه الأميرال هيوت مبعوثاً إلى نجاشى الحبشة لعقد وفاق معه على فصل التخوم بين الأملاك المصرية وأملاك السلطنة الحبشية فلبث فى القاهرة أياماً ثم سار إلى السويس ومنها إلى مصوع فوصلها فى أخريات جمادى الثانية من السنة أى سنة إحدى وثلثمائة وألف هجرية، ثم غادرها ومعه محافظ المدينة وبعض كبار عسكر سفينته يريد لقاء الرأس ألولا قائد الجيوش الحبشية وكان قد سير أمامه جماعة من العسكر ليخبروه بقدومه وبسبب حضوره ويطلبوا تعيين المكان الذى يأذن النجاشى بمقابلته فيه، فعادوا وأخبروا بأن اللقاء يكون فى بلدة عدوة فسار إليها بمن معه من الرجال فلما صاروا على مسافة يومين منها كتب إلى النجاشى يعلمه بالغرض من مهمته وبالشروط التى ينبنى عليها الاتفاق بين الدولة الإنجليزية والحكومة المصرية والمملكة الحبشية ولبث ينتظر الجواب أيامًا حتى جاءه الخبر من قائد الجيوش الحبشية بأن النجاشى مقيم ببلدة مكله فإذا شاء المسير إليه لاقاه على الرحب والسعة فلم يشأ الأميرال الذهاب إلى مكله، وسار بمن معه إلى عدوة فلما بلغوها لبثوا بها أياماً فجاءهم أمير الجيوش يحمل الأمر من النجاشى بالمداولة معه فيما جاءوا بصدده فوارب الأميرال ولم يمتنع بتاتاً وأكثر من الأخذ والرد فيما لا طائل تحته وجاء الخبر بذلك إلى النجاشى فلم يحفل به ولم يتحرك إلى عدوة وبارح مكله وعرّج فى طريقه إلى دبه ومدرا وغيرهما ثم رجع إلى مكله ثانية كل هذا والأميرال ومن معه يتحملون مضض الانتظار حتى قدم الملك عدوة وأذن لهم بمقابلته فدخلوا عليه وسلموه كتب ملكة الإنجليز وقدموا له بعض التحف والهدايا. فلما كان اليوم الثانى طلبهم أيضًا إلى حضرته فتمثلوا بين يديه وهو فى زيه الملوكى فحادثوه طويلاً فى أمر المعاهدة وما تتضمنه من الشروط والقيود، ثم ودعوه ورحلوا إلى مصوع وعادوا إلى القاهرة ومعهم ورقة عليها خاتم النجاشى واسم الأميرال وماصون بيك محافظ مصوع قالوا: إنها هى تلك المعاهدة وأنها تتضمن سبعة أمور أهمها منح الحرية التامة

للمملكة الحبشية فى نقل جميع البضائع والأسلحة والذخائر من ميناء مصوع تحت حماية الراية الإنجليزية، ثم إعادة بلاد بوغوس إلى المملكة الحبشية مع كسلا وأماديب وسنهيت بما فى جميعها من المبانى والأسلحة والذخيرة حين جلاء العساكر المصرية عنها بشرط أن النجاشى يسهل لأولئك العساكر سبل الجلاء. فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذ الناس يتساءلون عما يراد منها فى حين أن تلك البلاد آمنة مطمئنة لا خوف عليها من إغارات العدو، فقال قوم: إنها غلطة من غلطات زعيم السياسة الإنجليزية، وقال آخرون: بل هى آية من آياته يريد بها إضرام نار الفتنة بين الحبشان ومدعى المهدوية عند بسط النجاشى يده على تلك البلاد فتقوم الحرب بين الطرفين ويقتتلان دونها حتى يهلكا كلاهما أو يهلك فريق ويضعف الآخر فتلتهم السودان دولة الإنجليز لقمة سائغة وتضمه إلى ما نالته من قبل، على أنه لم يكد ينشر خبر هذا الوفاق وما جره على البلاد من الخزى والعار حتى ظهرت الإشاعة بتعاقد زعيم السياسة الإنجليزية مع زعيم السياسة الإيطالية على تنازل السلطنة الإنجليزية للإيطاليان عن مدينة مصوع بعد سلخها من أملاك الحكومة المصرية مع سائر النقط الحربية الواقعة على سواحل البحر الأحمر ما بين عصب ومصوع على شرط أن الجنود الإيطالية التى تحتلها تقوم بقتال أصحاب المهدوية عند الحاجة فنشط حينئذ أصحاب صحف الأخبار المحلية وجعلوا ينادون بالويل والثبور ويحضون أصحاب الحل والعقد على الوقوف فى وجه زعيم تلك السياسة وينذرونهم بالخراب العاجل إن هم ظلوا على هذا الإغضاء والتعامى. وكان ممن أكثر من هذا الصياح والجلبة صاحب جريدة إفرنسية اسمها البوسفور فإنه بالغ فى الوقيعة بزعيم سياسة الإنجليز وزاد فى الطعن والسباب والحط من كرامته حتى استشاط جماعة الإنجليز ولم يطيقوا السكوت على ذلك فطلبوا من الوزير نوبار باشا القبض على الرجل وإبعاده فلم يقدر الوزير على ذلك ولكنه رسم بإلغاء صحيفته وإغلاق محل تحريرها فمانع قنصل الفرنسيس فى ذلك ووردت إليه الأخبار من وزير السياسة الإفرنسية بالمثابرة على الممانعة وقطع كل علاقة مع الحكومة إن هى أصرت على ما تبغيه من إغلاق مكان صاحب البوسفور فأصبح الوزير نوبار باشا وهو بين منتطح كبشين لا يدرى أى الطرفين أدنى إلى السلامة، إغضاب جماعة الإنجليز أم قطع العلاقات مع دولة الفرنسيس، ثم إنه كأنما رأى الثانى أهون الشرين فأوعز بإغلاق المحل فرحل القنصل فى الحال عن القاهرة إلى الإسكندرية وأعلن قطع كل علاقة مع الحكومة ولبث ينتظر ما يأتيه من زعيم سياستهم، وقد اشتغلت الخواطر بهذا الأمر ولم يبق للناس حديث سواه وهم بين

مستضـعف لدولة الفرنسيس وشامت بها فكان بعضهم يقـول: لو أن فرنسا أظهرت هذا الحـزم والعـزم يوم كانت مـراكب حـربهـا أمام طوابـى الإسكندرية ولم ترض بانسحابهـا صاغرة ذليلة لما حاق بقومهـا والنافخين فى بوقها مـا حاق بهم اليوم من الذل والهوان وقال آخرون: هذا جـزاء ما فعلته بنا من التغرير حـتى أصبحنا وإياها على ما تـرى من الضيم والحيف والجـزاء من جنس العمل. وقـد كثـر الأخذ والرد حينئذ بين وزير السـياسة الإنجليزية ووزير سيـاسة فرنسا ونوبار باشا ونسى جـماعة الإنجليـز أو تناسـوا أنهم النافـخـون فى ضرام هـاته الفتـنة فجـعلوا يسـعـون بين المتخاصمين ويصلحون ذات البين كأنما لم يكن لهم يد فيها وطالت المخابرة فى ذلك أيامـاً والأنباء تأتى فى كل يوم إلى القـاهرة أشكالاً وألواناً. واتفق أن جـاء فى هذه الأثناء إلى ميناء الإسكندرية بعض سفن الحرب الإفرنسيـة فطاش عند رؤيتها جماعة الفرنسيس وبالغوا فى الاحـتفاء بمن جاء فيها من كبـار الجند ومقدمى العسكر وهب أصحاب صحف أخبارهم مما كانوا فيـه من خمول وأخذوا يفصلون خبر مجيء تلك السفن ويظهرونه فى مظهر العداء والوعيد حتى خيل للناس أن قد قامت الحرب على أبواب القاهرة وبينمـا هم على هذه الحال إذ انجلت المخابرة عن حصـول الاتفاق بين الفرنسيس والوزير نوبار باشا على أن تعود جـريدة البوسفور إلى الظهور وأن يذهب نوبار باشا إلى دار قنصل الفـرنسيس بكسوة التشريف مـعتذراً عما وقع فعـاد حينئذ القنصل من الإسكندرية إلى القـاهرة ومعـه أميـر تلك السفن الحـربية وبعض كـبار عسكره، فلما كان الـيوم الثالث بعد عودتهم زارهم الوزير بكسوة التـشريف فقابلوه هم كذلك فابتدرهم بعـبارات الاعتذار والمصالحة فأجابوه بتلطف وفـتحت بعد ظهر ذلك اليوم أبواب محل الجريدة فعادت الأمور إلى سـابق مجراها وبطل حينئذ القيل والقال بهذا الشأن وانتقل حديث النـاس من ذلك إلى سبب رحيل فتس جرالد أحد رجال الإنجليز الذى تولى إدارة أعمال حسابات الحكومة وخزينتها حيناً فقلب نظامها وغير قواعدها القديمة بمعاونة بلوم باشا الذى تولى وكالة الخزينة على عهد الخديوى إسـماعـيل ولهـذا الرجل وخلعـه من منصب الوكـالة حـديث طويل كله أحـاجى ومعميـات قد ضربنا صفحاً عن ذكره هنا. رحل فـتس جرالد هذا فى تاسع عشرى رجب من السنة أى سنة اثنتـين وثلثمائة وألف هجـرية فلم تكن إلا أياما حـتى جاء بدله آخر اسمه ويستلاند فلم تطل أيامـه وانقلب راجعاً، قالوا: لأنه رأى فى أعمال حسابات الخزينة من الخلل والخلط ما لـم يوافق عليه، وقد كان من رأيه إعادة شكل الحسابات القديم الـذى كان على عهد رؤساء كتاب الخـزينة من أهل البلاد وكان من همه منذ حضر إلى القاهرة من ديار الهند الإنجليزية البحث والتنقيب لمعرفة ما كانت

عليه هيئة الحسابات قبل أن يتولاها الإنجليز وبعد أن تولوها وظل على هذه الحال أياما حتى إذا ما هم بإرجاع شكلها إلى ما كان عليه مانعه فى ذلك جماعة الإنجليز فلم يسعه إلا التخلى عن منصبه مفضلاً الرجوع إلى وظيفته فى ديار الهند على البقاء مقيداً بعمل لاترضاه نفسه فحمده الناس على ذلك، فجاء بدلاً منه آخر يدعى بلمر فسار على خطة فتس جرالد وزاد فيها توسعًا وبالغ فى الإكراه على العمل بها حتى عمت سائر دواوين الحكومة وأبطل من قواعد الحسابات القديمة ما لم يتمكن فتس جرالد من إبطاله إلى يوم رحيله عن البلاد، ومازالت طريقة فتس جرالد هذه مرعية إلى هذا اليوم.

ومن الحوادث الجوية الغريبة التى وقعت فى ليلة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية أنه انفجر بعد العشاء الأولى فى السماء ضوء حتى ملأ الجوّ ثم ظهرت بعده فى السماء نيازك وجعلت تتساقط ركاماً كأنها سهام ترمى فى أعقاب الشمس حتى خيل للناظر أن الحرب فى السماء قامت على قدم تنفجر نيازكها انفجار نار المدافع وإن لم يسمع لها دوى فخاف العامة كثيراً وترامحوا وهم يولولون ويضجون بيالطيف يا خفى الألطاف وصعدوا إلى أسطحة البيوت وصاروا يعجون ويبتهلون إلى الله تعالى، وكانت النساء يبكين والأطفال يصرخون بأصوات الخوف وعذرهم فى ذلك مقبول إذ هم لم يسمعوا بل لم يروا من قبل هذا الحادث الغريب وكان المنظر فى تلك الليلة غاية فى الغرابة فلم يبق طرف إلا مدّ إليه ولا نظر إلا تعلق عليه وكانت نجمة الزهرة فى تلك الليلة أشبه بالمنارة الدائرة على نفسها ينقبض نورها حتى لا تكاد تتميز عن سائر صغار النجوم، ثم لا تلبث أن تنبسط فتعود إلى حالها ونورها الزاهر واستمرت على حالتها تلك برهة طويلة والنيازك بين ذلك متتابعة متواصلة كأنها أوراق الشجر تتساقط متناثرة، ثم بطلت وسكنت خواطر الخلق وأصبحوا وهم يرجفون بوقوع الحوادث المهمة وحدوث الخطوب المدلهمة.

(مطلب)

اهتمام دولة الإنجليز بإعطاء الخزينة قرضًا فلم تفلح

وكانت إلى هذا الحين قد أمحلت خزينة البلاد وتولى العجز مواردها وكثرت عليها المطالب والمغارم كثرة بالغة فهمت دولة الإنجليز بإقراض الخزينة قرضًا يقوم بسد احتياجاتها فعارضها فى ذلك وزير سياسة الفرنسيس وقال: إن الحكومة المصرية

مرتبطة بعهود ومحالفات دولية لايصح معها انفراد الإنجليز بهذا العمل فضلاً عن أن البلاد مازالت تحت سيادة السلطان عبد الحميد فلا يصح لها أن تستدين إلا بإذنه.

قال بعض الكتاب: وقد كان وزير الفرنسيس يريد بذلك غل يد الإنجليز فى مصر وإظهار عجزهم عن سد حاجتها حتى لا يعتبر احتلالهم إياها لازماً لابد منه ولكن خاب ظنه وطاش سهمه إذ ما لبث الإنجليز أن سعوا لدى السلطان ورجال المابين حتى جاء فرمان السلطان بعدم المانع من الاقتراض لوفاء مطالب الخزينة المترتبة على الحوادث التى حدثت فتم للإنجليز عمل ذلك القرض فراجت الأعمال وزالت المصاعب فنشط الوزير نوبار باشا حينئذ إلى مخابرة زعيم السياسة الإنجليزية فى صعوبة جعل وادى حلفا حداً فاصلاً بين السودان ومصر وعدم موافقة ذلك لمصلحة البلاد، وقد كان زعيم السياسة المشار إليه رسم بذلك لأصحابه وأشار بالتعجيل فقال الوزير نوبار باشا: إن طمأنينة البلاد لا تتم إلا إذا صارت مديرية دنقلة غاية تخومها لا وادى حلفا لتتمكن من السيادة على النيل ـ قال: ولما كان ذلك يستلزم إرسال حملة إليها بعد جلاء العساكر الإنجليزية عنها فهو يرى أن تعهد هذه الحملة إلى الحكومة المصرية بحيث تجند عسكراً كامل العدد والعدد يتولى قيادته رجل مصرى خبير بأحوال السودان وأن هذه الواسطة أقرب من سواها إلى الوصول إلى أحسن النتائج فضلاً عن أن النفقة التى تلزم لذلك ستكون طفيفة بالنسبة للنفقات الجسيمة التى يقتضيها تجريد حملة إنجليزية وأنه ينبغى أن نقاتل السود بنفس أسلحتهم، وإذا تحقق خبر موت المهدى كان الأمر أيسر وكانت العاقبة أسلم والمبادرة بالحرب أوجب وألزم فلما علم صاحب سياسة الإنجليز بمقالة الوزير أرسل إليه يقول: اترك كل شيء على ما هو عليه الآن حتى يفد عليك رسولنا درومند ولف.

وكان لما خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من مسند الرئاسة بسبب تصميمه على عدم التخلى عن السودان وتركها لمدعى المهدوية وأخذت أقلام الكتاب يومئذ تقرّع صاحب السياسة الإنجليزية بأشد ما يكون من التقريع عمد إلى شيء من المواربة تسكيناً للفتنة وأرسل كتبه إلى السلطان يعلمه بما عزمت عليه السلطنة الإنجليزية من إرسال رسول ينوب عنها فى التعاقد مع الباب العالى على ما فيه المصلحة لديار مصر والسودان فى مستقبل الأيام.

(مطلب)

بعثة السير درومند ولف إلى دار السلطنة العثمانية

فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى سار إلى الآستانة عظيم من الإنجليز اسمه السير

درومند ولف يحمل الأمر بإبابته عن السلطنة الإنجليـزية فى عقد ذلك الاتفاق فأكرم السلطان وفـادته وأحسن لقـاءه فأخذ يغـدو ويروح على الباب العـالى تارة والمابين الهمايونى أخرى أياماً لم يتعد الكلام فيـها تعيين القاعدة اللازمة لمواد ذلك الاتفاق، وكان الكلام بين الفريقـين غاية فى المواربة والتعقيد. وبينمـا هما على هذه الحال إذ قامت الفتنة فى إمارة البلغار وظهر أهلها ومن ولى الإمارة عليها يطالبون بالاستقلال والخروج من تابعية الدولة العثمانية.

قـال بعض الكتاب: ويقـال إن دولة الإنجليز هـى التى أغرتهم على فـعل ذلك وجرتـهم إلى التظاهر فى تلك الأيام بما يوجب فـشل الدولة العثـمانيـة واضطراب أمورها عسـاها تتساهل مع رسولها ولف فـتنال منها ما تتمناه فـتعطلت المخابرة بين ولف والباب الـعالى ووقفت عند حـد الانتظار واشتـدت الفتنة البلغـارية وتطاولت أيدى رجالهـا إلى العبث بحقوق السلـطنة العثمانيـة واستخفـوا بها فجيش أمـيرها الجيوش وأعـد المعدات وسير الرسل إلى الدول الكبـرى يستفزها إلى نصـرته فطافوا الممالك وأكثروا من الشكوى ،وعظموا البلوى فمن الدول من مناهم بالأمانى البعيدة ومنها من حضـهم على طاعة السلطان وملازمة السكون وطالت الأيام على مـبعوث الإنجليز وهو ينتظر فى دار السلطنة العثمانية ما سيكون من وراء تلك الفتنة عسى أن يكون من ورائها مـغنـم لهـم فلـم يقـع شـىء مـن ذلـك وتلاشت الفـتنة على أيسر ما يكون وعادت الأمور إلى سابق مجراها وبعد أخذ ورد ما بين ولف والباب العالى وسفراء الدول الكبرى وقع الاتفاق على أن يرسل الـسلطان مبعوثاً من قبله إلى ديار مصر مع ولف مـبعوث الإنجليز فـيكون مندوب السلطان هو الأول ومندوب الإنجليز هو الثانى ويكون مع كل من الاثنين بعض الموظفين والمأمورين ليساعدوه على قضاء مأموريته بحيث إن هذه الرسالة لا تتناول إلا البحث فى أحوال خزينة البلاد وأمورها الإدارية والعسكرية مع إصلاح ما يمكن إصلاحـه وعلى المندوبين أن يرفعا تقريراً بما يريانه مشتملاً على تفصيلات المسائل باباً فباباً .

ووصل ولف الإسكندرية فقـوبل بغاية التجلة والتـعظيم وسارت خلفه وأمـامه الفرسان من الإنجليـز والمصريين إلى محطة السكة الحديد، فلـما وصل القاهرة بالغ الخديـوى فى الاحتـفاء به فـقد كـان فى انتظاره على المحطة ذو الفـقار باشـا كبـير التشريفات وجميع النظار ومحافظ المدينة وقائد عموم جيش الاحتلال وبعض مقدمى العسكر وكوكـبة من الركبان والمشـاة، ثم زاره الخديوى وكبار الدولة والأمـراء كافة ولبث ينتظر قـدوم المبعـوث السلطـانى وهـو يجتمـع فى كـل يوم بعظماء أهل البلاد

ولاسيما من كان منهم له علاقة بالسودان ومعرفة بأحوالها. وبينما هم يترقبون قدوم مبعوث السلطان إذ جاء الخبر إلى ديوان الخديوى بالإحسان من الخليفة على الخديوى بنيشان الامتياز العالى، وأنه قد أرسل النيشان على يد الفريق محمد باشا وآخر اسمه خيرى بيك فوصلا إلى الإسكندرية وقدما منها إلى القاهرة وسارا من محطة السكة الحديد فى موكب حافل حتى أنزلوهما بقصر النزهة من ضواحى القاهرة فباتا ليلتهما وأصبحا فسارا إلى مقر الخديوى بعابدين ولبثا بحضرته برهة لطيفة ثم عادا إلى قصر النزهة. فلما كان اليوم الثانى عمل التشريف فدخل على الخديوى كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية فهنئوه وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل وفى عصر اليوم سار الخديوى إلى قصر النزهة حيث الوفد العثمانى فسلم عليهما وجلس معهما برهة لطيفة ثم عاد إلى مقره وأقام رجال الوفد بعد ذلك أياماً ثم بارحا الديار إلى الآستانة.

(مطلب)

قاعدة الاتفاق الذى رامت الدولة الإنجليزية عقده مع السلطان

وجاء البريد من دار السلطنة فى ثانى عشرى صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف يحمل صورة الوفاق الذى تم ما بين دولة الإنجليز والباب العالى بشأن مأمورية السير درومند ولف مبعوث الإنجليز وسعيد باشا ناظر خارجية السلطنة العثمانية والأمور التى سيجريها فى مصر بالاشتراك مع الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فكانت كما يأتى بنصه:

لما كانت جلالة ملكة بريطانيا العظمى وأيرلانده وإمبراطورة الهند اتفقت مع جلالة السلطان على إرسال معتمدين فوق العادة إلى مصر لأجل تنظيم الشئون المصرية قررا أن يعقد بينهما وفاق وعينا لهذه الغاية معتمدين مرخصين وهما المحترم السير هنرى درومند ولف من أعضاء المجلس الخاص حامل نيشان شوفاليه غران كرواه من صنف سان مشيل وسان جورج ونيشان شوفاليه كومندور من صنف بين وأحد أعضاء البرلمان الإنجليزى ومعتمد الدولة الإنجليزية ووزيرها المرخص لدى جلالة السلطان بمأمورية خصوصية تتعلق بالأكثر بشئون مصر من قبل جلالة ملكة بريطانيا العظمى وأيرلانده وإمبراطورة الهند ودولتلو محمد سعيد باشا وزير الخارجية

العثمانية الحامل النيشان الأول المرصع والنيشان المجيدى الأول من قبل جلالة السلطان. وبعد أن تبادلا الاطلاع على أوراق تعيينهما الرسمية ووجداها صحيحة توافقا على المواد الآتية المبينة على سائر الفرمانات الشاهانية المرعية :

المادة الأولى : يرسل كل من جلالة ملكة بريطانيا العظمى وجلالة السلطان معتمدا سامياً إلى مصر.

المادة الثانية : يبحث المعتمد السامى العثمانى بالاتحاد مع سمو الخديوى أو مع المعتمد الذى يعينه سموه فى أصلح الوسائط الممكن الوصل إليها لإخماد ثورة السودان بطريقة سلمية ويوقف المعتمد السامى العثمانى وسمو الخديوى المعتمد الإنجليزى السامى على سير المخابرات.

ولما كانت الاحتياطات التى ستقرر متعلقة بتسوية شئون مصر العمومية اقتضى اعتمادها وتنفيذها بالاتحاد مع المعتمد الإنجليزى السامى.

المادة الثالثة : ينظم المعتمدان الساميان الجيش المصرى بالاتحاد مع سمو الخديوى.

المادة الرابعة : يفحص المندوبان الساميان بالاتحاد مع سمو الخديوى جميع فروع الإدارات المصرية ولهم أن يعدلوا فيها ما يستصوبون طبقاً للفرمانات الشاهانية.

المادة الخامسة : تصدق الحكومة العثمانية على جميع العهدات الدولية التى أبرمها سمو الخديوى بشرط أن لا تكون مغايرة للامتيازات المخولة لسموه بمقتضى الفرمانات الشاهانية.

المادة السادسة : عقيب أن يتأكد المعتمدان الساميان حصول الأمن على التخوم وتوطيد الحكومة المصرية يقدم كل منهما تقريراً إلى حكومته وعندئذ تبحث الحكومتان فى عقد وفاق يتقرر فيه جلاء العساكر الإنجليزية عن مصر فى أجل مناسب.

المادة السابعة : يصدّق على هذا الوفاق ويصير تبادل النسختين المصدق عليهما فى الآستانة فى خلال خمسة عشر يوما أو أقل إذا أمكن.

وبناء على ذلك وقع المعتمدان المرخصان على هذا الوفاق وذيلاه بطغرائهما اهـ.

